د. شاكر خصباك

في الجغرافية العربية

دراسة في التراث الجغرافي العربي



في الجغرافية العربية

دراسة في التراث الجغرافي العربي

تأليف

الدكتور شاكر خصباك



دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
ص.ب: ١٤٥٦٣٦ ـ تلفون: ٨٣٣٩٨٩ بيروت ـ لبنان

طريق المطار - شارع مدرسة الفنال
بناية حلمي عويدات
تلفون: ٨٣٣٩٨٩ - ص. ب: ١٤٥٦٣٦
الطبعة الأولى
١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا ريب ان الجغرافيين العرب مقصرون في دراسة التراث الضخم الذي خلفه لنا الأجداد في ميدان الجغرافيا . ولا يقع هذا التقصير على عاتق الجغرافيين فحسب ، بل على عاتق بقية المختصين في الدراسات الانسانية الأخرى . غير اننا نحن الجغرافيين نتحمل العبء الأكبر. فالموضوع من اختصاصنا وقد آن الأوان لأن نوليه قدراً أكبر من عنايتنا واهتمامنا .

ولعل مرجع هذا التقصير الى اعتقاد الكثيرين منا بأن الفكر الجغرافي العربي القديم ليس من اختصاصهم ، بل هو من اختصاص مؤرخي التاريخ الاسلامي . فالعديد من الجغرافيين العرب والمسلمين هم مؤرخون قبل أن يكونوا جغرافيين . ومع ان هذا القول صحيح الى حد ما ، الا أنه لا يعفي الجغرافيين من مسؤوليتهم ، فهم أولى من غيرهم في تقدير قيمة العلم الجغرافي العربي القديم ومدى اضافاته الى الفكر الجغرافي العالمي .

وقد تعزى لا مبالاة البعض منا الى اعتقاده بأن الجغرافيين العرب والمسلمين لم يساهموا مساهمة حقيقية في تطوير الفكر الجغرافي ، وكانوا وصافين أكثر منهم مبتكرين ، مما لا يتطلب بذل عناء خاص لدراسة آثارهم . ولسنا نريد بالطبع أن نخدع أنفسنا فنزعم بأن الجغرافيا العربية قد أتت بالعجب العجاب ، وأن الطابع العلمي المتقن هو صفتها المميزة ، فالحقيقة أنها قد اشتملت على الكثير من الأخطاء ونقاط الضعف والأساطير ، الا أن الدور الذي اضطلعت به في زمنها ، والانجازات التي استطاعت أن تحققها ، والآثار التي تركتها في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط ، كل ذلك يكسبها قيمة كبيرة في تأريخ الفكر العالمي جديرة بالتمحيص والدراسة .

وعلى نقيض ما واجهنا به الجغرافية العربية من اهمال ، كان اهتمام المستشرقين بها عظيماً وحماسياً . وقد أفرد العلامة كراتشكوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) فصلاً ضافياً للحديث عن اهتمامات المستشرقين في هذا الموضوع والخدمات التي أسدوها في تحقيق ونشر ودراسة أمهات الكتب الجغرافية العربية . ومن الواضح أن قائمة أولئك المستشرقين تتضمن العشرات من الاسماء ، وهي تضم أمماً عديدة بين هولنديين وانجليز وألمان وروس ونمساويين وفرنسيين وايطاليين . ويأتي في مقدمة أولئك المستشرقين دي غوياورينو وبارتولد وكرامرس ونالينو وفستنفلد . ولعل أعظمهم خدمة للفكر الجغرافي العربي هو المستشرق الهولندي دي غويا الذي تولى تحقيق ونشر العديد من أمهات الكتب الجغرافية العربية في سلسلة أطلق عليها اسم (سلسلة المكتبة الجغرافية العربية) . وبالرغم من الجهود العظيمة التي بذلها أولئك المستشرقون في التنقيب عن كتب الجغرافيا العربية وتمحيصها ودراستها ، فما يزال هذا الميدان يتطلب المزيد من الجهود في التفتيش عن الكتب التي تكرر ذكرها في مؤلفات القدامى ولم تر النور حتى الآن ، كما يتطلب بذل عناية أعظم في دراسة وتحليل النصوص الجغرافية من قبل جغرافيين مختصين . وهذا هو التحدي الذي يواجه الجغرافيين العرب من قبل ذلك التراث الضخم المتنوع الذي لم نف بالتزاماتنا تجاهه بعد .

ان دراسة نصوص الجغرافية العربية لا تلقي ضوءاً على حقائق الجغرافية التاريخية فحسب ، بل انها ضرورية لفهم الكثير من جوانب التاريخ الاسلامي ، ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الشعوب الاسلامية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . هذا فضلاً عن أهمية تلك الدراسات بالنسبة لعلم الأجناس وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الاجتماع ، بل وحتى بالنسبة لعلم الآثار أيضاً .

ولقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم مساهمة متواضعة في دراسة بعض جوانب الفكر الجغرافي العربي ، وأن أمد القارىء بفكرة عامة عن الحقول الرئيسية للجغرافية العربية . والكتاب على أية حال يمكن أن يكون مقدمة أو مدخلاً لدراسات مستفيضة لكل حقل من تلك الحقول التي أرجو أن يتعهدها المختصون بما هي أهل له من العناية والاهتمام ، والله الموفق .

بغداد — شاكر خصباك

الفصل الأول

في طبيعة الجغرافية العربية

ان دراسة طبيعة الجغرافيا العربية تقتضي مناقشة نقاط متعددة ، هي :

أولا ـ نشأة الجغرافية العربية وتطورها .

ثانياً ـ الميادين التي طرقتها الجغرافية العربية .

ثالثاً ـ أثر الجغرافية العربية في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط .

- ١ -

نشأة الجغرافيا العربية وتطورها

درج بعض الباحثين على القول بأن الجغرافية العربية هي وليد شرعي للجغرافية اليونانية - الرومانية ، وأنها قد وقعت أثناء تطورها تحت سلطانها بصورة مطلقة . غير أن الدارس لمنشأ الأفكار والصور الجغرافية العربية يجد أن جذورها تضرب في التاريخ الى ما قبل تعرف العرب على علوم الهنود والفرس واليونان ، كما يلاحظ انها انبثقت من صميم حياتهم البدوية . وقد انعكست صورها الأولى في شعر الشعراء الجاهليين . فهناك قصائد تشتمل على وصف جغرافي دقيق للمكان ، كما تشتمل على أوصاف للعادات والتقاليد البشرية وللنبات والحيوان ، وتلك هي المواضيع الأساسية التي تعالجها الجغرافية الوصفية . ولقد أورد الهمذاني في مؤلفه (كتاب صفة جزيرة العرب) عشرات من تلك القصائد ذات المعاني الجغرافية[1] .

أما الجانب الآخر من العلوم الجغرافية - وهو الجانب الفلكي - فقد كان ألصق بحياة بدو الجزيرة العربية الذين كانوا في ترحل دائم وكان لا بد لهم من الاسترشاد بنجوم معينة في سراهم الليلي . بل ان طبيعة المناخ الصحراوي ذا السماء الشديدة الصحو في معظم شهور السنة ، كان ولا شك يثير التأمل ويشجع على محاولة التعرف على طبيعة النجوم والكواكب المتلألئة في صفحة السماء المترامية الأطراف . ولذلك فقد قيل بأن براعة العرب في علم الفلك ترجع قبل كل شيء الى صلاحية بيئتهم الطبيعية لتطور هذا العلم[2] . ولقد عرف البدو ما لا يقل عن مائتين وخمسين نجماً في تسميتها العربية الخالصة كما عرفوا بعض الكواكب المهمة بينها الزهرة وعطارد ، هذا اضافة الى

---

(١) راجع كتاب « صفة جزيرة العرب » لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني - طبع في مدينة ليدن عام ١٩٣٨ .

(٢) البيئة والمجتمع - تأليف الدكتور محمد السيد غلاب - منشورات دار الطالب بالاسكندرية - الاسكندرية ١٩٥٥ ص ١٢ .

معرفتهم بمنازل القمر الثمانية والعشرين[3] . وقد أطلقوا على هذه المعرفة اسم (علم الانواء) .

ومنذ بدأ اهتمام العرب في صدر الاسلام بالأمور الثقافية ، لا سيما ما يتعلق منها باللغة العربية ، أخذت تظهر طلائع المؤلفات الجغرافية ، وكان مؤلفوها علماء لغة أساساً . ويمكن القول ان العامل الأول المشجع على ازدهار هذا النوع من التأليف هو الاهتمام بجزيرة العرب - التي ظهر فيها النبي الكريم وصحبه - ومحاولة التعرف على كل ما يتصل بأرضها وسمائها وحيوانها ونباتها وبشرها ، وكذلك الاهتمام باللغة العربية وبالشعر العربي القديم . ولعل من أبرز المؤلفات المبكرة في هذا الميدان تلك التي تنسب الى هشام بن محمد الكلبي (توفي في حوالي ٨٢٠ م) والذي ذكر له ابن النديم (في الفهرست) والحموي (في معجم الأدباء) عدة تآليف جغرافية منها (كتاب البلدان الكبير) و (كتاب البلدان الصغير) و (كتاب الانهار) و (كتاب الأقاليم) . . الخ ، ولكن كتبه بأجمعها قد فقدت ولم تصل الينا . كذلك كتب أبو زيد سعيد الانصاري كتاباً في (المطر) ضمنه مختلف المفردات اللغوية في المطر والسحاب والرعد والبرق والندى والجمد وظروف تكون كل منها . . ويقول أحد الباحثين أن في هذا الكتاب دقة في الوصف بحيث ان أسماء السحب فيه تطابق ما تعارف عليه علماء المناخ الأوروبيون في الوقت الحاضر[4] . وهناك أيضاً كتاب النضر بن شميل المسمى (كتاب الانواء) ، وكتاب عرام بن الأصبغ المسمى (كتاب اسماء جبال التهامة ومكانها) ، وكتاب الجاحظ المسمى (كتاب البلدان) أو (كتاب الامصار والبلدان) . . الخ . ومجمل القول أن الكتّاب المذكورين قد كونوا مدرسة لها تلامذتها الذين ألفوا عشرات الكتب التي تتحدث عن جزيرة العرب بالذات أو عن منطقة من مناطقها وعن معالمها الطبيعية والمناخية والاقتصادية والبشرية[5] . ولكن لا بد لنا من التأكيد بأن تلك المؤلّفات ليست من الجغرافية الحقيقية بشيء وإنما هي إرهاصات جغرافية .

وانتقلت الجغرافية العربية الى مرحلة جديدة في النصف الثاني من القرن الثالث

---

(٣) تاريخ الأدب الجغرافي العربي - لاغناطيوس كراتشكوفسكي ، ترجمة صلاح الدين هاشم - منشورات الجامعة العربية - (الجزء الاول) - القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤٢ .

(٤) تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به - للدكتور ابراهيم شوكت - مجلة « الاستاذ » المجلد التاسع ١٩٦١ - منشورات كلية التربية ، ص ١٢ .

(٥) راجع مقالة محمد بهجة الاثري المعنونة (الجغرافيا عند المسلمين) - مجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد الثاني ، سنة ١٩٥٢ .

الهجري وهي المرحلة التي بلغ أثناءها الاهتمام بالفكر الأجنبي أقصاه . فلقد أكب المترجمون على ترجمة ثمار الفكر الهندي والأغريقي والروماني الى اللغة العربية . وقد شهد هذا العصر تأثراً عظيماً بالمعرفة اليونانية ـ الرومانية ، وخصوصاً بآراء بطليموس الاسكندري ، ولا سيما في كتابيه المجسطي (الجامع) وجغرافيا (المرشد الى الجغرافيا) ، حتى ان أغلب المعلومات الجغرافية النظرية التي تناثرت في مؤلفات هذا العهد ، وأبرزها مؤلفات الخوارزمي وابن الفقيه وابن رستة ، قد اقتبست اما عن اليونانية مباشرة أو عن الترجمات أو الخلاصات السريانية والرومانية[٦] . والواقع أن هذه المرحلة من عمر الجغرافيا قد ركزت على علم الفلك بالذات ، فقد أصبح هذا العلم في ذلك العصر هوس الحكام والعلماء ، فرمى الجغرافيون بكامل ثقلهم الى جانبه . ويمكن القول أن التشجيع الذي حظي به هذا العلم من قبل الخلفاء العباسيين ، منذ عهد المنصور ، والذي بلغ ذروته على يدي المأمون الذي كان يشترك بنفسه في الابحاث الخاصة بهذا العلم ويرعى علماءه رعاية خاصة ، كان المسؤول الأول عن ازدهار هذا النوع من المؤلفات الجغرافية التي يمكن اعتبارها بداية الجغرافية الحقيقية . فلولا هذا التشجيع ولولا الحرية الفكرية التي تهيأت لأولئك العلماء لخوض تلك المواضيع الشائكة لما أمكن لهم تطوير معلوماتهم . هذا فضلا عن أن الترجمات التي نقلت الى اللغة العربية عن الفارسية والهندية والسريانية واليونانية قد كشفت عالماً جديداً في ميدان الفكر العربي الذي كان حتى ذلك العهد مقتصراً على علوم اللغة والدين مما أثار حماسة العلماء وشغفهم .

غير أن توطد أركان الدولة الاسلامية في مساحة مترامية الاطراف من العالم القديم قد خلق ظرفاً جديداً كان لا بد للجغرافية العربية أن تواكبه وأن تستفيد منه وأن تثبت جدارتها في ميدان الفكر العلمي . وسرعان ما اتجهت الكتابات الجغرافية اتجاها عملياً جديداً منذ بدء القرن الرابع الهجري ، وأصبحت المعرفة الجغرافية في خدمة متطلبات الدولة الاسلامية الكبرى ، عسكرياً وادارياً واقتصادياً . وهكذا انبثقت المصنفات الجغرافية الحقيقية التي تستحق اسمها بجدارة وهي كتب (المسالك والممالك) أو ما يمكن أن نعتبره كتابات (الجغرافية الاقليمية) أو (الجغرافية البلدانية) على نحو أدق . وهي كتابات تعتمد على الخبرة الشخصية ولا تكاد تخضع في شيء

---

(٦) الجغرافية والرحلات عند العرب ـ للدكتور نقولا زيادة ـ منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٧ .

للتأثير اليوناني . ولقد ضعف اهتمام تلك المؤلفات بالمعلومات اليونانية المتعلقة بالارض وشكلها وحجمها وأقاليمها السبعة ، وابتعدت ابتعاداً كبيراً عن النهج الرياضي ، حتى ليمكن القول أنه حدث في هذا العهد انشطار واضح بين الجغرافية الرياضية والجغرافية الوصفية ، وانقسم كتّاب الجغرافية الى علماء فلك وجغرافيين .

والواقع ان هذه المرحلة من مراحل الجغرافية العربية التي امتدت منذ بداية القرن الرابع الهجري حتى أوائل القرن السادس الهجري ، تمثل قمة ما وصلته الجغرافية العربية من ازدهار ، كما انها تمثل الشخصية الحقيقية الاصيلة للجغرافية العربية . فقد كانت معلومات كتّابها تعتمد بالدرجة الاولى على الدراسة والمشاهدة والاختبار الشخصي مما جعلها ذات ثقة وكفاءة عالية . ولم يكن غالبية كتّابها في الحقيقة سوى رحالة علميين . وكان على رأس جغرافيي هذه المدرسة اليعقوبي والبلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي . وقد أدخل هؤلاء الجغرافيون تقليداً جغرافياً جديداً وراسخاً في الكتابة الجغرافية العربية وهو استخدام الخارطة مع المتن لتوضيح التفصيلات الواردة فيه . والواقع ان ازدهار هذا الاتجاه الجديد في الكتابة الجغرافية كان خلاصة ظروف مساعدة كما أشرنا . فقد كان اتساع رقعة الدولة الاسلامية يتطلب معلومات جديدة عن تلك البلدان النائية وشعوبها . فلا بد للحكام المسلمين من أن يتعرفوا على طبائع السكان وتقاليدهم ، وعلى انتاج البلاد الزراعي والصناعي وثرواتها ليمكن تقدير خراجها ، كما لا بد لهم من التعرف على أسماء مدنها الهامة والطرق المؤدية اليها . ولذلك فقد كان فاتحة هذا النمط من التأليف الجغرافي يتمثل في كتاب ابن خرداذبة المعنون (المسالك والممالك) وكتاب قدامة بن جعفر المعنون (كتاب الخراج) . وكلا هذين الكتابين ، ولا سيما الكتاب الاول ، يعنيان عناية فائقة بطرق المواصلات وبأطوالها وبحالة الامن واليسر فيها . وقد استفاد مؤلفو هذه الكتب من وظائفهم الادارية في جمع المعلومات عن البلدان النائية . فقد شغل ابن خرداذبة مثلا ادارة البريد ، كما عمل قدامة بن جعفر محاسباً في ديوان الخراج . أما المؤلفون الآخرون فقد استفادوا من امكانيات السفر الجديدة التي سادت رقعة واسعة من العالم القديم ، هي رقعة العالم الآسيوي ، تلك الامكانيات التي تتمثل باتساع شبكة طرق المواصلات وتوفر درجة معقولة من الامن فيها ، فأخذوا يشدون الرحال ويطوفون في البلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . وكانوا يشعرون في أي بلد يحلون فيه كأنه بلدهم ، فالتجانس في العقيدة والدين بين أبناء تلك البلدان كان خير زاد يمكن أن يتزود به المسافر . وأمكن لأولئك الجغرافيين ان يجمعوا معلومات جديدة عن ممالك الاسلام عن طريق

المشاهدة الشخصية والسؤال والاستقصاء ، مما لم يكن مهيأ للجغرافيين السابقين . ولا يمكن القول أن اولئك الجغرافيين قد اعتمدوا على أنفسهم فحسب في جمع تلك المعلومات ، فقد ساهم التجار في اغناء معلوماتهم مساهمة عظيمة ، ولعبت التجارة دوراً هاماً في تطوير المعرفة الجغرافية لرواد هذه المدرسة . بل أن البعض منهم كان يمارس التجارة فضلاً عن هوايته العلمية .

ولقد كان تسابق هؤلاء الجغرافيين على تجشم المتاعب والمخاطر والطواف في تلك البلدان البعيدة أمراً يدعو الى الاعجاب ولا شك ، غير ان الدارس لكتبهم يشعر بأن ثمة نوع من التنافس المشروع بينهم ، اذ كان كل منهم يحاول أن يتفوق على من سبقه في معلوماته . وهذه صفة يمكن تلمسها بوضوح في الاشارات العابرة التي وردت في مقدمة كتب الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وحتى المسعودي . ويدل ذلك أيضاً أنه كان هناك اهتمام كبير بتلك المؤلفات من قبل الحكام والتجار وكبار الأغنياء المتعلمين ، مما كان يشجع أولئك الكتاب على التجويد الدائم .

وأما الموسوعات فكانت سمة ذلك العهد (خصوصاً القرن الثامن الهجري) في جميع حقول المعرفة ، ويبدو انها كانت تخدم أهداف طبقة معينة من الامراء والحكام المتنورين ، فضلاً عن اشباع رغبة طبقة من الأغنياء المثقفين . وكانت أمثال تلك المؤلفات ذات فائدة عملية واضحة بالنسبة لرجال الادارة ، كما انها كانت ذات فائدة كبرى للباحثين عن المعرفة نظراً لانها كانت تعالج مختلف نواحي الثقافة في ذلك العصر . ومن أبرز الأمثلة على تلك الموسوعات (نهاية الارب) للنويري و (مسالك الابصار) للعمري و (صبح الأعشى) للقلقشندي .

ويعود الفضل الى هؤلاء الجغرافيين الاقليميين في تشجيع كتّاب آخرين لم يكونوا جغرافيين أساساً على الاهتمام بالجغرافيا ونشرها في كتاباتهم بصورة غير منهجية ، وكانت تلك الاهتمامات أقرب الى الكوزموغرافيا منها الى الجغرافيا الصرفة ، فهي تبحث في أخبار البلدان ، وقد تميل الى الاهتمام بعجائبها ، كما تشتمل على كثير من المعلومات المتنوعة عن البحار والمناخ والكواكب والأحجار النفيسة والحيوان والنبات ، وكان يكتب هذا النوع من المصنّفات كتّاب ذوو اختصاصات متنوعة ، لكن غالبيتهم كانوا من المؤرخين . ويمكن القول أن المسعودي كان على رأس هذا النمط من الكتابة ، كما يعتبر ابن رستة أيضاً أحد روّادها المبكرين . والحقيقة ان الجغرافية العربية بدأت أساساً أشبه بالكوزموغرافيا فيما تؤكد عليه من عجائب الأرض والكون .

وبتفكك الدولة العربية الاسلامية وانحلالها سياسياً فقدت المعرفة الجغرافية أصالتها منذ بدء القرن السادس الهجري . فقد انصرف الحكام عن تشجيع العلم وتقلصت رقعة الدولة الاسلامية وانقسمت الى امارات شبه مستقلة ، ولم يعد هناك من حاجة الى الكتب الجغرافية بالنسبة للحكّام . ولم يستطع الكتّاب اللاحقون أن يضيفوا أي جديد الى العلم الجغرافي العربي ، واقتصروا على مهمة « الإقتباس» من مؤلفات السابقين ، وتنوعت الانماط الجغرافية لهذه المرحلة ، الا أن التركيز فيها كان على (المعاجم الجغرافية) و (الموسوعات) و (الرحلات) .

فأما (المعاجم الجغرافية) فأصبحت ذات أهمية بالغة ، ويمكن القول أنها كانت تمثل الصلة بين اللغة العربية والجغرافية ، وقد ازدهرت بسبب القرّاء الذين كانوا يجدون صعوبة في التسميات الواردة في الشعر القديم أو في الفصل القديم . ومن أبرز أمثلتها (معجم البلدان) لياقوت الحموي .

وقوي في هذه المرحلة من تطور الجغرافية العربية أيضاً اتجاه جديد هو ما سمي بالاتجاه العجائبي ، وهو اتجاه قديم ظهرت آثاره المبكرة لدى ابن الفقيه الهمداني وغيره من الكتّاب الأوائل . وخير من يمثل هذا الاتجاه الغرناطي في كتابه (تحفة الألباب ونخبة الاعجاب) والقزويني في كتابه (أخبار البلاد وآثار العباد) والدمشقي في كتابه (عجائب الدهر) وابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب) . وقد مزج هذا الاتجاه بين العلم والخرافة ، وتناول كتّابه وصف مختلف ظواهر الكون ، وركزوا في كتاباتهم على ذكر عجائب الطبيعة من نبات وحيوان وظواهر جغرافية وبشرية . وكانت معلوماتهم تخرج عن حدود المنطق والعلم أحياناً الى حدود الاسطورة والخرافة . والواقع ان هذا الاتجاه قد انحدر بالجغرافية انحداراً سريعاً حتى لم تعد تحتفظ بنكهتها العلمية القديمة ، وتحولت الى ما يشبه الحكايات والقصص . ولا ريب أن اولئك الكتّاب كانوا يرضون بكتاباتهم تلك جمهرة واسعة من القراء من ذوي الثقافة الضحلة ، وهو أمر يدل على اضمحلال الطبقة المتنورة التي كانت تتشوق الى المعرفة الحقة .

وازدهرت في هذه المرحلة من تاريخ الجغرافية العربية أيضاً (الرحلات) ، الا انها اتخذت نمطاً مغايراً لما عهدناه في فترة القرن الرابع الهجري ، اذ أن الرحلات الجديدة كانت ذات طابع أدبي عموماً وذات صفة اخبارية سطحية . وقد لعب العامل الديني دوراً رئيسياً في تشجيع هذا النمط من الكتابة الجغرافية ، فقد كان دافع أغلب كتّاب (الرحلات) حج بيت الله الحرام ، وتهيأت لهم الفرصة بذلك لزيارة بلدان

عديدة من ديار الاسلام فدونوا عنها مشاهداتهم . وقد ركز هؤلاء الرحالة عموماً على ذكر المشاهد الدينية والمزارات والمساجد ، كما اهتموا اهتماماً خاصاً بلقيا علماء الدين والزهاد والمتصوفين . وقد وردت في كتاباتهم المعلومات البشرية والاقتصادية وكذلك المعالم الطبوغرافية للمدن والبلدان التي زاروها بصورة عرضية . وبالرغم من ذلك فقد حفلت بعض تلك الرحلات بمعلومات اتنولوجية واقتصادية قيمة للغاية . وتعتبر رحلة ابن جبير أفضل نموذج لهذا النمط من الكتابة الجغرافية ، غير ان رحلة ابن بطوطة تتفوق عليها فيما اشتملت عليه من معلومات عن أقطار آسيا الوسطى والجنوبية والجنوبية الشرقية . واشتهرت كذلك رحلة العبدري ورحلة الهروي .

- ٢ -

الميادين التي طرقتها الجغرافية العربية

بالرغم من أن الجغرافية العربية كانت عموماً جغرافية نفعيّة هدفها الرئيسي خدمة الحكّام والتجار ، مما جعلها أساساً جغرافية عملية وصفية ، الا انها مع ذلك عالجت أغراضاً متعددة كما ساهمت في حقول متنوعة . وسندرس في الفصول التالية باسهاب مساهمة الجغرافية العربية في حقول رئيسية أربعة هي : - أولا - الابحاث الاقليمية والبشرية ، ثانياً - الابحاث الطبيعية ، ثالثاً - الرحلات الجغرافية ، رابعاً - الابحاث الفلكية والرياضية . غير اننا سنوضح في هذه العجالة مساهمة الجغرافيا العربية بصورة عامة في العلم الجغرافي القديم .

فأما ما يتعلق بالابحاث الاقليمية والبشرية فانها تمثل أهم اضافات الجغرافية العربية الى العلم الجغرافي القديم . فقد اشتملت على مادة غزيرة عن بلدان العالم القديم ذات جوانب متعددة . ففضلا عن المعرفة الجغرافية البحتة بجهات نائية كجهات غربي وأواسط افريقيا وأواسط آسيا والهند الصينية والهند وجزر المحيط الهندي ، بل وحتى ببعض جهات سيبريا ، فقد أمدتنا بمعلومات طيبة عن شعوب تلك الجهات مما يمكن أن يكون - ذو - فائدة عظمى في الدراسات التاريخية والانثروبولوجية . والحقيقة ان المعلومات ذات الصفة البشرية هي أعظم قيمة في كتب الجغرافية العربية من أية معلومات طبيعية وطوبوغرافية أخرى وهي التي تكسبها أهميتها الخاصة(٧) . ففضلا عن أن تلك المعلومات يمكن أن ترسم لنا بوضوح ما حدث من تغير في المنظر الطبيعي Landscape في كثير من أقطار العالم الاسلامي ، فانها توضح لنا كذلك نوع العلاقة بين البشر وبيئتهم الطبيعية في مختلف المراحل التاريخية . لذلك يمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا من أوائل من كتب في حقل الجغرافية البشرية ، وان

---

(٧) S. M. Ali, Arab Geographi, Institute of Islamic studies, Aligrah 1959, P. 5.

كتاباتهم في هذا الميدان تتفوق في اتساع آفاقها وتنوعها على كتابات الاغريق والرومان . فلقد تناولوا بالوصف مختلف نواحي الحياة البشرية ، متحدثين عن العادات والتقاليد والحرف والاديان والطبقات الاجتماعية والمأكل والملبس ، الى آخر ما يتصل بحياة الانسان . ولم يقتصروا على هذه الجوانب فحسب بل طرقوا مواضيع أخرى من مواضيع الجغرافية البشرية ، وهي علاقة الانسان ببيئته الطبيعية . غير اننا لا يمكن أن ندّعي بأنهم كانوا مبتكرين في هذا الميدان ، اذ أنهم تأثروا في الحقيقة بآراء الجغرافيين الأغريق والرومان . وخير من بحث في العلاقة بين البيئة الطبيعية والانسان عبد الرحمن بن خلدون في (مقدمته) الشهيرة . فقد أوضح أثر الحرارة على أخلاق البشر ، كما بيّن ارتباط بنائهم الفسيولوجي بالاقاليم المناخية . وقد عزا سواد بشرة سكان الاقليم الاول والثاني الى افراط الحر في هذه الجهات ، كما عزا بياض بشرة سكان الاقليم السابع والسادس الى أفراط البرد في الجهات القريبة من المنطقة القطبية، مما يتبع ذلك أيضاً زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر[8] . وأشار كذلك الى أن أخلاق السودان (الزنوج عموماً) المتميزة بالخفة والطيش وكثرة الطرب تعود الى استيلاء الحر على امزجتهم لانهم ساكنين في الأقليم الحار ، في حين أن سكان البلاد البااردة يتصفون بالميل الى الجدية والكآبة[9] .

ومن المواضيع البشرية الأخرى التي طرقها الجغرافيون العرب والمسلمون وكانوا رواداً فيها ما يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم (جغرافية المدن) Urban Geography، وقد ساهم المؤرخون في قسط وافر من هذه الكتابات . فهناك أمثلة عديدة من المؤلفات التي بحثت في وصف المدن وتاريخها وحفلت بالمعلومات الطوبوغرافية والاقتصادية والبشرية . ومن أمثلتها كتاب المقريزي المعنون (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) والذي اشتهر باسم (خطط المقريزي) ، وكتاب (خطط بغداد) لأبي طاهر طيفور وكتاب (وصف مكة) للازرقي ، و (كتاب الاحاطة) للسان الدين الخطيب ، وكتاب الرازي في وصف قرطبة وخططها . وقد برع الاندلسيون على نحو الخصوص في وصف المدن الكبيرة وأقاليمها[10] . كذلك أورد

(8) مقدمة ابن خلدون - تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى لمصطفى محمد ، القاهرة ، ص ٦٠ .

(9) المرجع السابق ، ص ٦١ .

(10) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس - للدكتور حسين مؤنس - مدريد ١٩٦٧ ، ص ٥٥٥ .

العلامة ابن خلدون أيضاً في (مقدمته) الشهيرة دراسة فذة عن نشأة المدن وتطورها وشرح مقومات المدينة وأثر البدو في هدمها او مدها بدم جديد[11] .

وأما ما يتعلق بالابحاث الطبيعية في الجغرافية العربية والتي تتناول بالدرس النواحي المناخية والهيدروغرافية والجيومورفولوجية ، فلا يمكننا الادعاء بأن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا مبتكرين فيها دائماً . ويمكن القول أن الجوانب النظرية في هذه الأبحاث ضعيفة عموماً وهي تعكس تأثراً شديداً بآراء الكتاب الاغريق والرومان . فالدراسات المتعلقة بتوزيع الحرارة على سطح الارض وعلاقتها بالنبات والحيوان والانسان ، وأثر أشعة الشمس واختلاف زوايا سقوطها في كمية الحرارة ، وتوزيع الاقاليم الحرارية على الكرةالأرضية، واشتداد البرد في المناطق القطبية وارتفاع الحرارة في المناطق الاستوائية بشكل لا يسمح بسكنى تلك الجهات ، هي أساساً آراء يونانية وقد نقلت مباشرة او اقتبست بصورة أو بأخرى . كذلك حال الدراسات المتعلقة بالطبقات الجوية والأمطار والرياح المختلفة . كما ان الملاحظات الجيومورفولوجية المتعلقة بتكوين الجبال والسهول ، واختلاف توزيع اليابس والماء على الكرة الارضية باختلاف الأزمان ، وطغيان البحار على اليابسة وتقهقرها في العهود الجيولوجية السابقة ، هي آراء يونانية أيضاً . غير أن الجوانب العملية في الأبحاث الجغرافية الطبيعية تكشف عن استقلال في الشخصية وعن تأثر سطحي جداً بالآراء اليونانية - الرومانية . وخير ما يمثل الجوانب العملية في الجغرافية الطبيعية العربية هي الدراسات العديدة التي كتبت عن توزيع البحار والبحيرات والانهار والنهيرات التي تعكس خبرة ودراية واسعة للغاية لم تتوفر في مؤلفات الجغرافيين الرومان والاغريق بما في ذلك كتاب (جغرافيا) لبطليموس . ولا ريب ان أمثال تلك الكتابات تمثل اضافة قيمة للفكر الجغرافي القديم .

أما ما يتعلق بالرحلات الجغرافية فيمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد ضربوا بسهم وافر في هذا الميدان ، وانهم قد خلفوا ثروة غنية جداً . وفيما عدا هيرودوت لم يشهد الفكر الجغرافي اليوناني أو الروماني رحالة من طراز المسعودي أو الادريسي أو ابن حوقل أو المقدسي أو ابن بطوطة . وقد سبق ان ذكرنا بان الكتابات الجغرافية العربية قد اعتمدت منذ البداية على الخبرة الشخصية واتخذت من الاسفار هدفاً مركزياً لها . ولذلك فان « الرحلة » تمثل الوجه المشرق في الجغرافية العربية ، وفي

(11) مقدمة ابن خلدون ، ص ٨٥ .

بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والانثروبولوجية عن جميع مناطق العالم القديم . ولعل رحلات التاجر سليمان وابن فضلان والمسعودي والغرناطي وابن بطوطة خير مصداق على ذلك .

وأما ما يتعلق بالجغرافية الفلكية والرياضية فلا ريب انها تعكس تأثراً بعلوم الفرس والهنود واليونان ، الا انها في الوقت نفسه تكشف عن الاضافات العظيمة والاساسية التي قام بها العلماء العرب والمسلمون في هذا الحقل . واذا كان علم الفلك قد تأثر في طوره المبكر بكتاب بطليموس المسمى (المجسطي) ، فان عشرات العلماء العرب والمسلمين قد ساهموا بتطوير هذا العلم حتى استقلوا به عن التأثير اليوناني وبلغوا به الذروة .

ويتفق جميع البحاثة والمستشرقين على الخدمات الجليلة التي أسداها العلماء العرب والمسلمون في تطوير هذاالعلم. ولقد ردد الجغرافيون والفلكيون العرب والمسلمون ما سبق للمفكرين الاغريق والرومان ان قرروه من فرضيات عن الارض . فقد آمنوا بأن الارض كروية وانها ثابتة لا تتحرك في وسط الكون . كما أيّدوا بأن الجزء المعمور منها هو الربع الشمالي فقط ، وان الجزء الجنوبي منها غير مسكون . وقد اعتقدوا أيضاً أن المنطقتين الإستوائية والقطبية غير مسكونتين بسبب شدة حرارة الاولى وعظم برودة الثانية . وقد وضعوا تعريفاً صحيحاً لخط الاستواء وللمدارين وللقطبين . كذلك قاموا بانجاز عملية فلكية عظيمة هي قياس درجة من درجات العرض بصورة عملية . وقد مكنّهم ذلك من التوصل الى تقدير مقارب لمحيط الارض . وقاموا أيضاً بوضع ازياج دقيقة لتعيين حركات الكواكب في افلاكها واستخراج مواضعها من السماء ، وحققوا في هذا الفن الرياضي براعة عظيمة . وقد أدى تبحرهم في هذا الفن الى تطوير آلة الاصطرلاب التي كانت تستخدم في رصد الكواكب والى ابتكار آلات هندسية عديدة . كذلك أدى الاهتمام البالغ بعلم الفلك الى بناء المراصد الضخمة في مدن عديدة من بلدان العالم الاسلامي الشاسعة ، وكان البعض منها على درجة بالغة من الدقة والضبط . وهكذا تنوعت انجازاتهم في هذا الحقل فمكنتهم من رصد تحركات النجوم والكواكب في السماء واستخدام مجموعاتها في التعرف على الاتجاهات في عرض البحر ، كما مكنتهم من تعيين مواقع البلدان على خطوط العرض والطول ، بل ومكنتهم أيضاً من رسم خارطة جيدة للارض .

- ٣ -

أثر الجغرافية العربية في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط

بعد أن أوضحنا تطور الجغرافيا العربية عبر القرون والميادين التي طرقتها لا بد لنا من ايضاح أثرها على الفكر الجغرافي الاوروبي في العصور الوسطى . ولكي يتوضح لنا ذلك الأثر ينبغي لنا أن نستعرض باختصار التقدم الذي حققه الفكر الجغرافي في عهد الاغريق والرومان ، ثم التدهور الذي أصابه في بداية العهد المسيحي ليتبين لنا الدور الهام الذي اضطلعت به الجغرافية العربية في تاريخ الفكر الجغرافي .

ولقد اصطلح مؤرخو الفكر الجغرافي على أن البدايات العلمية للجغرافية اليونانية تقترن ببدء النهضة العلمية الأغريقية في القرن السادس قبل الميلاد . ومنذ بواكيرها الاولى انقسمت الجغرافية الى فرعين رئيسين هما الجغرافية الرياضية ، وقد اهتمت بدرجة رئيسية بعلم الفلك وما يرتبط به من ظاهرات أرضية ، أي انها ركزت على الجانب النظري ، والجغرافيا الوصفية وقد اهتمت بوصف مدن واقطار العالم القديم وشعوبها ، وهي تمثل الجانب العملي من الجغرافيا . والحقيقة ان (علم الجغرافية) استمد تسميته من طبيعة كتاباته الوصفية ، اذ ان كلمة (جغرافيا) اليونانية تتألف من مقطعين هما Geo ومعناه « الأرض » و Graphia ومعناه « وصف » . ولا يسعنا في هذا المجال ان نشرح انجازات الاغريق والرومان في التعرف على جهات الأرض المختلفة . والواقع انهم قصروا جهودهم على معرفة المناطق المسكونة من الأرض والتي سموها (العالم المأهول) ECUMENE، وسنتحدث عن هذا الجانب بالتفصيل في موضع آخر . غير اننا لا بد لنا أن نشير هنا بأن الجغرافيين الاغريق والرومان ساهموا مساهمة طيبة في الكشف عن جهات واسعة من العالم القديم . فقد أمدونا بمعلومات جيدة عن أقطار جنوب ووسط أوروبا وغربيها ، وأقطار شمالي أفريقيا (وخصوصا مصر وليبيا وتونس) ، وأقطار جنوب غربي آسيا ، ولا سيما البلاد العربية وايران . كما أمدونا بمعلومات ثانوية عن الهند وجهات أواسط آسيا .

غير أن انجازاتهم العظيمة في الحقيقة ترتبط بالجغرافيا الفلكية والرياضية التي برزوا فيها الى أبعد الحدود . ومع أن الأغريق استفادوا فائدة كبرى من العلوم السابقة في الفلك والرياضيات ، ولا سيما علوم البابليين ، الا أن أضافاتهم في هذا الحقل كانت متقدمة وأصيلة . فلقد توصلوا الى رصد تحركات الكواكب والنجوم والقمر على مدار العام بصورة دقيقة ، ووضعوا قائمة باسماء عدد كبير من الكواكب والنجوم . كذلك توصلوا الى تقدير معقول لحجم الشمس والقمر وبعدهما عن الأرض . وقد ربطوا حركات المد والجزر في البحار بتحركات القمر ، وان كان ربطهم غامضاً نوعاً ما ، كذلك أدركوا بأن أشعة الشمس وزوايا سقوطها على الأرض هي المسؤولة بدرجة رئيسية عن توزيع الحرارة على الكرة الأرضية . واهتموا اهتماماً خاصاً بالأرض ومركزها في الكون . وقد ساد بينهم منذ وقت مبكر الاعتقاد بكروية الارض ، ولم يعد هذا الافتراض موضع نقاش . كذلك تركز لديهم الاعتقاد بأن الارض تقع في مركز الكون وانها ثابتة لا تتحرك ، وأن الشمس وبقية الكواكب تدور حولها . ومن المعتقد ان العالم الوحيد الذي رفض فكرة ثبات الارض ودوران الشمس حولها هو اريستارخس الاسكندري (في القرن الثالث قبل الميلاد) الذي نادى بأن الشمس هي التي تحتل مركز الكون وان الارض وبقية الكواكب تدور حولها .

ومن الأمور التي شغلت أذهان الإغريق أيضاً قياس محيط الارض . وقد أتبعت وسائل متعددة لهذا الغرض ، كما أعطيت تقديرات مختلفة . غير أن أفضلها وأدقها هي الطريقة التي أتبعها أراتوستنس (اراطوسطيني) (القرن الثالث قبل الميلاد) والتي جاءت بنتيجة مقاربة جداً للرقم الحقيقي لمحيط الأرض ، حيث بلغ تقدير أراتوستنس ٢٦ر٦٦٠ ميلا ، في حين يبلغ الرقم الحقيقي حوالي ٢٥ر٠٠٠ ميل .

كذلك قام الجغرافيون الإغريق والرومان بمحاولة قياس مساحة الجزء المأهول من الأرض . ولم تكن تقديراتهم موفقة في هذا الخصوص ، لا سيما وأن معلوماتهم عن الأرض المأهولة كانت ناقصة بدرجة كبيرة . غير انهم أدركوا بأن الجزء المعروف من الأرض لا يمكن أن يكون المنطقة الوحيدة المسكونة ، وخمنوا وجود قارات أخرى اضافة الى القارات القديمة الثلاث المعروفة آسيا وأوروبا وافريقيا ، وافترضوا انها ربما تقع وراء المحيط الأطلسي أو في جنوب الكرة الارضية . وقد أيد البعض منهم امكانية الانطلاق من الطرف الغربي من الأرض عبر المحيط الأطلسي والوصول الى الطرف الشرقي .

وقد توصلوا أيضاً الى رسم خرائط دقيقة نوعاً ما للمناطق المعروفة من الأرض في

عهدهم ، وخصوصاً للجهات المحيطة بالبحر المتوسط ، واتبعوا في الرسم وسائل علمية تعتمد على تحديد خطوط العرض والطول بطريقة فلكية وتعيين مواضع الأرض استنادا اليها .

واهتم الجغرافيون الاغريق والرومان كذلك اهتماما خاصا بالابحاث الطبيعية في حقل الجغرافيا . ويمكن القول أن أهم الجوانب التي استأثرت باهتمامهم هو الجانب المناخي لارتباطه بصورة وثيقة بالابحاث الفلكية . وقد اتخذت المدرسة اليونانية من تقسيم الارض الى أقاليم مناخية أساساً لابحاثها في هذا الميدان ، وبذل الجغرافيون اليونانيون اهتماماً خاصاً بآثار المناخ على الحياة الحيوانية والنباتية والبشرية . ولقد قسم الكتاب اليونانيون الأوائل الأرض المأهولة الى ثلاثة أقاليم أو أحزمة ، واحد شمالي بارد وآخر جنوبي حار وثالث أوسط معتدل ، وربطوا كل أقليم منها بنوع خاص من النباتات والحيوانات ، كما ربطوا التقدم الحضاري والصفات الخلقية للانسان وبنائه الفسيولوجي (لا سيما بشرته) بنوعية الاقليم المناخي . ثم تطور هذا التقسيم فيما بعد الى تقسيم سباعي يستند الى خطوط العرض . وقد توصلوا الى تحديد خطوط العرض بواسطة آلة خاصة هي (الاصطرلاب) ، وميزوا بين اقليم Klimata وآخر على أساس طول النهار في كل منها . وقد اتفقوا أيضاً على أن المنطقة الاستوائية لا تصلح للسكنى بسبب شدة حرارتها ، وان المنطقة القطبية لا تصلح للاستيطان أيضاً بسبب شدة برودتها .

واهتم الجغرافيون الاغريق أيضاً بالابحاث الجيومورفولوجية ، ولا سيما ما يتعلق بتكون البحار وطغيانها على الأراضي المجاورة . وقد عللوا ذلك بأن البحار تمثل البقية الباقية من مسطح مائي عظيم الاتساع تقلصت مساحته واشتدت ملوحته بفعل حرارة الشمس . وكانت أبرز أدلتهم على ذلك وجود الاصداف والقواقع البحرية ورواسب الاملاح داخل اليابس القاري بعيدا عن البحار . كما أرتأى البعض منهم بأن سواحل البحر وأطراف اليابس القاري تحدث بها تغييرات على امتداد فترات زمنية طويلة ، وقد تحدث التغييرات في أعقاب هطول أمطار غزيرة . واعتقدوا أيضاً بأن بعض السهول كانت تحتلها البحيرات في يوم من الأيام ، ثم ارتفعت قيعان تلك البحيرات بفعل حركة أرضية . وقد قاموا بدراسة ظاهرة الارساب النهري وأدركوا أهميتها في طمر الخلجان الضحلة وفي اضافة أراضي جديدة .

كذلك حاول الكتاب اليونانيون أن يفسروا ظاهرتي الزلازل والبراكين وان لم يتوصلوا الى الحقيقة . فاعتقد البعض بأن الأثير الحار الملتهب في باطن الأرض يتلمس طريقاً للخروج فيحدث تلك الاهتزازات بالارض . وافترض البعض الآخر أن هناك

رياحاً تدخل الى باطن الارض من الجو الخارجي ، وفي نفس الوقت تتولد من المياه الجوفية رياح أخرى بفعل الحرارة ، فاذا مرت هذه الرياح خلال المنافذ والمسارب الموجودة في قشرة الأرض سببت الاهتزازات ، وقد تمس هذه الرياح النار فتنفجر مندفعة الى الخارج على شكل براكين .

وهكذا نلاحظ بأن الجغرافيين الاغريق قد قدموا الفكر الجغرافي في شتى الميادين والحقول ، النظري منها والعملي . وكان **المفروض** أن يستمر هذا التقدم عبر القرون ، الا ان تبني الامبراطورية الرومانية الديانة المسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين عام ٣٢٤ م . قد أدى الى فرض التفكير الديني على الفكر الاوروبي . وقد أصبحت الكنيسة هي المركز الثقافي الوحيد في بلدان أوروبا كما أصبح رجال الدين هم القيمون على الثقافة . لذلك أخذوا يحاولون الملاءمة بين العلوم اليونانية والرومانية المتقدمة وبين تعاليم العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الانجيل) . وذاعت مفاهيم جغرافية متخلفة ونسخت النظريات العظيمة المتطورة عن الأرض وظواهرها الطبيعية والبشرية وشكلها وحجمها وأقطارها وتوارت في زوايا النسيان . وقد رفضت جميع الأفكار القديمة باعتبارها علماً كاذباً لم يستطع أن يهدي البشرية الى طريق النور ، وباعتبار انها تناقض ما ورد في الكتاب المقدس ، وساد المثل القائل (ليكن الله وحده صادقاً وجميع البشر كذابين) . واستند الى هذا المثل دعاة المدرسة الفكرية التي سميت بـ (مدرسة الانكار العنيف) . وكان من أبرز آراء كتّاب هذه المدرسة أن الأرض عبارة عن جسمٍ مسطح طوله ضعف عرضه وهو ذو زوايا قائمة ، وانها مستقرة على المياه ومحاطة بالمياه ، وتمتد حواليها المحيطات الشاسعة، ووراء هذه المحيطات يوجد الفردوس العظيم. ثم احرزت الأفكار عن الارض بعض التقدم تمثلت بالخارطة المسماة(O in T (OrbisTerranum **أو الخارطة الرومانية ، والتي أصبحت الخارطة المعتمدة في ذلك العهد .** وتصور هذه الخارطة الأرض على شكل حرف (O) يتوسطه الحرف T الذي يمثل البحر المتوسط ، بينما تشغل آسيا النصف الشمالي من الدائرة وافريقيا الربع الجنوبي الشرقي منها وأوروبا الربع الجنوبي الغربي . وقد احتلت مدينة القدس قلب الخارطة ورسم نهر النيل على الجهة اليمنى للبحر المتوسط ونهر الدون على الجهة اليسرى منه ، وحدد موقع الفردوس في أقصى قارة آسيا وراء البحار . وفقدت المعلومات النظرية ـ على سذاجتها ـ أهميتها شيئاً فشيئاً واقتصرت الجغرافية على مجرد وصف مدن معينة تمر بها طرق الحج الى بيت المقدس ، مما جعلها عبارة عن كتب دليلة Guide Books يقوم بكتابتها قساوسة ورجال دين .

في مثل هذا الظرف الذي بلغت فيه العلوم الجغرافية أقصى درجات التدهور والانحطاط برزت الجغرافية العربية في الميدان . وقد استفادت فائدة كبرى من الآراء اليونانية والرومانية في شتى الحقول ، كما سبق أن أشرنا ، حيث عمل المترجمون العرب على نقل أهم المؤلفات الجغرافية والرياضية والفلكية الى اللغة العربية . ثم تلت هذه المرحلة مرحلة الابداع الذاتي التي طوّر فيها العلماء العرب والمسلمون علم الفلك والجغرافيا والرياضيات وبقية العلوم الاخرى تطويرا هاما . ولذلك فقد كانت خدمة العرب للفكر الجغرافي خدمة مزدوجة ؛ فقد حفظوا تراث الاغريق من الضياع ، كما قدموا المفاهيم الجغرافية في حقول متعددة ولا سيما حقلي الجغرافية الفلكية والوصفية . وفي ذلك يقول العلامة كراتشكوفسكي : « لقد وضح جلياً لدى العلماء الاوروبيين ان الأهمية الأساسية للأدب الجغرافي العربي تستند الى ما أسهم به من مادة جغرافية جديدة . . كما ان الجغرافيين العرب وحدهم هم الذين ذللوا الطريق لدراسة المادة الجغرافية الهائلة التي أورثها اليونانيون للعصور الوسطى »[١٢] . وقد اتجه الاوروبيون في بداية نهضتهم العلمية الى اللغة العربية ليتدارسوا علوم اليونان والرومان ويفيدوا من ثمار الفكر العربي والاسلامي . كما انهم نقلوا بعض التراث اليوناني ـ الروماني من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية . ومثال ذلك أن أول ترجمة لكتاب بطليموس المجسطي (الجامع) قد تمت من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية بقلم جيرارد القرموني Gerard of Cremona عام ١١٧٥ م . كذلك تمت ترجمة كتب يونانية أخرى من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية . وقد لعبت الترجمة دوراً مهماً في ايقاظ الفكر الاوروبي من سباته العميق .

وكان للمدرسة المسماة مدرسة طليطلة **أثرٌ فعالٌ** في تلك اليقظة ، حيث قامت بترجمة عدد كبير من مؤلفات العرب واليونان في الفلك والفلسفة والرياضيات الى اللغة اللاتينية . كذلك تولى جيرارد القرموني ترجمة عدد كبير من المؤلفات العربية الى اللغة اللاتينية ، ومن بينها كتابات أولاد موسى بن شاكر والخوارزمي والفرغاني والنيريزي وثابت بن قرة وجابر بن الافلح والزرقالي . وساهم كذلك مترجمون آخرون في هذا الميدان منهم أفلاطون التيفولي Plato of Tivoli وميخائيل سكوتس Micheal Scotus وروبرت أوف شستر Robert of Chester وهرمانوس الالماني Hermanus Allemanus وهم ينتمون جميعاً الى القرن الثالث عشر الميلادي[١٣] .

---

(١٢) كراتشكوفسكي ، ص ٢٢ .

(١٣) جهود المسلمين في الجغرافيا ـ تأليف نفيس أحمد وترجمة فتحي عثمان (سلسلة الألف كتاب) ـ مطابع دار =

وقد أدت هذه الحركة النشطة في الترجمة من العربية الى اللاتينية الى التأثر بالأفكار العربية ، وانعكس هذا التأثر في كتابات العديد من الكتّاب ، منهم ادلارد أوف باث Adlard of Bath وساكروبسكو Sacrobesco وروجر بيكون Roger Bacon[١٤] . وكانت أشد الحقول تأثراً بالآراء العربية هما حقلا الجغرافية الفلكية والرياضية والكشوف الجغرافية . ففي الرياضيات كانت آراء ونظريات الخوارزمي المثل الذي يحتذى ، حتى أن مصطلح (اللوغاريتمات) باللغة اللاتينية اشتق من اسمه الذي كان يلفظ (الغوريثمي) Al—gorithmi . ولقد اعتبره مؤرخ الفكر العالمي العلامة سارتون Sarton « واحداً من أكبر رياضيي جميع العصور على الاطلاق ، اذا أخذنا في الاعتبار اختلاف الظروف »[١٥] .

وأما في حقل الفلك فقد استفاد العلماء الاوروبيون فائدة عظمى من الأزياج التي وضعها الفرغاني والبتاني والزرقالي والخوارزمي وغيرهم ، وأصبحت اسماء Algorithmi and Albategkius and Alfarganus من الاسماء الذائعة في علم الفلك الاوروبي . وهناك العديد من الاسماء العربية للنجوم التي كانت تستعمل في كتب الملاحة الغربية ، ومن بينها الاسماء التالية[١٦] :

الدبران Aldebran القائد Alkaid الطائر Altair بيت الجوزاء Betelguese المرقب Markab المرفق Mirfak الرجل Regal فم الحوت Famalhut .

كذلك استفاد العلماء الاوروبيون من الآلات الفلكية التي قام العرب بتحسين البعض منها ، كآلة (الأصطرلاب) وآلة (اللبنة) و (البوصلة) ، وابتكروا البعض الأخر كـ (المزولة الشمسية) و (الحلقة الصغرى) و (الحلقة الكبرى) و (سداس الفخري) وغيرها .

ولا ريب ان بداية عصر الكشوف الجغرافية الاوروبية قد تأثر أيضاً الى حد غير قليل بالافكار الجغرافية العربية . فلقد شجعت آراء الجغرافين المسلمين عن كروية الارض ومقدار محيطها كريستوف كولمبوس على القيام بمغامرته الكبرى في الانطلاق نحو الشرق عن طريق الغرب . . . تلك المغامرة التي أدت الى اكتشاف الامريكتين . فقد

= القلم - القاهرة ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٢١٣ - ٢١٧ .

(١٥) Sartòn, G., Introduction to the history of Sceince, Baltimore 1946, Voi. I. P. 563.

(١٦) من الوجهة الجغرافية - للدكتور محمد محمود الصياد ، منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٢٨ .

أخذ بنظر الاعتبار حسابات الجغرافيين المسلمين بالميل العربي (وهو أكبر من الميل الايطالي) لمحيط الارض ،مضيفاً الى ذلك تقديرات بطليموس الخاطئة ، مما جعله يعتقد أن عبور المحيط الاطلسي الى الشرق لن يتطلب سوى أيامٍ قليلة(*) . كذلك ساعدت معلومات الجغرافيين العرب عن الصحراء الافريقية الكبرى وجهات غربي افريقيا عدداً من المكتشفين على اقتحام داخل هذه القارة . ومن المعروف ان اكتشاف فاسكو دي غاما لطريق الهند البحري في عام ١٤٩٨ لم يتم الا بالاستعانة بخبرة ملاح عربي (لعله ابن ماجد) الذي قاده بسلام عبر مياه المحيط الهندي . والواقع ان الملاحين الاوروبيين استفادوا كثيراً من معلومات الملاحين المسلمين في التعرف على طبيعة السفر في مياه المحيط الهندي وبحر الصين . وكان الملاحون والجغرافيون العرب قد اكتسبوا في هذا الميدان معرفة واسعة منذ أقدم العصور ، وقد بلغت ذروتها في مؤلفات شهاب الدين احمد بن ماجد الذي يقال انه ألف ما يقرب من ثلاثين كتاباً في هذا الموضوع . ولعل أشهر مؤلفاته (الفوائد) الذي ضم معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهم الملاحين في البحر الاحمر والمحيط الهندي وبحر الصين ، كما جمع فيه خبراته الواسعة التي اكتسبها عن هذه البحار واعماقها وشطوط المرجان فيها وجزرها وموانيها والرياح التي تهب عليها الى غير ذلك مما يهم الملاحين[١٧] .

ولقد تأثر الاوروبيون أيضاً بما أحرزه الجغرافيون العرب من تقدم في فن الخرائط ، ولا سيما ما يتعلق منها بالخرائط البحرية التي يطلق عليها اسم (خرائط البورتلاني) Portlani . ومع أن أصل تلك الخرائط يحوطها الغموض ، غير أن معرفة العرب بشواطىء المحيط الهندي والبحر العربي وامتلاكهم لخرائط متقدمة عن تلك الجهات يشير الى انهم ربما كانوا مصدر تلك الرسوم . وعلى أية حال فالذي لا ريب فيه أن تلك الخرائط قد تأثرت الى درجة ما بالنماذج الاسلامية السابقة لها ان لم تكن قد اقتبست منها ، فضلا عن تأثرها بالكتابات الجغرافية العربية[١٨] .

وهكذا نلاحظ ان الجغرافية العربية قد استطاعت ان تقدم الشيء الكثير للعلم الجغرافي مما ساهم مساهمة طيبة في بعث الجغرافية العلمية الحديثة .

(*) أخذ كولومبوس بقياس العرب لطول الدرجة من محيط الارض وهو ٢/٣ ٥٦ ميل ، الا انه لم يكن يعلم بأن الميل العربي يزيد على الميل الايطالي ٣٨٤ متراً . وهنا موضع خطأ حساباته .

(١٧) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(١٨) نفيس أحمد ، ص ١٢٨ .

الفصل الثاني

في الجغرافية الوصفية والاقليمية

ان الجغرافية الوصفية والاقليمية التي اتخذت اسم (علم المسالك والممالك) تمثل أبرز الحقول في الجغرافية العربية ، وقد أصاب العلّامة كراتشكوفسكي كبد الحقيقة بقوله : « ان منهج الجغرافية الوصفية هو الذي يسترعي النظر بغزارة مادته ، وهو الذي يغلب على الأدب الجغرافي العربي ويسبغ عليه طابعه المميز »[1] .

ولا يمكننا بطبيعة الحال ان نستعرض في هذا الفصل جميع ما كتبه الجغرافيون العرب في هذا الحقل ، ولكننا سنركز على نقاط معينة يمكن أن نتوصل عن طريقها الى تقدير قيمة وأهمية كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين في هذا الحقل . وهذه النقاط هي :

أولا ـ مفهوم الجغرافيين العرب والمسلمين لفكرة « الاقليم » .

ثانياً ـ اضافات الجغرافيين العرب والمسلمين للمعرفة عن « الربع المعمور » .

ثالثاً ـ مميزات الكتابات الجغرافية الوصفية والاقليمية العربية .

(١) كراتشكوفسكي ، ص ١٨ .

- ١ -

مفهوم الجغرافيين العرب والمسلمين لفكرة « الاقليم »

لقد تأثرت الجغرافية العربية منذ ولادتها بفكرة « الاقاليم » . وكانت مهمة الجغرافية الوصفية المبكرة التعرف على أقاليم الأرض وما فيها من دول . وكان يتنازعها في البدء مفهومان « للأقاليم » : المفهوم الايراني والمفهوم اليوناني ، وكل منهما يقسم الأرض المأهولة الى سبعة أقاليم[٢] .

فأما المفهوم الايراني فقد كان هو السائد في الكتابات الجغرافية المبكرة ، وهو مفهوم لا يعتمد على أسس علمية معينة شأن المفهوم اليوناني . فهو يعتبر ايران (أو ايرانشهر) الاقليم المركزي (الرابع) الذي تحيط به بقية أقاليم الارض . وهو يقسّم المعمورة الى سبعة دوائر هندسية متساوية بحيث تكون الدائرة الرابعة في الوسط والدوائر الست تحيط بها من جميع الجهات . وقد نقل ياقوت الحموي عن حمزة الاصفهاني قوله أن الأرض مستديرة الشكل والمسكون منها دون الربع وهذا الربع ينقسم قسمين براً وبحراً ، ثم ينقسم هذا الربع سبعة أقسام يسمى كل منها بلغة

(٢) يقول الدكتور ابراهيم شوكت ان قسمة الارض الى سبعة اقاليم جاءت عن طريق ولع العرب بالتنجيم وربطهم الحوادث بالنجوم . وبما أن بيوتات العرب للعبادة قديما كانت للكواكب السبعة بما في ذلك الشمس والقمر، لذلك سموا هذه على الأقاليم، وعللوا أسباب اختلاف الأقاليم بطبائعها الى هذه النجوم. ثم أن الله سبحانه وتعالى قال لهم انه خلق سبع سماوات ومثلها أرضين ، ولربما كانت قسمة النجوم وتوزيعها على سبعة أقاليم تفسيراً للآية الكريمة . ثم أن رقم سبعة كعدد له حكم شاذ حتى في قواعد اللغة العربية ودليل ذلك وجود الثمانية ، ثم أن أيام الاسبوع عددها سبعة والقسمة قديمة عندهم . فكل ما مر من الأسباب وغيرها أوحت بقسمة الأرض الى سبعة أقاليم ، وهذا تقسيم لم يؤخذ من أحد من الناس وأصالته واضحة (تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به ، ص ١١) .
أما البيروني فيقول بصدد ذلك : (وأما الحقيقة لِمَا جعلوها سبعاً فما أجدني واجده بالطريق البرهاني فان الكافة لم يتنازعوا الا عدد الكواكب السيارة مستدلين عليه بأيام الاسبوع التي لا يختلف فيها ولا في المبدأ الموضوع لها من يوم الأحد مختلف الأمم) .

الفرس « كشخر » وقد استعارت العرب من السريانيين للكشخر اسماً وهو « الاقليم »[٣] . كذلك نقل الحموي عن البيروني أن الفرس قسموا الممالك المطيفة بايرانشهر في سبع كشورات وخطوا حول كل مملكة دائرة وسموها كشخرا ، ذلك أن الدوائر المتساوية لا تحيط بواحدة منها متماسة الا اذا كانت سبعاً تحيط ست منها بواحدة[٤] . ولقد اشتمل التقسيم الايراني على الاقاليم التالية[٥] :

١ ـ الاقليم الاول : المسمى الهند ، وهو الى الشرق الشمالي من الاقليم الرابع المركزي وحدّه مما يلي المشرق السند والبحر الى الديبل من أرض السند والجزائر المنسوبة اليهم من الديبجات والزابج ، وآخر حدوده مكران الى حدود البصرة فيما بين الهند واليمن .

٢ ـ الاقليم الثاني المسمى الحجاز وهو الى الجنوب من الاقليم الرابع مباشرة ، وحدّه مما يلي مصر وعدن واليمن وبادية العرب وبلاد الجزيرة بين نهري الفرات ودجلة الى أرض الثعلبية مما يلي العراق .

٣ ـ الاقليم الثالث المسمى مصر وهو الغرب الشمالي من الاقليم الرابع ، وحده أرض الحبشة مما يلي أرض الحجاز الى البحر الأخضر مما يلي الروم الى نصيبين مما يلي العراق ، يدخل فيه مصر والاسكندرية الى أقصى المغرب والسودان الذين في البراري والبربر .

٤ ـ الاقليم الرابع المسمى بابل وهو في الوسط ، وحده مما يلي الهند والديبل ومما يلي الحجاز الثعلبية ومما يلي الروم نصيبين ومما يلي مصر الشام ومما يلي خراسان نهر بلخ ، وفيه العراق والجبل وخراسان وسجستان وزابلستان وطخارستان .

٥ ـ الاقليم الخامس المسمى الروم وهو الى الغرب الجنوبي من الاقليم الرابع ، وحده مما يلي مصر الخليج ومما يلي المغرب البحر الأخضر* ومما يلي الترك ياجوج ومما يلي العراق نصيبين وفيه الروم وفرنجة والاندلس وجرجان واذربيجان الى باب الابواب .

٦ ـ الاقليم السادس المسمى ياجوج وماجوج وهو الى الشمال من الاقليم الرابع

(٣) معجم البلدان ـ ياقوت الحموي ، طبعة داري صادر ـ بيروت سنة ١٩٥٥ الجزء الاول ، ص ٢٥ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٦ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(*) المقصود به بحر العرب .

الجنوب

الشمال

شكل ١ : مخطط للأقاليم السبعة حسب المفهوم الايراني

مباشرة ، وحده مما يلي المغرب الترك ومما يلي الخزر البحر ومما يلي المشرق الصين ومما يلي العراق نهر بلخ وفيه الخزر والترك والغز وخزخيز وكيماك واصنافهم والروس والصقالبة .

٧ ـ الاقليم السابع المسمى الصين وهو الى الشرق الجنوبي من الاقليم الرابع ، وحده مما يلي المغرب ياجوج وماجوج ومما يلي المشرق البحر المحيط ومما يلي الهند قشمير ومما يلي خراسان نهر بلخ وفيه الصين والتبت والختن وبلاد ما وراء النهر والاتراك المحاذية لها .

وكما أشرنا سابقاً فان هذا المفهوم للاقاليم لم يؤخذ به الا في البدايات المبكرة للكتابات الجغرافية العربية حينما كانت متأثرة بالآراء الفارسية والهندية . ومن الأمثلة على التأثر بهذا المفهوم أيضاً ما ورد في حديث ابن الفقيه الهمداني عن الاقاليم في مؤلفه (مختصر كتاب البلدان) المؤلف في نهاية القرن الثالث الهجري حيث قال[١٦] :

« وقالوا ان الاقاليم سبعة ، اقليم في أيدي العرب واقليم في ايدي الروم واقليم في ايدي الحبشة واقليم في ايدي الهند واقليم في ايدي الترك واقليم في ايدي الصين واقليم في ايدي ياجوج وماجوج ، لا يدخل هؤلاء أرض هؤلاء ولا هؤلاء الى هؤلاء . فالاقليم الاول مبتدؤه من ارض المحرقة التي تدعى باليونانية ريامياروس ومنتهاه أرض سرنديب ، وسكانه سود قباح الوجوه عراة كالسباع واعمارهم طويلة ودوابهم وطيورهم اعظم من عامة البهائم والطير ، وطوله خمسة آلاف وخمسمائة فرسخ وعرضه مائتان وخمسة وثمانون فرسخ . والاقليم الثاني من العرض أرض سرنديب ومنتهاه أرض الحبشة ، وهناك معدن الزبرجد والببغاء ، ومنتهاه من قبل شرقيه أرض السند قريب من كابل وزابلستان ، وهناك سباع ضارية وحشرات وطير ممتنعة وأهلها أقصر أعمارا وهم دون الاول في القبح . والاقليم الثالث مبتدؤه عرض أرض الصفد وجرجان حتى ينتهي الى أرض الترك وحد الصين الى أقصى المشرق ، ومن غربيه نحو مصر ومن شرقيه السند وعدن ، ومنتهى عرضه أرض الشام وفارس واصبهان ، وهناك ناس حكماء ، وعرضه وطوله مثل الاول . والاقليم الرابع بلاد بابل متوسط الاقاليم وهو افضلها مزاجا ، ومبتدؤه من افريقيا الى بلخ الى مشرق الارض ، وعرضه وطوله

(٦) مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمداني ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن عام ١٨٨٥ ، ص ٦ ـ ٧ .

كالاول . والاقليم الخامس قسطنطينية والروم والخزر وعرضه وطوله كالاول . والاقليم السادس فرنجة وأمم أخرى وعرضه وطوله كالاول . والاقليم السابع الترك ورجالهم ونساؤهم متّركو الوجوه لغلبة البرد عليهم وسباعهم صغيرة ولا يوجد هناك حشرات ولا هوام .

غير ان هذا المفهوم الاقليمي ما لبث ان أُهمل تدريجيا حتى لم يعد يتردد ذكره في كتب الجغرافية العربية ، وحل محله المفهوم الاقليمي اليوناني . وكانت الافكار الاغريقية ـ الرومانية قد بدأت تسيطر على كتابات الجغرافية العربية منذ أواخر القرن الثالث الهجري حينما نشرت أكثر من ترجمة لكتابي بطليموس (المجسطي) و (جغرافيا) . وكان التقسيم اليوناني الاقليمي للارض المعمورة يستند الى أسس علمية أكثر من التقسيم الايراني ، اذ انه يعتمد على تحديد مواضع الارض على أساس فلكي . ولقد بلغ هذا المفهوم الاقليمي أوج نضجه على يدي بطليموس حيث قسم الارض المعمورة الى سبعة أقاليم على هيئة احزمة عريضة تمتد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب فوق خط الاستواء ، ويختلف كل اقليم عن الآخر بعدد ساعات النهار فيه . ويبدأ الاقليم الاول بحوالي خط عرض ١٦° جنوباً وينتهي الاقليم السابع بحوالي خط عرض ٦٣° شمالا . وتتفاوت عروض الاقاليم فيما بينها بحيث تختلف أطول أيام السنة بمقدار نصف ساعة من اقليم الى آخر . ونظرا لان الجغرافيين والفلكيين العرب الاوائل قد وقعوا تحت تأثير كتابي (الجغرافيا) و (المجسطي) ، فقد ساد في كتاباتهم التقسيم البطليموسي للارض المعمورة ، كما اعتمدوا عليه في تحديد الاطوال والعروض والمواقع . ولا شك ان كتاب الخوارزمي المعنون (صورة الارض) يمثل أفضل انعكاس وصل الى ايدينا للاقاليم البطليموسية في الجغرافية العربية ، بيد أن هناك اختلاف بين الباحثين بشأن هذا الكتاب . فمنهم من يعتقد انه ليس سوى ترجمة مختصرة لكتاب (جغرافيا) لبطليموس ، ومن هؤلاء ناشر المخطوطة هانس فون مزيك الذي جعل عنوانه (كتاب صورة الارض من المدن والجبال والبحار والجزائر والانهار استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب جغرافيا الذي ألفه بطليموس القلوذي)[٧] . غير أن عدداً آخر من الباحثين يرى بأن كتاب الخوارزمي هذا لا علاقة له بكتاب جغرافيا لبطليموس . وينفي أحدهم بشدة مثل هذه العلاقة مؤكداً بأن

(٧) راجع كتاب (صورة الارض) ـ لمحمد بن موسى الخوارزمي ، نشر مكتبة المثنى عن طبعة لهانس فون مجيك .

الخوارزمي قد ألف كتابه هذا قبل اطلاعه على ترجمة الكندي لذلك الكتاب[٨] . ويذهب كرايمر نفس هذا المذهب ، ويقول بصدد ذلك) « ان جداول كتاب صورة الارض للخوارزمي قد رتبت على طريقة الاقاليم السبعة وهي الطريقة التي مهر فيها العلماء المسلمون على ما يظهر قبل أن يتلقوا جغرافية بطليموس ، ومن ثم أصبحت هذه الطريقة مذهباً شائعاً في المصنفات الفلكية الاسلامية وفي كثير من الرسائل الجغرافية بعد أن كانت في الجغرافية القديمة فكرة ثانوية . . »[٩] .

ومهما يكن الأمر فان تقسيم الخوارزمي لاقاليم الارض المعمورة يكشف عن تشابه مع تقسيم بطليموس ، الا أن الخوارزمي اعتبر الحد الجنوبي للمعمور من الارض خط عرض ١٦ درجة و ٢٥ دقيقة جنوب خط الاستواء في حين اعتبره بطليموس خط عرض ١٦ درجة جنوباً ، كما انه جعل خط الطول الرئيسي (خط صفر) يبدأ عند الساحل الافريقي الغربي ، بينما يبدأ خط الطول (صفر) في التقسيم البطليموسي عند جزائر السعادة (جزر كناري) ، أي ان بينهما حوالي عشر درجات . وقد أورد الخوارزمي حدود أقاليم الارض المعمورة السبع على النحو التالي[١٠]* :

عروض الأقاليم

الأقاليم	الدرجات	الدقائق	الدرجات	الدقائق	درجة	دقيقة
١ ـ الاقليم الاول من	٠٠	٠٠	الى ١٦	٢٤	١٦	٢٤
٢ ـ الاقليم الثاني من	١٦	٢٤	الى ٢٤	٥	٧	٤١
٣ ـ الاقليم الثالث من	٢٤	٥	الى ٣٠	٢٢	٦٠	١٧
٤ ـ الاقليم الرابع من	٣٠	٢٢	الى ٣٦	٥	٥	٤٣
٥ ـ الاقليم الخامس من	٥٦	٥	الى ٤١	٥	٥	١٠
٦ ـ الاقليم السادس من	٤١	٥	الى ٤٥	٠٠	٣	٥٥
٧ ـ الاقليم السابع من	٤٥	٠٠	الى ٤٨	٠٠	٣	٠١

(ما خلف الاقليم السابع الى درجة عرض ٦٣ وهو آخر العمران)

(٨) راجع بحث ابراهيم شوكت المعنون (تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به) ، ص ٨ ـ ٩ .

(٩) الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ـ تأليف الدكتور أحمد سوسة ـ الباب الأول ، منشورات نقابة المهندسين العراقية ـ بغداد ١٩٧٤ ، ص ١٢٣ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

(*) من المفيد أن نشير هنا الى أن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا يدوّنون درجات العرض والطول للاقاليم =

شكل ٢ ـ مخطط للاقاليم السبعة حسب المفهوم البطليموسي (عن ياقوت الحموي)

ولقد ظل هذا المفهوم الاقليمي للارض المعمورة ذي الملامح البطليموسية اليونانية

= بالحروف بدلا من الارقام وقد أعطوا تلك الحروف الارقام التالية :
أ = ١ ، ب = ٢ ، ج = ٣ ، د = ٤ ، هـ = ٥ ، و = ٦ ، ز = ٧ ، ح = ٨ ، ط = ٩ ، ي = ١٠ ، ك = ٢٠ ، ل = ٣٠ ، م = ٤٠ ، ن = ٥٠ ، س = ٦٠ ، ع = ٧٠ ، ف = ٨٠ ، ص = ٩٠ ، ق = ١٠٠ ، ر = ٢٠٠ ، ش = ٣٠٠ ، ت = ٤٠٠ ، ث = ٥٠٠ ، خ = ٦٠٠ ، ذ = ٧٠٠ ، ظ = ٨٠٠ ، ض = ٩٠٠ ، غ = ١٠٠٠ .

سائداً في كتابات الجغرافية العربية وروّجه على نحو الخصوص الفرغاني والخوارزمي وسهراب والبيروني والادريسي ، الا ان امتدادات كل اقليم من تلك الاقاليم وما يشتمل عليه من بلدان الأرض كانت تتسع باتساع معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن جهات الارض المعمورة . والحقيقة ان استعراض كتابات الجغرافيين العرب والمسلمين عبر القرون عن الاقاليم السبعة توضح بنا مدى ما بلغته الجغرافية العربية من تقدم في معرفتها بجهات الارض المأهولة . وسنستعرض في الصفحات التالية كتابات ثلاثة من الجغرافيين المسلمين الكبار عن الاقاليم السبعة تمثل مختلف مراحل تطور المعرفة الجغرافية العربية ببلدان الارض ، وهم ابن رستة وياقوت الحموي وابن خلدون .

قال ابن رستة في المجلد السابع من كتابه (الاعلاق النفيسة) المؤلف في حوالي عام ٢٩٠ هـ متحدثا عن الاقاليم السبعة (وهو ينقل عن الخوارزمي كما يبدو) : « ذكر الاقاليم السبعة واسماء مدنها المشهورة » .

الاقليم الاول يبتدىء من المشرق من أقاصي بلاد الصين ويمر على الصين ثم يمر على سواحل البحر في جنوب بلاد السند ثم يمر في البحر على جزيرة الكول ويقطع البحر الى جزيرة العرب وارض اليمن . فيكون فيه من المدائن المعروفة مدينة ظفار وعمان وحضرموت وعدن وصنعاء وما وراء تبالة وجرش ومهرة وسبأ . ثم يقطع الاقليم بحر قلزم فيمر على بلاد الحبشة ويقطع نيل مصر وفيه هناك مدينة ملك الحبشة تسمى جرمى ودنقلة مدينة النوبة ثم يمر الاقليم في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر الى أن ينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم الثاني يبتدىء من المشرق فيمر على بلاد الصين ثم على بلاد الهند ثم بلاد السند وفيه المنصورة والنيرون والديبل ثم يمر بملتقى البحر الاخضر وبحر البصرة ويقطع الجزيرة العربية في ارض نجد وارض تهامة وفيه من المدن هناك اليمامة والبحرين وهجر ومدينة يثرب والبحار ومكة والطائف وجدة ثم يقطع بحر القلزم ويمر بصعيد مصر فيقطع النيل وفيه من المدن هناك مدينة قوس واخميم واسناي واتصنا واسوان ثم يمر بارض المغرب في وسط بلاد أفريقية ثم يمر على بلاد البربر فينتهي الى بحر المغرب .

والاقليم الثالث يبتدىء من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين ثم على بلاد الهند وفيه مدينة القندهار وسجستان وجيرفت والسرجان ثم على سواحل البصرة ، وفيها من المدن مدينة اصطخر وفسا وجور ونيسابور وشيراز وسيراف وجنابا وسينين

وماهيروبان ويمر بكور الاهواز والعراق وفيها البصرة وواسط وبغداد والكوفة والانبار وهيت . ثم يمر على بلاد الشام وفيها من المدن الحيار وسلمية وحمص ودمشق وصور وعكا والطبرية وقيسارية ورسوف وبيت المقدس ورملة وعسقلان وغزة ومدكين وقلزم ثم يقطع الى أسفل أرض مصر وفيها الفرما وتنيس ودمياط وفسطاط مصر والفيوم والاسكندرية . ثم يمر على بلاد برقة ثم على بلاد أفريقية وفيها مدينة القيروان وينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم الرابع يبتدىء من المشرق فيمر ببلاد التبت ثم على خراسان فيكون فيها من المدن فرغانة وخجندة واشروشنة وسمرقند وبخارا وبلخ ومرو الروذ ومرو وسرخس وطوس ونيسابور وجرجان وقومس وطبرستان ودنباوند وقزوين والديلم والري واصبهان وقم وهمذان ونهاوند والدينور وحلوان وشهرزور وسر من رأى والموصل وبلد ونصيبين وآمد ورأس العين وقالي قلا وشمشاط وحران والرقة وقرقيسيا . ويمر على شمال الشام ففيه من المدن بالس ومنبج وسميساط وملطية وزبطرة وحلب وقنسرين وانطاكية وطرابلس والمصيصة والكنيسة السوداء وأذنة وطرسوس وعمورية ولاذقية ثم يمر في بحر الشام على جزيرة قبرص ورودس . ثم يمر في أرض المغرب على بلاد طنجة وينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم الخامس يبتدىء من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمر على شمال خراسان وفيها من المدن الطراز مدينة التجار ونويكت واسبيجاب والشاش وطراربند وخوارزم واذربيجان وكور ارمينية وبرذعة نشوى وسيسجان وأرزن وخلاط . ويمر في بلاد الروم على خرشنة وقرة والرومية الكبيرة ، ثم يمر بساحل بحر الشام مما يلي الشمال ثم على بلاد الاندلس حتى ينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم السادس يبتدىء من المشرق ويمر على بلاد مأجوج ثم على بلاد الخزر فيقطع بحر طبرستان الى بلاد الروم فيمر على جرزان وأماسيا وهرقلة وخلقيدون والقسطنطينية وبلاد برجان وينتهي الى بحر المغرب .

الاقليم السابع يبتدىء من المشرق من شمال ياجوج ثم يمر على بلاد الترك ثم على سواحل بحر طبرستان مما يلي الشمال ثم يقطع بحر الروم فيمر ببلاد برجان والصقالبة وينتهي الى بحر المغرب .

وأما وراء هذه الاقاليم الى تمام الموضع المسكون الذي عرفناه فانه يبتدىء من المشرق من بلاد يأجوج ثم يمر على بلاد التغزغز وأرض الترك ثم على بلاد اللان ثم

على الأبر ثم على برجان والصقالبة وينتهي الى بحر المغرب .

فهذه مواضع عمران الارض وموضع بحورها مما يعرف . فأما ما وراء ذلك فأرضين مجهولة لم يصل اليها أحد من هذه الاقاليم ولا ذكر أحد انه عاين أحداً من تلك الارضين فلا يعلم ما فيها من نبات أو حيوان ، الا أنه قد نعلم اضطراراً انه غير ممكن أن يكون في المطالع التي يفرط حرها أو بردها حيوان أو نبات »[١٢] .

فاذا ما انتقلنا الى حديث ياقوت الحموي عن الاقاليم السبعة (المنقول عن أبي الريحان البيروني كما يشير الى ذلك صراحة) والذي ورد في كتابه (معجم البلدان) المؤلف عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م . وجدنا تقدما واضحا في المعرفة الجغرافية بالجهات المتطرفة من قارة اوروبا وآسيا وأفريقيا . وقد ورد لديه التعريف بالاقاليم السبعة على النحو التالي :

« فالاقليم الاول : أوله حيث يكون الظل نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار قدماً واحدة ونصفا وعشراً وسدس قدم ، وآخره حيث يكون ظل الإستواء فيه نصف النهار قدمين وثلاثة أخماس قدم ، فهو من المشرق يبتدىء من أقصى بلاد الصين ويمر على ما يلي الجنوب من الصين ، وفيه جزيرة سرنديب ، وعلى سواحل البحر في جنوب بلاد السند ، ثم يقطع البحر الى جزيرة العرب وأرض اليمن ، ويقطع بحر القلزم الى بلاد الحبشة ، ويقطع نيل مصر وينتهي الى بحر المغرب ، فوقع وسطه قريبا من أرض صنعاء وحضرموت ، ووقع طرفه الذي يلي الجنوب قريبا من أرض عدن ، ووقع طرفه الذي في الشمال بتهامة قريباً من مكة ، ووقع فيه من المدن المعمورة مدينة ملك الصين ، وجنوب السند ، وجزيرة الكرك وجنوب الهند ، ومن اليمن : صنعاء وعدن وحضرموت ونجران وجرش وجيشان وصعدة وسبأ وظفار ومهرة وعمان . ومن بلاد المغرب تبالة ، ومدينة صاحب الحبشة جرمي ، ومدينة النوبة دمقلة وجنوب البرابر وغانة من بلاد سودان المغرب الى البحر الاخضر .

الاقليم الثاني : حيث يكون ظل الاستواء في أوله نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار ، قدمين وثلاث أخماس قدم ، وآخره حيث يكون ظل الاستواء فيه نصف النهار ثلاثة اقدام ونصفاً وعشر سدس قدم ، ويبتدىء في المشرق فيمر على بلاد

(١٢) الاعلاق النفيسة - تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رسته - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن ، ص ٩٦ - ٩٩ .

الصين وبلاد الهند وعلى شماليها جبال قامرون وكنوج والسند ويمر بملتقى البحر الأخضر وبحر البصرة ، ويقطع جزيرة العرب في أرض نجد وتهامة والبحرين ، ثم يقطع بحر القلزم ونيل مصر الى أرض المغرب ، وفيه من المدن مدن بلاد الصين والهند ومن السند المنصورة، وبلاد التتر، والديبل ويقطع البحر الى أرض العرب، الى عمان، فيقطع في وسطه مدينة الرسول (ص) يثرب ، ووقع في أقصاه الذي يلي الجنوب وراء مكة قليلا ، ووقع في طرفه الادنى الذي يلي الشمال بقرب الثعلبية ، وكل واحد من مكة والثعلبية من اقليمين ، وكذلك كل ما كان في سمتهما ، ووقع في هذا الاقليم من مشهور المدن مكة والمدينة وفيد والثعلبية واليمامة وهجر وتبالة وجدة والطائف ووجدة ومملكة الحبشة وارض البجة ، ومن أرض النيل : قوص واخميم وانصنا واسوان ، ومن المغرب : افريقيا وجبال من البربر الى أرض المغرب .

الاقليم الثالث : أوله حيث يكون الظل نصف النهار اذا استوى الليل والنهار ثلاثة اقدام ونصفا وعشراً وسدس عشر قدم ، وآخره حيث يكون ظل الإستواء فيه نصف النهار أربعة أقدام ونصفاً وثلث عشر قدم ، فيبلغ النهار في وسطه أربع عشرة ساعة ، وهو يبتدىء من المشرق فيمر على شمال بلاد الصين ، ثم الهند ثم السند ثم كابل وكرمان وسجستان وفارس والاهواز والعراقين والشام ومصر والاسكندرية وفيه من المدن بعد بلاد الصين في وسطه بالقرب من مدين في شق الشام ، وأقصة في شق العراق ، وصارت الثعلبية وما كان في سمتها شرقاً وغرباً في طرفه الأقصى الذي يلي الجنوب ، وصارت مدينة السلام فارس وقندهار والهند ، وحد أرض السند الملتان ، ونهاية ، وكرور وجبال الافغانية وهور الشام وطبرية وبيروت ، في حده الأدنى الذي يلي الشمال ، وكذلك كل ما كان في سمت ذلك شرقاً وغرباً بين اقليمين . ووقع في هذا الاقليم من المدن المعروفة : غزنة ، وكابل ، والرخج وجبال زبلستان وسجستان واصفهان وبست وزرنج وكرمان . ومن فارس اصطخر وجور وفسا وسابور وشيراز وسيراف وجنابة وسينيز ومهروبان وكور آلأهواز كلها ، ومن العراق : البصرة وواسط والكوفة وبغداد والانبار وهيت والجزيرة . ومن الشام : حمص في بعض الروايات ودمشق وصور وعكا وطبرية وقيسارية وارسوف والرملة والبيت المقدس وعسقلان وغزة ومدين والقلزم ، ومن أرض مصر : فرما وتنيس ودمياط والفسطاط والاسكندرية والفيوم . ومن المغرب برقة وأفريقية والقيروان وقبائل البربر في أرض المغرب وتاهرت والسوس وبلاط طنجة وينتهي الى البحر المحيط .

الاقليم الرابع : وهو حيث يكون الظل اذا استوى الليل والنهار في آذار نصف

النهار أربعة أقدام وثلاثة أخماس قدم وثلث خمس قدم . ويبتدىء من أرض الصين والتبت والختن وما بينهما من المدن،ويمر على جبال كشمير وبلور وبرجان وبذخشان وكابل وغور وهراة وبلخ وطخارستان ومرو وقوهستان ونيسابور وقومس وجرجان وطبرستان والري وقم وقاشات وهمذان وآذربيجان والموصل وحران وعزاز والثغور وجزيرة قبرص ورودس وصقلية الى البحر المحيط على الزقاق بين الاندلس وبلاد المغرب ، فوقع طرف هذا الإقليم الادنى الذي يلي العراق بالقرب من بغداد وما كان على سمتها شرقاً وغرباً ووقع طرفه الادنى الذي يلي الشمال بالقرب من قاليقلا وساحل طبرستان الى أردبيل وجرجان وما كان من هذا السمت ، وفيه من مشاهير المدن غير ما ذكره : نصيبين ودارا والرقتان ورأس عين وسميساط والرهاء ومنبج وحلب وقنسرين وانطاكية وحمص في رواية ، والمصيصة وأذنة وطرسوس وسر من رأى وحلوان وشهرزور وماسبذان والدينور ونهاوند واصفهان ومراغة وزنجان وقزوين والكرخ وسرخس واصطخر وطوس ومرو الروذ وصيدا والكنيسة السوداء وعمورية واللاذقية .

الاقليم الخامس : أوله حيث يكون الظل نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار خمسة أقدام وثلاثة أخماس قدم وسدس خمس قدم ووسطه حيث يكون الظل نصف النهار ، اذا استوى الليل والنهار ستة أقدام ، وآخره حيث يكون الظل نصف النهار شرقاً أو غرباً ستة أقدام ونصف عشر وسدس عشر قدم ، والذي بين طرفيه عرضاً نحو من مائة وثلاثين ميل في الزاوية .

ويبتدىء من أرض الترك المشرقين ويأجوج المسدودين ، ويمر على أجناس الترك المعروفين بقبائلهم الى كاشغر والاصيفون وزاشت وفرغانة واسبيجاب وشاش واشروسنة وسمرقند وبخارا وخوارزم وبحر الخزر الى باب الابواب وبرذعة وميافارقين وأرمينية ودروب الروم وبلادهم ، وعلى رومية الكبرى وأرض الجلالقة وبلاد الاندلس وينتهي الى البحر المحيط . ووقع في وسطه بالقرب من أرض تفليس من بلاد ارمينية ومن جرجان وكل ما كان في هذا السمت من البلدان شرقاً وغرباً ، ووقع طرفه الذي يلي الجنوب بالقرب من خلاط وديبل وسميساط وملطية وعمورية ، وما كان في سمت هذا من البلدان شرقاً وغرباً ، ووقع طرفه الأقصى الذي يلي الشمال بالقرب من دبيل ، وفي سمته بلدان يأجوج ومأجوج .

الاقليم السادس : أوله حين يكون الظل نصف النهار في الاستواء سبعة أقدام وستة أعشار وسدس عشر قدم ، يفضل آخره على أوله بقدم واحدة فقط ، يبتدىء من

مساكن ترك المشرق من قاني وقون وخرخيز وكيماك والتغزغز وأرض التركمانية وفاراب وبلاد الخزر وشمال بحرهم واللان والسرير بين هذا البحر وبحر طرابزندة ، ويمر على أرض القسطنطينية وأرض الفرنجة وشمال الاندلس ، حتى ينتهي الى بحر المغرب ، وعرض هذا الاقليم في بعض الروايات نحو من مئتي ميل ونيف ، طرفه الأدنى الذي يلي الجنوب حيث وقع طرفه الأقصى الذي يلي الشمال ، فوقع بالقرب من أرض خوارزم ووراءها من طرابزندة الشاش مما يلي الترك ، ووقع وسطه بالقرب من القسطنطينية ، ومن آمل : خراسان وفرغانة ، وقد وقع في هذا الاقليم في رواية بعضهم كثير من المدن المذكورة في الاقليم الخامس وغيرها ، ومنها : سمرقند وباب الخزر والجبل واطراف بلاد الاندلس التي تلي الشمال ، واطراف بلاد الصقالبة التي تلي الجنوب ، وهرقلة .

الاقليم السابع : أوله حيث يكون النهار في الاستواء سبعة أقدام ونصفاً وعشراً وسدس عشر قدم كما هو في الاقليم السادس لان آخره أول هذا ، وآخره حيث يكون الظل نصف النهار في الاستواء ثمانية أقدام ونصفاً ونصف عشر قدم ، وليس فيه كثير من العمران ، انما هو في المشرق غياض وجبال يأوي اليها فرق من الترك كالمستوحشين ، ويمر على جبال باشغرو وحدود البجناكية وبلدي سرار وبلغار والروس والصقالبة والبلغرية وينتهي الى البحر المحيط . وقليل من وراء هذا الاقليم من الأمم مثل أيسو ورانك وبوزة وأمثالهم . ووقع في طرفه الادنى الذي يلي الجنوب حيث وقع الطرف الاقصى الشمالي من الاقليم الخامس ، وطرفه الأقصى في الأقليم السادس الذي يليه ، وذلك سمت خوارزم وطرابزندة شرقاً وغرباً ، ووقع في طرفه الأقصى الذي يلي الشمال في أقاصي أراضي الصقالبة شرقاً وأطراف الترك الذين يلون خوارزم في الشمال ، ووقع وسطه في اللان ، ولم يقع فيه مدن معروفة فتذكر ، وأطول نهار هؤلاء في أول الأقليم خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة وأوسطه ست عشرة ساعة وآخره ست عشرة ساعة وربع »[١٣] .

أما حديث ابن خلدون عن الاقاليم السبعة (والذي اعتمد فيه بدرجة رئيسية على الادريسي) فانه يمثل أقصى اتساع للمعرفة عن الربع المعمور كما ورد في كتابات الجغرافية العربية . وقد شرح ابن خلدون الاقاليم السبعة في (مقدمته) المؤلفة في

(١٣) ياقوت الحموي - المصدر الاسبق ، ص ٢٨ -٣٢ .

أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي على النحو التالي :

« الاقليم الاول : وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ، وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ، ويقال انها معمورة . وقد بلغنا ان سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض اسراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان . فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة . ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها ، لان سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب . واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلاف مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدي الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الابخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها . وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدأه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اولئك . وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانه وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان والى بلادهم تسافر تجار المغرب الاقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها . وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم واصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا اناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما

مساكن ترك المشرق من قاني وقون وخرخيز وكيماك والتغزغز وأرض التركمانية وفاراب وبلاد الخزر وشمال بحرهم واللان والسرير بين هذا البحر وبحر طرابزندة ، ويمر على أرض القسطنطينية وأرض الفرنجة وشمال الاندلس ، حتى ينتهي الى بحر المغرب ، وعرض هذا الاقليم في بعض الروايات نحو من مئتي ميل ونيف ، طرفه الأدنى الذي يلي الجنوب حيث وقع طرفه الأقصى الذي يلي الشمال ، فوقع بالقرب من أرض خوارزم ووراءها من طرابزندة الشاش مما يلي الترك ، ووقع وسطه بالقرب من القسطنطينية ، ومن آمل : خراسان وفرغانة ، وقد وقع في هذا الاقليم في رواية بعضهم كثير من المدن المذكورة في الاقليم الخامس وغيرها ، ومنها : سمرقند وباب الخزر والجبل واطراف بلاد الاندلس التي تلي الشمال ، واطراف بلاد الصقالبة التي تلي الجنوب ، وهرقلة .

الاقليم السابع : أوله حيث يكون النهار في الاستواء سبعة أقدام ونصفاً وعشراً وسدس عشر قدم كما هو في الاقليم السادس لان آخره أول هذا ، وآخره حيث يكون الظل نصف النهار في الاستواء ثمانية أقدام ونصفاً ونصف عشر قدم ، وليس فيه كثير من العمران ، انما هو في المشرق غياض وجبال يأوي اليها فرق من الترك كالمستوحشين ، ويمر على جبال باشغرو وحدود البجناكية وبلدي سرار وبلغار والروس والصقالبة والبلغرية وينتهي الى البحر المحيط . وقليل من وراء هذا الاقليم من الأمم مثل أيسو ورانك وبوزة وأمثالهم . ووقع في طرفه الادنى الذي يلي الجنوب حيث وقع الطرف الاقصى الشمالي من الاقليم الخامس ، وطرفه الأقصى في الأقليم السادس الذي يليه ، وذلك سمت خوارزم وطرابزندة شرقاً وغرباً ، ووقع في طرفه الأقصى الذي يلي الشمال في أقاصي أراضي الصقالبة شرقاً وأطراف الترك الذين يلون خوارزم في الشمال ، ووقع وسطه في اللان ، ولم يقع فيه مدن معروفة فتذكر ، وأطول نهار هؤلاء في أول الأقليم خمس عشرة ساعة ونصف وربع ساعة وأوسطه ست عشرة ساعة وآخره ست عشرة ساعة وربع »[١٣] .

أما حديث ابن خلدون عن الاقاليم السبعة (والذي اعتمد فيه بدرجة رئيسية على الادريسي) فانه يمثل أقصى اتساع للمعرفة عن الربع المعمور كما ورد في كتابات الجغرافية العربية . وقد شرح ابن خلدون الاقاليم السبعة في (مقدمته) المؤلفة في

(١٣) ياقوت الحموي - المصدر الاسبق ، ص ٢٨ -٣٢٠ .

أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي على النحو النالي :

« الاقليم الاول : وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ، وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة أكبرها وأشهرها ثلاث ، ويقال انها معمورة . وقد بلغنا ان سفائن من الافرنج مرت بها في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض اسراهم بسواحل المغرب الاقصى وصاروا الى خدمة السلطان . فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال جزائرهم وانهم يحتفرون الارض للزراعة بالقرون وان الحديد مفقود بارضهم وعيشهم من الشعير وماشيتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها الى خلف وعبادتهم السجود للشمس اذا طلعت ولا يعرفون دينا ولم تبلغهم دعوة . ولا يوقف على مكان هذه الجزائر الا بالعثور لا بالقصد اليها ، لان سفر السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات مهابها والى أين يوصل اذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في ممر ذلك المهب . واذا اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذاة يحمل السفينة بها على قوانين في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذين هم رؤساء السفن في البحر والبلاد التي في حافات البحر الرومي وفي عدوته مكتوبة كلها في صحيفة على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح وممراتها على اختلاف مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها يعتمدون في أسفارهم وهذا كله مفقود في البحر المحيط فلذلك لا تلج فيه السفن لانها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدي الى الرجوع اليها مع ما ينعقد في جو هذا البحر وعلى سطح مائه من الابخرة الممانعة للسفن في مسيرها وهي لبعدها لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الارض فتحللها فلذلك عسر الاهتداء اليها وصعب الوقوف على خبرها . وأما الجزء الاول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل الآتي من مبدأه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب الى البحر المحيط فيصب فيه عند جزيرة اولئك . وعلى هذا النيل مدينة سلا وتكرور وغانه وكلها لهذا العهد في مملكة ملك مالي من أمم السودان والى بلادهم تسافر تجار المغرب الاقصى وبالقرب منها من شماليها بلاد لمتونة وسائر طوائف الملثمين ومفاوز يجولون فيها . وفي جنوبي هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكتوون في وجوههم واصداغهم ، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم الى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر الا اناسي أقرب الى الحيوان العجم من الناطق يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة وربما

يأكل بعضهم بعضاً وليسوا في عداد البشر . وفواكه بلاد السودان كلها من قصور صحراء المغرب مثل توات وتكدرارين ووركلان . فكان في غانة فيما يقال ملك ودولة لقوم من العلويين يعرفون ببني صالح . وقال صاحب كتاب زخار انه صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن . ولا يعرف صالح هذا في ولد عبد الله بن حسن . وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غانة لسلطان مالي . وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع مَن بعض الجبال هنالك ويمر مغرباً فيغوص في رمال الجزء الثاني وكان ملك كوكو قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي واصبحت في مملكته وخربت لهذا العهد من أجل فتنة وقعت هناك نذكرها عنه ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر . وفي جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من أمم السودان ، وبعدهم ونغارة على ضفة النيل من شماليه . وفي شرقي بلاد ونغارة وكاتم بلاد زغاوة وتلسرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع من هذا الاقليم ، وفيه يمر نيل مصر ذاهبا من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر الرومي في الشمال ، ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذه اللفظة فضبطها بعضهم بفتح القاف والميم نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشترك لياقوت بضم القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من اهل الهند ، وكذا ضبطه ابن سعيد . فيخرج من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمس منها في بحيرة وبينهما ستة أميال . ويخرج من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة انهار تجتمع كلها في بطيحة واحدة في اسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال . وينقسم ماؤها بقسمين فيمر الغربي منه الى بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ، ويخرج الشرقي منه ذاهباً الى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما . وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد في بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم الاول . وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى اسوان . وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق ، وبعدهما جبل الجنادل على ستة مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا هائلا فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة الصعيد الى فوق الجنادل . وبين الجنادل واسوان اثنتا عشرة مرحلة . والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الان خراب وبها آثار العمارة

القديمة . وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهباً الى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط الى مصر وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا انه من نيل القمر وبطليموس ذكره في كتاب الجغرافيا وذكر انه ليس من هذا النيل . والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين ، ويغمر عامة هذا الاقليم الى هذا الجزء الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي متعددة يقال تنتهي الى ألف جزيرة او فيما على سواحله من جهة الشمال ، وليس منها في هذا الاقليم الاول إلّا طرف من بلاد الصين في جهة الشرق وفي بلاد اليمن . وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال بحران وهما بحر قلزم وبحر فارس وفيما بينهما جزيرة العرب ، وتشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقيها على ساحل هذا البحر الهندي وعلى بلاد الحجاز واليمامة وما اليهما كما نذكره في الاقليم الثاني وما بعده . فأما الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات البجة في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي في أعالي الصعيد وبين بحر القلزم والهابط من البحر الهندي . وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق البحر الهابط هنالك بمزاحمة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي ممتداً مع ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مراكب اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر . وتحت باب المندب جزيرة سواكن ودهلك ، وقبالته من غربيه مجالات البجة من أمم السودان كما ذكرناه ، ومن شرقيه في هذا الجزء تهائم اليمن ، ومنها على ساحله بلد علي ابن يعقوب . وفي جهة الجنوب من بلد زالع وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضاً . وينعطف من جنوبيه الى آخر الجزء السادس ويليها هنالك من جهة شرقيها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة من ساحله الجنوبي بلاد الوقواق متصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر من البحر المحيط . وأما جزائر هذا البحر فكثيرة . من أعظمها جزيرة سرنديب مدورة الشكل . وبها الجبل المشهور يقال ليس في الارض أعلى منه وهي قبالة سفالة . ثم جزيرة القمر وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق منحرفة بكثير الى أن تقرب من سواحل اعالي الصين ويحتف بها في هذا البحر من جنوبيها جزائر الوقواق ومن شرقيها جزائر السيلان الى جزائر أخر في هذا البحر كثيرة العدد ، وفيها أنواع الطيب والافاويه وفيها يقال معادن الذهب والزمرد . وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك

متعددون ، وبهذه الجزائر من أحوال العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا . وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كلها ، فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن ، وبعدها بلد صعدة مقر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء وبعدهما الى المشرق أرض الأحقاف وظفار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس . وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطي وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر منه من العاشر فيه أعالي بلاد الصين . ومن مدنه الشهيرة خانكو وقبالتها من جهة الشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها . وهذا آخر الكلام في الاقليم الاول والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وفضله .

الاقليم الثاني : وهو متصل بالاول من جهة الشمال ، وقبالة المغرب منه في البحر المحيط جزيرتان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها . وفي الجزء الاول والثاني منه في الجانب الاعلى منهما ارض قنورية ، وبعدها في جهة الشرق أعالي أرض غانة ، ثم مجالات زغاوة من السودان . وفي الجانب الأسفل منهما صحراء نستر متصلة من الغرب الى الشرق ذات مفارز تسلك فيها التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، وفيها مجالات الملثمين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولمتونة ومسراته ولمطة ووريكة . وعلى سمت هذه المفاوز شرقاً أرض فزان ، ثم مجالات أركار من قبائل البربر ذاهبة الى أعالي الجزء الثالث على سمتها في الشرق . وبعدها من هذا الجزء الثالث وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان . وعلى سمتها شرقاً أرض سنترية وتسمى الواحات الداخلة . وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباحوتين ، ثم يعترض في وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حافات النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الاول الى مصبه في البحر ، فيمر في هذا الجزء بين الجبلين الحاجزين وهما جبل الواحات من غربيه وجبل المقطم من شرقيه . وعليه من اعلاه بلد أسنا وأرمنت . ويتصل كذلك حافاته الى اسيوط وقوص ثم الى صول . ويفترق النيل هنالك على شعبتين ينتهي الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والايسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار مصر . وفي الشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن تنتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب الى جهة الشمال ، وفي عدوته الشرقية من هذا الجزء أرض الحجاز من جبل يلملم الى بلاد يثرب . في وسط الحجاز مكة شرفها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلد عيذاب

في العدوة الغربية من هذا البحر . وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في الجنوب وتبالة وجرش الى عكاظ من الشمال ، وتحت نجد من هذاالجزء بقية أرض الحجاز ، وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر ، وتحتها أرض اليمامة ، وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ، ثم أرض الشحر ، وينتهي الى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما مر . ويذهب في هذا الجزء بانحراف الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة من اعلاها مدينة قلهات وهي ساحل الشحر ، ثم تحتها على ساحله بلاد عمان ، ثم بلاد البحرين وهجر منها في آخر الجزء . وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الاخرى في السادس ، ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد السند الى بلاد مكران . ويقابلها بلاد الطوبران وهي من السند أيضاً ، فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا الجزء وتحول المفاوز بينه وبين ارض الهند ، ويمر فيه نهره الآتي من ناحية بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب . وأول بلاد الهند على ساحل البحر الهندي وفي سمتها شرقاً بلاد بلهرا ، وتحتها في الجانب الاسفل ارض كابل ، وبعدها شرقاً الى البحر المحيط بلاد القنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الاقليم . وفي الجزء التاسع ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الاقصى ، ويتصل فيه الى الجانب الشرقي فيتصل من أعلاه الى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين فيها مدينة شيغون . ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه سبحانه التوفيق وهو ولي الفضل والكرم .

الاقليم الثالث : وهو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الاول منه وعلى نحو الثلث من اعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق عند آخره ، ويسكن هذا الجبل من البربر أمم لا يحصيهم الا خالقهم حسبما يأتي ذكره . وفي القطعة التي بين هذا الجبل والاقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة . ويتصل به شرقاً بلاد سوس ونول ، وعلى سمتها شرقاً بلاد درعة، ثم بلاد سجلماسة ، ثم قطعة من صحراء نستر المفازة التي ذكرناها في الاقليم الثاني . وهذ الجبل مطل على هذه البلاد كلها في هذا الجزء وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثناياه ومسالكه الى أن ينتهي . وفي هذه الناحية منه أمم المصامدة ثم هنتانة ثم تينملك ثم كدميوه ثم مشكورة ، وهم آخر المصامدة فيه ، ثم قبائل صنهاكة وهم صنهاجة ، وفي آخر هذا الجزء منه بعض قبائل

زناتة . ويتصل به هنالك من جوفيه جبل اوراس وهو جبل كتامة ، وبعد ذلك أمم أخرى من البرابرة نذكرهم في أماكنهم . ثم أن جبل درن هذا من جهة غربية مطل على بلاد المغرب الاقصى وهي في جوفيه . ففي الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش واغمات وتادّلا ، وعلى البحر المحيط منها رباط أسفي ومدينة سلا ، وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ، وهذه هي التي تسمى المغرب الاقصى في عرف أهلها . وعلى ساحل البحر المحيط منها بلدان اصيلا والعرايش . وفي سمت هذه البلاد شرقاً بلاد المغرب الاوسط وقاعدتها تلمسان . وفي سواحلها على البحر الرومي بلد هنين ووهران والجزائر لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقاً فينتهي الى بلاد الشام . فاذا خرج من الخليج المتضايق غير بعيد انفسح جنوباً وشمالاً فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان على ساحله من هذا الاقليم الثالث الكثير من بلاده . ثم يتصل ببلاد الجزائر من شرقيها بلاد بجاية في ساحل البحر ، ثم قسطنطينية في الشرق منها . وفي آخر الجزء الاول وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوبي هذه البلاد ومرتفعا الى جنوب المغرب الاوسط بلد أشير ، ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل اوراس المتصل بدرن كما مر ، وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق . والجزء الثاني من هذا الاقليم على هيئة الجزء الاول . ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهباً فيه من غرب الى شرق فيقسمه بقطعتين ويغمر البحر الرومي مسافة من شماله . فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كلها مفاوز ، وفي الشرق منها بلد غدامس ، وفي سمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الأقليم الثاني كما مر . والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل اوراس وتبسة والأوبس ، وعلى ساحل البحر بلدة بونة . ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد افريقية ، فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم السوسة ثم المهدية . وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزو وقفصة ونفزاوة . وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة . وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي . وبازائها في الجنوب جبل دمر ، ونفرة من قبائل هوارة متصلة بجبل درن . وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة بن مشكورة على البحر ، وفي جنوبها مجالات العرب في أرض ودان . وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضاً فيه جبل درن ، الا انه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمته الى أن يدخل في البحر الرومي ، ويسمى هنالك طرف اوثان .

والبحر الرومي من شماليه يغمر طائفة منه الى ان يضايق ما بينه وبين جبل درن . فالذي وراء الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية أرض ودان ومجالات العرب فيها . ثم زويلة بن خطاب ، ثم رمال وقفار الى آخر الجزء في الشرق . وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلد سرت ، على البحر ثم خلاء وقفار تجول فيها العرب ، ثم اجدابية ، ثم برقة عند منعطف الجبل ، ثم طلمسة على البحر هنالك ثم في شرق المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء . وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم وفي الأعلى من غربيه صحارى برقيق ، وأسفل منها بلاد هيب ورواحة . ثم يدخل البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طائفة منه الى الجنوب حتى يزاحم طرفه الاعلى ويبقى بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب . وعلى سمتها شرقاً بلاد الفيوم وهي على مصب احد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم . وعلى سمته شرقاً أرض مصر ومدينتها الشهيرة على الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني . ويفترق هذا الشعب افتراقة ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطنوف وزفتي ، وينقسم الايمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي . فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلد رشيد وعلى مصب الشرقي بلد دمياط . وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية اسافل الديار المصرية كلها محشوة عمراناً وفلجاً . وفي الجزء الخامس من هذه الاقاليم بلاد الشاد واكثرها على ما أصف وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس لانه في ممره مبتدىء من البحر الهندي الى الشمال ينعطف آخذاً الى جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه الى السويس . وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران، ثم جبل الطور ، ثم ايلة مدين ، ثم الحوراء في آخرها . ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه . وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيرا من غربية عليها الفرما والعريش وقارب طرفها بلد القلزم فيضاعف ما بينهما من هنالك وبقي شبه الباب مفضيا الى أرض الشام . وفي غربي هذا الباب قحص التيه ارض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني اسرائيل بعد خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام اربعين سنة كما قصه القرآن . وفي هذه القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرص وبقيتها في الاقليم الرابع كما نذكره . وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضايق لبحر السويس بلد العريش وهو آخر الديار المصرية ، وعسقلان

وبينهما طرف هذا البحر . ثم تنحط هذه القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي البحر الرومي في جهة الشرق . وعلى هذه القطعة اكثر سواحل الشام ، ففي شرقه غزة ثم عسقلان ، وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلد قيسارية ، ثم كذلك بلد عكاء ثم صور ثم صيدا ، ثم ينعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع . ويقابل هذه البلاد الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل أيلة من بحر القلزم ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يجاوز هذاالجزء ويسمى جبل اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام . ففي طرفه عند ايلة العقبة التي يمر عليها الحجاج من مصر الى مكة ، ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا على سمت الشرق ، ثم ينعطف قليلا . وفي شرقه هنالك بلد الحجر وديار ثمود وتيماء ودومة الجندل وهي اسافل الحجاز ، وفوقها جبل رضوي وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها . وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك . وفي شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ، ثم الاردن ثم طبرية . وفي شرقيها بلاد الغور الى أذرعات ، وفي سمتها شرقاً دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز . وعند منعطف جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية وجبل اللكام يعترض بينها وبينها . وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة حمص في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام . وفي الشرق من بعلبك وحمص بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء . وفي الجزء السادس من اعلاه مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصمان الى البحرين وهجر على بحر فارس . وفي اسافل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة القادسية ومغايض الفرات ، وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة . وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عباد ان والابلة من أسافل الجزء من شماله . ويصب فيه عند عبادان نهر دجلة بعد أن ينقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول اخرى من الفرات ثم تجتمع كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس . وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاها متضايقة في آخره في شرقيه وضيقة عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه . وعلى عدوتها الغربية منه اسافل البحرين وهجر والاحساء ، وفي غربها أخطب والضمان وبقية أرض اليمامة . وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند آخر الجزء من الشرق على طرف قد امتد من هذا البحر مشرقاً . ووراءه الى الجنوب في هذا الجزء جبال القفص من كرمان . وتحت هرمز بلاد فارس مثل سابور ودار أبجرد ونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهي

قاعدتها كلها . وتحت بلاد فارس الى الشمال عند طرف البحر بلاد خوذستان ومنها الاهواز وتستر وصدى وسابور والسوس ورام هرمز وغيرها . وارجان وهي حد ما بين فارس وخوذستان جبال الاكراد متصلة الى نواحي اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم . وفي الجزء السابع في الأعلى منه من المغرب بقية جبال القفص ، ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها الرودن والشيرجان وجيرفت ويزدشير والبهرج . وتحت ارض كرمان الى الشمال بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان . ومدينة اصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه وشماله . ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان ، وكوهستان في الجنوب ، وارض كوهستان في الشمال غرباً . ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان وكوهستان وفي وسط هذا الجزء المفاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها . ومن مدن سجستان بست والطاق . وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها سرخس وقوهستان آخر الجزء . وفي الجزء الثامن من غربه وجنوب مجالات الجلح من أمم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وبأرض كابل الهند من جنوبها . وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة فرضة الهند . وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ، ثم في الشمال غرباً الى آخر الجزء بلاد هرات اوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج ومرو الروذ والطالقان والجوزجان ، وتنتهي خراسان هنالك الى نهر جيحون . على هذا النهر من بلاد خراسان من غربيه مدينة بلخ ، وفي شرقيه مدينة ترمذ . ومدينة بلخ كانت كرسي مملكة الترك . وهذا النهر جيحون مخرجه من بلاد وجار في حدود بدخشان مما يلي الهند . ويخرج من جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغرباً الى وسط الجزء ويسمى هنالك نهر خرناب . ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته الى ان يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كما نذكره . ويمده عند انعطافه في وسط الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة انهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه وانهار اخرى من جبال البتم من شرقيه ايضا وجوفي الجبل حتى يتسع ويعظم بما لا كفاء له ؛ ومن هذه الانهار الخمسة الممدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال الى ان يخرج الى الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء . ويعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط الجنوب في هذا الجزء مشرقاً بانحراف الى الشمال الى ان يخرج الى الجزء التاسع قريباً من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من هذا الجزء

ويحول بين الترك وبين بلاد الختل . وليس فيه الا مسلك واحد في وسط الشرق من هذا الجزء جعل فيه الفضل بن يحيى سداً وبنى فيه باباً كسد ياجوج وماجوج . فاذا خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى ان يمر في بلاد الوخش . ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ، ثم يمر هابطاً الى الترمذ في الشمال الى بلاد الجوزجان . وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد الناسان من خراسان . وفي العدوة الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها جبال ، وبلاد الوخش ويحددها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف خراسان غربي نهر جيحون وتذهب مشرقة الى ان يتصل طرفها بالجبل العظيم الذي خلفه بلاد التبت ، ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه فيتصل عند باب الفضل بن يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال . وانهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال . ونهر بلخ يخرج من جبال البتم مبدؤه عند الجوزجان ويصب فيه من غربية بلاد أمد من خراسان . وفي شرقي النهر من هنالك أرض الصغد واسروشنة من بلاد الترك . وفي شرقها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً . وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم الى شمالها . وفي الجزء التاسع من غربه أرض التبت الى وسط الجزء . وفي جنوبيها بلاد الهند . وفي شرقيها بلاد الصين الى آخر الجزء . وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت بلاد الخزلجية من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقاً وشمالا . ويتصل بها من غربيها أرض فرغانة أيضاً الى آخر الجزء شرقاً . ومن شرقيها أرض التغزغز من الترك الى الجزء شرقاً وشمالا . وفي الجزء العاشر في الجنوب منه جميعاً بقية الصين واسافله . وفي الشمال بقية بلاد التغزغز ، ثم شرقاً عنهم بلاد خرخير من الترك أيضاً الى آخر الجزء شرقاً . وفي الشمال من أرض خرخير بلاد كتمان من الترك . وقبالتها في البحر المحيط جزيرة الياقوت في وسط جبل مستدير لا منفذ منه اليها ولا مسلك، والصعود الى اعلاه من خارجه صعب في الغاية . وفي الجزيرة حيات قتاله وحصى من الياقوت كثيرة فيحتال اهل تلك الناحية بما يلهمهم الله اليه . واهل هذه البلاد في هذا الجزء التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أمم لا تحصى وهم ظواعن رحالة اهل ابل وشاة وبقر وخيل للنتاج والركوب والأكل . وطوائفهم كثيرة لا يحصيهم الا خالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويغزون الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يليهم ويخرجون الى بلاد خراسان والهند والعراق .

الاقليم الرابع : يتصل بالثالث من جهة الشمال . والجزء الاول منه في غربيه

قطعة من البحر المحيط مستطيلة من أوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب مدينة طنجة . ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج متضايق بمقدار اثني عشر ميلا ما بين طريف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجاز وسبتة جنوبا ويذهب مشرقاً الى أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم . وينفسح في ذهابه بتدريج الى ان يغمر الأربعة الاجزاء وأكثر الخامس من هذا الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم ماميرقه ثم منرقة ثم سردانية ثم صقلية وهي اعظمها ثم بلونس ثم اقريطش ثم قبرص كما نذكرها كلها في اجزائها التي وقعت فيها . ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفه ويمر مغرباً الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس . ويخرج منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقاً من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في الشمال متضايقاً في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يفضي الى الجزء الرابع من الاقليم السادس وينعطف الى بحر نيطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما نذكر ذلك في أماكنه . وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث يبقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس . ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً ويخرج الى الثالث واكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي كلها بلاد الاندلس ، الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طريف عند مجمع البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنقب ثم المرية وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا . وعلى مقربة منه شريش ثم لبلة ، وقبالتها فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش ولبلة اشبيلية ، ثم استجة وقرطبة ومديلة ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادياش وبسطة . وتحت هذه شنتمرية وشلب على البحر المحيط غربا . وفي الشرق عنها بلطيوس وماردة ويابرة ثم غافق وبزجالة ثم قلعة رباح . وتحت هذه اشبونة على البحر المحيط غربا . وعلى نهر باجة وفي الشرق عنها شنترين وموزبة على النهر المذكور ثم قنطرة السيف . ويسامت اشبونة من جهة الشرق جبيل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من شماليه فينتهي الى مدينة سالم فيها بعد النصف منه . وتحت هذا الجبل طلبيرة في الشرق من فورنة ثم

طليطلة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم . وعند اول هذا الجبل فيما بينه وبين اشبونة بلد قلمرية وهذه غربي الاندلس . واما شرقي الاندلس فعلى ساحل البحر الرومي منها بعد المرية قرطاجنة ثم لفتة ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشه آخر الجزء في الشرق . وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخمان بسطة وقلعة رباح من غرب الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة آخر الجزء . ثم تحت هذه شمالا أرض منجالة وريدة متاخمان لشقورة وطليطلة من الغرب ثم افراغة شرقاً تحت طرطوشة وشمالا عنها . ثم في الشرق عن مدينة سالم قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا . والجزء الثاني من هذا الاقليم غمر الماء جميعه الا قطعة من غربيه في الشمال فيها بقية جبل البرنات ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقاً ويمر في الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تفضي ثناياها الى البر المتصل وتسمي أرض غسكونية وفيه مدينة خريدة وقرقشونة . وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة مدينة برشلونة ثم ازبونة. وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير مسكون لصغرها . ففي غربيه جزيرة سرادنية وفي شرقيه جزيرة صقلية متسعة الاقطار يقال ان دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلزم وطرابغة ومازر ومسيني ، وهذه الجزيرة تقابل أرض افريقية وفيما بينهما جزيرة اعدوش ومالطة . والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر الا ثلاث قطع من ناحية الشمال ، الغربية منها ارض قلورية والوسطى من ارض ابكيردة والشرقية من بلاد البنادقة . والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمور ايضا بالبحر كما مر وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعمور منها جزيرة بلونس في الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين الجنوب والشرق منه . والجزء الخامس من هذا الاقليم غمر البحر منه مثلثة كبيرة بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع الجنوبي منها الى نحو الثلثين من الجزء ، ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو الثلث يمر الشمالي منها الى الغرب منعطفا مع البحر كما قلناه . وفي النصف الجنوبي منها أسافل الشام . ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال فينعطف من هنالك ذاهباً الى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل السلسلة . ومن هناك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من

عند منعطفه قطعة من بلاد الجزيرة الى جهة الشرق . ويقوم من عند منعطفه من جهة المغرب جبال متصلة بعضها ببعض الى ان ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخر الى آخر الجزء من الشمال . وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضي الى بلاد الارمن . وفي هذا الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة . فأما الجهة الجنوبية التي قدمنا ان فيها اسافل الشام وان جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب الى الشمال فعلى ساحل البحر بلد انطرطوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث . وفي شمال انطرطوس جبلة ثم اللاذقية ثم اسكندرونة ثم سلوقية ، وبعدها شمالا بلاد الروم . وأما جبل اللكام المعترض بين البحر وآخر الجزء بحافاته فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غربيه حصن الحواني وهو للحشيشة الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى مصيات وهو قبالة انطرطوس . وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال عن حمص . وفي الشمال وفي مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ، ويقابلها في شرق الجبل المعرة . وفي شرقها المراغة وفي شمال انطاكية المصيصة ، ثم اذنة ثم طرسوس آخر الشام. ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة ، وقبالة قنسرين في شرق الجبل حلب ، ويقابل عين زربة منبج آخر الشام . وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركمان وسلطانها ابن عثمان ، وفي ساحل البحر منها بلد انطاكية والعلايا . وأما بلاد الارمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالي . ويخرج من الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بها جيحان جنوبا حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية . ويمر نهر سيحان موازيا لنهر جيحان فيحاذي المعرة ومرعش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام . ثم يمر بين زربة ويجوز عن نهر جيحان ثم ينعطف الى الشمال مغربا فيختلط بنهر جيحان عند المصيصة ومن غربها . واما بلاد الجزيرة التي يحيط بها منعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبها بلد الرافضة والرقة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم سميساط وآمد تحت جبل السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضا آخر الجزء من شرقيه . ويمر في وسط هذه القطعة نهر الفرات ونهر دجلة يخرجان من الاقليم الخامس ويمران في بلاد الارمن جنوبا الى أن يتجاوزا جبل السلسلة ، فيمر نهر الفرات من غربي سميساط وسروج وينحرف الى

الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقة ويخرج الى الجزء السادس . ويمر دجلة في شرق آمد وينعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس . وفي الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق منها بلاد العراق متصلة بها تنتهي في الشرق الى قرب آخر الجزء . ويعترض من آخر العراق هنالك جبل اصبهان هابطا من جنوب الجزء منحرفا الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره في الشمال يذهب مغربا الى ان يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمته بجبل السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية . ففي الغربية من جنوبيها مخرج الفرات من الخامس ، وفي شماليها مخرج دجلة منه . اما الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقرقيسيا ويخرج من هنالك جدول الى الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ، ويمر من قرقيسيا غير بعيد ، ثم ينعطف الى الجنوب فيمر بقرب الخابورالى غرب الرحبة ويخرج منه جداول . من هنالك يمر جنوبا ويبقى صفين في غربيه ، ثم ينعطف شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعاً في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية . ويخرج الفرات من الرحبة مشرقا على سمته الى هيت من شمالها ، يمر الى الزاب والانبار من جنوبهما ثم يصب في دجلة عند بغداد . وأما نهر دجلة فاذا ادخل في الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر بجزيرة ابن عمر على شمالها ثم بالموصل كذلك وتكريت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوباً وتبقى الحديثة في شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك . ويمر على سمته جنوباً وفي غرب القادسية الى ان ينتهي الى بغداد . ويختلط بالفرات ثم يمر جنوباً على غرب جرجرايا الى ان يخرج من الجزء الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس عند عبادان وفيما بين نهري الدجلة والفرات قبل مجمعهما ببغداد هي بلاد الجزيرة . ويختلط بنهر دجلة بعد مفارقته ببغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه وينتهي الى بلاد النهروان قبالة بغداد شرقاً ثم ينعطف جنوباً ويختلط بدجلة قبل خروجه الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل العراق والاعاجم بلد جلولاء ، وفي شرقها عند الجبل بلد حلوان وصيمرة . وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل يبدأ من جبل الاعاجم مشرقاً الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويقسمها بقطعتين في الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلد خونجان من الغرب والشمال عن اصبهان وتسمى هذه القطعة بلد الهلوس وفي وسطها بلد نهاوند وفي شمالها بلدشهرزورغرباً عند ملتقى الجبلين والدينور شرقاً عند آخر الجزء . وفي القطعة

الصغرى الثانية طرف من بلاد ارمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مساكن للاكراد ، والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من ورائه . وفي آخر هذه القطعة من جهة الشرق بلاد اذربيجان ، ومنها تبريز والبيدقان . وفي الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء قطعة من بحر نيطش وهو بحر الخزر . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس ، وفيها همدان وقزوين وبقيتها في الاقليم الثالث . وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب وجبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم الثالث ثم ينعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويتصل بجبل العراق في شرقيه الذي مر ذكره هنالك وانه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية . ويهبط هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء السابع فيحيط ببلاد الهلوس من شرقها ، وتحته هنالك قاشان ثم قم وينعطف في قرب النصف من طريقه مغرباً بعض الشيء ، ثم يرجع مستديراً فيذهب مشرقاً ومنحرفاً الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس . ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد الري في شرقيه . ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غرباً الى آخر هذا الجزء . ومن جنوبه من هنالك قزوين ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهباً الى الشرق والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال وبين قطعة من بحر طبرستان . ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل يمر على سمته مشرقاً وبانحراف قليل الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه . ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئهما بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها بسطام . ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان وهي في شرقي قاشان . وفي آخرها عند هذا الجبل بلد استراباذ وحافات هذا الجبل من شرقيه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان . ففي جنوب الجبل وشرق المفازة بلد نيسابور ، ثم مرو الشاهجان آخر الجزء . وفي شماله وشرقي جرجان بلد مهرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقاً وكل هذا تحت الجبل . وفي الشمال عنها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزءين الشمال والشرق مفارز معطلة . وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيحون ذاهباً من الجنوب الى الشمال ، ففي عدوته الغربية رمم وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم . ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباذ المعترض في الجزء السابع قبله . ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط بهذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة

والجوزجان حتى يتصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك. وفي شرقي نهر جيحون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخارى ثم بلاد الصغد وقاعدتها سمرقند ، ثم سردار وأشنه ومنها خجندة آخر الجزء شرقاً ، وفي الشمال عن سمرقند وسردار وأشنة أرض ايلاق ، ثم في الشمال عن ايلاق أرض الشاش الى آخر الجزء شرقاً . ويأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة . يخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضاً في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيحون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس . ويختلط معه في أرض ايلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت . ويختلط معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة . وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون يبدأ من الاقليم الخامس وينعطف شرقاً ومنحرفاً الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هناك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث . وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب ، وبينه وبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة . وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض خجندة وفيها بلد اسبيجاب وطراز . وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض الخليجة في الشمال . وفي شرق الجزء كله أرض الكيماكية . ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل يأجوج ومأجوج ، وهذه الامم كلها من شعوب الترك . انتهى .

الاقليم الخامس : الجزء الاول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم . فأما المنكشف من جنوبه فقطعة على شكل مثلث متصلة من هنالك بالاندلس وعليها بقيتها ويحيط بها البحر من جهتين كأنهما ضلعان محيطان بزاوية المثلث . ففيها من بقية غرب الاندلس سعيور على البحر عند أول الجزء من الجنوب والغرب وسلمنكة شرقاً عنها ، وفي جرفها سمورة ، وفي الشرق من سلمنكة ايلة آخر الجنوب ، وأرض قستالية شرقاً عنها ، وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض ليون وبرغشت ، ثم وراءها في الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقو ومعناه يعقوب . وفيها من شرق بلاد الاندلس مدينة شطلية عند آخر الجزء في الجنوب ، وشرقاً عن قستالية وفي شمالها وشرقيها وشقة وبنبلونة على سمتها شرقاً وشمالاً . وفي غرب بنبلونة قسطالة ثم ناجزة

فيما بينها وبين برغشت . ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر وللضلع الشمالي الشرقي منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند بنبلونة في جهة الشرق الذي ذكرناه من قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجراً على بلاد الاندلس من جهة الشرق ، وثناياه لها أبواب تفضي الى بلاد غشكونية من أمم الفرنج . فمنها من الاقليم الرابع برشلونة واربونة على ساحل البحر الرومي ، وخريدة وقرقشونة وراءهما في الشمال ، ومنها من الاقليم الخامس طلوشة شمالا عن خريدة . وأما المنكشف في هذا الجزء من جهة الشرق فقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء البرنات شرقاً وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات بلد ليونة . وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء أرض بنطو من الفرنج الى آخر الجزء . وفي الجزء الثاني من الناحية الغربية منه أرض غشكونية وفي شمالها أرض بنطو وبرغشت وقد ذكرناهما . وفي شرق بلاد غشكونية في شمالها قطعة أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالضرس مائلة الى الشرق قليلا وصارت بلاد غشكونية في غربها داخلة في جون من البحر . وعلى رأس هذه القطعة شمالا بلاد جنوة . وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يبقى بينهما جون داخل من البر في غربيه نيش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسي ملك الافرنجية ومسكن البابا بطركهم الأعظم ، وفيها من المباني الضخمة والهياكل والكنائس العادية ما هو معروف الاخبار . ومن عجائبها النهر الجاري في وسطها من المشرق الى المغرب مفروش قاعه ببلاط النحاس ، وفيها كنيسة بطرس وبولس من الحواريين وهما مدفونان بها . وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنصيصة الى آخر الجزء . وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبه رومة بلاد نابل في الجانب الشرقي منه متصلة ببلد قلورية من بلاد الفرنج . وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذياً للشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو ثلث منه ، وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبيه فيما بينه وبين البحر المحيط . ومن شماله بلاد انكلاية في الاقليم السادس . وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيه يصل من برها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال الى هذا الجزء . في شرقي بلاد قلورية بلاد انكليردة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ، ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي

ذاهبا الى سمت الشمال ثم ينعطف الى الغرب محاذياً لآخر الجزء الشمالي . ويخرج على سمته من الاقليم الرابع جبل عظيم يؤازيه ويذهب معه الى الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى ان ينتهي قبالة خليج في شماليه في بلاد انكلاية من أمم اللمانيين كما نذكر . وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل ما داما ذاهبين الى الشمال بلاد **البنادقة** ، فاذا ذهبا الى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الالمانيين عن طرف الخليج .

وفي الجزء الرابع من هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضرسة كلها بقطع من البحر ، ويخرج منها الى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما . وفي آخر الجزء شرقاً قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى ان يدخل في الاقليم السادس وينعطف من هنالك عن قرب مشرقاً الى بحر نيطش في الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما نذكر .

وبلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والضخامة ما كثرت عنه الاحاديث . والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم . وفي شرقي هذا الخليج الى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها لهذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان ، وقاعدته بها برصة وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الامم الى ان صارت للتركمان . وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبيه أرض باطوس . وفي الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد عمورية . وفي شرقي عمورية نهر قباقب الذي يمد الفرات ويخرج من جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى ممره في الاقليم الرابع . وهناك في غربيه آخر جزء في مبدأ نهر سيحان ثم نهر جيحان غربيه الذاهبون على سمته وقد مر ذكرهما . وفي شرقه هنالك مبدأ نهر دجلة الذاهب على سمته وفي مؤازرته حتى يخالطه عند بغداد . وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من هذا الجزء وراء الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلد ميافرقين ، ونهر قباقب الذي ذكرناه يقسم هذا الجزء بقطعتين احداهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه واسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراء الجبل الذي يبدأ منه نهر قباقب أرض عمورية كما قلناه . والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثلث في الجنوب منها مبدأ دجلة والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراء جبل قباقب وهي عريضة . وفي آخرها عند مبدأ الفرات بلد حرشنة . وفي الزاوية الشرقية الشمالية قطعة

من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية . وفي الجزء السادس من هذا الاقليم في جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب الشرق . وفيها بلدان ، أردن في الجنوب والغرب ، وفي شمالها تفليس ودبيل ، وفي شرق اردن مدينة خلاط ثم بردعة وفي جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية . ومن هنالك مخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع ، وفيها هنالك بلد المراغة في شرقي جبل الاكراد المسمى بأرمى وقد مر ذكره في الجزء السادس منه . ويتاخم بلاد ارمية في هذا الجزء وفي الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد اذربيجان . وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد اردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ويسمى بحر طبرستان . وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان . ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمر فيه منعطفة ومحيطة ببلد ميافارقين ، ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل السلسلة في اسافل الشام ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر . وبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثنايا كالابواب تفضي من الجانبين .

ففي جنوبيها بلاد الابواب متصلة في الشرق الى بحر طبرستان وعليه من هذه البلاد مدينة باب الابواب . وتتصل بلاد الابواب في الغرب من ناحية جنوبيها ببلد ارمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد اذربيجان الجنوبية بلاد الزاب متصلة الى بحر طبرستان .

وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة السرير في الزاوية الغربية الشمالية منها . وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية وقد مر ذكره . ويحف بهذه القطعة من نيطش بلاد السرير وعليها منها بلد اطرابزيدة . وتتصل السرير بين جبل الابواب والجهة الشمالية من الجزء الى ان ينتهي شرقاً الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند آخرها مدينة صول . ووراء هذا الجبل الحاجز قطعة من أرض الخزر تنتهي الى الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا . والجزء السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور ببحر طبرستان وخرج جنوبه في الاقليم الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك ان عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين . وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع . ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضاً . وينكشف من هذا الجزء قطعة عند زاويته الشمالية الغربية يصب فيها نهر اتل في هذا البحر . ويبقى من هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أمم الترك ، يحيط بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى مادون وسطه فينعطف الى الشمال الى ان

يلاقي بحر طبرستان فيحتف به ذاهبا معه الى بقيته في الاقليم السادس ، ثم ينعطف مع طرفه ويفارقه ويسمى هنالك جبل سياه ، ويذهب مغرباً الى الجزء السادس من الأقليم السادس ثم يرجع جنوباً الى الجزء السادس من الاقليم الخامس وهذا منه وهو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزر واتصلت بأرض الخزر في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي. والجزء الثامن من هذا الأقليم الخامس كله مجالات للغز من أمم الترك ، وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون دورها ثلاثمائة ميل ويصب فيها انهار كثيرة من أرض اربعمائة ميل وماؤها حلو . وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء . وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا ينبت شيئاً يسمى عرعون وبه سميت البحيرة . وينجلب منه ومن جبل مرغار شمالي البحيرة انهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين . وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركسن من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيماكية . ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى ينعطف أول دخوله من الجزء العاشر ، وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر من الاقليم الرابع قبله واحتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف مغرباً في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى ما دون نصفه ، واحاط من أوله الى هنا ببلاد الكيماكية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره ، وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيماكية ، ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الأعلى منه وانعطف قريباً الى الشمال وذهب على سمته الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما نذكره ، وبقيت منه القطعة التي احاط بها جبل قوقيا الزاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد يأجوج ومأجوج . وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم أرض يأجوج متصلة فيه كله الا قطعة من البحر غمرت طرفاً في شرقيه من جنوبه الى شماله الا القطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا حين مر فيه ، وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم .

الاقليم السادس : فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقاً من الناحية الشمالية ، ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريباً من الناحية الجنوبية فانكشف قطعة من هذه الارض في هذا الجزء داخلة بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالجون فيه وينفسح طولا وعرضاً وهي كلها أرض

بريطانية . وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد صافس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس . والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله فمن غربه قطعة مستطيلة اكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانية في الجزء الاول واتصلت بها القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه انفسحت في النصف الغربي منه بعض الشيء . وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكلترا وهي جزيرة عظيمة مشتملة على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع . وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمندية وبلاد اقلادش متصلين بها ، ثم بلاد افرنسية جنوباً وغرباً من هذا الجزء ، وبلاد برغونية شرقاً عنها ، وكلها لأمم الافرنجة ، وبلاد اللمانيين في النصف الشرقي من الجزء ، فجنوبه بلاد أنكلايه ، ثم بلاد برغونية شمالا ، ثم أرض لهويكة وشطونية ، وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية أرض افريرة وكلها لأمم اللمانيين« . وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية الغربية بلاد مراتية في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء الرابع ويمر مغرباً بانحراف الى الشمال الى ان يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي . وفي الجزء الرابع من ناحية الجنوب أرض جثولية ، وتحتها في الشمال بلاد الروسية ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غرباً الى أن يقف في النصف الشرقي . وفي شرق أرض جثولية بلاد جرمانية ،وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ومدينتها عند آخر الخليج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطش فيقع قطيعة من بحر نيطش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمدها الخليج . وبينهما في الزاوية بلد مسيناه، وفي الجزء الخامس من الأقليم السادس ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج من سمته مشرقاً فيمر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول الف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستمائة ميل . ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها الى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطش متصلة بارض البيلقان من الاقليم الخامس ، وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطش . وفي شمال بحر نيطش في هذا الجزء غرباً أرض ترخان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر . وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها في الجزء الخامس من الاقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الاقليم . وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطش وينحرف

قليلا الى الشمال ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قمانية . وفي جنوبه منفسحاً الى الشمال بما انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس ، وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفي شرقها أرض برطاس ، وفي الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار . وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض بلجر يجوزها هناك قطعة من جبل سياكوة المعطف مع بحر الخزر في الجزء السابع بعده . ويذهب بعد مفارقته مغرباً فيجوز في هذه القطعة ويدخل الى الجزء السادس من الاقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الابواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في الناحية الجنوبية ما جاوزه جبل سياه بعد مفارقته بحر طبرستان وهو قطعة من أرض الخزر الى آخر الجزء غرباً . وفي شرقها القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها . ووراء جبل سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس ، وفي الناحية الشرقية من الجزء أرض شحرب ويخناك وهم أمم الترك . وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه كلها أرض الجولخ من الترك في الناحية الشمالية غرباً والارض المنتنة وشرق الارض التي يقال أن يأجوج ومأجوج خرباها قبل بناء السد . وفي هذه الارض المنتنة مبدأ نهر الاثل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان في الاقليم الخامس في الجزء السابع منه ، وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل من الارض المتنة من ثلاثة ينابيع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب الى آخر السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمر في طرفه بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغرباً غير بعيد ثم ينعطف ثانية الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج منه جدول يذهب مغرباً ويصب في بحر نيطش في ذلك الجزء ويمر هو في قطعة بين الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس ، ثم ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم الخامس في الجزء السابع منه منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية . والجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفجاق وبلاد السركس منهم أيضاً . وفي الشرق منه بلاد يأجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره يبدأ من البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم في الشمال ويفارقه مغرباً وبانحراف الى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع الى سمته الاول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه الى شماله بانحراف الى المغرب وفي وسطه ههنا

السد الذي بناه الاسكندر ، ثم يخرج على سمته الى الاقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمر فيه الى الجنوب الى أن يلقى البحر المحيط في شماله ، ثم ينعطف معه من هنالك مغربا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه . وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد الذي بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن . وقد ذكر عبد الله بن خرداذبة في كتابه في الجغرافيا ان الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فانتبه فزعاً وبعث سلاماً الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد كتابنا هذا . وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد مأجوج متصلة فيه الى آخره على قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال وعريضة بعض الشيء في الشرق .

الاقليم السابع : والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيأجوج ومأجوج . فالجزء الاول والثاني مغموران بالماء الا ما انكشف من جزيرة انكلترا التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف انعطاف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني من الاقليم السادس وهي مذكورة هناك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة سعة اثني عشر ميلا . ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلاندة مستطيلة من الغرب الى الشرق . والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمور اكثره بالبحر الا قطعة مستطيلة في جنوبه تتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وانها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضي الى بلاد فلونية . وفي شمالها جزيرة برعاقبة (وفي نسخة بوقاعة) مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق . والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمازك من الترك ، وفي شرقها بلاد طست ، ثم أرض رسلان الى آخر الجزء شرقاً وهي دائمة الثلوج وعمرانها قليل . ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه . وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية ، وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل . وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانية التي على قطعة بحر نيطش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي الى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال . وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء

ارض التتارية من الترك (وفي نسخة التركمان) الى آخره . وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانية . وفي وسط الناحية بحيرة عثور عذبة تنجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائما لشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف . وفي شرق بلاد القمانية بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه . وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغر التي كان مبدؤها في الاقليم السادس . وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغر منعطف نهر أثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر . وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية ارض بخناك من أمم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء . ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض سحرب ، ثم بقية الارض المنتنة الى آخر الجزء شرقاً . وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه . وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم في الجهة الجنوبية الغربية منه متصل الارض المنتنة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجائب خرق عظيم في الأرض بعيد المهوى فسيح الأقطار ممتنع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتخفي وربما رئي فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال . وفي الناحية المشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد . وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب . وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ وهم قفجق يجوزها جبل قوقيا حين ينعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس . ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد يأجوج ومأجوج وقد ذكرناه . وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض يأجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة احاطت به من شرقه وشماله . والجزء العاشر غمر البحر جميعه »(١٤) .

تلك هي المفاهيم الرئيسية لفكرة « الاقليم » في الجغرافية العربية . غير ان هناك مفهوما آخر لمصطلح « الاقليم » قد برز على أيدي كتاب الجغرافية الاقليمية الاوائل وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي ، وقد قصدوا به المنطقة الجغرافية

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣ ـ ٨١ .

المحددة طبيعياً أو سياسياً ، وربما ادارياً أيضاً . وقد أشار ياقوت الحموي الى هذا النوع من « الاقليم » بقوله : « الاصطلاح الاول وهو اصطلاح العامة وجمهور **الأمة** وهو جار على ألسنة الناس دائماً ، وهو ان يسموا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى اقليماً نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وأفريقية وغير ذلك . فالاقاليم على هذا كثيرة لا تحصى »(١٥) .

وقد أوضح الاصطخري استخدامه لمصطلح « الاقليم » الذي ينتمي الى هذا النمط بقوله : « أما بعد فاني ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك ، وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ، ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلت كل قطعة افردتها مفردة مصورة تحكي موضع ذلك الاقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن وما في اضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والانهار وما يحتاج الى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم »(١٦) .

كذلك أشار ابن حوقل الى استخدامه مصطلح « الاقليم » في هذا المعنى بقوله : « وقد عملت له كتابي هذا بصفة اشكال الارض ومقدارها في الطول والعرض واقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتفصيل ما تفرد بالاعمال المجموعة اليها . ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض لأن الصورة الهندية التي بالقوذايان ، وان كانت صحيحة ، فكثيرة التخليط ، وقد جعلت لكل قطعة افردتها تصويراً وشكلاً يحكي موضع ذلك الاقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع وما في اضعافها من المدن والاصقاع وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الانهار والبحار . . »(١٧) .

وهكذا يتضح ان المفهوم الاقليمي لهؤلاء الجغرافيين يختلف عن المفهومين الايراني واليوناني . فهو لا يتبع قوالب متفق عليها ، بل يخضع للمنهج الذي يتخذه الجغرافي في شرحه للاقطار المعنية . ولذلك فقد اختلف هؤلاء الجغرافيون الاقليميون فيما بينهم في تحديدهم لاقاليم الاسلام كما سنوضحه فيما بعد .

(١٥) ياقوت الحموي ، ص ٢٦ .
(١٦) المسالك والممالك ـ لأبي اسحاق ابراهيم الفارسي الاصطخري (المعروف بالكرخي) ـ منشورات وزارة الثقافة القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥ (حققه الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني) .
(١٧) صورة الارض ـ لابن حوقل ـ منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ص ١٠ .

- ٢ -

اضافات الجغرافيين العرب والمسلمين للمعرفة عن « الربع المعمور »

لاحظنا ان فكرة « الاقاليم السبعة » التي ثبتها بطليموس فلكياً وتأثر بها العرب في كتاباتهم الفلكية والجغرافية تشمل ما كان يسمى « الربع المعمور » ، وهي المنطقة الشمالية من الأرض التي كان الجغرافيون يعتقدون انها وحدها التي يمكن أن يسكنها البشر وأن ما عداها أرض خالية لعدم صلاحيتها بسبب البرد أو الحر أو لانها مغمورة بالبحار . وقد عبر عن هذا المفهوم المسعودي في قوله :

« والارض قسمان على ما قدَّمنا احدهما مسكون والآخر غير مسكون والعامر المسكون منها على أقسام أحدهما مفرط الحر وهو ما كان من جهة الجنوب لان الشمس تقرب منه فيلتهب هواؤه والآخر الشمال وهو مفرط البرد لبعد الشمس عنه . وأما المشرق والمغرب فمعتدلان ، وان كان فضل المشرق أظهر واعتداله أشهر . واما الذي ليس بمسكون فعلى قسمين أيضاً أما أن يفرط فيه البرد لبعد الشمس عنه ، أو يفرط فيها الحر لَقربها منه فلا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبات . فالموضع الذي بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستٌّ وستون درجة لا يمكن أن يكون فيه نشوء لافراط البرد عليه لبعد الشمس عنه . وان ما كان عرضه ستة وستين جزءاً وتسع دقائق تكون السنة فيه يوماً وليلة ستة أشهر نهار لا ليل فيه وستة أشهر ليل لا نهار فيه يبطل نهاره في الشتاء وليله في الصيف . والموضع الذي بعده في الجنوب من خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء لافراط الحر عليه لقرب الشمس منه .
قال المسعودي فأما أبطليموس فان أقصى ما وجد عنده من العمارة في جهة الشمال الجزيرة المعروفة يثولي في أقصى بحر المغرب من الجهة الشمالية وان عرضها من معدل النهار في الشمال ثلاثة وستون جزءاً . وحكاه أيضاً عن مارينوس فيما ذهب اليه في حدود المعمور من الارض . وذهب أبطليموس الى ان نهاية العمارة في جهة الجنوبي تحت الموازي الذي بعده من معدل النهار ستة عشر جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة وربع

وسدس . وذهب قوم الى ان الموضع الذي لا يمكن ان يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب واحد وعشرون جزءاً وخمس وثلاثون دقيقة ، والى هذا ذهب يعقوب بن اسحاق الكندي في كتابه في رسم المعمور من الارض »[١٨] .

وكان الربع المعمور يشتمل في عرف الجغرافيين الاغريق والرومان على الاجزاء الجنوبية والوسطى من قارة اوروبا والاطراف الجنوبية من شمالي القارة لغاية جزيرة ثيول THULE الواقعة في شمال الجزر البريطانية حيث يبلغ طول النهار حوالي عشرين ساعة ، وعلى الاجزاء الغربية والوسطى والشرقية وبعض الاجزاء الجنوبية من قارة آسيا ، وعلى الاجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من قارة افريقيا التي تضم بلدان المغرب العربي وليبيا ومصر والحبشة وجزءاً من أرض السودان وجزءاً من الساحل الصومالي . وكانت حدود هذا الربع المعمور تتمثل غرباً بما يسمى بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) عند جزر الخالدات ، وشمالا بما يسمى المحيط الشمالي (الذي افترض انه يقع غير بعيد عن البحر الاسود) ، وشرقاً في أقصى عمران الصين عند مدينة (سيلا) ، وجنوباً بما يسمى البحر الشرقي . وقد أخذ الجغرافيون العرب والمسلمون في البداية بهذا المفهوم للارض المعمورة ، واعتبروا المناطق المسكونة من الارض هي الاجزاء المذكورة اعلاه ، ولعل خير من قدم لنا صورة للمناطق المعمورة من الارض بهذا المفهوم ابو اسحاق الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك) ، ونقلها عنه فيما بعد بالنص ابن حوقل في كتابه (صورة الارض) . وقد أورد تلك الصورة على النحو التالي : « وقسمة الارض على الجنوب والشمال . فاذا أخذت من المشرق من الخليج الذي يأخذ من البحر المحيط بأرض الصين الى الخليج الذي يأخذ من هذا البحر المحيط من أرض المغرب بأرض الاندلس فقد قسمت الارض قسمين ، وخط هذه القسمة يأخذ من بحر الصين حتى يقطع بلد الهند ووسط مملكة الاسلام ، حتى يمتد الى ارض مصر الى المغرب ، فما كان في حد الشمال من هذين القسمين فأهله بيض ، وكلما تباعدوا في الشمال ازدادوا بياضاً ، وهي أقاليم باردة . وما كان مما يلي الجنوب من هذين القسمين فان اهله سود . وكلما تباعدوا في الجنوب ازدادوا سوادا ، وأعدل هذه الاماكن ما كان في الخط المستقيم وما قاربه . وسنذكر كل أقليم من ذلك بما يعرف قربه ومكانه من الاقاليم الذي يصاحبه .

فأما مملكة الاسلام فان شرقيَّها أرض الهند وبحر فارس ، وغربيَّها مملكة الروم

(١٨) التنبيه والاشراف - لأبي الحسن علي المسعودي - منشورات خياط ، بيروت ١٩٦٥ - ص ٢٤ - ٢٥ .

وما يتصل بها من الارمن واللان والران والسرير والخزر والروس بلغار الصقالبة وطائفة من الترك ، وشماليَّها مملكة الصين وما اتصل بها من بلاد الاتراك ، وجنوبيَّها بحر فارس . وأما مملكة الروم فان شرقيَّها بلاد الاسلام وغربيَّها وجنوبيَّها البحر المحيط ، وشماليَّها حدود عمل الصين ، لأننا ضممنا ما بين الاتراك وبلد الروم من الصقالبة وسائر الامم الى بلد الروم . وأما مملكة الصين فان شرقيَّها وشماليَّها البحر المحيط ، وأما جنوبيَّها فمملكة الاسلام والهند وأما غربيُّها فهو البحر المحيط ، ان جعلنا يأجوج ومأجوج وما وراءهم الى البحر من هذه المملكة . وأما أرض الهند فان شرقيَّها بحر فارس ، وغربيَّها وجنوبيَّها بلاد الاسلام ، وشماليَّها مملكة الصين . فهذه حدود هذه الممالك التي ذكرناها . وأما البحار فان اعظمها بحر فارس وبحر الروم ، وهما خليجان متقابلان يأخذان من البحر المحيط ، واعظمهما طولا وعرضاً بحر فارس ، والذي ينتهي اليه بحر فارس من الارض من حد الصين الى القلزم . فاذا قطعت من القلزم الى الصين على خط مستقيم كان مقداره مائتي مرحلة(*) . وذلك انك اذا قطعت من القلزم الى ارض العراق في البرية كان نحو شهرٍ ، ومن العراق الى نهر بلخ نحوٌ من شهرين ، ومن نهر بلخ الى آخر الاسلام في حد فرغانة نيِّفٌ وعشرون مرحلة. ومن هناك الى ان تقطع أرض الخزلجية كلها فتدخل في عمل التغزغز نيف وثلاثون مرحلة . ومن هذا المكان الى البحر من آخر عمل الصين نحوٌ من شهرين . فأما من أراد قطع هذه المسافة من القلزم الى الصين في البحر طالت المسافة عليه لكثرة المعاطف والتواء الطرق في هذا البحر . وأما بحر الروم فانه يأخذ من البحر المحيط في الخليج الذي بين المغرب وأرض الأندلس حتى ينتهي الى الثغور الشامية ومقداره في المسافة نحوٌ من سبعة أشهر ، وهو أحسن استقامة واستواءً من بحر فارس . وذلك أنك اذا أخذت من فم هذا الخليج أدّتك ريح واحدة الى آخر هذا البحر . وبين بحر القلزم - الذي هو لسان بحر فارس - وبين بحر الروم على سمت الفرما أربع مراحل ، غير أن بحر الروم يجاوز الفرما نحواً من مائة وثمانين مرحلة . وقد فصلنا في مسافات المغرب ما يغني عن اعادته . فمن مصر الى أقصى المغرب نحوٌ من مائة وثمانين مرحلة . فكان ما بين أقصى الأرض من المغرب الى اقصاها من المشرق نحوٌ من أربعمائة مرحلة . وأما عرضها من أقصاها في حد الشمال الى أقصاها في حد الجنوب فانك تأخذ من ساحل البحر المحيط حتى تنتهي الى أرض يأجوج ومأجوج ، ثم تمر على ظهر

(*) المرحلة هي ما يقطعه المسافر خلال يوم واحد وتساوي حوالي خمسة وثلاثين كيلومترا.

الصقالبة ، وتقطع أرض بلغار الداخلة والصقالبة ، وتمضي في بلد الروم الى الشام حتى تخرج من أرض الشام وأرض مصر والنوبة . ثم تمتد في برية بين بلاد السودان وبلاد الزنج حتى تنتهي الى البحر المحيط . وهذا خط ما بين جنوبي الارض وشماليها . فأما الذي أعلمه من مسافة هذا الخط فان من ناحية يأجوج الى ناحية بلغار وارض الصقالبة نحوٌ من أربعين مرحلة . ومن أرض الصقالبة في بلد الروم الى الشام نحوٌ من ستين مرحلة . ومن أرض الشام الى أرض مصر نحوٌ من ثلاثين مرحلة . ومنها الى أقصى النوبة نحواً من ثمانين مرحلة حتى تنتهي الى هذه البرية . فذلك مائتان وعشر مراحل كلها عامرة . وأما ما بين يأجوج ومأجوج والبحر المحيط في الشمال ، وما بين براري السودان والبحر المحيط في الجنوب فقفر خراب ما بلغنا أن فيه عمارة ، ولا أدري مسافة هاتين البريتين الى شط البحر المحيط كم هي ، وذلك ان سلوكهما غير ممكن لفرط البرد الذي يمنع من العمارة والحياة في الشمال ، وفرط الحر المانع من الحياة والعمارة في الجنوب . وأما ما بين الصين والمغرب فمعمور كله . والارض كلها مستديرة والبحر المحيط محتف بها كالطوق . ويأخذ بحر الروم وبحر فارس من هذا البحر . فأما بحر الخزر فليس يأخذ من هذا الخليج ، وانما هو بحر لو أخذ السائر على ساحله من الجزر على أرض الديلم وطبرستان وجرجان والمفازة على سياه كوه لرجع الى مكانه الذي سار منه من غير أن يمنعه مانع الا نهراً يقع فيه. وأما بحيرة خوارزم فكذلك . وفي أعراض بلاد الزنج ومن وراء أرض الروم خلجان وبحار لم نذكرها لقصورها عن هذه البحار وكثرتها . ويأخذ من البحر المحيط خليج حتى ينتهي الى ظهر الصقالبة ، ويقطع أرض الروم على القسطنطينية حتى يقع في بحر الروم . وأرض الروم حدُّها من البحر المحيط على بلاد الجلالقة وافرنجة وورومية وأثيناس الى القسطنطينية ، ثم الى أرض الصقالبة ، ويشبه أن يكون نحواً من شهرين . وقد بينا أن من الثغور الى أقصى المغرب مائتين وعشر مراحل، والروم المحض من حدّ رومية الى حد الصقالبة ، فأما ما ضممنا من بلد الروم من الافرنجة والجلالقة وغيرهم فان لسانهم مختلف ، غير أن الدين والملك (المْملكة) واحد ، كما ان في مملكة الاسلام ألسنة مختلفة والملك واحد . وأما مملكة الصين فانها نحوٌ من أربعة أشهر في ثلاثة أشهر . فاذا أخذت من فم الخليج حتى تنتهي الى دار الاسلام مما وراء النهر فهو نحوٌ من ثلاثة أشهر . واذا أخذت من حدّ المشرق حتى تقطع الى حد المغرب في أرض التبت ، وتمر في أرض التغزغز وخرخيز وعلى ظهر كيماك الى البحر فهو نحواً من أربعة أشهر . ولمملكة الصين ألسنة مختلفة . فأما الاتراك فكلها من التغزغز وخرخيز وكيماك

والغزيَّة والخزلجية فألسنتهم واحدة يفهم بعضهم عن بعض ، فأما أرض الصين والتبت فلهم لسان مخالف لهذه الألسنة ، والمملكة كلها منسوبة الى صاحب الصين المقيم بخَمْدان ، كما ان مملكة الروم منسوبة الى الملك المقيم بالقسطنطينية . ومملكة الاسلام منسوبة الى أمير المؤمنين المقيم ببغداد . ومملكة الهند منسوبة الى الملك المقيم بقنّوج ، وديار الاتراك متميزة . فأما الغزيَّة فان حدود ديارهم ما بين الغزّ وكيماك وأرض الخزلجية وبلغار . وحدود دار الاسلام ما بين جرجان الى فاراب وأسبيجاب . وأما ديار الكيماكية فانهم من وراء الخزلجية من ناحية الشمال ، وهم فيما بين الغزية وخرخيز وظهر الصقالبة ، ويأجوج هم في ناحية الشمال اذا قطعت ما بين الصقالبة والكيماكية ، والله أعلم بمكانهم وسائر بلادهم . وأما خرخيز فانهم ما بين التغزغز وكيماك والبحر المحيط وأرض الخزلجية . وأما التغزغز فانهم ما بين التبت وأرض الخزلجية وخرخيز ومملكة الصين . وأما الصين فانهم ما بين البحر والتغزغز والتبت ، والصين نفسه هو هذا الاقليم ، وانما نسبنا سائر بلاد الاتراك اليها في المملكة ، كما نسبنا سائر مملكة الروم الى أرض رومية والقسطنطينية ، وكما نسبنا سائر ممالك الاسلام الى ايرانشهر - وهو أرض بابل . وأرض الصقالبة عريضة طويلة نحواً من شهرين في مثلها ، وبلغار الخارجة هي مدينة صغيرة ليس فيها أعمال كثيرة ، واشتهارها لانها فرضة لهذه الممالك . والروس قوم بناحية بلغار فيما بينها وبين الصقالبة ، وقد انقطعت طائفة من الاتراك عن بلادهم فصاروا فيما بين الخزّ والروم يقال لهم البَجَناكية وليس موضعهم بدار لهم على قديم الايام ، وانما انتابوها فغلبوا عليها . وأما الخزر فانه اسم لهذا الجنس من الناس، وأما البلد فانه مصر، يسمى اثل، وانما سمي باسم النهر الذي يجري عليه الى بحر الخزر. وليس لهذا المصر كثير رساتيق ولا سعة ملك ، وهو بلد بين بحر الخزر والسرير والروس والغزّية . وأما التبت فانها بين أرض الصين والهند وأرض الخزلجية والتغزغز وبحر فارس وبعضها في مملكة الهند وبعضها في مملكة الصين ، ولهم ملك قائم بنفسه يقال أن أصله من التبابعة والله أعلم . وأما جنوبي الارض من بلاد السودان فان بلد السودان الذي في أقصى المغرب على البحر المحيط بلد مكنّف، ليس بينه وبين شيء من الممالك اتصال ، غير أن حدّاً له ينتهي الى البحر المحيط ، وحداً له إلى برية بينه وبين أرض المغرب ، وحداً له الى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات ، وحداً له ينتهي الى البرية التي قلنا انه لا يثبت فيها عمارة لشدة الحر . وبلغني أن طول أرضهم نحوٌ من سبعمائة فرسخ في نحوها . غير أنها من البحر الى الواحات أطول من عرضها . وأما أرض النوبة فان حداً لها ينتهي

الى أرض مصر ، وحداً لها الى هذه البرية التي بين أرض السودان ومصر ، وحداً لها الى أرض البُجَة ، وبراري بينها وبين القلزم ، وحداً الى هذه البرية التي لا تسلك . وأما الحبشة فانها على بحر القلزم ، وهو بحر فارس ، فينتهي حد لها الى بلاد الزنج ، وحد لها الى البرية التي بين النوبة وبحر القلزم ، وحد لها الى البجة والبرية التي لا تسلك . وأما أرض الزنج فانها أطول من أرض السودان ولا تتصل بمملكة غير الحبشة ، وهي بحذاء اليمن وفارس وكرمان الى أن تحاذي أرض الهند . وأما أرض الهند فان طولها من عمل مكران في أرض المنصورة والبذهة وسائر بلد السند الى أن تنتهي الى قنوّج ، ثم تجوزه الى أرض التبت نحواً من أربعة أشهر . وانما تركنا ان نذكر في طول الاسلام حد المغرب الى الاندلس لانها مثل الكمّ في الثوب . وليس في شرقي المغرب ولا غربيها اسلام لانك اذا جاوزت مصر في أرض المغرب كان جنوبي المغرب بلاد الاسلام وشمالي المغرب بحر الروم، ثم أرض الروم. ولو صلح ان يجعل طول الاسلام من فرغانة الى أرض الأندلس لكان مسيرة ثلاثمائة وعشر مراحل ، لان من اقصى فرغانة الى وادي بلخ نيّفاً وعشرين مرحلة . ومن وادي بلخ الى العراق نحواً من ستين مرحلة . ومن العراق الى مصر نحواً من خمسين مرحلة . وقد بيّنا في مسافات المغرب ان من مصر الى أقصاه مائة وثمانون مرحلة .وقصدت في كتابي هذا تفصيل بلاد الاسلام اقليماً اقليماً حتى يعرف موقع كل اقليم من مكانه وما يجاوره من سائر الاقاليم »(١٩) .

ومن الواضح ان الجغرافيين العرب والمسلمين قد وسعوا في مفهوم الربع المعمور فيما بعد ، فمددوه نحو شمال أوروبا وآسيا (بلاد يورا وشعوب يأجوج ومأجوج) ، كما مددوه نحو الشرق بما تجمع لديهم من معارف عن الصين ، كذلك وسعوا في آسيا الجنوبية بعد أن خبروا عن كثب المناطق المسكونة في جنوب القارة في الملايو والهند الصينية وجزر المحيط الهندي . كذلك مددوا الربع المعمور على الساحل الجنوبي الشرقي لافريقيا في المناطق التي أطلقوا عليها اسم سفالة الزنج والتي تصل الى جنوبي الساحل الموزمبيقي ، وتوغلوا به عدة درجات جنوبي خط الاستواء في افريقيا الداخلية . ولم تكن معرفتهم تقتصر على مجرد تحديد اسماء مواضع جديدة ضمن الاقاليم السبعة اليونانية ، بل تضمنت معلومات جديدة متنوعة عن الاوضاع الطوبوغرافية والاقتصادية والبشرية لتلك الجهات لم تكن قد وردت في المؤلفات السابقة . وسنستعرض في الصفحات التالية ما أنجزه الجغرافيون العرب والمسلمون من

(١٩) الاصطخري ، المصدر السابق ، ص ١٦ - ١٩ .

اضافات الى المعلومات الاغريقية والرومانية عن القارات القديمة الثلاث .

١ ـ قارة أوروبا :

لقد تفوّق الجغرافيون العرب والمسلمون على سابقيهم من الاغريق والرومان في معرفة الجهات القصية من القارة الاوروبية . فحدود الارض المعمورة في قارة اوروبا مثلا كما فهمها الاغريق والرومان لم تكن تتجاوز الجهات الوسطى من أوروبا . فجغرافي كبير مثل سترابو STRABO (اصطرابون) مثلا ، قد جعل المحيط الشمالي قريبا جدا من شمالي البحر الاسود ، في حين ان بوليبيس POLYBIUS يشك أساساً في وجود المحيط الشمالي . والواقع ان أحاديث الجغرافيين الاغريق والرومان عن شمالي أوروبا ، وعلى نحو الخصوص عن منطقة البحر البلطيقي في شمال غربي أوروبا ، كانت غامضة للغاية بالرغم من ان تجار العنبر كانوا يرتادون تلك المنطقة . وكانت معظم معلومات الجغرافيين تستند الى التقارير التي كتبها بثياس PYTHIAS المرسيلي ، والتي اشار فيها الى جزيرة اطلق عليها اسم (ثيول) THULE ذكر انها تقع في أقصى النواحي الشمالية من الارض المعمورة في قارة أوروبا . وما زال البحاثة يختلفون حول حقيقة تلك الجزيرة ؛ أهي ايسلندة أم الجزء الجنوبي من سكانديا أم شبه جزيرة جتلاند ، ولعلها ليست في الحقيقة سوى الطرف الشمالي لاسكتلندا . أما أحاديث **الجغرافيين الأغريق والرومان عن شعوب شمال أوروبا فتستند الى الخرافة ، فقد اطلقوا عليهم** اسم (الهيبروبوريون) وزعموا انهم يعيشون حياة سعيدة مجردة من المتاعب البشرية وانهم يقتاتون على الاعشاب ومنتجات الحيوانات . بل أن جغرافيا كبيراً كبطليموس نفى وجود سكان في شمالي أوروبا ، وجعل المعمورة فيها تنتهي في آخر الاقليم السادس عند الجزر البريطانية .

أما الجغرافيون **المسلمون** فقد كان لديهم تصور واضح عن جهات شمالي أوروبا بالرغم من عدم اهتمامهم بامثال تلك الجهات **باعتبارها** خارج نطاق بلدان الاسلام . فهناك اشارات متكررة لدى المسعودي والبيروني وحتى الغرناطي بأن تلك المناطق يسودها البرد الشديد بحيث تتعذر الزراعة فيها ، وان سكانها البحريين يقتاتون على السمك . ولعل البيروني والادريسي كانا من أكثر الجغرافيين دقة في الحديث عن تلك الجهات . فقد حدد البيروني بصورة صحيحة موقع المحيط الشمالي الذي يلتف حول شبه جزيرة **اسكندناوة** ، كما اطلق على سكانها اسم « الورنك »[٢٠] ، واشار الى

(٢٠) القانون المسعودي ـ لأبي الريحان البيروني نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ـ حيدر آباد ١٩٥٤ ، ص ٥٣٧ .

براعتهم في صناعة السيوف الحديدية . وقد اتفق جميع الجغرافيين المسلمين الذين اشاروا الى تلك الجهات بان النهار قد يطول في اثناء الصيف فيها بحيث يتجاوز احدى وعشرين ساعة ، بينما تنعكس الآية في فصل الشتاء .

وهناك حديث متكرر أيضاً لدى الجغرافيين المسلمين عن جهات شمال أوروبا التي أطلق عليها اسم بلاد (يورا) وبلاد (ويسو) . ومثال ذلك ما ذكره القزويني في كتابه (آثار البلاد واخبار العباد) عن بلاد ويسو التي قال عنها : « انها بلاد وراء بلاد **البلغار** بينها مسيرة ثلاثة **أشهر** ، ذكروا ان النهار يقصر عندهم حتى لا يرون شيئاً من الظلمة ، ثم يطول الليل حتى لا يرون شيئاً من الضوء ، واهل **البلغار** يحملون بضائعهم اليها للتجارة » . وقال عن بلاد يورا : « انها بلاد بقرب بحر الظلمات . . . وان النهار عندهم في الصيف طويل جدا حتى أن الشمس لا تغيب عنهم مقدار اربعين يوما . **وفي** الشتاء **ليلهم** طويل جداً حتى تغيب الشمس عنهم مقدار اربعين يوماً ، والظلمات **قريبة** منهم »[٢١] .

وتنعكس معرفة الجغرافيين العرب والمسلمين أيضاً بجهات شمال أوروبا في أقاليم الادريسي حيث مدد الأرض المعمورة في شمالي أوروبا حتى فنلندا وشمال الروسيا وبلاد اللاب ووضع ذلك كله في الاقليم السابع الذي يمتد عمليا في خرائطه لغاية درجة ٧٢ شمالا وان ذكر في المتن بأن **أقصى** المعمور في أوروبا يصل الى درجة ٦٨ شمالا[٢٢] .

أما ما يخص شرقي أوروبا فكانت معلومات الرومان والاغريق عنها مبعثرة وغير دقيقة . فهيرودوت وبطليموس مثلا يمدان بحر آزوف في خارطتيهما الى جهات موغلة في الشمال . كما ان بليني PLINY يعتبر سكان شرقي أوروبا من الاسكيثيين من آكلي لحوم البشر ، بينما يشكو هيرودوت بأن اولئك الاقوام لا يسمحون لأحد بدخول مناطقهم . ولم تكن معلومات **بطليموس** عن هذه الجهات بأفضل من معلومات سابقيه ، فهو يعيّن في خارطته في تلك الجهات من أوروبا مثلا سلاسل جبال عديدة اعتمادا على أقوال الرواة ، بينما لا نكاد نعرف منها سوى سلسلة واحدة هي سلسلة جبال الكربات .

أما الجغرافيون العرب والمسلمون فكانت معرفتهم بجهات شرقي أوروبا تتفوق

(٢١) آثار البلاد واخبار العباد ـ لزكريا القزويني ، منشورات دار صادر ببيروت ، ص ٦١٧ ـ ٦٢٠ .
(٢٢) حسين مؤنس ، ص ٢٠٨ .

على معلومات سابقيهم بدرجة واضحة . فالأحاديث عن بلاد الصقالبة وشعوبها (والتي كان يقصد بها منطقة الشعوب السلافية عموماً) ، كان يتكرر لدى عدد من الجغرافيين من أمثال المسعودي والادريسي والبيروني والغرناطي . وقد حفلت كتب ابي حامد الغرناطي - بالرغم مما تضمنته من خرافات ومبالغات - بمعلومات طيبة عن جهات شرقي ووسط أوروبا ، ولا سيما بلاد المجر ، وذكرت أبرز المظاهر الطبيعية والعادات الاجتماعية . ولم يكن يخلو أي كتاب جغرافي عربي عام عن الكلام على جهات شرقي أوروبا .

٢ - قارة آسيا :

لقد فاقت معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن قارة آسيا معلومات سابقيهم من الجغرافيين الاغريق والرومان بدرجة عظيمة . ففيما عدا ايران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام ، لم تكن معلومات الاغريق والرومان واضحة او دقيقة عن مناطق وشعوب أواسط آسيا وشرقيها وجنوبها الشرقي وجنوبها . ويمكن القول ان معارف الإغريق والرومان ظلت قاصرة على الرقعة التي شملتها فتوحات الاسكندر الكبير . فلم يكونوا يعرفون سوى معلومات مشوشة وغير دقيقة عن أراضي ما وراء النهر وشعوبها (شرقي نهر جاكزارتس واوكسوس) . أما شمال آسيا (جهات سيبريا) فكانت في عرفهم صحارى غير مأهولة . كما لم تكن لديهم أية فكرة عن الساحل الشرقي لآسيا الى الشمال من الهند الصينية . بل أن معلوماتهم كانت ضئيلة جدا عن مظهر جغرافي بارز في غربي آسيا وهو بحر الخزر الذي جعله اراثوستنس ERATHOSTENES (اراطوسطيني) متصلا بالمحيط الشمالي ، وجعله ارسطو متصلا بالبحر الأسود بقناة جوفية . ولقد أكد بليني بأن بعض الهنود قاموا برحلة من الهند الى بحر الخزر عن طريق المحيط الشمالي !

وظلت كذلك المنطقة الواقعة شمالي بحر الخزر وشرقيه شبه مجهولة لدى الكتاب الاغريق والرومان . فقد رسم بليني مثلا ساحلا الى الشرق من خليج الخزر ونثر فيه صحارى جليدية متعاقبة واضعا في هذه المنطقة الاسكيثيين آكلي لحوم البشر . أما بطليموس فقد جعل منطقة الاسكثيين تتلاشى تجاه الشمال في أرض مجهولة تمتد فيها بعض سلاسل الجبال وتتناثر بعض القبائل[٢٣] .

---

(٢٣) تطور الفكر الجغرافي - للدكتور شريف محمد شريف ، منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ .

ولم يكن لدى الجغرافيين الاغريق والرومان أيضاً فكرة عن الأنهار الكبرى التي تجري في شمال القارة الاسيوية وتصب في المحيط المتجمد الشمالي ، كنهري ينساي ولينا . بل إن نهرا عظيماً كنهر الفولغا لم يكن معروفاً لدى الجغرافيين الرومان الا بصورة مشوشة ، ولم يكتشفوا مصبه في بحر الخزر الا في وقت متأخر . **أما الجغرافيون العرب والمسلمون فقد سجلوا معلومات دقيقة ومفصلة عن بحر الخزر وحوض الفولغا والشعوب التي تقطن حوضه الأدنى. ولا يكاد يخلو أي كتاب من الكتب الجغرافية الاقليمية من وصف لبحر الخزر، وقد أجمع الجغرافيون المسلمون على كونه بحيرة مغلقة .**
ولقد تحدث العديد منهم عن نهر الفولغا (الذي كانوا يسمونه نهر أتل) ووصفوا مجراه ومصبه في بحر الخزر ، واعتبروه احد انهار الدنيا الكبرى . ولقد تحدث عنه ابن حوقل في كتابه (صورة الارض) حديثاً مفصلا ورسم له خارطة . ويمكن القول ان ما ذكره ابو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) عن بحر الخزر يمثل تلخيصاً طيباً لمعرفة الجغرافيين العرب الاوائل عن هذا البحر . قال ابو الفدا :

« ذكر بحر الخزر . هذا بحر ملح لا يتصل بالبحر المحيط ولا بغيره من البحور المتقدم ذكرها بل هو بحر منفرد قريب من الاستدارة . قال الشريف الادريسي طوله ثمانماية ميل وعرضه ستماية ميل وهو مدور الشكل الى الطول وقيل مثلث الشكل الشكل كالقلع . وعن القاضي قطب الدين أن طوله من الشرق الى الغرب مايتان وسبعون فرسخاً وعرضه مايتا فرسخ ويسمى بحر الخزر وبحر جرجان وبحر طبرستان . ونبتدىء فنصفه من جانبه الغربي ثم الجنوبي ثم الشرقي ثم الشمالي حتى نصل الى جانبه الغربي من حيث ابتدأنا . فنقول ان غاية تغريب هذا البحر حيث الطول ست وستون درجة والعرض نحو احدى واربعين عند باب الحديد . وهناك بالقرب من باب الحديد دربندشروان . ثم يمتد جنوباً من باب الحديد واحداً وخمسين فرسخاً، وهناك مصب نهر الكر . ثم يمتد البحر مشرقاً بانحراف الى الجنوب ستة عشر فرسخاً فيمر على موغان وهي من أعمال أردبيل ثم يمتد جنوباً ومشرقاً حتى يبلغ غايته في الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة ، وهذا غاية ما يبلغه في الجنوب . وطول جانبه الجنوبي المذكور سبع وسبعون قبالة آمد طبرستان . وفي ساحله الجنوبي بلاد الجيل والديلم . ثم يمتد البحر مشرقاً حتى يتجاوز بلاد الجيل الى ابسكون وهي حيث الطول تسع وسبعون وخمس واربعون دقيقة والعرض سبع وثلاثون وعشر دقائق . ونهاية ما يبلغه في المشرق حيث الطول ثمانون درجة والعرض نحو أربعين وعند جرجان وهي قريبة من البحر المذكور وفي شرقيه المفازة التي بين جرجان وخوارزم . ثم بعد نهايته

الشرقية المذكورة يمتد شمالا ومغرباً حتى يبلغ نهايته في الشمال حيث العرض نحو خمسين درجة والطول تسع وسبعون . ويقع في شماليه بلاد الترك وجبل سياكوه وفي شماليه وغربيه يصب نهر الأتل النهر العظيم الذي يقال انه أكبر أنهار تلك البلاد . وقد حكى لي بعض التجار الذين ركبوا هذا البحر انهم لما انتهوا في الشمال الى آخره تغير عليهم الماء المالح الصافي بماء متغير اللون فقيل لهم هذا ماء الاتل حيث اختلط بالبحر . . وأخبرنا أهل تلك البلاد أن الأتل عند مصبه في بحر الخزر المذكور يصير الف نهر ونهر . . وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة فيها عمارة ولكن فيه جزائر فيها مياه وغياض منها جزيرة سياكوه وهي جزيرة كبيرة بها عيون واشجار . . . ومنها جزيرة بحذاء مصب نهر الكر بها مياه وغياض . . . »[٢٤] .

ولقد وصف ابن حوقل نهر اتل (نهر الفولغا) على النحو التالي : « ونهر أتل له شعبة من جانبه الشرقي فتخرج من ناحية خرخيز وتجري فيما بين الكيماكية والغزية وهي حد ما بين الكيماكية والغزية ثم يذهب مغرباً على ظهر بلغار ويعود راجعاً الى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ثم على بلغار ثم على برطاس حتى يقع في بحر الخزر . ويقال انه يتشعب من هذا النهر نيف وسبعون نهراً ويبقى عمود النهر جارياً الى خزران حتى يقع في البحر . ويقال ان هذه المياه اذا كانت مجتمعة باعلاه في نهر واحد زاد على جيحون كثرة وغزر ماء وفسحة على وجه الارض ، ويبلغ من كثرة هذه المياه وغزارتها انها تنتهي الى البحر عن أماكن تتساقط اليه بقرب بعضها من بعض . ويجري في البحر داخل مائه مسيرة يومين ويغلب على ماء البحر حتى يجمد في الشتاء في وسطه لعذوبتها وحلاوتها ويتبين في البحر لونه من لون ماء البحر »[٢٥] .

وأما المعلومات الخاصة بشعوب حوض الفولغا الادنى ومنطقة بحر الخزر فلا يكاد يخلو منها أي كتاب من كتب الجغرافية الاقليمية ، لا سيما وان بعض تلك الشعوب قد تبنى الديانة الاسلامية مبكراً . وهناك تفصيلات واسعة في كتاب ابن حوقل والكتب الاقليمية التالية عن مدن هذه الجهات وانتاجها الاقتصادي وعن عادات سكانها . غير أن أقدم تسجيل جغرافي عن منطقة الفولغا الادنى هو ما ورد في مذكرات ابن فضلان

(٢٤) تقويم البلدان ـ لعماد الدين اسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفدا ـ منشورات مكتبة المثنى ، عن طبعة رينود ودي سلان ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢٥) صورة الارض ـ لابن حوقل ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

الذي أرسله الخليفة المقتدر موفداً الى تلك الجهات عام ٩٢١ م . فلقد تحدث في تلك المذكرات التي سميت بـ (رحلة ابن فضلان) عن بلاد بلغار الفولجا وشعبها واصفاً بعض المظاهر الطبيعية والتقاليد الاجتماعية . ولعله كان أول من تحدث عن ظاهرة قصر الليل والنهار في تلك الجهات[٢٦] . ومن الكتابات الجغرافية الهامة عن تلك الجهات أيضاً كتابات أبي حامد الغرناطي والمسعودي وابن بطوطة . وتكتسب معلومات الغرناطي البشرية عن هذه المنطقة اهمية خاصة بالرغم مما يشوبها من خرافات .

أما معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن أقاليم آسيا الوسطى وتركستان (والتي كان يطلق عليها اسم بلاد ما وراء النهر) فالتفصيلات عنها غزيرة للغاية ، لا سيما وان بعض الجغرافيين المسلمين ينتمون الى تلك الأقطار كالبيروني مثلا . وقد تنوعت التفصيلات الجغرافية عن جهات آسيا الوسطى تنوعاً عظيماً فهي طوبوغرافية طوراً ، ومناخية طوراً آخر ، واقتصادية طوراً ثالثاً ، كما انها تناولت بصورة مفصلة المدن وخططها وتطورها التاريخي . وهناك معلومات انثروبولوجية من الدرجة الاولى تبعثرت في الكتب الجغرافية الاقليمية وفي بعض كتب الرحلات كرحلة ابن بطوطة مثلا . ولعل من أفضل الكتب التي درست آسيا الوسطى كتاب (صورة الارض) لابن حوقل وكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي وكتاب (المسالك والممالك) للاصطخري ، وجميعها من المؤلفات الجغرافية المبكرة . غير أن المعلومات البشرية المفصلة والقيمة عن تلك الجهات كانت تتناثر في صفحات كتب الرحلات المتأخرة من أمثال رحلات ابن بطوطة والجويني وعبد الرزاق .

وكان للجغرافيين العرب والمسلمين أيضاً معلومات طيبة عن شمال آسيا ، فقد كان البيروني أول من سمى نهر انجارا وتحدث عن شعوب أقليم بيكال في سيبيريا الشرقية[٢٧] . وكانوا يطلقون على شمالي آسيا اسم (بلاد الظلمة) . وقد أورد المسعودي بعض التفصيلات عنها في الجزء الاول من كتابه (مروج الذهب) ، كما تحدث ابن بطوطة عن أهم السلع التي كان يتاجر بها سكان تلك الجهات ، وشرح طريقتهم في المتاجرة وهي الطريقة التي يطلق عليها اسم (**التجارة الصامتة**) .

أما ما يتعلق بالصين فلم يكن الجغرافيون الاغريق يعرفون عنها شيئا ، الا ان

(٢٦) راجع (رحلة ابن فضلان) تحقيق الدكتور سامي الدهان ـ منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ دمشق ١٩٥٩ .

(٢٧) نفيس أحمد ، ص ٣٣ .

معلومات الرومان عنها كانت تتنامى منذ القرن الثاني الميلادي بسبب اشتداد الرغبة لدى سكان روما المترفين للحصول على الحرير الصيني . وكانت القوافل التجارية التي تحمل الحرير الصيني عبر الاراضي الاسيوية تتخذ طريقاً معينا ، يطلق عليه اسم طريق الحرير العظيم . وكان هذا الطريق ذا شعبتين ، الاولى تمر بخوتان وطشقرجان وتنتهي الى (بكترا) ، بينما تمر الاخرى الى الشمال مجتازة قشغر وسمرقند وتنتهي بمرو ، وكانت اقصى نقطة تصل اليها هي مدينة بلخ . وكان كلا الطريقين ينتهي في موضع يطلق عليه اسم (برج الحجر) كانت تتجمع فيه تجارة الحرير . ولم تكن معلومات الجغرافيين الرومان لتتجاوز مدينتي مرو وبكترا ، وهي معلومات غامضة نقلها تجار الحرير عن بعض الانهار والجبال والمدن الصينية . اما البحر الواقع شرقي الصين فلم تكن لديهم عنه سوى معرفة نظرية . ولذلك فلم تشتمل خريطة بطليموس على معلومات واضحة عن الصين ، وكل ما هنالك انها حددت موضع مدينة سيرا SERA واعتبرتها عاصمة لبلاد السيرس SERES التي يشتغل سكانها بصناعة الحرير ، وربما كان اقليم سيرس يمثل جزءاً من شمالي الصين . كذلك حددت الخارطة موقع مدينة (ثيناي) THINAE واعتبرتها عاصمة لأقليم سيناي SINAE الذي يقع الى الجنوب من اقليم سيرس ، وهي لا تبعد كثيراً عن ميناء كاتيغارا CATTIGARA ولم يتفق الباحثون على حقيقة مدينة ثيناي او ميناء كاتيغارا . وقد تساءلوا ان كانت مدينة ثيناي ما هي سوى كلمة مرادفة لكلمة سيناي ؟ أم هي مدينة لويانج أم نانكينغ ؟ كما تساءلوا عن حقيقة ميناء كاتيغارا ، هل هو كانتون ؟ أم هانوي ؟ أم سايجون ؟ أم ميناء سنغافورة القديم ؟ ولم يتوصلوا الى جواب نهائي لهذه الاسئلة[28] .

أما معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن الصين فهي جيدة ومتنوعة عموما ، وان كانت أغنى بالجوانب البشرية منها بالجوانب الطبيعية . والحقيقة أن معلومات الجغرافيين المسلمين عن الصين ترجع الى عهد مبكر وقد استقيت من السفراء والتجار والبحارة . وقد استطاع الملاحون العرب ان يتوغلوا على امتداد الساحل الصيني نحو الشمال لغاية شبه جزيرة كوريا واطلقوا على بحر الصين الشمالي اسم (بحر صنخي) . ويبدو ان أقدم المعلومات الموثوقة عن الصين هي تلك التي خلفها لنا التاجر سليمان والتي جمعها سليمان السيرافي في الكتاب المسمى (أخبار الصين والهند) . وبالرغم من قدم هذا المصدر (عام ٨٥١ م) فلم تتفوق عليه المصادر التالية

(٢٨) راجع : الارتياد والكشف الجغرافي ـ تأليف هـ . وود وترجمة شاكر خصباك ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٢٢ .

في معلوماتها البشرية عن الصين . ولعل رحلة ابن بطوطة هي الوحيدة التي أضافت معلومات بشرية جديدة عن الصين لم تكن قد وردت في الكتاب المذكور ، بينما نجد كثيراً من الجغرافيين المسلمين قد اغترفوا في غير تحفظ من مناهل هذا الكتاب . ومن المراجع المبكرة ايضا التي تليه في أهميتها الكتاب المعنون (عجائب الهند بره وبحره) لبزرك بن شهريار الذي يرجع الى أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع . وينبغي ان نؤكد هنا بأن الصلات التجارية بين الصين واقطار العالم الاسلامي كانت قوية منذ وقت مبكر . وكان التجار العرب يتبادلون السلع مع التجار الصينيين عن طريق الموانيء الهندية الجنوبية في بداية الامر حيث كانت ترد اليها المراكب الصينية باعداد غفيرة . غير ان التجار المسلمين والعرب ما لبثوا ان عرفوا طريقهم الى الصين حتى لقد تكونت جالية كبيرة منهم في ميناء الصين الجنوبي المسمى (خانفو) ـ ميناء كانتون ـ بحيث حملت ملك الصين على تولية رجل مسلم يحكم بينهم ممثلا عنه . وقد ذكر ابن بطوطة انه التقى بعدد كبير من التجار العراقيين اثناء تجواله في الصين . ومن الجدير بالذكر ان اهم السلع التي كان يستوردها التجار العرب من الصين هي الحرير والكافور والمسك والتوابل[29] . ومن أهم المعلومات التي اوردها ابو زيد السيرافي عن الصين هي التالية[30] :

● يقال ان لملك الصين من امهات المدن أكثر من مائتي مدينة ، ولكل مدينة ملك وخصي ، وتحت كل مدينة مدائن . فمن مدائنهم خانفو وهي مرسى السفن تحتها عشرون مدينة ، وانما تسمى مدينة اذا كان لها جادم . والجادم مثل البوق . . ولكل مدينة اربعة ابواب . فعلى كل باب من الجادم خمسة تنفخ في اوقات من الليل والنهار ، وعلى باب كل مدينة عشرة طبول تضرب معه ، وانما يفعل ذلك لتعلم طاعتهم للملك وبه يعرفون أوقات الليل والنهار ، ولهم علامات ووزن للساعات ، ومعاملتهم بالفلوس وخزائنهم كخزائن الملوك وليس لاحد من الملوك فلوس سواهم وهي عين البلاد .

● ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم . واهل الصين أهل جمال وبياض نقي متشرب حمرة وهم أشد الناس سواد شعور ونساؤهم يجرين شعورهن .

(٢٩) العرب والملاحة في المحيط الهندي ـ تأليف جورج فضلو حوراني وترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢١٨ .

(٣٠) أخبار الصين والهند ـ لأبي زيد السيرافي ، ص ٢٠ ـ ٢٧ .

● وانهار البلدين (يقصد الصين والهند) جميعا عظام . فيها ما هو أعظم من أنهارنا . والأمطار بالبلدين جميعاً عظام .

● وأهل الصين أشبه بالعرب في اللباس والدواب . وهم في هيئتهم ومواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الاقبية والمناطق .

● وبلاد الصين انزه وأحسن (من الهند) . . وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة . وبلاد الصين أصح وأقل أمراضاً وأطيب هواء (من الهند) . . وطعام الصين الحنطة والارز .ـ. وحيطان أهل الصين الخشب . .

● وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون اليها ولهم كتب دين .

● ووراء بلاد الصين من الأرض التغزغز ، وهم الترك ، وخاقان تبت . هذا مما يلي بلاد الترك . فأما ما يلي البحر فجزائر السيلا وهم بيض يهادون صاحب الصين ، ويزعمون انهم ان لم يهادوه لم تمطرهم السماء . ولم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكي عنهم ولهم بزاة بيض .

وتحدث القزويني أيضاً عن الصين في كتابه (آثار البلاد وأخبار العباد) ومما قاله عنها : « بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الاقليم الاول الى الثالث ، عرضها أكثر من طولها ، قالوا نحو ثلاثمائة مدينة في مسافة شهرين . وانها كثيرة المياه كثيرة الاشجار كثيرة الخيرات وافرة الثمار من أحسن بلاد الله وأزهاها ، وأهلها أحسن الناس صورة وأحذقهم بالصناعات الدقيقة ، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس ، لباسهم الحرير وحليهم عظام الفيل والكركدن ودينهم عبادة الاوثان وفيهم مانوية ومجوس ويقولون بالتناسخ ولهم بيوت للعبادات .

وبأرض الصين الذهب الكثير والجواهر واليواقيت في جبل من جبالها ، وبها من الخيرات الكثيرة من الحبوب والبقول والفواكه والسكر وفي جزائرها أشجار الطيب كالقرنفل والدارصيني ونحوها .

ولأهل الصين يد باسطة في الصناعات الدقيقة ولا يستحسنون شيئاً من صناعات غيرهم »(٣١) .

والواقع ان هناك اشارات كثيرة عن الصين متناثرة في كتب الجغرافية العربية ،

---

(٣١) القزويني ، ص ٥٣ - ٥٥ .

وليس أدل على ذلك من قول أبي الفدا في جغرافية (تقويم البلدان) عند الكلام عن الصين ما نصه :

« وقد ذكر أصحاب كتب المسالك والممالك في كتبهم بلادا كثيرة ومواضع وأنهاراً وغيرها في اقليم الصين ، ولم يقع لنا ضبط اسمائها ولا تحقيق أحوالها فصارت كالمجهولة لدينا لعدم من يصل من تلك النواحي من المسافرين الينا لنستعلم منه أخبارها فاضربنا عن ذكرها »(٣٢) . ومع ذلك فان ابي الفدا يتحدث عن مدينة خانفو (كانتون) والتي حول العرب لفظها في عهد متأخر الى (خنسا) ومدينة زيتون (وهي ميناء شنجو) ، كما يذكر مدناً أخرى مثل نيجو وخانجو والسيلي وجمكموت وخافو وساكجو . أما رحلة ابن بطوطة فقد اشتملت على معلومات اقتصادية وبشرية متنوعة وغزيرة عن الصين لم تكن قد وردت في أي مرجع آخر(٣٣) .

ومن المعلومات المبكرة والهامة عن الصين أيضاً تلك التي نقلها المسعودي عن ابن وهب القرشي والتي تناولت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وكذلك المعلومات التي دونها التاجر تميم بن بحر المتطوعي والذي اعتبره بعض الباحثين أقدم مصدر استقى منه العرب معلوماتهم عن الطريق البري الى الصين . كذلك تعتبر رحلة ابي دلف مسعر بن مهلل الينبوعي الخزرجي الى الصين والتي اوفده فيها الامير الساماني نصر بن احمد حوالي عام ٩٤٢ م . من الرحلات التي زودت الجغرافيين العرب بمعلومات طيبة عن الصين . والمهم في الامر ان معلومات الجغرافيين والرحالة المسلمين عن الصين قلما كانت تتضمن مبالغات أو خرافات أو اختلافات .

أما ما يتعلق بالهند فان معلومات الجغرافيين الاغريق والرومان عنها ترجع الى وقت مبكر . فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد روى المؤرخ الجغرافي هيرودوت في كتابه (تاريخ العالم) نتفا متفرقة عن الهند وشعوبها ، كما قام كاتب اغريقي آخر هو كتسياس CTESIAS في نهاية القرن الخامس قبل الميلاد بوضع كتاب عن الهند حافل بالخرافات ، وان اشتمل على بعض المعلومات الجيدة . واعتبرت الهند (والتي كانت في نظر الاغريق مجرد أقليم لنهر السند) أقصى بقعة في شرقي العالم المعمور ، وبالغ

---

(٣٢) أبو الفدا ، ص ٣٦٢ .

(٣٣) راجع : (ابن بطوطة ورحلته) لشاكر خصباك ، مطبعة الاداب بالنجف ١٩٧١ ، ص ٢٤٦ - ٢٧٩ .

الكتاب عموماً بحجمها . ولقد تنامت معلومات الجغرافيين الاغريق عن الهند اثر حملات الاسكندر الكبير ، وان لم تتجاوز أيضاً اقليم السند . وظلت الخرافات أساساً للمعلومات عن الهند ، وان بات نهر السند وسلسلة جبال هيملايا معروفة للجغرافيين الاغريق معرفة جيدة ، بينما بقي تصورهم لنهر الكنج يشوبه الغموض . ولقد اهتم الرومانيون بالهند اهتماماً خاصاً لا سيما بعد ان أدت اكتشافات هيبالوس HIPPA-LUS الى كسر احتكار العرب للتجارة في المحيط الهندي والى اتباع طريق بحرية معينة الى الهند بالاستعانة بالرياح الموسمية ، حيث استطاع الرومان الحصول على السلع الهندية بصورة مباشرة . ولقد اتسعت المعرفة الرومانية بالهند فشملت اقليم الدكن حيث كانت تصل السفن الرومانية الى الموانىء الجنوبية الغربية . ويقال ان بعض السفن الرومانية استطاعت في عهد الجغرافي استرابون الوصول الى مصب نهر الكنج ، الا ان ذلك ليس مؤكداً[٣٤] . ومن المؤكد أن المعرفة الرومانية بالجانب الشرقي للهند كانت ضئيلة للغاية . ولم ينجح أي من الكتاب الاغريق أو الرومان في رسم تصور صحيح للهند . فقد بالغ اراتوستيني مثلا في خارطته بمد بروز الهند نحو الشرق ، كما الغى بطليموس كتلة الهند الممتدة نحو الجنوب بان جعل الساحل الجنوبي لآسيا أقرب الى الاستقامة . هذا فضلاً عن انه جعل المحيط الهندي بحيرة مغلقة . وكانت معلوماته ومعلومات سابقيه من الجغرافيين الاغريق والرومان مشوشة للغاية عن الجزر الاندونوسية الكبرى وجزر المحيط الهندي عموما .

ومهما تكن قيمة معلومات الجغرافيين الاغريق والرومان عن الهند فان معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين تتفوق عليها بدرجة واضحة . والواقع ان هناك ما يبرر هذا التفوق . فصلة العرب بشبه القارة الهندية قديمة جدا . وقد ظل ابناء الساحل الجنوبي لجزيرة العرب يحتكرون تجارة العالم مع الهند لقرون طويلة قبل أن يكتشف هيبالوس الروماني في القرن الثاني الميلادي طريقاً بحرياً معيناً الى الموانيء الهندية الجنوبية بمساعدة الرياح الموسمية . ولم تضعف الصلات التجارية بين سواحل الجزيرة والخليج العربي في أي عصر من العصور بل ازدادت أهمية في عصر ازدهار الدولة الاسلامية (ولا سيما في العصر العباسي) ، كما ظل التجار والملاحون العرب يسيطرون على التجارة المحيطية مع الهند . ومن المعروف ان فاسكودي غاما قد استعان بمرشد عربي

(٣٤) شريف محمد شريف ، ص ٤٦٤ .

حينما قام بمغامرته الكبرى في الالتفاف حول الرأس الآفريقي والوصول الى الهند عن طريق المحيط الاطلسي ثم الهندي ، ويقال ان ذلك المرشد هو الملاح المشهور ابن ماجد . وبعد أن نجح القائد العربي محمد القاسم في فتح السند عام ٨٩ هـ توثقت الصلات بين الهند والعالم الاسلامي والعربي . وأخذ الجغرافيون المسلمون يبدون اهتماماً خاصاً بالهند باعتبارها أحد أجزاء العالم الاسلامي . ومنذ عهد مبكر بدأت المعلومات المتنوعة تتجمع عن الهند وخصوصاً ما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والبشرية ، كما أثارت المظاهر الطبيعية البارزة اهتمام الجغرافيين كنهر السند والكنج وجبال هيملايا . فقد قرن الجاحظ مثلا منابع السند بمنابع نهر النيل باعتبار ان التماسيح توجد في كل منهما . كذلك أثارت المدن الهندية الرئيسية اهتماماً خاصاً لدى عدد من الجغرافيين المبكرين أمثال الاصطخري واليعقوبي وابن حوقل . غير أن هناك ثلاث مراجع جغرافية رئيسية تنفرد باهمية خاصة بالنسبة للمعلومات الجغرافية عن الهند ، وهي كتاب (أخبار الهند والصين) لسليمان السيرافي ، وهو أول مصدر عربي موثوق يتحدث عن شعوب الهند ، والثاني (كتاب الهند) للبيروني **المسمى** أيضاً (تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة) ، والذي يعتبره الجغرافيون الهنود أنفسهم أفضل ما كتب عن الهند في العصور الوسطى[٣٥] ، وكتاب (رحلة ابن بطوطة) الذي يشتمل على ثروة غزيرة من المعلومات البشرية **والاقتصادية** عن الهند . وفضلا عن هذه المصادر الرئيسية فلم يكن يخلو أي كتاب جغرافي عربي من معلومات عن الهند . فقد ذكر ابن رسته مثلا في المجلد السابع من كتابه (الاعلاق النفيسة) طائفة من عادات الهند واديانهم[٣٦] ، كما تحدث الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك) أو (الاقاليم) عن بلاد السند وأهم مدنها وانتاجها الزراعي بشيء من التفصيل[٣٧] . وأشار الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتابه (مختصر كتاب البلدان) الى الفروق في العادات الاجتماعية بين سكان الهند وسكان الصين[٣٨] . أما اشارات الادريسي الى الهند فقد كانت أكثر دقة ولا سيما في وصفه للمدن الهندية ولانتاج البلاد الاقتصادي ولطبقات السكان . قال الادريسي متحدثاً عن أجناس الهند : « وأهل الهند سبعة

(٣٥) راجع كتاب نفيس أحمد ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٣٦) الاعلاق النفيسة لابن رستة ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣٧) كتاب الاقاليم (المسالك والممالك) للاصطخري - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة باشراف مولر MOELLER، ص ٧٦ - ٧٨ .

(٣٨) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ١٣ - ١٦ .

أجناس أحدهم الساكهرية وهم الاشراف منهم وهم عباد الهند ، ثم الكسترية وهم يشربون من الخمور ثلاثة أصناف ، ثم الشودية وهم الفلاحون وأصحاب الزراعة ، ثم الفسية وهم أصحاب المهن والصناعات ، ثم السندالية وهم أصحاب اللحون وفي نسائهم جمال مشهور . . »[٣٩] .

وقال يصف بعض مدن الهند : « والديبل (وهي ميناء) كثيرة الناس ، مجدبة الارض قليلة الخصب ، ليس بها شجر وجبالها جرد وسهولها قشفة عديمة النبات . وأكثر بنيانهم بالطين والخشب .

وأما بانيه فهي مدينة صغيرة كثيرة النعم رخيصة الأسعار وأهلها أخلاط ولهم رفاهة عيش وكثرة خصب وأكثرهم مياسير . ومن هذه المدينة الى المنصورة ثلاث مراحل ، ومنها الى مامهل الى كنباية على البحر مفازة متصلة لا عامر بها ولا أنيس وليس لاحد بها سلوك لوحشة أرضها وبعد أقطارها .

والروز مدينة حسنة كثيرة الناس حفيلة كثيرة الجمع عامرة الاسواق نافقة التجارات وهي حصينة عليها سوران ويمر النهر بها من جهة المغرب وأهلها في رفاهة وخصب عيش وهي في قدرها تضاهي الملتان . ومدينة قالري على شط نهر مهران السند في غربيه وهي مدينة حسنة حصينة محاسنها ظاهرة وخيراتها وافرة ومتاجرها رابحة .

ومدينة ملتان في آخر بلاد السند وهي مجاورة لبلاد الهند وهي مدينة نحو المنصورة في الكبر ، وبعض الناس يجعلها من بلاد الهند . . وهي مدينة كبيرة عامرة عليها حصن منيع ولها أربعة أبواب وبخارجها خندق محفور ونعمها كثيرة وأسعارها رخيصة ولأهلها أموال طائلة وللملتان نهر صغير عليه مدن ومزارع ويصب في نهر مهران السند . .

وأما مدينة مامهل فهي جامعة عامرة وهي على طريق الداخلين من السند الى بلاد الهند وبها تجارات وحولها حمارات وهي قليلة الفواكه كثيرة الكسب والمواشي ، ومنها الى المنصورة تسع مراحل . . .

(٣٩) وصف الهند وما يجاورها من البلاد ـ من كتاب نزهة المشتاق ـ منشورات القسم العربي للجامعة الاسلامية عليكرة ١٩٥٤ ، ص ٣٢ ـ ٥٧ .

وفي البلاد أيضاً توجد مدن دولفة نهروارة والقندهار وزويلة وملطه وأودغست . وكل هذه المدن على رأس المفازة . وهناك أيضاً كابل وخواش ومسك وموريدس وماديار وثبه ووده ومنيار ومالوه ونياست وأطراسا ونجه وقشمير السفلى وميدره وكارموت وقشمير العليا والقنوج وستانر . . ومن المدن الساحلية بروج وسندابور وتانه وفندرينه وجربتن ، وكلكيان وصنجي وتيكار ولولوا وكنجه .

ومن المدن الهندية الاخرى أيضاً سوباره وأساول وسندان وصيمور والجندور والسندور ولهاور . . . » .

وقال أيضاً يصف بعض عادات الهند :

« وبسط العدل في أهل الهند طبيعة لا يقولون على شيء سواه . . وبلادهم عامرة وأحوالهم راجحة وادعة . وطعامهم الارز والحمص والباقلاء واللوبياء والعدس والماش والسمك والحيوانات التي تموت موتاً طبيعياً . ولا يذبحون طائراً ولا حيواناً كبيراً ولا صغيراً . وأما البقر فانها محرمة عليهم البتة . فاذا ماتت دفنت وهذا فعلهم في البقر خاصة دون سائر البهائم . واذا ضعفت البقر عن الخدمة والتصرف رفعت عن التعب وأمر بالنظر اليها وبالعلف من غير أن تستخدم ظهورها الى ان تموت . .

وأهل الهند يحرقون موتاهم ولا قبور لهم . . وهم لا يحزنون كثيراً ولا يقولون بالهموم جملة . . وجملة البلاد الهندية المجاورة للسند الذين قد مازجهم المسلمون يدفنون موتاهم في بيوتهم بالليل تستراً ويسوون التراب عليهم ولا يبكون ميتاً ولا يحزنون عليه كثيراً . . . الخ »[٤٠] .

أما (كتاب الهند) للبيروني فهو يعتبر كما اشرنا دراسة اقليمية ممتازة لشبه القارة الهندية حاول مؤلفها ان يفرغ فيها كلما استطاع جمعه من معلومات عن طريق الخبرة الشخصية والقراءة والسماع . ولا ريب ان معلوماته قد فاقت ما اشتمله أي كتاب سابق أو لاحق عن الهند في ذلك العهد . ولقد كتب الجغرافي الهندي نفيس أحمد دراسة مفصلة عن كتاب الهند واستعرض معلوماته الجغرافية الواسعة والميادين المتنوعة التي شملها[٤١] . وقد أوضح بأن هذا الكتاب قد درس الاوضاع الطبيعية لشبه القارة الهندية فتتبع ساحلها الغربي من أقصى الشمال حتى أقصى الجنوب وعدد أبرز الموانىء

(٤٠) المصدر السابق ، ص ٦٠ ـ ٦٣ .

(٤١) راجع الدراسة في كتاب نفيس أحمد ، ص ٢٤٢ ـ ٢٧١ .

التي تقع عليه ، ذاكراً أهم الجزر الواقعة الى جنوب الهند مثل جزيرة الزابج وجزر الديبجات وجزيرة سرنديب (سيلان) . وحدد البيروني بدقة مواضع التفاف المحيط حول شبه القارة الهندية واسماء كل موضع فيه . وفي حديثه عن الاجزاء الشمالية للهند أورد تفاصيل كثيرة عن كشمير ووصف المجرى المتعرج لنهر السند ، وأشار الى الجبال العالية ذات القمم السامقة والثلج الدائم . وذكر أن تلك الجبال المسماة هممنت (هيملايا) تمثل حدود الهند الشمالية كما تمثل منطقة تقسيم المياه ، فما يخرج منها نحو الشمال يتجه صوب آسيا الوسطى وما يخرج منها نحو الجنوب يجري في أرض الهند . وأشار الى وجود جبل ميرود (الذي يمكن أن يعتبر قمة أيفرست) الذي يعلو وجه الارض علواً مفرطاً ولا يمكن الدنو منه في عليائه . ثم شرح سهل الهند الفسيح الذي يقع الى الجنوب من جبال الهملايا وفسر تكونه بأنه عبارة عن مخلفات بحيرة قديمة . ثم تحدث عن أنهار الهند وتناول منابعها ومجاريها بالتفصيل محدداً منبع كل نهر والجهات التي يمر عليها ثم مصبه . وتحدث كذلك عن مناخ الهند بفصوله المختلفة وشدد بصورة خاصة على ظاهرة الامطار الموسمية وما ينجم عنها من غزارة مطر في بعض جهات الهند . ثم انتقل من شرح الجوانب الطبيعية الى شرح الجوانب البشرية فأفاض في الحديث عن مدن الهند وما تتميز به كل منها من ميزة تاريخية او سياسية او اقتصادية ، كما حدد المسافات بين مدينة وأخرى بصورة دقيقة . وشرح كذلك السلع الهندية وما تنتجه الهند من زراعة وصناعة . كذلك عرض البيروني لكل شاردة وواردة من عوائد سكان الهند وتقاليدهم واديانهم ولغاتهم وفلسفاتهم وعلومهم . وهكذا يتضح بأن (كتاب الهند) للبيروني هو من أفضل الكتب الجغرافية الاقليمية القديمة وهو يقع في مركز الصدارة بينها . وقد أضاف الى المعرفة عن الهند ثروة عظيمة .

وكان للجغرافيين العرب والمسلمين معلومات طيبة أيضاً عن جزر المحيط الهندي ، ولا سيما جزيرة سيلان (سرنديب) . فقد كانوا يعرفون على وجه التحديد موقع العديد من تلك الجزر ، وخصوصاً الكبرى منها ، كما كانوا على معرفة بمدنها الرئيسية . وبالرغم مما شاب معلوماتهم عن سكان تلك الجزر من مبالغات الا انهم قدموا عنهم حقائق هامة . ويمكن القول أيضاً أن أقدم تقرير عن تلك الجزر قد ورد في كتاب أبي زيد السيرافي ، فمما ذكره عن تلك الجزر :

« .. وفي هذا البحر (البحر الشرقي) اذا ركب الى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة غير انها واسعة لا تضبط ، منها جزيرة يقال لها الرامني فيها عدة ملوك وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخ ، وفيها معادن الذهب ومعادن تدعى فنصور يكون

الكافور الجيد منها . ولهذه الجزائر جزائر تليها منها جزائر يقال لها النيان لهم الذهب الكثير وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون . . . وفي هذه الجزيرة ـ أعني الرامني ـ فيلة كثيرة وفيها البقم والخيزران وفيها قوم يأكلون الناس وهي تشرع على بحرين هركند وشلاهط .

وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس وفيها خلق كثير عراة .. فاذا مرت بهم المراكب جاءوا اليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجون من كسوة لانه لا حر عندهم ولا برد .

ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما اندمان واهلها يأكلون الناس أحياء . وهم سود ملفلفو الشعور مناكير الوجوه والاعيان طوال الارجل . . »[٤٢] .

وقال عن جزيرة سرنديب : « وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هركند وهي رأس هذه الجزائر كلها وهم يدعونها الديبجات وبجانب منها مغاص اللؤلؤ وبحرها كله حولها . وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم (ع) وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر . . وفي هذه الجزيرة ملكان وهي جزيرة عظيمة فيها العود والذهب والجوهر وفي بحرها اللؤلؤ والشنك . . »[٤٣] .

أما البيروني فوصف جزر المحيط الهندي على النحو التالي : « فأما الجزائر الشرقية في هذا البحر وهي الى حد الصين أقرب فانها جزائر الزابج ويسميها الهنود سورنديب أي جزائر الذهب ، والغربية جزائر الزنج ، والمتوسط جزائر الرم والديبجات ومن جملتها جزائر قمير . ولجزائر ديوه خاصية هي انها تنشأ فتظهر من البحر قطعة رملية لا تزال تعلو وتنبسط وتنمو حتى تستحكم وأخرى منها على الأيام تضعف وتذوب حتى تغوص وتبيد . . وتنقسم هذه الجزائر الى قسمين بما يرتفع منها فتسمى ديوه كوذه أي ديبجات الودع يجمعونها من أغصان نارجيل يغرزونها في البحر ، وديوه كنبار الغزل المفتول من ليف النارجيل لخرز المراكب . وجزيرة الوقواق من جملة قمير وهو اسم لا كما يظنه العوام من شجرة حملها كرؤوس الناس تصيح ، ولكن قمير الوانهم الى البياض قصار القدود . . وأهل جزيرة الوقواق منهم سود الألوان ويجلب منهم الأبنوس الأسود . . . الخ »[٤٤] .

(٤٢) أخبار الهند والصين ـ لأبي زيد السيرافي ، ص ٥٤ .
(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤ .
(٤٤) كتاب الهند (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) لأبي الريحان البيروني ، ص ١٠٣ .

ولقد تحدث الادريسي أيضاً عن جزر المحيط الهندي وفصّل على نحو الخصوص في الكلام على سرنديب (سيلان) . وقد ذكر أبرز مدنها مثل مرقايا واغتا وفرسقوري وابدذي وماخالون وحامري وقلباذي وسنبذونا وسندورا وتيبريَ وكنبلي وبرنشلي ومرونة[٤٥] .

ومن الكتب الجغرافية الأخرى التي تحدثت عن جزر المحيط الهندي (رحلة ابن بطوطة) التي اشتملت على معلومات اجتماعية واقتصادية غزيرة عن تلك الجزر . وتكتسب معلومات ابن بطوطة عن جزر الملديف بالذات أهمية خاصة نظراً لأنه أقام في تلك الجزر ما ينيف على عام ونصف وخبر الحياة فيها عن قرب[٤٦] .

وأما ما يتعلق بكتابات الجغرافيين المسلمين عن الأقطار العربية الآسيوية وايران فلا يمكن بطبيعة الحال مقارنتها بكتابات الجغرافيين الاغريق والرومان ، فقد كانت مفصلة للغاية . وقد حظيت جزيرة العرب بدراسات مفصلة (ولا سيما الحجاز) وخاصة ما يتعلق بالمدن والمسافات ، بالنظر لأنها موطن العرب الأصلي وموئل الاسلام ومثوى المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة . فلقد كتب ابن الحائك الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب) كتاب (جزيرة العرب) وهو أوسع الكتب الجغرافية الاقليمية دراسة لجزيرة العرب من ناحية مظاهرها الطبيعية وأجناسها وقبائلها وحاصلاتها المعدنية والحيوانية وطرقها ومواطن الاستقرار فيها . ويقترب من هذه الدراسة المفصلة ما ورد في كتابي (المعجم فيما استعجم) و (المسالك والممالك) لابي عبيد البكري لا سيما الاجزاء الخاصة بجزيرة العرب ، وكذلك كتاب (نزهة المشتاق) للادريسي .

وتحفل الكتب الجغرافية المبكرة بتفصيلات غزيرة عن البلاد العربية وايران . ولقد كان كتابَ ابن خرداذبة المعنون (المسالك والممالك) من أوائل الكتب الجغرافية التي عينت بصورة شاملة أبرز المدن في هذه البلدان والمسافات فيما بينها وأهم انتاجها الزراعي مع بعض المعلومات العامة . ثم تلته الدراسات الجغرافية الاقليمية التي تناولت البلاد العربية الآسيوية وايران تناولا شاملا ، فتحدثت عن موقعها الجغرافي ومناخها وطبوغرافيتها وأنهارها ومدنها والمسافات فيما بينها وانتاجها الزراعي وصناعاتها ، ولم تترك شاردة ولا واردة الا عنيت بتسجيلها . وكانت تلك الكتب المبكرة ، وهي

---

(٤٥) وصف الهند وما يجاورها من البلاد ـ وللادريسي ، ص ٨ .

(٤٦) راجع : (ابن بطوطة ورحلته) لشاكر خصباك ، ص ٢٣٧ ـ ٢٤٥ .

بالذات كتاب (المسالك والممالك) للاصطخري و (صورة الأرض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي ، و (كتاب البلدان) لليعقوبي ، توزع اهتماماتها على البلاد العربية وايران بصورة متفاوتة حسب انتماءات مؤلفيها وحسب الاعتبارات الخاصة التي شجعتهم على الكتابة . فاهتم الاصطخري ببلاد فارس ، وابن حوقل بديار العرب ، وفصل المقدسي الكلام عن بلاد الشام ، وخصص اليعقوبي جزءا كبيراً من كتابه لدراسة مدن العراق . كذلك اشتملت الكتب الجغرافية العامة اللاحقة من أمثال كتب المسعودي والبيروني والحموي والادريسي وابي الفدا على تفصيلات جغرافية وبشرية متنوعة وغزيرة عن البلدان المذكورة . ويمكن القول ان المادة الجغرافية الوصفية لبلدان العالم العربي الآسيوي وايران ، وكذلك الأقطار العربية الافريقية والاندلس ، هي أثمن ما قدمته الجغرافية العربية للفكر الجغرافي العالمي .

٣ ـ قارة افريقيا :

لقد تفوق الجغرافيون العرب والمسلمون على الجغرافيين الاغريق والرومان في معلوماتهم عن قارة افريقيا عموماً . الا انه لا بد من القول ان الاغريق والرومان قد بزوهم في كتاباتهم الجغرافية عن مصر بالذات التي وقعت تحت سيطرتهم لقرون عديدة . ومن المعلوم ان معرفة الاغريق والرومان بالقارة الافريقية ، وبمصر والساحل الليبي بالذات ، تعود الى قرون عديدة قبل الميلاد . والحقيقة ان اسم القارة الافريقية يدين بوجوده للجغرافيين الرومان فهم الذين اطلقوا عليها هذه التسمية . وبطبيعة الحال كانت مصر يومذاك أهم قطر افريقي معروف اضافة الى الساحل الليبي الذي كان معروفاً باسم (سيرين) CYRENE. ولقد حفلت كتابات الجغرافيين والمؤرخين المشهورين أمثال هيرودوت وهيكتيوس وسترابو وبوليبس بالمعلومات القيمة عن مصر ، وما تزال تفصيلات سترابو عن منطقة الدلتا وفروع نهر النيل العديدة ذات قيمة كبرى . وقد كتب هيرودوت HERODOTUS كثيراً عن الليبيين وعاداتهم ، كما أورد هيكتيوس HECATIUS أيضاً الكثير من التفاصيل عن الساحل الليبي . وكان أهم ظاهرة أثارت اهتمام الكتاب الأغريق والرومان هو نهر النيل ، ذلك انه كان يجري من الجنوب نحو الشمال ، كما انه كان يفيض في فصل الصيف في الوقت الذي تنعدم فيه الأمطار ويسود الجفاف . وقد ذهب الكتاب الأغريق والرومان شتى المذاهب في تفسير ظاهرة فيضانه ، واقترب بعضهم من الحقيقة في ارجاع السبب الى سقوط الأمطار في أواسط القارة أثناء فصل الصيف . غير انهم لم يستطيعوا تحديد منبع النهر ،

ما عدا الجغرافي المتأخر بطليموس الذي أوضح أنه ينبع من بحيرة جنوبي خط الاستواء ومن جبال اطلق عليها اسم جبال القمر . وكانت معرفة الاغريق والرومان بالمناطق الواقعة جنوبي مصر محدودة ، الا انهم كانوا يطلقون عليها عموماً اسم (اثيوبيا) واعتبروها بلاد السود الحقيقيين . كما ان معرفتهم بالجهات الداخلية من القارة كانت غامضة . وقد اعتبر بطليموس الجهات المعمورة من القارة تنتهي بالقرب من خط الاستواء ، وذكر ان ما وراءه بلاد غير مسكونة بسبب شدة الحرارة .

وكانت معرفة الجغرافيين الاغريق والرومان بالساحل الشرقي لافريقيا تنتهي في الحدود الجنوبية للصومال ، والتي أطلق على رأسها اسم (رأس براسيوم) . غير أن معرفتهم بالساحل الغربي كانت تنحدر الى مستوى الخرافة . وقد ساد الاعتقاد بينهم ان من غير الممكن التطواف حول ذلك الساحل نظراً لأن قاع المحيط الاطلسي في تلك الجهات ضحل جداً وكثير الطين والحشائش ، هذا فضلا عن أن درجة الحرارة مرتفعة للغاية مما قد يؤدي الى إحراق السفن . وكان يروّج لمثل هذه الافكار جغرافيون كبار أمثال هيرودوت وبطليموس . وكذلك ساد الاعتقاد بأن الجزء الجنوبي من القارة الافريقية يمتد في أرض يابسة ، وان البحر الأحمر يتصل بالمحيط الهندي مكوناً بحيرة مغلقة . وكان من أشد المتحمسين لهذا الرأي الجغرافي الكبير بطليموس . ولذلك لم يفكر أي مكتشف حتى نهاية القرون الوسطى في الطواف حول القارة الافريقية أو الوصول الى الهند عن طريق المحيط الاطلسي ، حتى نجح بارثمليو دياز DIAZ ومن بعده فاسكو دي غاما DE GAMA في عام ١٤٩٨ في تفنيد ذلك الرأي الخاطىء .

ومهما يكن الأمر فان معرفة الجغرافيين العرب بالقارة الافريقية عموماً كانت تتفوق بدرجة ملحوظة على معرفة الاغريق والرومان . واذا كان الرومان قد حكموا مصر وجزءاً من الساحل الليبي وبالتالي اتسعت معلوماتهم الجغرافية عن تلك المناطق الافريقية ، فان النطاق المنحصر فيما بين الساحل الاطلسي والبحر الاحمر ، والذي تحده جنوباً الصحراء العربية الكبرى ، ما لبث أن تحول اثر الفتح العربي الى جزء لا يتجزأ من العالم العربي . واجتاز النفوذ العربي مضيق جبل طارق وضم اليه شبه جزيرة ايبريا ، بل جعلها مركزاً من أعظم مراكز الثقافة في العصور الوسطى . وكان نصيب الجغرافية من الثقافة العربية في أقطار الجناح الغربي من العالم العربي وافراً للغاية ، فبرز

(٤٧) شريف محمد شريف ، ص ٢٩١ .

عشرات الجغرافيين والرحالة في الاندلس وأقطار الشمال الافريقي ، وحفلت مؤلفاتهم الجغرافية الوصفية بالمعلومات عن العالم الاسلامي بصورة عامة وأقطار الشمال الافريقي والاندلس بصورة خاصة . ويأتي الادريسي والبكري وابن سعيد في مقدمة تلك الاسماء اللامعة ، ناهيك عن الزهري والغرناطي وابن جبير وابن بطوطة وابن خلدون وغيرهم . ومنذ وقت مبكر اهتم الجغرافيون العرب بمصر اهتماماً خاصاً ، فاشتملت الكتب الجغرافية الاقليمية على دراسات مفصلة عنها ، كما ورد في (كتاب البلدان) لليعقوبي و (صورة الأرض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم) للمقدسي . واشتملت كتابات المسعودي على معلومات مفصلة عن مصر ، كما كتب عبد اللطيف البغدادي دراسة خاصة عن مصر ذات معلومات اقتصادية وبشرية غزيرة في كتابه (الافادة والاعتبار) . كذلك حفلت كتب الموسوعات المتأخرة بمعلومات جغرافية عن مصر مفصلة للغاية ولا سيما (مسالك الابصار) لابن فضل الله العمري و (صبح الأعشى) للقلقشندي . أما الاندلس وأقطار المغرب العربي الأخرى فقد وردت عنها تفصيلات ممتازة في كتب الجغرافيين والرحالة المغاربة ، بيد أن أعظمها دقة وتفصيلا ما ورد في كتاب الادريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وفي كتاب البكري (مسالك الممالك) . وقد فاقت تلك التفصيلات ما ورد عنها من معلومات في كتب الاغريق والرومان الاوائل . ولم يخل أي كتاب من الكتب الاقليمية المبكرة للاصطخري وابن حوقل والمقدسي من تفصيلات طيبة عن بلدان المغرب العربي . وقد وردت بعض المعلومات المتفرقة كذلك عن الصحراء الافريقية الغربية وعن بعض بلدان افريقيا الغربية ، وخصوصاً في مؤلفات البكري والادريسي وفي رحلة ابن بطوطة التي ضمت معلومات اقتصادية وبشرية عظيمة الاهمية عن افريقيا الغربية . وقد خلت المؤلفات الغربية من أية معلومات عن تلك الجهات سوى ما كتبه ليون الافريقي Leo The AFRICAN في القرن الرابع عشر (ويفترض انه مغربي الأصل أيضاً وان اسمه حسن الوزان) ، وظلت معلومات الجغرافيين العرب عنها معتمدة لدى الجغرافيين الأوروبيين لغاية القرن التاسع عشر . وكانت معلومات الادريسي على نحو الخصوص ذات أهمية بالغة عن جهات افريقيا الداخلية ، ولا سيما بلاد غينيا والنيجر والسنغال . فقد تحدث عن انهارها وأهم مدنها وزراعاتها وعاداتها ، كما تحدث عن جهات السودان الشرقي واقليم منابع النيل الذي شرحه بأفضل مما فعل بطليموس وأكد على ازدواجية منبع النهر[٤٨] . وقد تفوق الادريسي على بطليموس الاسكندري في تصوره للجهات المأهولة

(٤٨) George. H. T. Kimble, Geography in the Middle ages, London 1938, P. 59.

من القارة الافريقية ، فقد حدد بطليموس تلك الجهات بما لا يتجاوز شمالي خط الاستواء ، باعتبار المنطقة الاستوائية لا يمكن سكناها بسبب شدة الحر ، في حين ان الادريسي مدد الجهات المعمورة نحو جنوب خط الاستواء باقليم وخمسين حيث ضمت منابع النيل ونهر النيجر[٤٩] . كذلك أورد أحد المؤلفين العرب معلومات هامة عن السودان الشرقي ، لعلها كانت الأولى من نوعها ، في الكتاب المسمى (العزيزي) الذي ألفه المهلبي للخليفة الفاطمي العزيز (٣٧٥ هـ ـ ٩٨٥ م) والذي اعتمد عليه ياقوت في جغرافيته عن السودان اعتماداً رئيسياً[٥٠] .

وهكذا يتضح بأن الأدب الجغرافي عن القارة الافريقية كان غزيراً ، وان لم يواز بالطبع ما ألف عن قارة آسيا باعتبارها قلب العالم الاسلامي . وقد شمل مناطق في غربي القارة وأواسطها وفي الصحراء العربية الكبرى ، وهي جهات لم يكن للاغريق والرومان عنها سوى معلومات غامضة للغاية . واذا لم تكن معلومات الاغريق والرومان في الجهات الشرقية من أفريقيا قد تجاوزت الأطراف الجنوبية من الساحل الصومالي ، فقد توغلت معلومات الجغرافيين العرب جنوباً لغاية خط عرض ٢٠ جنوباً فشملت ساحل موزمبيق الذي أطلقوا عليه اسم سفالة الزنج . وقد انتشرت مراكز استيطانهم في مدن متعددة من أمثال ممبسة وزنجبار وملندة وكلوا ، بل وحتى جزيرة مدغشقر التي أطلقوا عليها اسم جزيرة (قمار) أو (قمر) . واذا كان التصور السائد لدى الجغرافيين الاغريق والرومان بأن القارة الافريقية تنتهي بأرض يابسة ، فقد آمن العديد من الجغرافيين العرب بانها محاطة بالبحار ، وكان على رأس من أيد هذا الرأي أبو الريحان البيروني . فقد قال بهذا الصدد : « وأكثر ما يبلغ سالكو البحر الاعظم من جانب المغرب سفالة الزنج ولا يتجاوزنها ، وسببه ان هذا البحر طاعن في البر الشمالي في ناحية المشرق ودخوله في مواضع كثيرة ، وكثرت الجزائر في تلك المواضع . وعلى مثله بالتكافي طعن البر في البحر الجنوبي في ناحية المغرب وسكنه سودان المغرب وتجاوزوا فيه خط الاستواء الى جبال القمر التي منها منابع النيل . فحصل البحر هناك فيما بين جبال وشعاب ذوات مهابط ومصاعد يتردد منها الماء بالمد والجزر الدائمين ويتلاطم فيحطم السفن ويمنع السلاك . ومع هذا فليس يمنعه عن الاتصال ببحر اوقيانوس من تلك المضايق ومن جهة الجنوب وراء تلك الجبال ، فقد وجدت علامات اتصالهما وان لم

---

(٤٩) حسين مؤنس ، ص ٢٠٩ .

(٥٠) كراتشكوفسكي ، ص ٢٣٠ .

يشاهد . وبذلك صار بر المعمورة وسط ما قد أحاط به اتصال »[٥١] .

تلك هي مجمل معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين عن القارات القديمة الثلاث ، ومنها يتبين انها تتفوق بصورة عامة على معلومات من سبقهم من الجغرافيين الاغريق والرومان ، كذلك يتضح ان حدود (الربع المعمور) لديهم كان أوسع من ذلك الذي حدده الاغريق والرومان .

وينبغي التأكيد أن هذا الاستعراض السريع لا يعطي فكرة حقيقية عن تفوق الجغرافيين العرب والمسلمين في مضمار الجغرافية الاقليمية والوصفية ، اذ ان أهمية الكتب الجغرافية العربية الوصفية والاقليمية تكمن فيما تحتويه من تفصيلات عن الجهات التي درستها ، وهي تفصيلات استمد اغلبها من الخبرة الشخصية ، أي انها معلومات من الدرجة الاولى . والواقع ان تفوق الجغرافيين العرب والمسلمين على الاغريق والرومان في معرفتهم باقطار العالم انما هو أمر طبيعي ، ذلك ان النفوذ الاسلامي امتد في القارات القديمة وخصوصا آسيا وافريقيا في جهات لم يستطع النفوذ الروماني او اليوناني ان يمتد اليها . وقد كانت رقعة العالم الاسلامي أوسع من رقعة الامبراطورية الرومانية في أعظم عهد من عهودها . وقد هيأ ذلك الاتساع مادة جغرافية دسمة عن جهات واسعة من العالم القديم للجغرافيين العرب والمسلمين . وقد صاحب اتساع النفوذ الاسلامي نشاط تجاري عظيم لم تشهده امبراطورية الاسكندر ولا الامبراطورية الرومانية امتد فيها وراء حدود الامبراطورية الاسلامية . فبالنسبة لاوروبا توغل التجار المسلمون في أواسط القارة وشماليها ووصلوا الى الجهات الاسكندنافية ، هذا فضلا عن الجهات الشرقية التي باتت مألوفة لديهم . وبالنسبة لافريقيا ، عبر التجار العرب الصحراء الكبرى وأقاموا صلات تجارية مع جهات افريقيا الغربية في غانة والنيجر والسنغال ، ووصلوا لغاية خط عرض (١٠) شمالا ، كما تجولت مراكبهم على امتداد السواحل الشرقية حتى مدغشقر (جزيرة قمر) . أما بالنسبة لآسيا فكان التجار المسلمون يجوبونها من أقصى الشمال (بلاد الظلمة) الى أقصى الجنوب (الجزر الأندنوسية ـ جزيرة رامني ومهراجا) ومن أقصى الشرق (بلاد الصين ـ بلاد الخطا وجزر الواقواق) الى أقصى الغرب)*) .

---

(٥١) منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى ـ بقلم ر. بلاشير وهـ . درمون ـ باريس ١٩٥٧ (الطبعة الثانية) ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

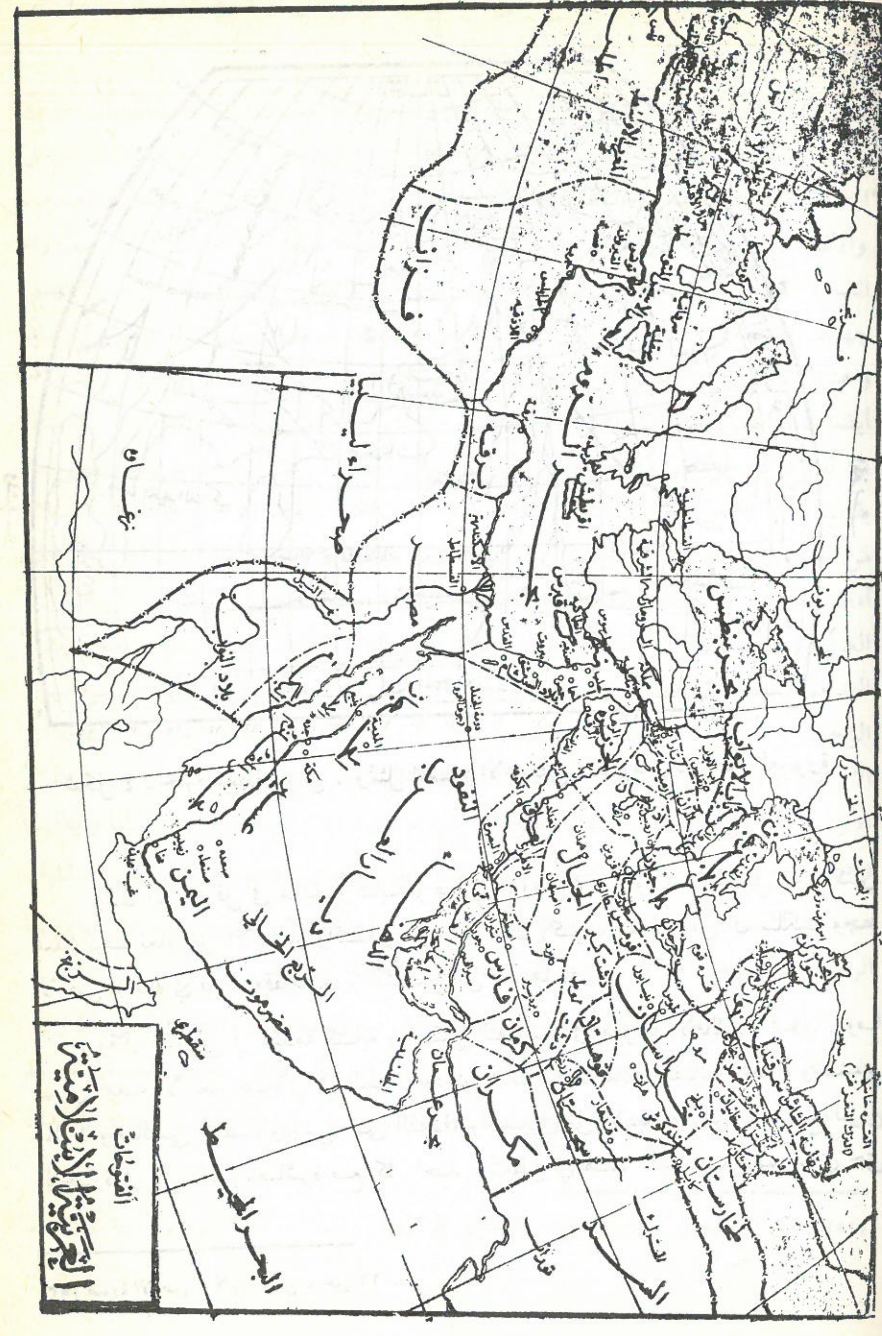
(*) لقد أشار الدكتور حسين فوزي في كتابه (حديث السندباد القديم) الى نوع وحجم التجارة التي كان يزاولها

وهكذا هيأ التجار المسلمون للجغرافيين فرصة ممتازة لجمع معلومات عن أقصى البلدان ، لا تعتمد على التخمين فحسب ، بل على المشاهدة الشخصية . هذا فضلا عن أن الكثيرين من الجغرافيين كانوا يدونون ملاحظاتهم بأنفسهم لاحترافهم التجارة اضافة الى هوايتهم العلمية ورغبتهم في التجوال مما جعل معلوماتهم دقيقة ومضبوطة . وهذا خلافاً لكثير من الجغرافيين الاغريق والرومان الذين اعتمدوا على السماع اعتماداً رئيسياً .

ويمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد اتبعوا منذ البداية الأسلوب الصحيح في كتابة الجغرافية الوصفية ، وهو أسلوب المشاهدة والدراسة الشخصية ، هذا الأسلوب الذي اتبعه اساتذة الجغرافية الحديثة من أمثال همبولدت وراتزل وريختوفن ولابلاش وديفيز وهنتنجتون . والواقع ان كبار الجغرافيين الاقليميين المسلمين كانوا من الجوالين ، وقد زاروا معظم البلدان التي كتبوا عنها ، ولا سيما الجغرافيين المبكرين منهم من أمثال اليعقوبي وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي ، وقد أشاروا الى هذه الحقيقة في كتاباتهم . قال اليعقوبي صاحب كتاب (البلدان) في مقدمته : « قال أحمد ابن أبي يقعوب اني عنيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السنّ واتصلت اسفاري ودام تغربي ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فاذا ذكر لي محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك في . . لدته . . ما هي وزرعه ما هو وساكنيه من هم عرب أم عجم . . شرب أهله . . حتى اسأل عن لباسهم . . وديانتهم ومقالاتهم والغالبين عليه . . ومسافة ذلك البلد وما بقربه من البلدان . . »[52] .

= العرب ضمن القارة الاسيوية على النحو التالي : « ومن الصين (يستوردون) الحرير والكيمخا والعود والسروج والسمور والصليبخ والدارصيني والخولنجان والاواني من الغضار الطيب ، ومن الوقواق الذهب والابنوس ، ومن الزابج والهند العود والصندل والكافور والجوز ، والقرنفل والقاقلة والكبابة والنارجيل والثياب المتخذة من الحشيش والثياب القطنية المخملة وسن الفيل وقرون الكركدن والفضة والعود من شواطىء قمرون (أي اسام) واورانشين (أي اوريسا) والرصاص القلعي من شبه جزيرة ملقا ، ومن سرنديب الياقوت والماس والدر والبلور والسنباذج ، ومن كولم ملي وسندان بساحل المليبار الفلفل ، ومن السند البقم والخيزران والساج والقسط والقنا والعاج والذهب والحديد والنحاس من سفالة الزنج والعنبر واللبان من بلاد الشحر ومن اليمن الوشي وسائر الثياب والعنبر والبغال والحمير » . ص ٩ .

(٥٢) الاعلاق النفيسة ، ويليه البلدان لليعقوبي ، طبع ليدن عام ١٨٩١ ، ص ٣٣٢ .



شكل - ٣ - امتداد الفتوحات العربية الاسلامية في الثلاثة قرون الاولى للهجرة (عن أحمد سوسة)

شكل ٤ ـ خارطة بطليموس ، وتمثل المفهوم الاغريقي ـ الروماني للارض المعمورة

وقال ابن حوقل في مقدمة كتابه (صورة الارض) : « وقد ذكرت في آخر كتابي هذا كيف تعاورتني الاسفار واقتطعتني في البر دون ركوب البحار الى ان سلكت وجه الارض باجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها .. الخ »(٥٣) .

وقال المقدسي في مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) : « .. وما تم لي جمعه الا بعد جولاتي في البلدان ودخولي اقاليم الاسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الادباء والقراء .. مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل احد والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى

(٥٣) صورة الارض ، لابن حوقل ، ص ١١ .

عرفتها ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها ودوراني على التخوم حتى حررتها وتنقلي الى الاجناد حتى عرفتها .. الخ »(٥٤) .

وإذا ما استعرضنا حياة أي من الجغرافيين العرب والمسلمين، ولا سيما الأوائل منهم، وجدنا انه قد ساح بالفعل في معظم البلدان التي كتب عنها . فقد ساح اليعقوبي في ارمينية وبلاد فارس والهند ، وطاف بالجزيرة العربية وبلاد الشام والمغرب والاندلس . وزار الاصطخري الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وبلاد ما وراء النهر ، اضافة الى تجواله في موطنه بلاد فارس . أما المسعودي فقد اشتملت رحلاته على جهات واسعة من مملكة الاسلام وغيرها من الممالك ، فقد زار بلاد فارس وكرمان والهند وسرنديب ووصل الى بحار الصين ، وتجول في جزر المحيط الهندي ، كما زار أيضاً اذربيجان وجرجان وبلاد ما وراء النهر ووصل الى سواحل البحر الاسود ، اضافة الى تطوافه في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ومصر . أما ابن حوقل فقد أمضى ما يقرب من الثلاثين عاماً يطوف في انحاء العالم الاسلامي ، وقد زار جميع أقطار الاسلام من الهند حتى اسبانيا ، ووصل الى بلاد البلغار والحوض الادنى لنهر الفولغا . كذلك أمضى المقدسي ردحاً طويلا من عمره يتجول في العالم الاسلامي ، فسافر الى جزيرة العرب وطاف بالعراق والشام ومصر وبلاد المغرب ، كما زار معظم أقطار العجم مثل الديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان ، ولعل البلدين الاسلاميين الوحيدين اللذين لم يزرهما هما السند والاندلس . أما الادريسي فقد اتجه في رحلاته الى الأقطار الاوروبية ، ولم يزر الأقطار الاسلامية البعيدة ، مما جعل كتاباته عن البلدان الاوروبية أكثر دقة وأصالة ، وقد تجول في شبه جزيرة ايبريا وشواطىء فرنسا وايطاليا **وجزر البحر المتوسط وبلاد المغرب وغربي افريقيا وآسيا الصغرى واستقر أخيراً في جزيرة صقلية .**
هذا فضلا عن الرحلات الواسعة النطاق في العالم الاسلامي وخارجه التي قام بها الرحالة المشهورون أمثال ابن جبير وابن بطوطة وابو حامد الغرناطي .

ومما زاد في دقة معلومات الجغرافيين العرب والمسلمين ، اضافة الى تجاربهم ومشاهداتهم الشخصية ، كونهم ينتمون الى بلدان عديدة ، فمنهم الشامي ومنهم العراقي ومنهم الفارسي ومنهم التركستاني ومنهم المغربي ومنهم الاندلسي .. الخ ، فكان

(٥٤) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، للمقدسي البشاري ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٩٠٦ ، ص ٢ .

كل منهم يتبارى في ايراد التفصيلات عن بلاد الاسلام ويحاول التفوق على صاحبه خصوصاً فيما يخص المعلومات عن بلده . وهكذا أتيحت الفرصة للجغرافيين العرب والمسلمين ان يدونوا لنا أدباً جغرافياً غزيراً عن جهات العالم القديم ذا أهمية عظيمة من وجهة نظر الجغرافية التاريخية . ويمكن أن نحكم باطمئنان بان ذلك الأدب الجغرافي يشتمل على درجة عالية من الدقة ، ولا سيما فيما يخص جهات معينة . الا اننا لا بد أن نؤكد أيضاً بأن درجة الدقة في تلك الكتابات تضعف كلما ابتعدنا عن قلب العالم الاسلامي ، ونقصد به هنا البلاد العربية الاسيوية والافريقية . فلم تكن المعلومات عن البلدان الخارجة عن نطاق العالم الاسلامي دقيقة ، كما انها كانت متفرقة ونزرة . وخير من عبر عن هذه الحقيقة أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان ، بالرغم من كونه من الجغرافيين المتأخرين ، حيث قال : « فان جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل الا على القليل الى الغاية . فان اقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع الينا من أخباره الا الشاذ النادر وهو مع ذلك غير محقق ، وكذلك اقليم الهند فان الذي وصل الينا من اخباره مضطرب وهو غير محقق ، وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وبلاد الصرب وبلاد الاولق وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني الى البحر المحيط الغربي ، فانها بلاد كثيرة وممالك متسعة الى الغاية ، ومع ذلك فان اسماء مدنها واحوالها مجهولة عندنا لم يذكر منها الا القليل . وكذلك بلاد السودان من جهة الجنوب فانها أيضاً بلاد كثيرة الجنوس مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم فانها لم يقع الينا من اخبار بلادهم الا القليل النادر . وغالب كتب المسالك والممالك انما حققوا بلاد الاسلام ومع ذلك فلم يحصوها عن آخرها »[٥٥] .

---

(٥٥) تقويم البلدان لأبي الفدا ص ٢ .

- ٣ -

مميزات الكتابات الجغرافية الوصفية والاقليمية

لا ريب ان كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية كانت تخضع عموماً لنمط الكتابة العربية. الذي ساد مختلف حقول المعرفة في ذلك العهد . فلم يكن التخصص مثلا مفهوماً بالمعنى الحديث ، لذلك فقد كان الجغرافيون مؤرخين أيضاً في أغلب الأحوال . كما أن البعض منهم كتب في حقول علمية متعددة أخرى . كذلك لم يكن التمحيص العلمي قد بلغ درجة عالية من النضج ، لذا كان الكتاب والبحاثة يتقبلون بعض المعلومات ويعتبرونها مسلمات بالرغم من مناقضتها للمنطق والعقل . ولذلك فلا يكاد يخلو أي كتاب عربي في حقول المعرفة المختلفة من نقاط الضعف اذا ما تعرض للفحص بمنظار النقد والعلم الحديثين .

وقد وجه للكتب الجغرافية العربية بعض النقد بتطبيق المنهج العلمي في دراستها . ومثال ذلك ما ذكره العلامة كراتشكوفسكي من أن أسلوب الجغرافيين الاقليميين العرب كان ينحو الى الوصف الجامع الشامل بدلا من العرض المفصل العميق للمناطق المعروفة على أساس الملاحظة المباشرة[٥٦] .

غير أن هذا النقد لا ينطبق في الحقيقة على المناطق التي خبرها الجغرافيون العرب والمسلمون خبرة طويلة ومباشرة ، وبصورة خاصة بلدانهم بالذات . هذا فضلا عن أن أهداف الكتابة الجغرافية الوصفية كانت موجهة لخدمة أغراض الاداريين والحكام والتجار بالدرجة الاولى ، ولم تكن تلك الاهداف تتطلب الدراسة العميقة . ويمكن القول ان تفصيلات الكتب الجغرافية الوصفية والاقليمية كانت تغطي النقاط التالية :

١ - وصف المدن وصفاً دقيقاً مفصلاً قدر الامكان مع نبذة عن تاريخها ومن بناها

---

(٥٦) كراتشكوفسكي ، ص ٢٤ .

ومن سكنها وأهم الآثار فيها . وهذا الاهتمام الشديد بدراسة المدن يجعل الجغرافيين العرب رواداً لفرع جغرفية المدن URBAN GEOGRAPHY في أبسط أشكاله .

٢ ـ دراسة طرق المواصلات من حيث اتجاهاتها وطوبوغرافيتها والمدن التي تقع عليها والأبعاد بين تلك المدن ومدى درجة الأمن فيها . ويعتبر هذا الجزء من الدراسة الجغرافية ذا أهمية فائقة بالنسبة للتجار والعسكريين والحجاج .

٣ ـ الاهتمام بدرجة أقل بوصف الظواهر الطوبوغرافية والتركيز بصورة أخص على مجاري المياه (الأنهار والنهيرات) والبحار والبحيرات .

٤ ـ الاهتمام بدرجة أقل بذكر الزراعات والصناعات والمعادن والأحوال الاقتصادية .

٥ ـ سرد المعلومات التاريخية المتعلقة بالبلدان والمدن وحكامها . وتشمل المعلومات التاريخية عادة الحديث عن سكان البلاد واديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ان هذه الأغراض التي اشتملت عليها مؤلفات الجغرافية الوصفية والاقليمية ـ وهي كما يتضح تركّز على الجوانب البشرية أكثر من تركيزها على الجوانب الطبيعية ـ هي التي تكسب الجغرافية العربية اهميتها ، لأنها حفظت لنا من المعلومات المتنوعة عن بلدان العالم القديم مما لم يكن في الامكان معرفته في الوقت الحاضر لولا عناية اولئك المؤلفين . وبطبيعة الحال ، فلم تكن اهتمامات كتب الجغرافيا العربية العامة أو الاقليمية لتتشابه في تركيزها على النقاط المشار اليها اعلاه . فمنها ما أكد على النقطة الاولى ، ومنها ما شدّد على الثانية ، ومنها ما ركز على النقطة الخامسة ، الا انها كانت جميعاً أضعف اهتماماً بالنقطة الرابعة .

وكان اهتمام الجغرافيين بنقاط معينة بالذات من بين النقاط المذكورة أعلاه يخضع الى أمرين : الأول التطور الذي يحدث في مفهوم الجغرافيا الوصفية عبر القرون ، ولا سيما خلال القرن الرابع والخامس الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) ، والثاني النمط الذي ينتمي اليه الكتاب الجغرافي من بين الانماط المتعددة للجغرافية الوصفية والاقليمية .

ويمكن القول عموماً بأن اهتمامات المؤلفات الجغرافية الوصفية المبكرة كانت بطرق المواصلات وبالمدن الرئيسية في أقطار الاسلام وبمقدار خراجها وغلاتها ، ويتمثل ذلك بالكتب الرائدة من أمثال (المسالك والممالك) لابي القاسم عبد الله بن خرداذبة ،

و (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) لابي الفرج قدامة بن جعفر . وتنحو نحو هذين الكتابين الكتب الجغرافية الوصفية المبكرة الاخرى امثال (الاعلاق النفيسة) لابن رستة و (كتاب البلدان) لابن الفقيه و (البلدان) لاحمد بن واضح اليعقوبي مع اهتمام أكبر بالمدن وأبرز معالمها وشيء من تاريخها وسكانها . ثم تنوعت اهتمامات الجغرافيين منذ منتصف القرن الرابع الهجري واوائل القرن الخامس بمختلف النقاط المذكورة أعلاه اضافة الى الاهتمام بطرق المواصلات والمدن ، كالاهتمام بالمعالم الطبيعية والاحوال الاقتصادية والاجتماعية للسكان الخ ، كما تمثل في كتب المدرسة الاقليمية بروادها الكبار البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

أما الأمر الثاني وهو اختلاف انماط كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية ، فقد ارتبط ارتباطاً مباشراً بتوزع الاهتمامات وتباينها بالنقاط الخمس المذكورة . والواقع أن كتب الجغرافية الوصفية العامة والاقليمية قد تنوعت أنماطها بمرور الزمن . فقد ظهرت لاول مرة على شكل اهتمام باسماء الاقطار والمدن وما يربط بينها من طرق المواصلات كما في كتب (المسالك والممالك) . ثم تطورت الى اهتمام بدراسة الجوانب المختلفة في أقطار العالم الاسلامي من مدن وطرق مواصلات وزراعات وصناعات ومعالم طبيعية كما في الكتب المعنونة بـ (صورة الارض) و (الاقاليم) و (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) . ثم انتقلت الى التركيز على مدن معينة بالذات أو أقطار معينة ودراستها بصورة تفصيلية ، كما في كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني و (خطط بغداد) للمقريزي و (كتاب الهند) للبيروني وتذكرة الاعتبار (عن مصر) لعبد اللطيف البغدادي . ثم أخذت تعنى بالدراسة العامة الشاملة عن أقطار الأرض بما فيها الممالك الاسلامية وغيرها كما في (نزهة المشتاق في اختراق الأفاق) للادريسي و (تقويم البلدان) لابي الفدا . كذلك تعددت أهدافها كما تمثل في الموسوعات ذات المعلومات الجغرافية التاريخية المتنوعة مثل (مروج الذهب) و (أخبار الزمان) للمسعودي ، و (نهاية الارب) للنويري و (مسالك الابصار) للعمري و (صبح الاعشى) للقلقشندي ، وفي المعاجم الجغرافية من أمثال (معجم البلدان) لياقوت الحموي و (معجم ما استعجم) للبكري ، وفي الكتب الكوزموغرافية التي تعنى بعجائب وغرائب الارض ويختلط فيها العلم بالخرافة ككتب الغرناطي والقزويني .

وبطبيعة الحال فقد تنوعت اساليب ومناهج تلك المؤلفات حسب تنوع أغراضها . فكتب الموسوعات مثلا ، وبضمنها كتب المسعودي والتي لا تنتمي الى نفس الفترة الزمنية ، كانت تشتمل على معلومات جغرافية وصفية عامة لا يحكمها ضابط جغرافي

معين . فقد تغلب عليها المعلومات التاريخية أحياناً ، وقد تغلب عليها الأقاصيص الأدبية والحكايات طوراً ، كما انها قد تسهب في الحديث عن بلد أو مدينة معينة بالذات بينما توجز في الحديث عن بلد ومدينة أخرى ايجازاً شديداً ، وقد تفصّل في وصف بحر من البحار أو نهر من الأنهار وتختصر في بحر أو نهر آخر . وعلى أية حال فان الطابع العام الذي يميزها انها عبارة عن (جمع للمعلومات) ذات الصفة الجغرافية العامة .

وأما كتب المعاجم فقد اشتملت بدورها على تفصيلات مسهبة عن المدن والمعالم الطبيعية مع اهتمام شديد بالاحداث التاريخية .

واهتمت الكتب التفصيلية التي درست بلداً معيناً أو مدينة معينة بالتفصيلات البشرية وتناولت مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والاقتصادية . بل لقد ابتعد البعض منها ابتعاداً واضحاً عن الصفة الجغرافية الحقيقية ككتاب عبد اللطيف البغدادي مثلا .

أما الكتب الكوزموغرافية فقد اهتمت اهتماماً خاصاً بالعجائب التي خرجت بها في كثير من الاحوال عن نطاق العلم الى محيط الخرافة ، ولا سيما كتب الغرناطي مثلا . غير انها اشتملت في الوقت نفسه على معلومات جغرافية قيمة عن مناطق نائية من العالم القديم .

وهكذا يتبين بان الكتب التي اتخذت صفة جغرافية حقيقية هي تلك التي يمكن أن نسميها بالكتب الجغرافية الاقليمية . وأفضل الامثلة عليها كتاب (الاقاليم) أو (المسالك والممالك) للاصطخري ، و (صورة الارض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) للمقدسي و (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) للادريسي و (المسالك والممالك) للبكري و (تقويم البلدان) لابي الفدا . وتشترك الكتب المذكورة جميعها في مفاهيم جغرافية اساسية ، وأن تفاوت فهمها لتلك المفاهيم حسب التطور الزمني ، وتلك المفاهيم هي الاعتراف بالفكرة الاقليمية ، وايضاح العلاقات المكانية والاهتمام بالخارطة والالتزام بالمعلومات الجغرافية .

أولا ـ الاعتراف بالفكرة الاقليمية :

ان الاعتراف بالفكرة الاقليمية قد ساد التفكير الجغرافي العربي منذ بدايته كما سبق أن أشرنا في مقدمة هذا الفصل ، وهو تأثر بالآراء الايرانية والاغريقية ، وبصورة خاصة بالاتجاه البطليموسي . وبالرغم من ان الجغرافيين الاوائل قد اهتموا جميعا بذكر الاقاليم السبعة وما تشتمل عليه من (البلدان) الا انهم كانوا يتحدثون عنها كفكرة

فلكية عامة مجردة من محتواها الجغرافي . ومنذ تركز الدراسة الجغرافية الاقليمية **على يد** الاصطخري (وربما على يد البلخي من قبله) لم يعد ينظر الى الاقاليم كفكرة فلكية منقولة عن الايرانيين او اليونانيين بل كفكرة جغرافية بحتة . فنجد الاصطخري ـ وهو طليعة الجغرافيين الاقليميين ـ يحاول تقسيم العالم الاسلامي الى (أقاليم) ، ولكن ليس على أساس بطليموسي، بل على أساس أقرب الى الطبيعي . وبما أن الاصطخري يمكن أن يعتبر رائداً في هذا الميدان ، فان من الممكن ان نفهم سبب الاضطراب وعدم الدقة في المبدأ الذي افترضه لتقسيماته الاقليمية . فهو يقسم منطقة طبيعية واحدة الى أكثر من اقليم أحياناً ، وقد يجمع أحياناً أخرى أكثر من منطقة طبيعية في اقليم واحد . أي انه قد يغلّب في بعض الحالات العوامل البشرية (الأقوام أو اللغات) والعوامل السياسية (نوع الحكم) في تقسيمه الاقليمي على العوامل الطبيعية . الا انه على العموم يحاول أن يلتزم بالعامل الطبيعي . ومثال ذلك انه جعل كلّاً من بلاد العرب ومصر والمغرب وبحر الروم وبحر الخزر (اقاليم » قائمة بذاتها باعتبار ان لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن غيرها ، في حين انه ميز بين خراسان وما وراء النهر وجعل كلّاً منهما اقليماً قائماً بذاته ، مع انهما يقعان معاً تحت حكم واحد لاعتقاده انهما **يختلفان عن** بعضهما من الوجهة الطبيعية . بل انه لجأ أيضاً الى تقسيمات فرعية لأقاليمه الرئيسية حسب خصائصها الطبيعية . ويمكن ان تتضح لنا أسس تقسيماته الاقليمية باستعراض « الاقاليم » التي فصّل اليها بلاد الاسلام ، وتحدث عن كل منها على انفراد على النحو التالي :

١ ـ ديار العرب : وتشمل شبه جزيرة العرب اضافة الى بادية الشام .

٢ ـ بحر فارس : ويشمل الخليج العربي والبحر العربي والبحر الأحمر والموانىء الرئيسة التي تقع على سواحل هذه البحار .

٣ ـ ديار المغرب : ويشمل الاندلس والمغرب والجزائر وتونس وليبيا والصحراء العربية الكبرى .

٤ ـ ديار مصر : ويشمل مصر اضافة الى الجزء الشمالي الشرقي من السودان (أرض البجة) .

٥ ـ أرض الشام : ويشمل سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن .

٦ ـ بحر الروم : ويشمل الحوض الشرقي من البحر المتوسط اضافة الى بحر مرمرة واهم موانئه وجزره .

٧ ـ أرض الجزيرة : ويشمل منطقة الجزيرة في العراق مع جزء من البادية الشمالية .

٨ ـ العراق : ويمتد من عبادان في أقصى الجنوب الى تكريت شمالا ، ويشمل الجزء الواقع بين النهرين .

٩ ـ خوزستان : ويشمل منطقة الاهواز الحالية .

١٠ ـ بلاد فارس : ويشمل القسم الاوسط والغربي من ايران .

١١ ـ بلاد كرمان : ويشمل القسم الجنوبي الشرقي من ايران .

١٢ ـ بلاد السند : وقد جمع في هذا الاقليم الحديث عن (مكران والسند والهند) ، لكن الحديث شمل في الحقيقة بعض اجزاء باكستان الحالية .

١٣ ـ ارمينية والران واذربيجان : ويشمل المنطقة التي تقع ضمن جبال القوقاز بين البحر الاسود وبحر الخزر .

١٤ ـ اقليم الجبال : ويشمل الجزء الغربي من ايران (كردستان) .

١٥ ـ الديلم : ويشمل المناطق الجبلية المشرفة على سهول بحر الخزر الجنوبية .

١٦ ـ بحر الخزر : ويشمل منطقة بحر الخزر ، أي الاجزاء المحيطة به ولا سيما الشرقية منها .

١٧ ـ مفازة خراسان : ويشمل صحراء شرقي ايران .

١٨ ـ سجستان : ويشمل جزءاً من افغانستان .

١٩ ـ خراسان : ويشمل الجزء الشمالي الغربي من افغانستان والاطراف الشمالية الشرقية من ايران .

٢٠ ـ ما وراء النهر : ويشمل الاراضي المحيطة بنهري سيحون وجيحون (سرداريا وامورداريا) في تركستان الكبرى ، وهي جمهوريات تركستان وازبكستان وقرغيزية وتاجسكتان .

أما الكتاب الاقليمي الهام الثاني فهو كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل . وقد تحدث الباحثون كثيراً عن تأثر هذا الكتاب بكتاب الاصطخري ، بل أن بعضهم زعم بأن (صورة الارض) ما هي سوى نسخة منقحة لكتاب الاصطخري . ومما يدعم

اقوال اولئك الباحثين وجود فقرات في كتاب ابن حوقل مأخوذة بالنص من كتاب الاصطخري ، ولا سيما في الفصول الاولى، واعتراف ابن حوقل نفسه بأنه كان قد التقى بالاصطخري فطلب منه ان ينظر في كتابه ويصلحه . ولذلك فهناك تشابه واضح بين تقسيمات الاصطخري الاقليمية لديار الاسلام وبين تقسيمات ابن حوقل ، عدا فروق طفيفة . غير ان الذي لا ريب فيه ان كتاب ابن حوقل قد اشتمل على معلومات اولية كثيرة عن البلدان الاسلامية لم ترد في كتاب الاصطخري ، كما ان حسه الجغرافي كان أفضل من حس الاصطخري ، حيث كان أكثر دقة في تحديد المواقع الجغرافية وأكثر اقتصاداً في الاستطرادات غير الجغرافية . كما كان يلتزم في بعض تقسيماته الاقليمية بالعامل السياسي والاداري أكثر من التزامه بالعامل الطبيعي مما جعل اقاليمه على شكل وحدات سياسية . وقد وردت تقسيماته الاقليمية لبلاد الاسلام على النحو التالي :

١ ـ ديار العرب ٢ ـ بحر فارس ٣ ـ المغرب ٤ ـ الاندلس ٥ ـ صقلية ٦ ـ مصر ٧ ـ الشام ٨ ـ بحر الروم ٩ ـ الجزيرة ١٠ ـ العراق ١١ ـ خوزستان ١٢ ـ فارس ١٣ ـ كرمان ١٤ ـ السند ١٥ ـ ارمينية واذربيجان والران ١٦ ـ الجبال ١٧ ـ الديلم وطبرستان ١٨ ـ بحر الخزر ١٩ ـ مفازة خراسان وفارس ٢٠ ـ سجستان ٢١ ـ خراسان ٢٢ ـ ما وراء النهر .

أما الكتاب الاقليمي الهام الثالث فهو كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) ، وهو يتفوق في مفاهيمه الجغرافية على الكتابين المذكورين . فقد التزم مؤلفه التزاما كبيراً بالعامل الطبيعي في تقسيماته الاقليمية ، حتى ان تلك التقسيمات كثيراً ما كانت تتضارب والعامل السياسي والاداري . ومن الممكن أن يعتبر هذا الكتاب نموذجاً ممتازاً للدراسة الجغرافية الاقليمية بخطته الجغرافية المنسقة ومعلوماته ذات الطابع الجغرافي العلمي . ولا يعني ذلك انه لم يتأثر في تقسيماته الاقليمية بالكتابين السابقين ، غير انه حاول أن يدمج بعض أقاليم الاصطخري وابن حوقل في أقليم واحد ، كما حاول ان يميز أقاليم لم يكن قد ميزها الكتاب المتقدمون . وقد أورد أيضاً في دراسته الاقليمية لمملكة الاسلام مفهوما جديداً لم يرد في كتب سابقيه يستند الى التمييز بين أقاليم العرب وأقاليم العجم . كذلك عمد المقدسي الى تقسيم اقاليمه الرئيسة الى أقسام ادارية تحدث عن كل منها على انفراد ، فقسم الاقليم الى كور ، والكور الى رساتيق ، وميّز بين العواصم (القصبات) والمدن الثانوية . وقد وردت تقسيماته الاقليمية على النحو التالي :

أ ـ أقاليم العرب :

١ ـ جزيرة العرب ٢ ـ اقليم العراق ٣ ـ اقليم آقور (أرض الجزيرة) ٤ ـ اقليم الشام ٥ ـ اقليم مصر ٦ ـ اقليم المغرب ٧ ـ بادية العرب .

ب ـ أقاليم العجم :

١ ـ اقليم المشرق : ويضم خراسان وسجستان وما وراء النهر ، ويقسم الى قسمين : جانب هيطل ، وجانب خراسان . ٢ ـ اقليم الديلم ٣ ـ اقليم الرحاب ٤ ـ اقليم الجبال ٥ ـ اقليم خوزستان ٦ ـ اقليم فارس ٧ ـ اقليم كرمان ٨ ـ اقليم السند .

وفيما عدا الكتب المذكورة أعلاه لم تظهر مؤلفات هامة انتهجت مثل هذا النهج الاقليمي سوى كتاب (مسالك الممالك) لابي عبد الله البكري والذي لم يكن في الامكان الحصول على نسخة كاملة منه . ويبدو ان هذا المنهج الاقليمي القويم قد اختفى ثانية من المؤلفات الجغرافية العربية ، وأعيد الى الحياة من جديد المنهج الاقليمي البطليموسي ، أي تقسيم العالم الى سبعة أقاليم فلكية . وكان أبرز من التزم بهذا المنهج من الجغرافيين المتأخرين الجغرافي الكبير الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، مع تأكيد على المحتوى الجغرافي لا الفلكي . فقد درس الادريسي في كتابه المذكور « الربع العمور » على أساس أقاليمه السبعة ، ولم يركز شأن سابقيه من الجغرافيين المسلمين على بلدان الاسلام فحسب بل درس أيضاً البلدان المسيحية وغير المسيحية ، أي انه حاول أن يجعل دراسته الاقليمية شاملة لجميع مناطق العالم المأهول . وقد حدد كل اقليم من تلك الاقاليم حسب خطوط عرضه وحسب طول النهار فيه ، ثم قسم كلا من تلك الاقاليم الى عشرة اجزاء . ويبدأ الجزء الاول من كل اقليم عند ساحل المحيط الاعظم (الاطلسي) وينتهي عند بحر الصين الذي اعتبره آخر الدنيا شرقاً[٥٧] .

ولقد حاول زكريا القزويني في كتابه (آثار البلاد واخبار العباد) ان يتبع التقسيم البطليموسي مقتفيا أثر الادريسي ، الا انه اكتفى بتحديد موضع كل اقليم ـ أي بدايته ونهايته ـ وما يضمه اليه من بلدان ، ثم شرح أهم المواضع ضمن كل اقليم من مدن وبلدان وانهار وجبال حسب الطريقة المعجمية ، مؤكداً على الجانب العجائبي في المعلومات أكثر من الجانب العلمي .

(٥٧) حسين مؤنس ، ص ٣٣٢ .

أما أبو الفدا فقد جمع في كتابه (تقويم البلدان) بين منهج الادريسي المتأثر بالتقسيم البطليموسي للارض المأهولة ومنهج ابن حوقل في تقسيماته الاقليمية لديار الاسلام والتي اطلق عليها اسم (الاقاليم العرفية) . ولعل كتابه الوحيد الذي جمع بين الجغرافية الرياضية والوصفية . وقد برر اتباعه لهذا المنهج بقوله : « أما ترتيبه فانه مجدول على وضع التقاويم ، وقد ذكرنا فيه الاقليم الحقيقي والعرفي في بيتين (جدولين) . والمراد بالاقليم الحقيقي أحد الاقاليم السبعة المقدم ذكرها ، والعرفي كل ناحية أو مملكة تشتمل على عدة كثيرة من الاماكن والبلاد مثل الشام والعراق وغيرهما . وقد يكون الاقليم العرفي بعضاً من الاقليم الحقيقي وقد يكون بعضاً من اقليمين مثل الشام فان بعضه من الاقليم الثالث وبعضه من الرابع . وقد يشتمل الاقليم العرفي على أبعاض الاقاليم السبعة كما يحكى عن الصين فانه يقال ان عرضه أكثر من طوله وانه يشتمل على رؤوس الاقاليم الشرقية حتى يستوعب أطراف الاقاليم السبعة . وأما ترتيب الأماكن وتقديم بعضها على بعض في الذكر فانه أمر لم يتهيأ لنا فيه ترتيب يرضينا فتبعنا فيه ابن حوقل . . »[٥٨] .

وهكذا قسم أبو الفدا الارض المأهولة الى ثمانية وعشرين اقليما عرفياً هي الاقاليم التالية حسب تسلسلها : ١ ـ جزيرة العرب ٢ ـ ديار مصر ٣ ـ بلاد المغرب ٤ ـ جزيرة الأندلس ٥ ـ جزائر بحر الروم والمحيط الغربي ٦ ـ الشام ٧ ـ الجزيرة بين دجلة والفرات ٨ ـ العراق ٩ ـ خوزستان ١٠ ـ فارس ١١ ـ كرمان ١٢ ـ سجستان ١٣ ـ السند ١٤ ـ الهند ١٥ ـ الصين ١٦ ـ جزائر بحر الشرق ١٧ ـ بلاد الروم ١٨ ـ ارمينية واران واذربيجان ١٩ ـ بلاد الجبل وهي عراق العجم ٢٠ ـ الديلم وكيلان ٢١ ـ طبرستان ومازندران وقومس ٢٢ ـ خراسان ٢٣ ـ زابلستان والغور ٢٤ ـ طخارستان وبذقشان ٢٥ ـ خوارزم ٢٦ ـ ما وراء النهر ٢٧ ـ الجانب الجنوبي من الارض وهو بلاد السودان ٢٨ ـ الجانب الشمالي من الارض .

وهكذا نلاحظ ان جميع الكتب المذكورة اعلاه قد التزمت بشكل أو بآخر بالمفهوم الاقليمي في حديثها عن العالم الاسلامي بصورة خاصة أو عن « الربع المعمور » بصورة عامة .

(٥٨) تقويم البلدان لابي الفدا ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

ثانياً ـ ايضاح العلاقات المكانية :

اهتمت الكتب المذكورة بصورة متفاوتة بايضاح العلاقات المكانية للموضع أو القطر الذي تدرسه ، واستعانت بذلك اما بالظاهرات الطبيعية من جبال وانهار وبحار وبحيرات وصحارى ، أو بالاقسام السياسية المجاورة للاقليم ، او بالمعالم الفلكية المتمثلة في خطوط العرض والطول . ويدل ذلك ولا شك على حس جغرافي متقدم ، اذ ان ايضاح العلاقات المكانية للموضع تمثل ابرز معالمه الجغرافية . وفي الصفحات التالية نورد امثلة لاساليب الكتاب الاقليميين المذكورين في تحديد الموقع الجغرافي لاقاليمهم .

قال الاصطخري في تحديد « ديار العرب » :

« وابتدأت بديار العرب لان القبلة بها ومكة فيها وهي أم القرى ، وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناها غيرهم والذي يحيط بها بحر فارس من عبادان وهو مصب ماء دجلة في البحر فيمتد على البحرين حتى ينتهي الى عمان . ثم ينعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي على سواحل اليمن الى جدة . ثم يمتد على الجار ومدين حتى ينتهي الى أيلة . وثم قد انتهى حينئذ حد ديار العرب من هذا البحر . وهذا المكان من البحر لسان يعرف ببحر القلزم ينتهي الى تاران وجبيلات الى القلزم فينقطع . فهذا هو شرق ديار العرب وجنوبيها وشيء من غربيها . ثم يمتد عليها من أيلة الى مدينة قوم لوط والبحيرة المنتنة التي تعرف ببحيرة زغر ، الى الشراة والبلقاء وهي من عمل فلسطين ، واذرعات وحوران والبثنية والغوطة ونواحي بعلبك وذلك من عمل دمشق وتدمر وسلمية وهما من عمل حمص ، ثم الخناصرة وبالس وهما من عمل قنسرين ، وقد انتهينا الى الفرات . ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتى ينتهي الى الرقة وقرقيسيا والرحبة والدالية وعانة وحديثة وهيت والانبار الى الكوفة ومتفرع مياه الفرات الى البطائح . ثم ديار العرب على نواحي الكوفة والحيرة على الخورنق وعلى سواد الكوفة الى حد واسط ، فتصاقب ما قارب دجلة عند واسط مقدار مرحلة ، ثم تمتد على سواد البصرة وبطائحها حتى تنتهي الى عبادان ، فهذا الذي يحيط بديار العرب . فما كان من عبادان الى ايله فانه بحر فارس ويشتمل على نحو ثلاثة أرباع ديار العرب ، وهو الحد الشرقي والجنوبي وبعض الغربي ، وما بقي من الحد الغربي من ايلة الى بالس فمن الشام . وما كان من بالس الى عبادان فهو الحد الشمالي . فمن بالس الى ان تجاور الانبار من حد الجزيرة ومن الانبار الى عبادان من حد العراق . ويتصل بأرض العرب بناحية أيلة برية تعرف بتيه بني اسرائيل ، وهي برية وان كانت متصلة بديار العرب فليس من ديارهم ، وانما هي برية بين أرض العمالقة واليونانية

وأرض القبط . وليس للعرب بها ماء ولا مرعى ، فلذلك لم ندخلها في ديارهم . وقد سكن طوائف من العرب من ربيعة ومضر الجزيرة حتى صارت لهم دياراً ومراعي ، فلم تذكر الجزيرة من ديار العرب ، لأن نزولهم بها ـ وهي ديار فارس والروم ـ في أضعاف قرى معمورة ومدن لها أعمال عريضة ، فذلوا على حكم فارس والروم حتى أن بعضهم تنصر ودان بدين الروم مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة وغسان وبهراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام »[٥٩] .

وقال ابن حوقل في تحديد موقع مصر : « فأما مصر فلها حد يأخذ من بحر الروم من الاسكندرية ، ويزعم قوم من برقة في البرية «، حتى ينتهي الى ظهر الواحات ويمتد الى بلد النوبة ، ثم يعطف على حدود النوبة من حد اسوان على أرض البجة في قبلي اسوان حتى ينتهي الى بحر القلزم . ثم يمتد على بحر القلزم ومجاور القلزم الى طورسينا ويعطف على تيه بني اسرائيل مارا الى بحر الروم في الجفار خلف العريش ورفح ، ويرجع على الساحل مارا على بحر الروم الى الاسكندرية ويتصل بالحد الذي قدمت ذكره من نواحي برقة »[٦٠] .

وقال يصف حدود العراق : « وأما العراق فانه في الطول من حد تكريت الى عبادان ، وعبادان مدينة على بحر فارس ، وعرضه من القادسية على الكوفة وبغداد الى حلوان ، وعرضه بنواحي واسط من سواد واسط الى قرب الطيب ، وبنواحي البصرة من البصرة الى حدود جبي . والذي يطيف بحدوده من تكريت فيما يلي المشرق حتى يجوز بحدود سهرورد وشهرزور ، ثم يمر على حدود حلوان وحدود السيروان والصميرة وحدود الطيب والسوس حتى ينتهي الى حدود جبي ثم الى البحر ، فيكون في هذا الحد من تكريت الى البحر تقويس . ويرجع على حد المغرب من وراء البصرة في البادية على سواد البصرة وبطائحها الى واسط . ثم على سواد الكوفة وبطائحها الى الكوفة . ثم على ظهر الفرات الى الانبار ، ثم من الانبار الى حد تكريت بين دجلة والفرات . وفي هذا الحد من البحر على الانبار الى تكريت تقويس ايضا . وهذا المحيط بحدود العراق وسنأتي على أوصافه مفصلة ان شاء الله »[٦١] .

---

(٥٩) المسالك والممالك للاصطخري ، ص ٢٠ .
(٦٠) صورة الارض ـ لابن حوقل ، ص ١٢٦ .
(٦١) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

أما المقدسي فقد حاول ان يحدد لنا موقع (مملكة الاسلام) من « الربع المعمور » بصورة عامة ، فقال : « الشمس تغرب في حافة بلد المغرب ، ويرونها تنزل في البحر المحيط ، وكذلك أهل الشام يرونها تغيب في بحر الروم . واقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طويلا الى بلد النوبة ، ويقع بين بحر القلزم وتخوم المغرب ، ومن قبل الجنوب بلدان السودان . ويمتد اقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال الى بلد الروم فيقع بين بحر الروم وبادية العرب ، ويتصل البادية وبعض الشام بجزيرة العرب ويدور على الجزيرة بحر الصين الى عبادان من أرض مصر . ويتصل بتخوم العراق الشمالية اقليم آقور فيمتد الى بلد الروم وقد تقوس عليه الفرات من نحو الغرب ووقع خلف الفرات بقية البادية وطرف من الشام . فهذه اقاليم العرب . ووقعت خوزستان والجبال على تخوم العراق الشرقية ، وطائفة من الجبال واقليم الرحاب على تخوم آقور الشرقية . ووقعت فارس وكرمان والسند خلف خوزستان على صف واحد البحر جنوبيها والمفازة وخراسان شماليها . وتاخمت السند وخراسان من قبل الشرق بلدان الكفر ، وتاخمت الرحاب بلد الروم من قبل الغرب والشمال . ووقع اقليم الديلم بين الرحاب والجبال ومفازة وخراسان . فهذه مملكة الاسلام فتدبرها وفيها تفل وتعرج من شقها من شرقها الى غربها. ألا ترى انك اذا أخذت من البحر المحيط الى مصر كنت على الاستواء ثم تميل يسيراً الى العراق ثم تنتقل في أقاليم الأعاجم وخراسان مائلة الى جهة الشمال . . . الخ »[٦٢] .

وبالرغم من ان المقدسي لم يعن بتحديد موقع اقاليمه الجغرافية بصورة منفردة كما فعل الاصطخري وابن حوقل ، الا انه كان يحاول اعطاء فكرة عن موقع الاقليم عند الحديث عن سطحه . ومثال ذلك قوله عند التحدث عن اقليم الشام : « ووضع هذا الاقليم طريف ، هو اربعة صفوف ، فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل ، والصف الثاني الجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وكابل والقدس والبقاع وانطاكية . والصف الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ويقع فيه من البلدان ويلة وتبوك واريحا وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون واشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وتقع الجبال

(٦٢) أحسن التقاسيم للمقدسي ، ص ٦٢ - ٦٣ .

الفاضلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام في الصف الثاني ، وسرة الارض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل »[٦٣] .

أما اهتمامات الادريسي بتحديد الموقع الجغرافي للمكان فقد انحصرت في الجانب الفلكي ، وذلك لاتباعه التقسيم البطليموسي للارض المأهولة . فقد قسمها الى سبعة أقاليم تبتدىء من خط الاستواء جنوباً حتى قرب الدائرة القطبية شمالاً ثم قسم كل أقليم الى عشرة أجزاء ورقمها ابتداء من الطرف الغربي عند المحيط الاطلسي حتى الطرف الشرقي عند حد الصين الشرقي . وقد مكنه هذا التقسيم من تحديد الموقع الجغرافي للمكان الذي يتحدث عنه ، إلا أنه كثيراً ما كان يضطر الى الحديث عن قسم من البلاد فقط باعتباره يقع ضمن جزء معين من أحد الاقاليم السبعة مؤجلا الحديث عن بقية البلاد الى أن يأتي دورها عند شرح الاجزاء الأخرى من الاقليم أو عند الانتقال الى شرح اقليم آخر ان كانت البلاد تقع ضمن أكثر من اقليم . ومع ذلك فقد حاول الادريسي ، إضافة الى ذلك ، اللجوء الى طريقة الجغرافيين الاقليميين في تحديد الموقع الجغرافي للموضع الذي يتحدث عنه ، ومثل ذلك حديثه عن غانة مثلا حيث قال : « ان أرض غانة تتصل من غربيها ببلاد مقزارة ومن شرقيها ببلاد ونقارة وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر ، وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية وغيرها »[٦٤] .

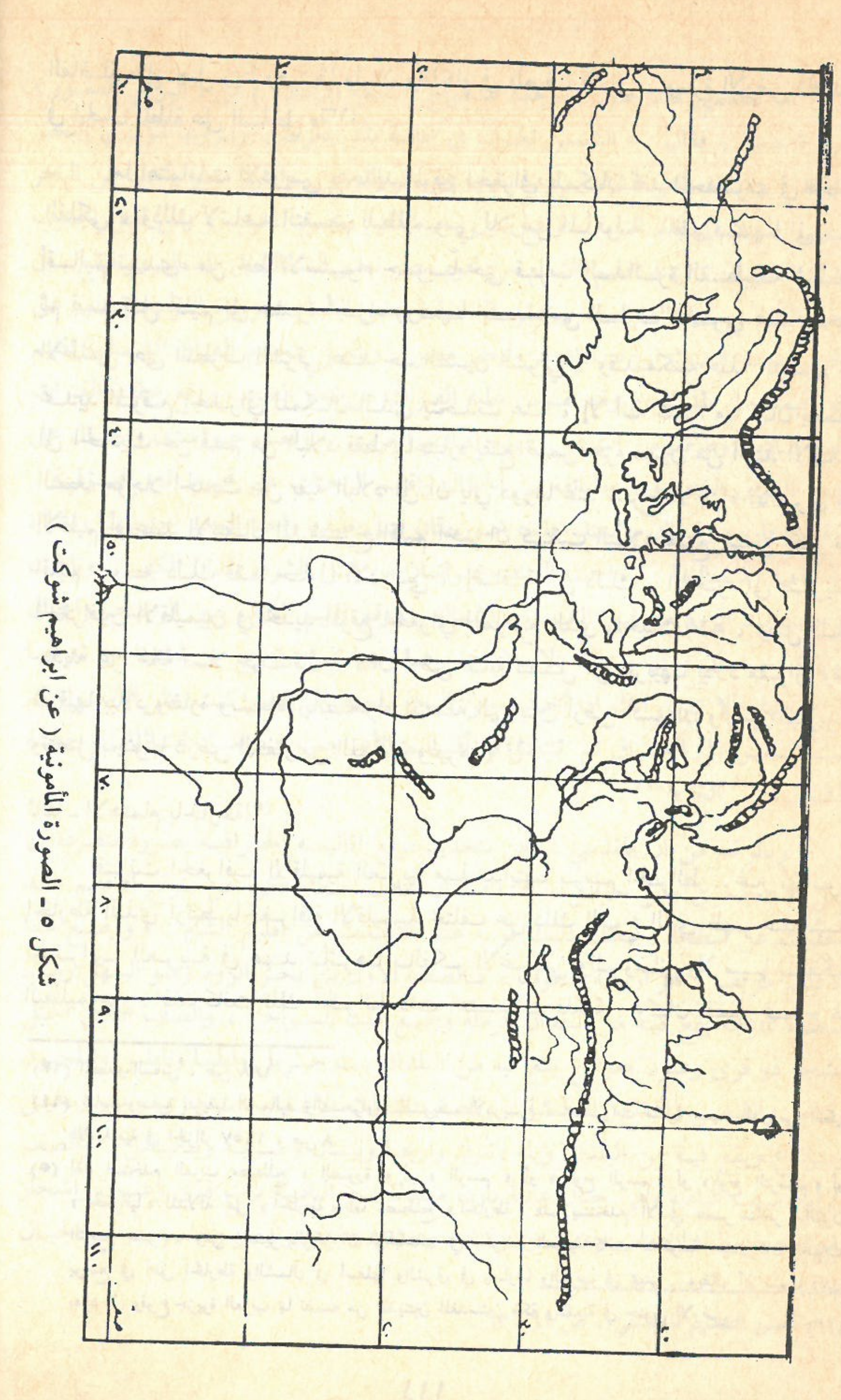
ثالثاً - الاهتمام بالخارطة(*) :

اقترنت الجغرافية الاقليمية العربية منذ بدايتها برسم الخرائط . غير أن نوع الخارطة الذي ارتبط بالجغرافية الاقليمية يختلف عن ذلك النوع الذي ظهر عند نشأة الجغرافية العربية في عهد تأثرها بالفكر الاغريقي والروماني ولا سيما بالفكر البطليموسي . فقد كانت تلك الخرائط ذات اهتمامات فلكية . وكان أفضل نموذج لها

(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

(٦٤) كتاب وصف افريقيا الشمالية والصحراوية للشريف الادريسي ، منشورات مكتبة معهد الدروس العليا الاسلامية في الجزائر ١٩٥٧ ، ص ٨ .

(*) لقد استخدم العرب مصطلح « الصورة » أو « الرسم » أو « لوح الرسم » أو « لوح الترسيم » أو « الجغرافيا » للدلالة على « الخارطة » أما مصطلح « الخارطة » فلم يستخدم الا في عصر متأخر (القرن التاسع عشر) . ومن الجدير بالذكر ان الاتجاهات في الخرائط العربية كانت معكوسة حيث كان الجنوب يوضع في أعلى الخارطة والشمال في أسفلها والشرق في يسارها والغرب في يمينها . ويقال أن سبب ذلك يعود الى وقوع جزيرة العرب بما تضمه من المدينتين المقدستين مكة والمدينة في جنوبي الارض .



شكل ٥ ـ الصورة المأمونية (عن ابراهيم شوكت)

ما سمي (بالخارطة المأمونية) التي أمر الخليفة المأمون جمهرة من العلماء برسمها للارض المعمورة . ولعل الخوارزمي كان أهم الشخصيات التي ساهمت في رسم تلك الخارطة . ولا يمكننا الحكم على جودة تلك الخارطة فقد ضاعت فيما ضاع من تراث عربي ، الا أن ما تبقى لنا من كتابات حولها تدل على انها كانت خطوة رائدة وجيدة في الكارتوغرافيا العربية . وقد اعقبتها خطوات ناجحة على ايدي جمهرة من الفلكيين من أمثال ابن سربيون والبتاني وابن يونس . وكانت تلك الخطوات سائرة في الاتجاه الصحيح في ميدان الكارتوغرافيا ، الا انها مع الأسف اتخذت اتجاهاً مستقلاً عن الاتجاه الذي شقه لانفسهم الجغرافيون الاقليميون وعلى رأسهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي . فبينما اتبعت الخرائط الفلكية الاسلوب العلمي ، وذلك بتحديد المواقع عن طريق خطوط الطول والعرض ، وبالتالي المحافظة على دقة السواحل وحجم البحيرات والبحار ومجاري الأنهار ومساحة البلدان ، ضربت الخرائط الاقليمية بالقواعد العلمية عرض الحائط ، واهتمت لا بالدقة الجغرافية ، بل بتمثيل الحقائق الجغرافية بالمصورات . لذلك جاءت تلك المصورات أقرب الى رسوم تخطيطية منها الى خرائط حقيقية ، وليس لها من رابط بمرحلة الخارطة المأمونية .

ولقد صنف أحد الباحثين مراحل تطور الكارتوغرافيا العربية الى ثلاث ؛ الاولى مرحلة الخارطة المأمونية ونظائرها ، والثانية مرحلة الخرائط الاقليمية ، والثالثة مرحلة الخرائط الادريسية التي تمثل أوج ما بلغته الكارتوغرافيا العربية من تطور[٦٤] . غير أن من المتفق عليه أن المرحلة الوسطى لا علاقة لها بالمرحلة الاولى أو الثالثة ، وانما تمثل مرحلة مستقلة تماما من مراحل الكارتوغرافيا العربية .

ولم يتفق الباحثون على أصل تلك الخرائط الاقليمية ، غير أن نفراً منهم ، ومن ضمنهم كراتشكوفسكي ، يعتقد بانها ربما ترجع الى (أطلس ايران) القديم[٦٥] . وليس لهذا الرأي من سند سوى أن تلك الخرائط تهتم اهتماماً خاصاً بالمقاطعات الايرانية وتفصّل فيها . ومهما يكن الأمر فان مثل هذا الفرض لا يدعمه دليل أكيد ، نظراً لان الاطلس المذكور لم يعثر له على أثر ليتسنى الحكم عليه . ومن الممكن ان نعزو هذا التفصيل في المقاطعات الايرانية وأقطار آسيا الوسطى في تلك الخرائط الى كون

---

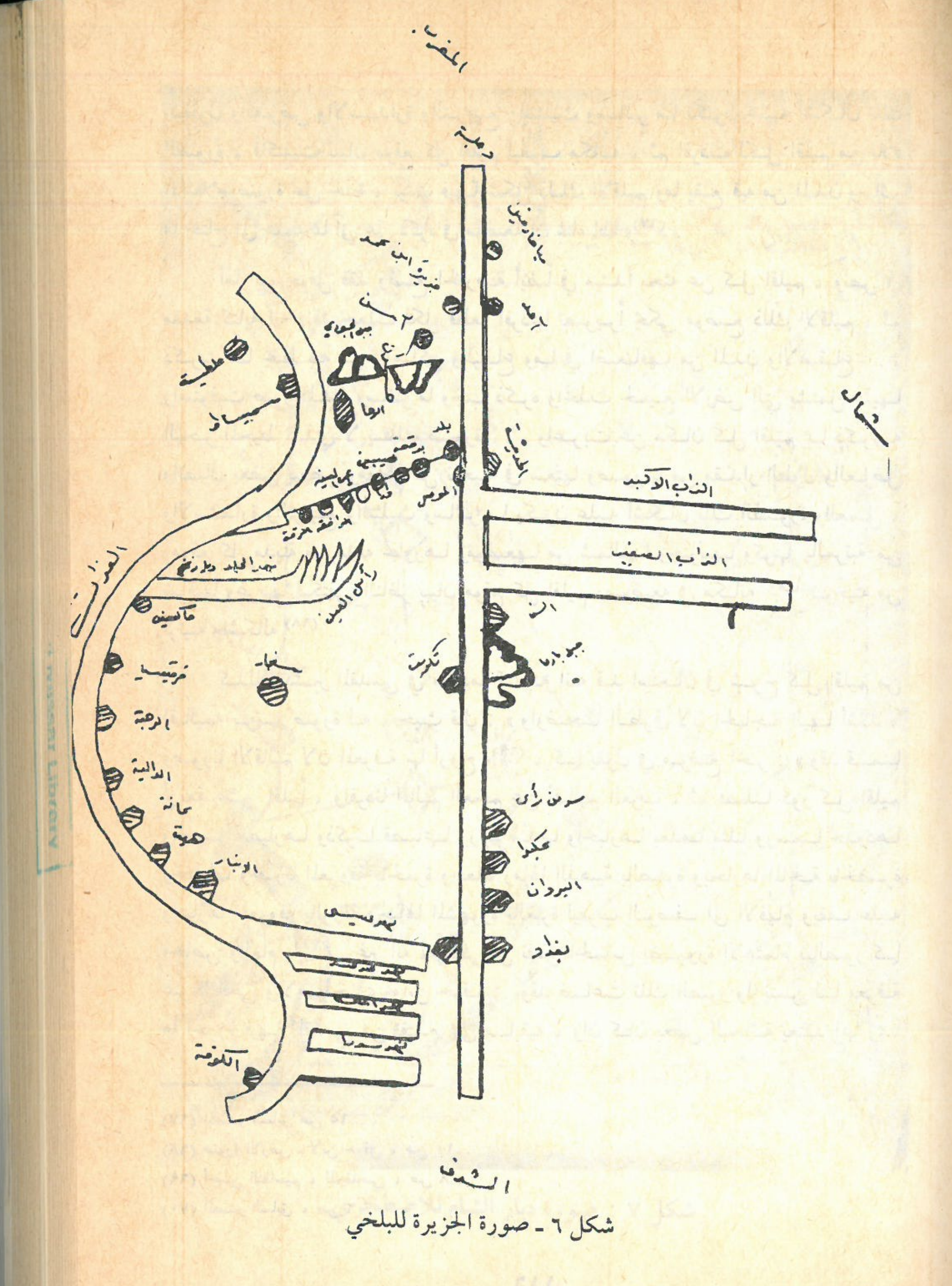
(٦٤) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ـ تأليف الدوميلي وترجمة عبد الحليم النجار ، دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤ .

(٦٥) كراتشكوفسكي ، ص ٢٠٧ .

الجغرافيين الاوائل وهما البلخي والاصطخري من مواطني تلك الجهات مما جعل معلوماتها عنها أكثر تفصيلا من بقية جهات العالم الاسلامي . وقد حذى من أتى بعدهما حذوهما وتأثر بأعمالها ، ولا سيما ابن حوقل .

ولقد بذل المستشرق الألماني كونراد ميلر MULLER اهتماماً خاصاً في جمع تلك الخرائط ونشرها في مجلد خاص تحت عنوان (الخرائط العربية) Mappae Arabicae، وسماها (أطلس الاسلام) . ويرى ميلر ان أبا زيد البلخي هو أول من عني بوضع أطلس للبلاد الاسلامية ، وان كتابه المفقود والذي يرد في المراجع بأسماء متعددة مثل (صور الاقاليم) و (الاشكال) و (المسالك والممالك) ، يعتبر رائداً في هذا الميدان . هذا بالرغم من أن الاصطخري يزعم انه أول من ابتدع هذا المنهج حيث يقول في مقدمة كتابه : « ولان الغرض في كتابي هذا تصوير الاقاليم التي لم يذكرها أحد علمته »(٦٦) . والواقع ان هناك خلط كثير عند الحديث عن رواد الجغرافية الاقليمية الثلاثة وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل ، فالباحثون يعتقدون ان الاصطخري وابن حوقل ربما كانا يدينان بمؤلفيهما للبلخي . وهناك تأكيد بأن الاصطخري قد تأثر كثيراً بالبلخي ، وان ابن حوقل قد استعار الشيء الكثير من الاصطخري ، والذي لا ريب فيه أن هناك نصوصاً متشابهة تتردد في الكتب الثلاثة . ومهما يكن الأمر فاننا ندين للبلخي بتثبيت مبدأ ما يزال من أهم مبادىء الجغرافية الاقليمية ، وهو اقران المعلومات الجغرافية بالخارطة وجعل المصورات أساساً للشرح الجغرافي. بل أن كتابي الاصطخري وابن ينصان على أن الشروح ما هي الا توضيح للخارطة المرفقة بهما وان الاساس فيهما هي الخرائط أو الصور . فلقد ذكر الاصطخري في مقدمته : « وأما ذكر مدنها وجبالها وانهارها وبحارها والمسافات وسائر ما انا ذاكره فقد يوجد في الاخبار ولا يتعذر على من أراد تقصي شيء من ذلك من أهل كل بلد ، ولذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره فاتخذت لجميع الارض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة ، اذا نظر اليها ناظر علم مكان كل اقليم كما ذكرناه واتصال بعضه ببعض ومقدار كل اقليم من الارض ، حتى اذا رأى كل اقليم من ذلك مفصلا علم موقعه من هذه الصورة التي جمعت سائر الاقاليم لما يستحقه كل اقليم في صورته ، من مقدار

(٦٦) المسالك والممالك ، للاصطخري ، ص ١٥ .



شكل ٦ ـ صورة الجزيرة للبلخي

الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما تكون عليه أشكال تلك الصورة ، فاكتفيت ببيان موقع كل اقليم ليعرف مكانه ، ثم افردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه مما آتي على ذكره في موضعه ان شاء الله »[٦٧] .

أما ابن حوقل فقد وضع الخارطة أيضاً في مبتدأ بحثه عن كل اقليم ، ونص في مقدمة كتابه انه « قد جعلت لكل قطعة افردتها تصويراً يحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع وما في اضعافها من المدن والاصقاع . . . واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره واتخذت لجميع الارض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذي لا يسلك صورة . . . واعربت عن مكان كل اقليم مما ذكرته واتصال بعض ببعض ومقدار كل ناحية في سعتها وصورتها من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث وسائر ما يكون عليه أشكال تلك الصورة والعمل ، وموقع كل مدينة من مدنه تجاورها وموضعها من شماليها وجنوبيها وكونها بالمرتبة من شرقيها وغربيها ليكتفي الناظر ببيان موقع كل اقليم وموضعه في مكانه وما توخيته من ترتيبه واشكاله »[٦٨] .

كذلك يشير المقدسي في مقدمة كتابه انه قد استعان في شرح كل اقليم من اقاليمه برسم صورة له ، حيث قال : « واوضحنا الطرق لان الحاجة اليها أشد ، وصورنا الاقاليم لان المعرفة بها أروح »[٦٩] ، كما يقول في موضع آخر : « وقد قسمنا أربعة عشر اقليماً ، وافردنا اقاليم العجم عن أقاليم العرب ، ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا أمصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها وأخبارها بعدما مثلنا ورسمنا حدودها وخططها وحررنا المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وانهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام ويقف عليه الخاص والعام »[٧٠] . غير انه لم يعبر عن نفس الحماس بضرورة الاهتمام بالصور كما عبر البلخي والاصطخري وابن حوقل . وقد ضاعت تلك الصور ولم يتسن لنا معرفة ما احرزه فيها المقدسي من تقدم على سابقيه ، وان كان بعض البحاثة يعتقد انها ربما

---

(٦٧) المصدر السابق ص ١٥ .
(٦٨) صورة الارض ـ لابن حوقل ، ص ١٠ .
(٦٩) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ٨ .
(٧٠) المصدر السابق ، ص ٦ .



شكل ٧ : صورة ديار الشام للاصطخري

كانت تمثل حلقة الوصل بين خرائط (أطلس الاسلام) وخرائط الادريسي ، لا سيما وان المقدسي قد انتقد خرائط رواد المدرسة الاقليمية في بعض جوانبها[71] . وعلى أية حال فلا يمكن القول بأن خرائط رواد المدرسة الاقليمية قد وصلت الينا بأجمعها ، ولا سيما ما يتعلق بخرائط البلخي . فلم تصل الينا من خرائط البلخي مثلا سوى ثلاث خرائط هي (صورة ديار العرب) و (صورة الجزيرة) و (صورة الارض) . أما بالنسبة للاصطخري وابن حوقل فقد وصلت الى ايدينا جميع خرائطهما على ما يبدو . وكان كل منهما قد اتبع نظاماً معيناً في تبويب كتابيهما ، ولعل الخرائط كانت أساساً لذلك التبويب . ويتشابه هذان النظامان تشابهاً تاماً تقريباً ، وهناك من الباحثين من يعتقد انه ربما كان نفس النظام الذي اتبعه البلخي في كتابه . فقد رسم كل منهما احدى وعشرين خارطة ، وجاءت تلك الخرائط متسلسلة في كتاب الاصطخري على النحو التالي : -

١ - صورة الارض والاقاليم ٢ - صورة ديار العرب ٣ - صورة بحر فارس ٤ . صورة المغرب ٥ - صورةمصر ٦ - صورة الشام ٧ - صورة بحر الروم ٨ - صورة الجزيرة ٩ - صورة العراق ١٠ - صورة خوزستان ١١ - صورة فارس ١٢ - صورة كرمان ١٣ - صورة بلاد السند والهند ١٤ - صورة ارمينية واذربيجان ١٥ - صورة الجبال ١٦ - صورة الديلم ١٧ - صورة بحر الخزر ١٨ - صورة المفازة التي بين فارس وخراسان ١٩ - صورة سجستان ٢٠ - صورة خراسان ٢١ - صورة ما وراء النهر .

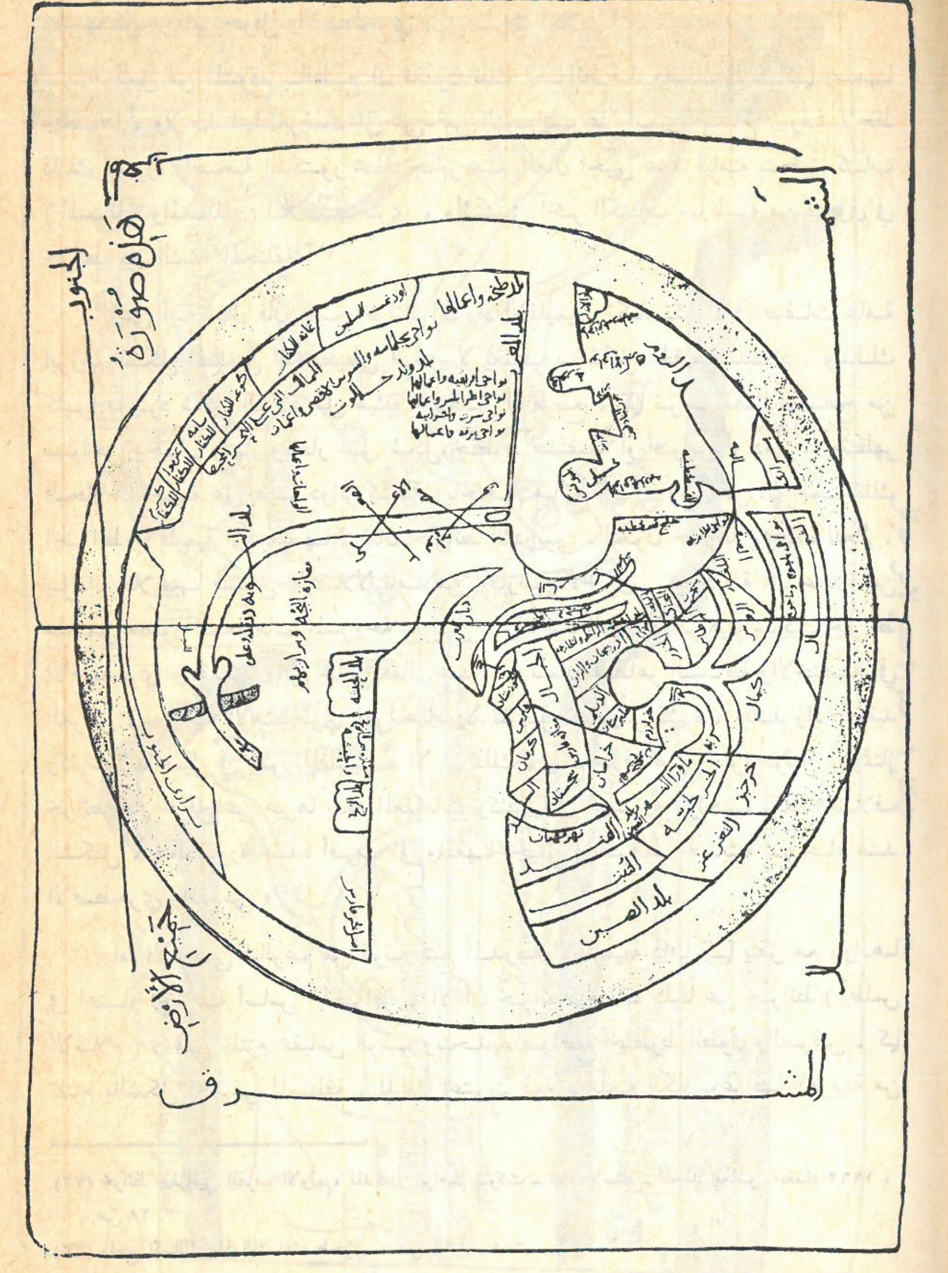
أما ابن حوقل فقد وردت خرائطه على النحو التالي :

١ - صورة جميع الارض ٢ - صورة ديار العرب ٣ - صورة بحر فارس ٤ - صورة المغرب ٥ - صورة مصر ٦ - صورة الشام ٧ - صورة بحر الروم ٨ - صورة الجزيرة ٩ - صورة العراق ١٠ - صورة خوزستان ١١ - صورة فارس ١٢ - صورة كرمان ١٣ - صورة بلد السند ١٤ - صورة ارمينية واذربيجان والران ١٥ - صورة الجبال ١٦ - صورة الديلم وطبرستان ١٧ - صورة بحر الخزر ١٨ - صورة مفازة فارس ١٩ - صورة سجستان ٢٠ - صورة خراسان ٢١ - صورة ما وراء النهر .

أما بالنسبة للمقدسي فيعتقد الدكتور ابراهيم شوكت انه لم يرسم صورة الارض جمعاء كما لم يرسم صورة سجستان وصورة بحر الخزر ، ولكنه رسم بقية الخرائط التي

---

(٧١) حسين مؤنس ، ص ٢٢٠ .



شكل ٨ - صورة عموم الارض لابن حوقل

رسمها كل من ابن حوقل والاصطخري والتي ذكرت اعلاه[٧٢] .

وليس من المتوقع بـالطبع ان تكـون تلك الخرائط قـد وصلت الينا كـما رسمهـا مؤلفـوها ، ولا بـد انها تعرضت الى شيء من التحريف على ايـدي النساخ . وقـد لاحظ ذلـك بصورة واضحـة الدكتـور محمد جـابر عبـد العال الحيني عنـد قيامـه بتحقيق كتـاب (المسالك والممالك) لـلاصطخري ، وأثبت في آخـر الكتـاب مـا لمسـه من فـروق في خرائطه بين النسخ المختلفة[٧٣] .

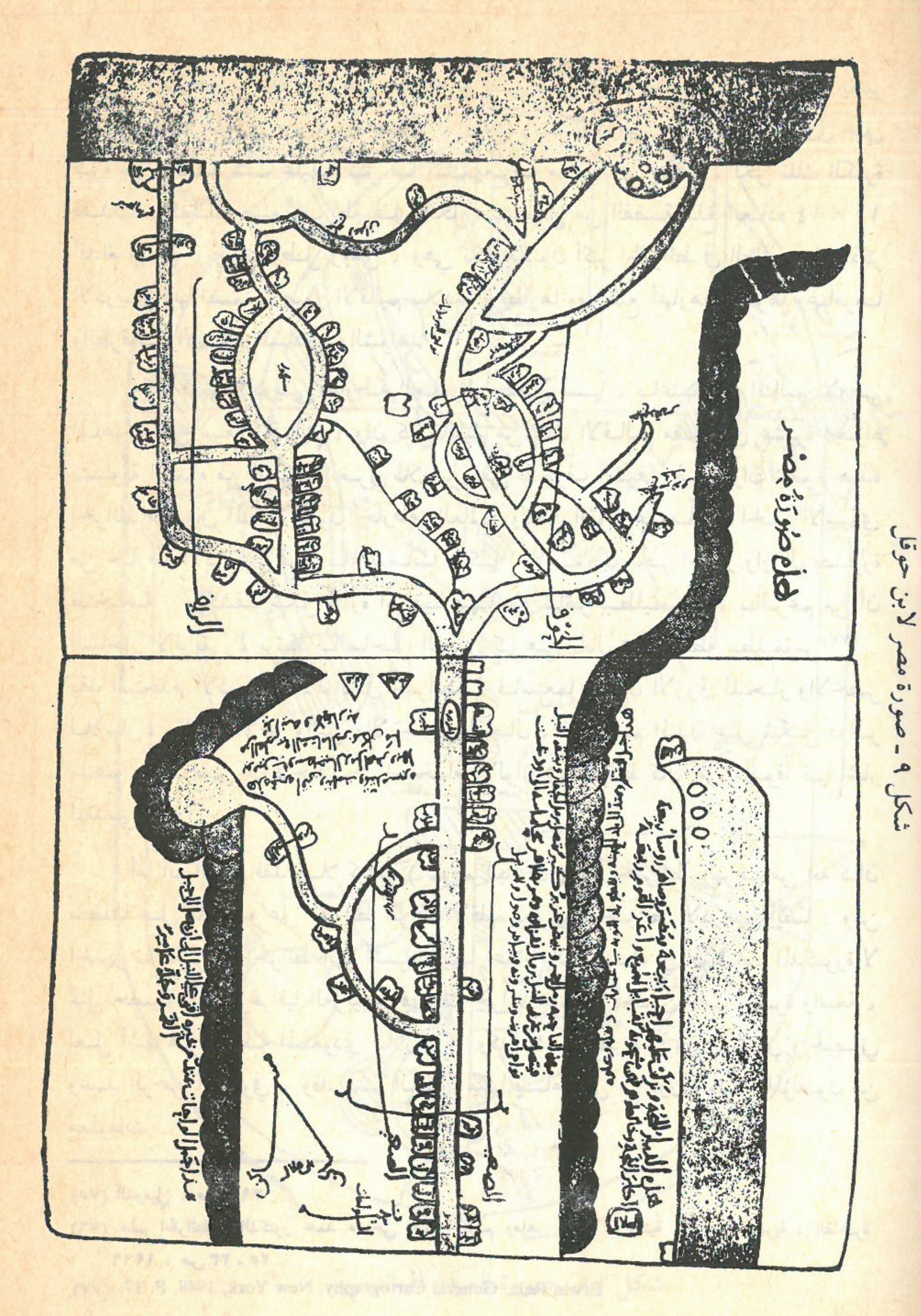
وعلى أية حال فان جميع خرائط الـرواد الاقليميين تكـاد تشترك في صفـات عامـة ابرزها الشكل الهندسي التخطيطي الـذي لا يعترف بـالشكل الحقيقي للبلاد . ولذلـك كثيراً ما يـرد شكل البلاد على هيئـة مستطيل أو مربع ، كما تـرسم معالم السطح من سـواحل وجبـال وأنهار وبحار عـلى شكل خـطوط مستقيمة أو أقـواس أو دوائر ، وتـظهر البحار الداخلية على هيئـة دوائر كـاملة وباحجـام مبالـغ فيها . ولا يمكن ان تجمـع تلك الخـرائط الاقليمية الى بعضهـا ـ شأن خـرائط الادريسي ـ لتكون خـارطة واحـدة للعالم ، بـل ان كلا منهـا مستقل استقـلالا تامـاً عن الخـارطـة الاخرى . والحقيقـة انها عبـارة عن ملخص مصور للمعلومات المشروحة في المتن . وقد نقد الدكتـور ابـراهيم شـوكت خـرائط الاصطخري والمقدسي وابن حوقل فقال عنهـا : « تتمثل مـظاهر البسـاطة والاختصـار في العرض في خرائط الاصطخري فهي عـامة لا تشمـل تفاصيـل كثيرة ، ولـقد زاد التعقيد وكثرت التفاصيل في صـور المقدسي ، الا ان ذلك لم يبلغ ما في صـور ابـن حوقـل . وتمتاز خرائط ابن حوقل عن غيرها بدقة المعلومات وكثـرتها في الصـورة الواحـدة وكذا اختـلاف الشكـل ، فـالصورة عنـده أقرب الى واقعهـا الحالي والخـرائط الحـديثـة مما جـاء عنـد الاصطخري والمقدسي »[٧٤] .

أما الادريسي فبالرغم من كونـه يتبع المـدرسة الاقليمية ذاتها كـما يتفق مع روادهـا في اعتبـار الخارطـة أساس الجغرافية ، الا أن خـرائطه تختلف كليـاً عن خـرائط (أطلس الاسلام) . فهي تلتزم بمقياس الرسم وبتحـديد مـواضع خـطوط الطول والعـرض ، كـما تلتزم بالشكل الحقيقي للمنطقة ، لذلك اعتبرت قمة ما بلغته الكارتـوغرافيـا العربيـة من

(٧٢) خرائط جغرافيي العرب الاول ، للدكتور ابراهيم شوكت ـ مجلة الاستاذ ـ المجلد العاشر ـ بغداد ١٩٦٢ ، ص ٢٨ .

(٧٣) راجع المسالك والممالك للاصطخري ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٥ .

(٧٤) الدكتور ابراهيم شوكت ، المصدر الاسبق ، ص ٢٨ .



شكل ٩ ـ صورة مصر لابن حوقل

تطور . وبالرغم من أن الادريسي حذا حذو بطليموس في مواضع كثيرة ، الا انه يعتبر مجدداً ومتفوقاً عليه في جوانب عديدة[٧٥] . ولقد رسم الادريسي خارطتين ، الاولى على كرة من الفضة كتب عليها كل ما كان يعرفه من بلدان مختلفة ، لكن تلك الكرة فقدت . كذلك صنع خريطة على شكل مستطيل من الفضة تبلغ ابعاده ١٤ × ١٠ أقدام ووزنه أربعماية رطل رومي ، وهي تكاد تكون أكبر الخرائط في العالم . وقد ذكر الادريسي انها تضمنت صور الاقاليم ببلادها وأقطارها ومواضع أنهارها وعامرها وغامرها والطرقات والأميال والمسافات والشواهد[٧٦] .

وقد قسم الادريسي خارطة العالم الى سبعين قسماً ، باعتبار ان اقاليم الارض المأهولة هي سبعة أقاليم ، وان كل اقليم من تلك الاقاليم مقسم الى عشرة اجزاء متساوية ابتداء من الطرف الغربي للارض حتى الطرف الشرقي لها ، وان مجموع هذه الخرائط السبعين المنفردة تكوّن خارطة العالم . ويمكن القول عموماً بأن الجزء الآسيوي من خارطة الادريسي غني بالمعلومات ، كما انها صورت بحر الخزر واورال بصورة صحيحة . ويكشف شكل قارة افريقيا فيها عن تأثر ببطليموس ، بالرغم من أن الساحل الافريقي لم يرتبط بالساحل الصيني كما هو الحال في خريطة بطليموس[٧٧] . وقد استخدم الادريسي الألوان في خرائطه ، فاستعمل اللون الازرق للبحار والاخضر للأنهار ، واللون الأحمر والبني والارجواني للجبال ، كما رسم المدن على شكل دوائر مذهبة . وقد سبق ان لاحظنا بأن استخدام الالوان في الخرائط كان أمراً مألوفاً كما أشار المقدسي .

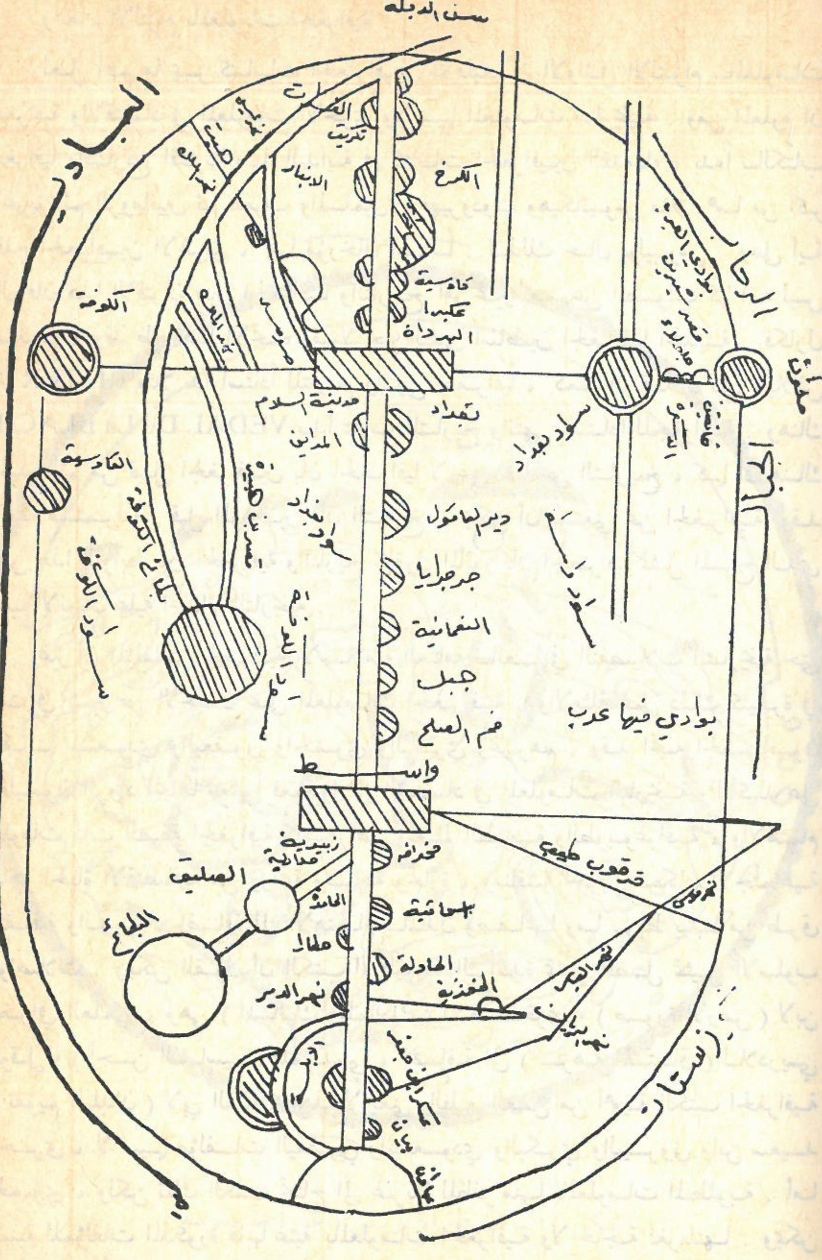
أما أبو الفدا فقد خلا كتابه (تقويم البلدان) من الخرائط بالرغم من انه كان مطلعاً على ما يبدو على خرائط الرواد الاقليميين وربما خرائط الادريسي أيضاً . ومن الجدير بالذكر أن الخرائط التي أشرنا اليها أعلاه والتي وردت في المؤلفات المذكورة لا تمثل حصيلة الكارتوغرافيا العربية ، فهنالك خرائط عديدة أخرى نالت شهرة واسعة ، لعل أشهرها خارطة المسعودي للارض ، وكذلك خرائط البيروني والبتاني والجيهاني وعبد الرحمن الصوفي ، وقد رسم البعض منها بناء على ما أورده هؤلاء المؤلفون من معلومات .

---

(٧٥) ألدوميلي ، ص ٣٩٣ .

(٧٦) علم الخرائط ـ الدكتور محمد صبحي عبد الكريم وماهر الليثي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٢٣ ـ ٢٥ .

(٧٧) Erwin Raiz, General Cartography, New York, 1948, P. 17.

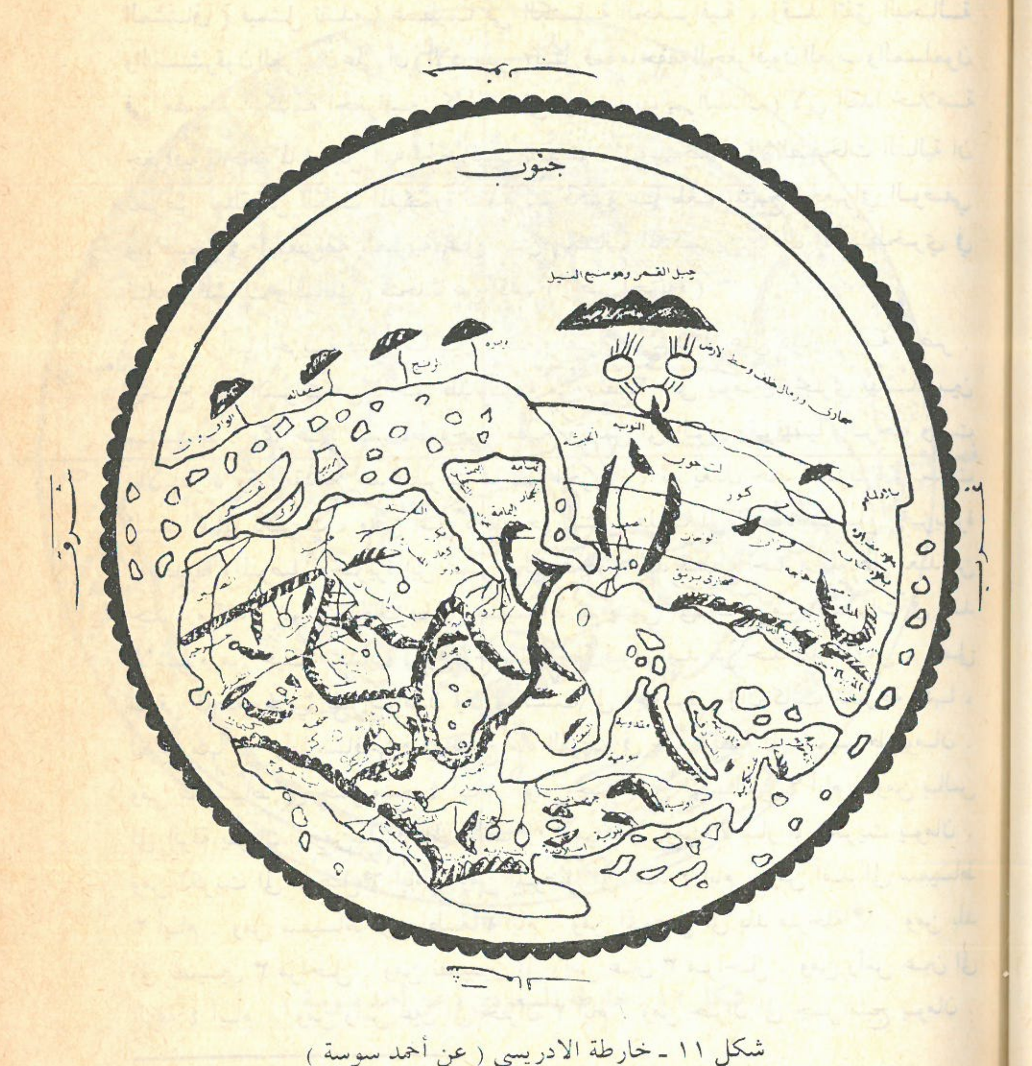


شكل ١٠ ـ صورة العراق للمقدسي

رابعاً ـ الالتزام بالمعلومات الجغرافية :

لعل أهم ما يميز كتابات الجغرافيين الاقليميين الاوائل الالتزام بالمعلومات الجغرافية والاقتصاد في المعلومات الاخرى ولا سيما المعلومات التاريخية . ومن المعلوم ان الجغرافيا والتاريخ اقترنتا منذ البداية في كتابات الجغرافيين القدماء ، بدءاً بالكتّاب الاغريق ثم الرومانيين ثم العرب والمسلمين . فهيرودوت وهيكاتيوس مثلا وهما من أكبر وأقدم الجغرافيين الاغريق ، هما مؤرخان أساساً . كذلك حال بوليبوس . وعلى أية حال فان هذا الاقتران بين الجغرافيا والتاريخ أمر غير بعيد عن الصواب كما انه ليس بمستغرب ، وقد ظل هذا الاتجاه مقبولا حتى لدى أساطين الجغرافيا الحديثة . فكارل ريتر RITTER مثلاً بدأ استاذاً للتاريخ وانتهى جغرافياً ، كما أن فيدال دي لابلاش VEDAL De La BLACHE بدأ دارساً للتاريخ وانتهى استاذا للجغرافية . وهناك تأكيد دائم من قبل الجغرافيين بأن الجغرافيا لا غنى لها عن التاريخ ، كما أن هناك تأكيداً مستمراً من قبل المؤرخين بأن التاريخ لا يمكن أن يستغني عن الجغرافية وقد لخص هذا الترابط بين الجغرافية والتأريخ بالقول المأثور بأن الجغرافيا تمثل المسرح الذي يلعب الانسان عليه احداثه التاريخية .

غير أن المؤلفات الجغرافية الاسلامية العامة بالغت في التفصيلات التاريخية حتى طغت في كثير من الأحيان على المعلومات الجغرافية . والامثلة على ذلك كثيرة في مؤلفات المسعودي واليعقوبي والحموي والبكري وغيرهم . وقد اتجه الجغرافيون الاقليميون الرواد اتجاهاً مغايراً فعمدوا الى الاقتصاد في المعلومات التاريخية والتأكيد على المعلومات ذات الصفة الجغرافية كاستعراض المعالم الطبيعية والطوبوغرافية ، والاهتمام بمظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة ، ومناقشة أحوال السكان الاجتماعية والثقافية والدينية ، اضافة الى الاهتمام بالمدن وصفاتها وما يربط بينها من طرق المواصلات . ويمكن القول أن الكتب الاقليمية الرائدة تمثل أفضل تمثيل الاسلوب الجغرافي العلمي ، وهي (المسالك والممالك) للاصطخري و (صورة الأرض) لابن حوقل و (أحسن التقاسيم) للمقدسي ، اضافة الى (نزهة المشتاق) للادريسي و (تقويم البلدان) لابي الفدا . وهذا لا يعني بالطبع الغض من أهمية الكتب الجغرافية الاخرى ، لا سيما مؤلفات اليعقوبي والمسعودي والبكري والبيروني وابن سعيد والحموي ، ولكن تلك الكتب تحتاج الى غربلة للظفر منها بالمعلومات المطلوبة . أما بالنسبة للمؤلفات المذكورة فانها غنية بالمعلومات الجغرافية ولا حاجة لغربلتها . ويمكن اعتبارها مثالاً يحتذى في الكتابة الجغرافية الوصفية والاقليمية . وبطبيعة الحال فانها



شكل ١١ ـ خارطة الادريسي (عن أحمد سوسة)

تتفاوت في مدى التزامها بالمنهج الجغرافي الصحيح ، فكتاب (المسالك والممالك) للاصطخري ، كان ما يزال يتعثر في منهجه الجغرافي ، بينما حقق كتاب (صورة الارض) لابن حوقل مثالاً أفضل في الكتابة الجغرافية . وجاء كتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسى أعظم نضجاً وأدق حساً من وجهة النظر الجغرافية . أما (نزهة المشتاق) فيمثل تقدماً عظيماً في الكتابة الجغرافية ، وقد اتفق البحاثة والمستشرقون الغربيون على أن (الادريسي) يمثل قمة ما حققه الجغرافيون العرب والمسلمون في مضمار الكتابة الجغرافية. كذلك يمثل كتاب (تقويم البلدان) لابي الفدا خلاصة جغرافية ناجحة لما توصل اليه الجغرافيون السابقون . وسنحاول في الصفحات التالية ان نعرض أمثلة من الكتب المذكورة لتقدم لنا فكرة عما بلغه المنهج الجغرافي الوصفي والاقليمي في الجغرافية العربية على أيدي الكتاب المذكورين . قال الاصطخري في كتابه (المسالك والممالك) متحدثاً عن اقليم (أرض الجزيرة) :

« وأما الجزيرة فانها ما بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر . ومخرج ماء الفرات من داخل بلد الروم من ملطية على يومين ويجري بينها وبين سميساط . ويمر على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار ، وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ، ثم يعدل حد الجزيرة في سمت الشمال الى تكريت ، وهي على دجلة حتى ينتهي عليها الى السرة مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر . ثم يتجاوز آمد فينقطع حد دجلة على بعد من حد أرمينية . ثم يمتد مغرباً الى سميساط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدأنا . ومخرج ماء دجلة فوق آمد من حد بلد الأرمن ، وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة ، وان كانت خارجة عنها ، لقربها منها . . وأما مسافاتها فمن مخرج ماء الفرات في حد ملطية الى سميساط يومان . ومن سميساط الى جسر منبج ٤ أيام . ومن جسر منبج الى بالس ٤ أيام . ومن بالس الى الرقة يومان . ومن الرقة الى الأنبار ٢٠ مرحلة . ومن الانبار الى تكريت يومان . ومن تكريت الى الموصل ٦ أيام . ومن الموصل الى آمد ٤ أيام . ومن آمد الى سميساط ٣ أيام . ومن سميساط الى ملطية ٣ أيام . ومن الموصل الى بلد مرحلة(*) . ومن بلد الى نصيبين ٣ مراحل . ومن نصيبين الى رأس عين ٣ مراحل . ومن رأس عين الى الرقة ٤ أيام . ومن رأس عين الى حران ٣ أيام . ومن حران الى جسر منبج يومان .

(*) المرحلة ما يقطعه المسافر في يوم واحد .

شكل ١٢ - خارطة المسعودي (عن أحمد سوسة)

ومن حران الى الرها يوم . ومن الرها الى سميساط يوم . ومن حران الى الرقة ٣ أيام .

وأما صفة مدنها وبقاعها فان انزه بلد في الجزيرة وأكثرها خضرة بلد نصيبين ، وهي مدينة كبيرة في مستوى من الأرض ، ومخرج مائها من شعب جبل يعرب بالوسا وهو انزه مكان بها حتى ينبسط في بساتينها ومزارعها . ولهم مع ذلك فيما بعد من المدينة مباخس كثيرة ، وبها دير عظيمة وحواليها أديرة وصوامع للنصارى كثيرة . وبها عقارب قاتلة موصوفة . وبالقرب من نصيبين جبل ماردين ، من الأرض الى ذروته نحو من فرسخين(**) ، وبه قلعة منيعة لا يستطاع فتحها عنوة ، وبه حيات موصوفة تفوق الحيات بسرعة القتل ، وهو جبل به جواهر الزجاج . وأما الموصل فهي مدينة على غربي دجلة صحيحة التربة والهواء ، ليس لهم سوى ماء دجلة للشفة(***) . وليس لهم من دجلة زرع ولا شجر الا الشيء اليسير في عدوة دجلة وشرقيها . وزروعهم مباخس وفواكههم تحمل من سائر النواحي . وهي مدينة عامة ابنيتها بالجص والحجارة ، كبيرة غناء . وبلد مدينة صغيرة على غربي دجلة ، وليس بها ماء جار سوى دجلة وشجر وزروع ومباخس كثيرة . وأما سنجار فانها مدينة في وسط برية ديار ربيعة بقرب جبل ينسب الى سنجار وبها نخيل وليس بالجزيرة بلد به نخيل سوى سنجار ، الا ان عيون على الفرات وبهيت والأنبار وتل أعفر . وأما دارا فهي مدينة صغيرة نزهة تشتمل على مياه جارية واشجار وزروع ولها مباخس وهي في سفح جبل . وكفر توثا في مستوى من الارض وهي مدينة أكبر من دارا ذات نهر وشجر وزروع وبها مباخس كثيرة . ورأس عين مدينة على مستوى وارضها الغالب عليها القطن ، ويخرج منها زيادة على ثلاثمائة عين كلها صافية تحكي ما تحتها على قامات فتجتمع مياهها حتى يصير منها نهر الخابور الذي يقع الى قرقيسيا ، ومسافة هذا النهر نحو عشرين فرسخا قرى ومزارع . ورأس عين مدينة أكبر من كفرتوثا ولهم زروع وأشجار مستقلة عن البنيان على سنن هذه المياه وهي خصبة كثيرة المباخس . وأما آمد فهي على دجلة من شرقيها وسورها في غاية الحصانة ، وهي كثيرة الشجر والزروع . وأما جزيرة ابن عمر فهي مدينة صغيرة على غربي دجلة لها أشجار ومياه . وشمشاط هي ثغر الجزيرة لانها في غربي دجلة وشرقي الفرات . . الخ »(٧٨) .

(**) الفرسخ يساوي ٣ أميال أو حوالي ٦ كيلومترات .

(***) للشرب .

(٧٨) المسالك والممالك ، للاصطخري ، ص ٥٢ - ٥٣ .

وقال ابن حوقل في كتابه (صورة الارض) متحدثاً عن اقليم الديلم وطبرستان : « وطبرستان فأكبر مدنها آمل وهي مستقر ولاتها في هذا العصر ، وكانوا في قديم الزمان يسكنون ساريه . وطبرستان بلد كثير المياه والثمار والاشجار الجليلة العظيمة والغالب عليها الغياض وكثرة الأشجار ، وأكثر أبنيتها الخشب والقصب . وهو أقليم كثير الامطار وربما اتصل المطر سنة جرداء فلا يرون فيها الشمس ، وسطوحهم مسنمة بالقراميد . وآمل أكبر من قزوين وهي مشتبكة البناء والعمارة وما أعلم على قدرها أعمر منها في نواحيها . ويرتفع بجميع طبرستان الابريسم ويحمل منه الى جميع الآفاق ، وليس بسائر الارض في ملك الاسلام والكفر ناحية تقارب طبرستان في كثرة الابريسم . وبها من الخشب الخلنج والكرم الملون المجزع خشبة بسواد وحمرة والشمشار والشوحط ما ليس بمكان مثله . الغالب على أهل طبرستان وفور الشعر واقتران الحواجب وسرعة الكلام والعجلة والطيش ، وعلى طعامهم خبز الارز والسمك والثوم ، وكذلك الديلم والجيل . ويرتفع من طبرستان اصناف من الثياب الابريسم والاكسية الصوف الثمينة والبركانات العجيبة ، وليس بجميع الارض أكسية تبلغ قيمة اكسيتهم وبركاناتهم ومطارفهم ، واذا كانت بالذهب فهي كما بفارس أو أزيد بقليل . وليس بجميع طبرستان نهر تجري فيه سفينة ، غير أن البحر منهم قريب على أقل من يوم . ويعمل بطبرستان مناديل قطن وشرابيات ودساتك ساذجة ومذهبة ، وليس لذهبها نظير . هذا الى بقاء معروف في ثيابهم القطنية . وأكثر قطنهم يضاهي قطن صعدة وصنعاء وفيه صفرة يعمل منه جوهر حسن ويستحسنه أهل العراق . وجميع طبرستان يغلب عليها المياه والغياض والشجر الا ما كان في المواضع المستعلية في الجبال ففيها قلة رطوبة ويبس ، وبطن طبرستان سقيع نقيع يغلب عليها النزور ونجل الارض »(٧٩) .

وقال المقدسي في كتابه (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) متحدثاً عن اقليم الشام : « . . وقد قسمنا هذا الاقليم ست كور أولها من قبل آقور قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة . . فأما قنسرين فقصبتها حلب ومن مدنها انطاكية بالس السويدية سميساط منبج بياس التينات قنسرين مرعش اسكندرونة لجون رفنية جوسية حماة شيزر وادي بطنان معرة النعمان معرة قنسرين . وأما حمص فاسم القصبة أيضاً ومن مدنها سلمية بلنياس حصن الخرابي تدمر الخناصرة كفر طاب اللاذقية جبلة أنطرسوس . وأما دمشق فاسم القصبة أيضاً ، ومدنها بانياس صيدا بيروت

(٧٩) صورة الارض - لابن حوقل ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

وطرابلس عرفة وناحية البقاع مدينتها بعلبك، ولها كامد عرجموش الزبداني.
ولدمشق ست رساتيق الغوطة حوران البثنية الجولان البقاع الحولة . وأما الاردن فقصبتها طبرية ومن مدنها قدس صور عكا اللجون كابل بيسان اذرعات . وأما فلسطين فقصبتها الرملة ومدنها بيت المقدس بيت جبريل غزة ميماس عسقلان يافه ارسوف قيسارية نابلس أريحا عمان . وأما الشراة فجعلنا قصبتها صغر ومدنها مآب معان تباك اذرح ويله مدين . وفي هذا الاقليم مدن اجل واكبر من اكثر من مدن الجزيرة مثل داريا وبيت لهيا وكفر سلام وكفر سابا غير انها على رسوم القرى معدودة فيها . وقد قلنا ان عملنا موضوع على التعارف . وأما حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي أهلها ظرف ولهم يسار وعقول ، مبني بالحجارة عامر ، في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان ، والجامع في البلد ، شربهم من نهر قويق . . والقصبة ليست بكبيرة الا ان بها مستقر السلطان لها سبعة أبواب ، باب حمص باب الرقة بابُ قنسرين باب اليهود باب العراق باب دار البطيخ باب انطاكية وباب الاربعين مسدود . . الخ »[80] .

وقال في موضع آخر يصف مناخ الاقليم : « هو اقليم متوسط الهواء الا وسطه من الشراة الى الحولة فانه بلد الحر والنيل والموز والنخيل . . وأشد هذا الاقليم بردا بعلبك وما حولها . . وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلما علا منه نحو الروم كان أكثر أنهاراً وثماراً وأبرد هواء ، وما سفل منه فانه أفضل وأطيب وألذ ثماراً وأكثر نخيلا وليس فيه نهر يسافر فيه »[81] .

وقال متحدثاً عن تجارة الاقليم : « والتجارات به مفيدة ، يرتفع من فلسطين الزيت والقطن والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط . ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العيوني والدوري غاية وقضم قريش الذي لا نظير له والمرايا وقدور القناديل والأبر . ومن اريحا نيل غاية ومن صفر وبيسان النيل والتمور ، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد ، ومن مآب قلوب اللوز ، ومن بيسان الرز ، ومن دمشق المعصور والعيسي وديباج ودهن بنفسج . . »[82] .

(٨٠) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٨١) المصدر السابق ، ص ١٨١ .
(٨٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

وقال متحدثاً عن معادن الاقليم : « وبه معادن حديد في جبال بيروت ، وفي حلب مغرة جيدة وبعمان دونها . وبه جبال حمر يسمى ترابها السمقة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمى الحوارة فيه أدنى صلابة يبيض السقوف ويطين به السطوح . وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل . وبالاغوار معادن كبريت وغيره ، ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور . . »[83] .

وقال متحدثاً عن مياه الاقليم : « . . وفيه عدة من الانهار تقلب في بحر الروم الا بردى فانه يشق أسفل قصبة دمشق فيسقي الكورة ، وقد شق منه شعب يتدور في أعلى القصبة ثم ينقسم قسمين من خلف بانياس فيتبحر بازاء قدس ، ثم ينحدر الى طبرية ويشق البحيرة ، ثم ينحدر في الاغوار الى البحيرة المقلوبة وهي مالحة جداً وحشة مقلوبة منتنة ، فيها جبال وليس فيها أمواج كثيرة . وبحر الروم يمد على طرفه الغربي وبحر الصين يمس طرفه الجنوبي ، وبازاء صور تقع جزيرة قبرص يقال انها اثنا عشر يوماً كلها مدن عامرة . . »[84] .

وقال متحدثاً عن سطح الاقليم : « ووضع هذا الاقليم ظريف هو أربعة صفوف ، فالصف الاول يلي بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصف الثاني الجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وانطاكية . والصف الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونيل يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغر وأريحا وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وتقع الجبال الفاصلة مثل جبل زيتا وصديقا ولبنان واللكام في الصف الثاني وسرة الارض المقدسة في الجبال المطلة على الساحل . . الخ »[85] .

وقال الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) متحدثاً عن الأندلس : « فلنرجع الآن الى ذكر الاندلس ، ووصف بلادها وذكر طرقاتها وموضوع

(٨٣) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٨٤) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .
(٨٥) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

جهاتها ومقتضى حالاتها وميادي اوديتها ومواقعها من البحر والمشهور من جبالها وعجائب بقعها ونأتي من ذلك بما يجب بعون الله فنقول : أما الاندلس في ذاتها فشكل مثلث يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث فجنوبها يحيط به البحر الشامي وغربها يحيط به البحر المظلم وشمالها يحيط به بحر الانقلشين من الروم . والاندلس طولها من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم الى الجبل المسمى بهيكل الزهرة الف ومائة ميل ، وعرضها من كنيسة شنت ياقوب التي على أنف بحر الانقليشين الى مدينة المرية على بحر الشام ست مائة ميل . وجزيرة الاندلس مقسومة من وسطها في الطول بجبل طويل يسمى الشارات وفي جنوب هذا الجبل مدينة طليطلة . . وما خلف الجبل المسمى بالشارات من جهة الجنوب يسمى اشبانيا ، وما خلف الجبل في جهة الشمال يقال عشتالة . والاندلس المسمى اشبانيا اقاليم عدة ورساتيق جملة ، وفي كل اقليم منها عدة مدن نريد ان نأتي بذكرها مدينة مدينة بحول الله تعالى . . . (وصف المرية) ومن أراد من مرسية الى المرية سار من مرسية الى مدينة لورقة وهي مدينة غراء حصينة على ظهر جبل ، ولها اسواق وربض في أسفل المدينة ، وعلى الربض سور وفيه السوق والزهادرة وسوق العطر ، وبها معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل الى كثير من الأقطار . ومن لورقة الى مرسية اربعون ميلا . ثم من لورقة الى آبار الرتبة الى حصن بيرة مرحلة ، وهو حصن منيع على حافة مطلة على البحر . ومن هذا الحصن الى عقبة شقر وهي عقبة صعبة المرقى لا يقدر احد على جوازها راكباً وانما يأخذها الركبان رجالة . ومن العقبة الى الرابطة مرحلة ، وليس هناك حصن ولا قرية وانما بها قصر فيه قوم حراس للطريق . ومن هذه الرابطة الى المرية مرحلة خفيفة .

ومدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الاسلام وكان بها من الصناعات كل غريبة . وذلك انه كان بها من طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكللة والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر وصنوف أنواع الحرير . وكانت المرية قبل الآن يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديد الى سائر الصناعات ما لا يحد ولا يكيف ، وكان بها من فواكه واديها الشيء الكثير الرخيص . . وهذا الوادي المنسوب الى بجانة بينه وبين المرية أربعة أميال وحوله جنات وبساتين وأرجاء ، وجميع نعمها وفواكهها تجلب الى المرية . وكانت المرية اليها تقصد مراكب البحر من الاسكندرية والشام كله ، ولم يكن بالاندلس كلها أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفاً وادخاراً . والمرية في ذاتها جبلان وبينهما خندق معمور . وعل الجبل الواحد قصبتها المشهورة بالحصانة .

والجبل الثاني منهما فيه ربضها ويسمى جبل لاهم ، والسور يحيط بالمدينة وبالربض ولها أبواب عدة . ولها من الجانب الغربي ربض كبير عامر يسمى ربض الحوض وله سور عامر بالاسواق والديار والفنادق والحمامات . والمدينة في ذاتها كبيرة كثيرة التجارات والمسافرون اليها كثيرون . وكان أهلها مياسير ولم يكن في بلاد الاندلس أحضر من أهلها نقداً ولا أوسع منهم أحوالا ، وعدد فنادقها التي أخذها عدا الديوان في ألف فندق الا فندقاً . وكان بها من الطرز أعداد كثيرة قدمنا ذكرها . وموضع المرية من كل جهة استدارت به صخور مكدسة وأحجار صلبة مضرسة لا تراب بها كأنها غربلت أرضها من التراب وقصد موضعها بالحجر . . الخ »[٨٦] .

وقال ابو الفدا متحدثاً عن (الجزائر بالبحار الغربية) : « . . والمذكور هنا هو جزائر البحر المحيط الغربي وجزائر بحر الروم خاصة . وأما جزائر بحر فارس وبحر الهند فسنذكرها ان شاء الله تعالى في موضع آخر مفرد لها . فمن جزائر البحر المحيط الغربي جزائر الخالدات وهي جزائر واغلة في البحر عشر درجات عن الساحل وهي عدة جزائر وبطليموس أخذ أطوال المدن منها ، وقد قيل انها انغمرت في البحر وانقطعت اخبارها . قال ابن سعيد وجزائر السعادة فيما بين جزائر الخالدات والساحل ، قال وهي مبددة في الاقليم الاول والثاني والثالث ، قال وهي أربع وعشرون جزيرة والحديث عنها كالخرافات . ومن جزائر البحور المتفرعة عن البحر المحيط الغربي جزيرة برطانية في بحر برديل وهو البحر الخارج في شمالي الاندلس وليس بهذه الجزيرة ماء الا من الامطار وعلى ذلك يزرعون . وجزائر برطانية احدى عشرة جزيرة . ومن الجزائر المشهورة جزيرة انكلطرة ويقال انكلترة . قال ابن سعيد وصاحب هذه الجزيرة يسمى الإنكسار في تاريخ صلاح الدين في حروب عكا وقاعدته في هذه الجزيرة مدينة لندرس . قال وطول هذه الجزيرة من الجنوب الى الشمال بانحراف قليل اربعمائة وثلاثون ميلا واتساعها في الوسط نحو مايتي ميل . قال وفي هذه الجزيرة معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير وليس فيها كروم لشدة الجمد . وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن الى بلاد افرنسة ويتعوضون به الخمر فصاحب افرنسة انما كثر الذهب والفضة عنده من ذلك . وعندهم يصنع الاشكرلاط العال من صوف غنمهم الذي هو ناعم كالحرير فيجعلون عليها جلالا تقيها من الامطار والشمس والغبار . ومع غناء الإنكسار وسعة مملكته فانه يقرّ بالسلطنة للفرنسيين . واذا كان مجتمع حفل خدمه بأن يحط قدامه

---

(٨٦) أعلام الجغرافيين العرب للدكتور عبد الرحمن حميدة ـ دار الفكر ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ٣١١ ـ ٣١٤ .

زيدية طعام عادة متوارثة . وفي شمالي جزيرة انكلترة وبعض شمالي بريطانية جزيرة ارلندا ، ومسافة طولها نحو اثني عشر يوماً وعرضها الوسط نحو أربعة أيام وهي مشهورة بكثرة الفتن . وكان أهلها مجوساً ثم تنصروا اتباعاً لجيرانهم . ويجلب منها النحاس والقصدير الكثير . وبالقرب من هذه الجزاير جزيرة السناقر . قال وطول السناقر سبعة أيام شرقاً وغرباً وعرضها أربعة أيام . ومنها الجزاير التي شماليها تجلب السناتر البيض التي تحمل من هنالك الى سلطان مصر ، ورسم الخارج منها في خزانته ألف دينار ، وان أتوا به ميتاً دفع لهم خمسمائة دينار . وعندهم الدب الأبيض يدخل في البحر ويسبح ويصيد السمك فيخطف ما فضل أو ما غفل عنه هذه السناقر ومن ذلك عيشها اذ لا طائر هناك من شدة الجمد ، وجلود هذه الدببة ناعمة . جزائر البحر المحيط جزيرة تولي وهي في البحر المحيط الشمالي وهي على نهاية المعمور في الشمال . . الخ »(٨٧) .

تلك أمثلة من الكتب الاقليمية الرئيسية يتجلى فيها الالتزام بالمعلومات الجغرافية والاقتصاد في المعلومات الأخرى ، وهو المنهج العام الذي اتبعته الكتب المذكورة . واذا لم تكن الكتب الجغرافية الوصفية والاقليمية الأخرى التي لم نشر اليها ضمن هذه المجموعة قد اتبعت نفس هذا المنهج فهذا لا يعني ان معلوماتها الجغرافية اقل قيمة ، بل ان البعض منها ربما يتفوق في بعض أجزائه باهمية معلوماته ، مثل كتابات البيروني والمسعودي وغيرهما . ومن هذا الاستعراض يتضح لنا أهمية الكتابات الجغرافية الوصفية وما اسهمت به في اغناء الفكر الجغرافي القديم .

(٨٧) تقويم البلدان ـ لابي الفدا ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

الفصل الثالث

في الجغرافية الطبيعية

لقد أوضحنا بأن طبيعة الجغرافية العربية أساساً هي جغرافية وصفية ، غير أن تركيزها على الجوانب الوصفية في الحقيقة لم يصرفها عن التعرض للجوانب النظرية . والواقع أن أي مؤلف من مؤلفات الجغرافية العربية المعروفة لا يخلو من أبحاث في الجغرافية الطبيعية مفصلة أحياناً وموجزة أحياناً أخرى . لذلك فان تميز الجغرافية العربية بالناحية الوصفية لا يقلل من أهمية الأبحاث الطبيعية فيها .

ولا بد لنا من الاشارة قبل البدء باستعراض الجوانب الطبيعية الى ان الجغرافيين المسلمين تأثروا تأثراً واضحاً في هذا الميدان بالآراء اليونانية . وكانت ترد في كتاباتهم اسماء بعض الكتاب اليونانيين والرومانيين لدى مناقشة مختلف جوانب الجغرافية الطبيعية من أمثال ارسطوطاليس (ارسطو) وابرخس (« هيبارخس) واصطرابون (سترابو) وبطليموس القلوذي (بطليموس الاسكندري) وغيرهم . وسنحاول في الصفحات التالية أن نستعرض معلومات الجغرافيين المسلمين في ثلاثة حقول من ميدان الجغرافية الطبيعية وهي :

أولاً ـ الحقل المناخي .

ثانياً ـ الحقل الهيدروغرافي .

ثالثاً ـ الحقل الجيومورفولوجي .

- ١ -

الحقل المناخي

تعتمد الأبحاث المناخية في الجغرافية العربية اعتماداً كبيراً على آراء المدرسة اليونانية . وقد آمن الجغرافيون العرب والمسلمون بالمبادىء الرئيسية التي أرساها الاغريق والرومان في علم المناخ . فقد اعتبروا الشمس المصدر الأساسي للحرارة على الأرض ، كما اعتقدوا بأن أسباب اختلاف درجة الحرارة في جهات الأرض المختلفة هو ميل الشمس على خط الاستواء ، أو بعبارة أوضح اختلاف زوايا سقوط أشعة الشمس على الأرض . وقد أخذوا بالتقسيم اليوناني للمناطق الحرارية على الأرض وهي المنطقة الحارة التي تقع بين المدارين ، والمنطقتان المتجمدتان الشمالية والجنوبية اللتان تقعان بجوار القطبين ، والمنطقتان المعتدلتان اللتان تقعان بين المنطقة الحارة والمنطقتين المتجمدتين . كذلك أخذوا بالتقسيم اليوناني لخطوط العرض المحددة لدرجة الحرارة فاعتبروها ١٨٠ خطاً ، ٩٠ خطاً منها يقع الى شمال خط الاستواء و ٩٠ خطاً الى جنوبه . واعتبروا أيضاً القطبين يقعان في درجتي ٩٠ شمالاً وجنوباً ، ومدار السرطان في درجة ٥ر٢٣ شمالاً ومدار الجدي في درجة ٥ر٢٣ جنوباً .

أما ما يتعلق بالتفصيلات المناخية فلم تكن كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية تعنى بالبحث فيها في البداية . غير ان تلك التفصيلات ما لبثت أن أخذت تتسرب تدريجيا الى كتب الجغرافية العربية ضمن المعلومات الوصفية الأخرى للمدن والأمصار . ومن أوائل الكتب الجغرافية التي تضمنت مثل تلك الاشارات المناخية (كتاب البلدان) لليعقوبي . ولم يتضمن الكتاب في الواقع سوى اشارات مناخية ضئيلة القيمة عن بعض المدن الكبرى كبغداد وسامراء . ومثال ذلك ما ذكره عن مدينة بغداد حيث قال : « وهي تقع في وسط الدنيا لانها على ما أجمع عليه قول الحساب وتضمنته كتب الاوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الازمان والفصول ، فيكون الحر بها شديداً في أيام الصيف ويعتدل الفصلان الخريف

والربيع في أوقاتها ، ويكون دخول الخريف الى الشتاء غير متباين الهواء ودخول الربيع الى الصيف غير متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الى هواء ومن زمان الى زمان . فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثرى وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات »[١] .

أما ابن خرداذبة فلم يتضمن كتابه (المسالك والممالك) أية اشارات مناخية . لكنه ذكر في باب عجائب الارض أن في بلاد الروم على بحر الخزر بلاداً تدعى المستطلة المطر بها دائم الشتاء والصيف بحيث لا يقدر أهلها على دياس زروعهم وتذريتها . كما ذكر أيضاً أن أهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء . فمطر صنعاء وما والاها حزيران وتموز وآب وبعض أيلول من الزوال الى المغرب »[٢] .

ويمكن القول أن المقدسي البشاري كان من أكثر الجغرافيين العرب الاوائل عناية بالتفصيلات المناخية . ففي كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) أكد تأكيداً خاصاً على الصفات المناخية لكل اقليم . وكانت تفصيلاته المناخية ذات صفة وصفية وليست تعليلية . ومثال ذلك وصفه لمناخ اقليم العراق اذ قال : « هواء هذا الاقليم مختلف . فبغداد وواسط وما دخل في هذا الصقع رقيق الهواء سريع الانقلاب ، والكوفة بخلافه . ويكون بالبصرة حر عظيم غير أن الشمال ربما هبت فطاب . ورأيتهم أن كانت جنوب في ضيق صدر وربما نزل عليهم شبه الدبس في الليل ، أما حلوان فمعتدلة الهواء »[٣] .

وتقتضي دراسة الأبحاث المناخية في كتب الجغرافية العربية وقفة خاصة عند المسعودي والبيروني وإخوان الصفا وابن خلدون نظراً لمساهمتهم القيمة في هذا الميدان . وقد بحث المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف) جوانب متعددة في حقل الجغرافية المناخية وثبّت حقائق هامة في هذا الموضوع . ومما لا ريب فيه أن آراءه كانت متأثرة بآراء الكتاب اليونانيين ، ولا سيما بآراء ارسطو وبطليموس . ويعتبر المسعودي اول جغرافي عربي ناقش العوامل المؤثرة في مناخ الاقاليم كما تناقش في كتب الجغرافية

---

(١) (كتاب البلدان) لاحمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ، منشورات مكتبة المثنى لقاسم الرجب (في مجلد واحد مع الاعلاق النفيسة) ، ص ٣٣٤ .

(٢) (المسالك والممالك) لابي القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة ، منشورات مكتبة المثنى ، ص ١٥٦ .

(٣) (أحسن التقاسيم) للمقدسي ، ص ٩٥ .

الحديثة . وقد شرح تلك العوامل على النحو التالي : « وقد تختلف قوى الأرضين وفعلها في الابدان لثلاثة اسباب ، كمية الهواء التي فيها وكمية الاشجار ، وكذلك مقدار ارتفاعها وانخفاضها . فالارض التي فيها مياه كثيرة ترطب الابدان ، والارض العادية للمياه تجففها . وأما اختلاف كونها من قبل الاشجار فان الارض كثيرة الاشجار تقوم الاشجار التي فيها مقام السترة . والارض المكشوفة من الاشجار العادمة لها حالها عكس حال الارض كثيرة الاشجار . وأما اختلاف قواها من قبل مقدار علوها وانخفاضها فلأن الارض العالية المشرفة فسيحة باردة ، والارض الفسيحة المتخفضة العميقة حارة ومدة .

ومنهم من رأى أن أصناف اختلاف البلدان أربعة ، أولها النواحي والثاني الارتفاع والانخفاض والثالث مجاورة الجبال والبحار لها والرابع طبيعة تربة الارض . وذلك ان ارتفاعها يجعلها ابرد وانخفاضها يجعلها اسخن على ما قدمنا . وأما اختلافها من جهة مجاورة الجبال فمتى كان الجبل من البلد من ناحية الجنوب جعله أبرد لأنه يكون سبب امتناع الريح الجنوبية ، وانما تهب فيه الشمالية فقط . وأما اختلافها لمجاورة البحر لها فمتى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب كان ذلك البلد اسخن وارطب ، وان كان البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد ابرد وأيبس . وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها فمتى كانت تربة الارض صخرية جعلت ذلك البلد ابرد وأجف ، وان كانت تربة البلد جصية جعلته أسخن وأجف ، وان كانت طينية جعلته أبرد وأرطب »(٤) .

أما توزيعاته للرياح السائدة فهي مقاربة للتوزيع العام الحديث لتلك الرياح بين تجارية شرقية وعكسية غربية وشمالية أو جنوبية قطبية ، كما ان تحديده لصفاتها مقارب للتحديد الحديث أيضاً من رطوبة أو جفاف أو برودة أو دفء . وقد شرحها في كتابه (التنبيه والاشراف) على النحو التالي :

« تنازع الناس في الرياح الاربع ومهابها وطباعها . فقال فريق منهم الرياح اربع ، شمال وجنوب وصبا ودبور . الصبا من الشرق والدبور من المغرب والشمال من تحت جدي الفرقدين والدبور من تحت جدي سهيل . فالشمال باردة يابسة ، وهي ما هب من ناحية الجربي وهو الشمال ، وأشكالها من البروج والكواكب والامهات وما

(٤) (التنبيه والاشراف) لأبي الحسن علي بن الحسين الملقب بالمسعودي ، منشورات مكتبة المثنى لقاسم الرجب ، ص ٢٦ .

يشاكل ذلك ، ويضاف الى البرد واليبس . والجنوب حارة رطبة وهي التي تهب من القبلة وأشكالها كما وصفت مما يضاف الى الحرارة والرطوبة . والدبور باردة رطبة وهي التي تهب من المغرب وكذلك أشكالها . والصبا حارة يابسة وهي التي تهب من المشرق وأشكالها لما هو مضاف الى الحرارة واليبوسة . والرياح محدودة بحسب الآفاق ، تكون الآفاق اثني عشر افقا والرياح كذلك . فالشمال بالحقيقة هي التي تأتي من القطب الظاهر والجنوب من القطب الخفي . والصبا من مشرق الاعتدال والدبور من مغرب الاعتدال »(٥) .

وقد ناقش المسعودي أيضاً أثر انتقال الشمس الظاهري بين مداري السرطان والجدي على توزيع الرياح واختلافها باختلاف الفصول الاربعة ، وسجل آراءاً قريبة من الآراء الحديثة(٦) .

أما آراؤه حول المناطق غير المسكونة من المعمورة فقد ردد فيها ما ذكره من سبقه من الكتاب ، فقد أوضح أن تلك المناطق تقسم الى قسمين : « أما أن يفرط فيها البرد لبعد الشمس عنها أو يفرط فيها الحر لقربها منها ، فلا يتركب هناك حيوان ولا ينبت نبات . فالموضع الذي يكون بعده في الشمال عن خط معدل النهار ستا وستين درجة لا يمكن ان يكون فيه نشوء لافراط البرد فيه لبعد الشمس عنه . والموضع الذي بعده في الجنوب عن خط معدل النهار تسع عشرة درجة لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشوء الافراط الحر عليه لقرب الشمس منه »(٧) .

وعالج المسعودي أيضاً أثر المناخ في الصفات البيولوجية والخلقية للانسان ، ومما قال في ذلك : « وأما أهل الربع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والافرنجة ومن جاورهم من الأمم فان سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها فغلب على نواحيهم البرد والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد فقلّ مزاج الحرارة فيهم فعظمت اجسامهم وجفّت طبائعهم وتوعرت اخلاقهم وتبلدت أفهامهم وثقلت ألسنتهم وابيضت ألوانهم حتى أفرطت فخرجت من البياض الى الزرقة ورقّت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقّت أعينهم أيضاً فلم تخرج من طبع ألوانهم وسبطت شعورهم وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن في مذاهبهم

(٥) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٦) المصدر السابق ، ص ١١ .
(٧) المصدر السابق ، ص ٢٣ .

متانة وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة . ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائمية وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد الى الشمال . وكذلك من كان من الترك واغلا في الشمال ، فلبعدهم من مدار الشمس في حال طلوعها وغروبها كثرت الثلوج فيهم وغلبت البرودة والرطوبة على مساكنهم فاسترخت أجسامهم وغلظت ولانت فقارات ظهورهم وخرز اعناقهم حتى تأتّى لهم الرمي بالنشّاب في كرّهم وفرّهم وغارت مفاصلهم لكثرة لحومه فاستدارت وجوههم وصفرت أعينهم لاجتماع الحرارة في الوجه حين تمكنت البرودة من أجسادهم ، اذ كان المزاج البارد يولّد دماً كثيراً واحمرت ألوانهم اذ كان من شأن البرودة جمع الحرارة واظهارها . وأما من كان خارجاً عن هذا العرض الى نيّف وستين ميلا يأجوج ومأجوج وهم في الاقليم السادس فانهم في عداد البهائم . وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الاحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس فانهم خلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة فاسودّت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم وذلك لالتهاب هوائهم وافراط الارحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحار اليابس ، وكذلك الشعور السبطة اذا قربت من حرارة النار دخلها الانقباض ثم الانضمام ثم الانعقاد على قدر قربها من الحرارة وبعدها عنها »[٨] .

وناقش اخوان الصفا في رسالتهم الثانية من (الجسمانيات الطبيعيات) جوانب عديدة من الجغرافية المناخية . فقد ذكروا مثلا بأن الأمطار ما هي الا بخار الماء المتصاعد من البحار بسبب الحرارة ، وبيّنوا كيف يحدث الندى والصقيع والطل . وقد وضحوا أهمية الجبال كعامل مناخي حيث ذكروا بأن السحب التي تسوقها الرياح تصطدم بقمم الجبال فتتكاثف وتتساقط مطراً . وهكذا اقتربوا اقتراباً كبيراً من التفسيرات الحديثة للظواهر المناخية . ومن أمثلة آرائهم في هذا الموضوع قولهم : « اعلم يا أخي انه اذا ارتفعت البخارات في الهواء وتدافع الهواء الى الجهات ويكون تدافعه الى جهة أكثر من جهة ويكون من قدام له جبال شامخة مانعة ومن فوق له برد الزمهرير مانع ومن اسفل مادة البخارين متصلة فلا يزال البخاران يكثران ويغلظان في الهواء وتتداخل أجزاء البخارين بعضها في بعض حتى يسخن ويكون منها سحاب مؤلف متراكم . وكلما ارتفع السحاب بردت أجزاء البخارين وانضمت أجزاء البخار الرطب بعضها الى بعض وصار ما كان دخاناً يابساً ماء وأنداء ، ثم تلتئم تلك

(٨) التنبيه والاشراف ، لابي الحسن علي المسعودي - منشورات خياط - بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

الاجزاء المائية بعضها الى بعض وتصير قطراً برداً وتثقل فتهوي راجعة من العلو الى السفل فتسمى حينئذ مطراً . فان كان صعود ذلك البخار الرطب بالليل والهواء شديد البرد منع أن تصعد البخارات في الهواء بل جمدها اولا بأول وقربها من وجه الأرض فيصير من ذلك ندى وصقيع وطل . وان ارتفعت تلك البخارات في الهواء قليلا وعرض لها البرد صارت سحاباً رقيقاً . وان كان البرد مفرطاً جمد القطر الصغار في حلل الغيم فكان من ذلك الجليد أو الثلج »[٩] .

ولا يخلو رأيهم بطبقات الهواء من شبه بالرأي الحديث حول الطبقات الجوية . فقد ذكروا ان طبقات الهواء ثلاث ، أعلاها هي نار سموم في غاية الحرارة تسمى الأثير ، والتي في الوسط باردة في غاية البرودة وتسمى الزمهرير ، والتي تلي سطح الارض معتدلة وهي مختلفة في اعتدال حرارتها وتسمى النسيم . وقد أكدوا على امكانية تداخل هذه الطبقات الهوائية بالرغم من تميز كل منها[١٠] . ومن الجدير بالذكر ان علماء الجو المعاصرين لا يبعدون كثيراً في تقسيماتهم لطبقات الهواء عن هذا التقسيم . فهم يقسمون طبقات الغلاف الهوائي الى ثلاث طبقات رئيسية هي : الطبقة الدنيا وهي طبقة (التروبوسفير) وهي ذات حرارة معتدلة تأخذ بالانخفاض كلما ازداد الارتفاع . ثم الطبقة الوسطى وهي طبقة (الستراتوسفير) التي ترتفع درجة الحرارة في قسمها الاسفل (الاوزونوسفير) ، ثم ما تلبث ان تنخفض انخفاضا كبيراً في قسمها الثاني (الميزوسفير) ، حتى تتحول الى منطقة قارسة البرودة . وأخيراً تأتي الطبقة العليا (الايونوسفير) التي تشتد فيها درجة الحرارة اشتداداً عظيماً . وبطبيعة الحال فان الاتصال بين هذه الطبقات قائم بالنظر لتخلخل الهواء[١١] .

وقد أورد (اخوان الصفاء) حقائق مناخية هامة أخرى بالاضافة الى الحقائق التي ذكرناها . فقد ذكروا مثلا أن الهواء المحيط بالارض لا يتلقى حرارته من الشمس مباشرة ، بل يتلقاها من الأشعة التي تنعكس عليه من سطح الارض والمياه . كذلك وضحوا توضيحاً علمياً أسباب انخفاض درجة الحرارة في القطبين الشمالي والجنوبي وتجمد المياه وهلاك الحيوان والنبات ، حيث عزوها الى ميل أشعة الشمس بدرجة عظيمة وبالتالي انخفاض حرارتها . واشاروا أيضاً الى استمرار النهار لستة أشهر اثناء

(٩) (رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء) ، منشورات المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٢٨ ، الجزء الثاني ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(١١) الغلاف الهوائي ، للدكتور محمد جمال الدين الفندي ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٦٩ - ٧١ .

الصيف ، واستمرار الليل لستة أشهر اثناء الشتاء[١٢] .

ومن الملاحظات المناخية الهامة الاخرى التي أثارها اخوان الصفاء في رسالتهم الثانية من (الجسمانيات الطبيعيات) أثر ميل أشعة الشمس عند سقوطها على الارض في اختلاف درجة الحرارة . وقد فسروا هذا الاختلاف في الحرارة تفسيراً دقيقاً اذ قالوا : « واعلم يا اخي بأن الزوايا التي تحدث من انعكاس اشعاعات الكواكب والشمس من وجه الأرض ثلاثة أنواع : حادة وقائمة ومنفرجة . وهذه الزوايا كلها مسخنة للمياه والارض والهواء محركة لها ، ولكن أشدها اسخاناً الزوايا الحادة ثم القائمة ثم المنفرجة . ولما كانت الزوايا المنفرجة بعضها أشد انفراجاً من بعض والحادة بعضها أحد من بعض والزوايا القائمة كلها متساوية احتجنا أن نبين متى تكون الزوايا منفرجة ومتى تكون قائمة ومتى تكون حادة .. الخ »[١٣] .

ومن بين الكتاب المسلمين الذين أولوا المناخ عناية خاصة في دراساتهم أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون . فقد ناقش في « مقدمته » الشهيرة صفات الاقاليم السبعة واستند في آرائه الى فلاسفة اليونان القدماء ، كما استند أيضاً في تقسيماته الاقليمية الى كتاب الشريف الادريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . وأهم ما ورد في بحثه المناخي شرحه الدقيق لتنقلات الشمس الظاهرية بين مداري السرطان والجدي وما ينجم عن ذلك من ميل لأشعة الشمس عند سقوطها على الارض واختلاف حرارتها من موضع الى آخر ، وقد فسر هذه الظاهرة على النحو التالي :

« ثم ان الشمس عند المسامتة وما يقاربها تبعث الاشعة قائمة وفيما دون المسامتة على زوايا منفرجة وحادة . واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء وانتشر بخلافه في المنفرجة والحادة ، فلهذا يكون الحر عند المسامتة وما يقرب منها أكثر منه فيما بعد ، لان الضوء سبب الحر والتسخين .

ثم إن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان ، واذا مالت فغير بعيد . ولا يكاد الحر يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي الا ان صعدت الى المسامتة فتبقى الأشعة القائمة الزوايا تلح على ذلك الافق ويطول مكثها أو يدوم فيشتعل الهواء حرارة ويفرط في شدتها . وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط الاستواء الى عرض أربع وعشرين فان الاشعة ملحة على

(١٢) المصدر الاسبق ، ص ٥٧ .
(١٣) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

الافق في ذلك بقريب من الحاحها في خط الاستواء ، وافراط الحر يفعل في الهواء تجفيفاً ويبساً يمنع من التكوين لانه اذا افرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات ، اذ التكوين لا يكون الا بالرطوبة ، ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين وما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحر الى الاعتدال أو يميل عنه ميلا قليلا فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى ان يفرط البرد في شدته لقلة الضوء وكون الاشعة منفرجة الزوايا فينقض التكوين ويفسد »[١٤] .

وقد أيد ابن خلدون الفكرة القديمة في استحالة استيطان المنطقة الاستوائية لارتفاع درجة حرارتها ، بل انه هاجم رأي الفيلسوف ابن رشد القائل بأن خط الاستواء معتدل وان ما وراءه في الجنوب بمثابة ما ورائه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا[١٥] . وقد زعم ابن خلدون ان استحالة عمران اقليم خط الاستواء لا ترجع الى فساد التكوين فيه بسبب شدة الحر فحسب ، بل الى كون المياه غامرة لجميع اليابسة في جنوبي خط الاستواء أيضاً . وهكذا يتضح بأن ابن رشد كان أعظم معاصريه توفيقاً في هذا الرأي ، ولعله كان أول كاتب اسلامي يرفض رأي بطليموس الذي اعتبره العرب « ابو الجغرافية » والذي نادى بان ما وراء خط الاستواء يباب مقفر تحرقه الشمس اللاهبة .

واهتم ابن خلدون أيضاً اهتماماً خاصاً في أثر المناخ في البناء الطبيعي والخلقي للبشر ، ومما ذكره في أثر المناخ على الصفات الطبيعية للانسان قوله : « وفي القول بنسبة السواد الى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد واثرهما في الهواء .. فأهل الاقليم الاول والثاني شملهم هذا اللون من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة احداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسوّد جلودهم لافراط الحر . ونظير هذين الاقليمين فيما يقابلها من الشمال الاقليم السابع والسادس شمل سكانها أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط في الشمال ، اذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين او ما يقرب منها ولا ترتفع الى المسامتة ولا ما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول ، فتبيض ألوان اهلها وتنتهي الى الزعورة ، ويتبع ذلك

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٠ - ٥١ .
(١٥) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢ .

ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر »[١٦] .

وقد شرح ابن خلدون أثر المناخ في طبيعة البشر على النحو التالي : « والمعروف من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع متصفين بالحمق في كل قطر . . ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم واصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم ، فتكون أرواحهم اشد حراً فتكون اكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحاً وسروراً، وأكثر انبساطاً ، ويجيء الطيش على أثر هذا . وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية . . . توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة »[١٧] .

وقد سبق ابن خلدون في ايضاح أثر الحرارة على سكان الاقاليم جغرافي يمت الى عصر متقدم هو ابن رسته ، فضلا عن المسعودي الذي أشرنا الى رأيه ، حيث قال في ذلك : « وقد نجد أيضاً كل المواضيع والبلدان تختلف حالاتها وحالات أهلها وما يحدث فيها ، وانما يكون ذلك على قدر قرب الشمس منها أو بعدها عنها . وبيان ذلك الترك فانهم من أجل بعدهم من مدار الشمس عند صعودها وهبوطها كثرت الثلوج فيهم وغلبت الرطوبة والبرودة على أرضهم ، فاسترخت لذلك أجساد أهليها وغلظت وصارت شعورهم سبطة وألوانهم بيضا حمراً وغلب على طباعهم البرد وذلك لبرد أهويتهم ، فان المزاج البارد يولّد لحماً كثيراً . وأما حمرة ألوانهم فان البرد يجمع الحرارة ويظهرها حتى ترى ويستدل على ذلك بما يرى في القوم الذين لأبدانهم لحم كثير وألوانهم بيض اذا أصابهم البرد احمرت وجوههم وشفاههم وأصابعهم وأرجلهم لان الحر والدم الذي يكون فيه منتشراً يجمعه البرد . ومن أخلاق أهل هذه الناحية الجفاء وقطيعة الرحم وقلة اليقين . فأما السودان والحبش فانهم يسكنون في البلاد التي تحاذيها من البروج ما بين مدار الحمل الى السرطان ، ولان الشمس في هبوطها وصعودها اذا كانت في تلك البروج وتوسط السماء تكون على سمت رؤوسهم فتسخن أهويتهم وتحرقهم وتكثر الحرارة واليبس فيهم ، فلهذه العلّة صارت ألوانهم سوداً وشعورهم قططة وأبدانهم يابسة نحيفة وطباعهم حارة ، وكذلك دوابهم وأشجارهم . ومن اخلاق هذه الناحية ، الجفاء والذكاء .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٦٠ .
(١٧) المصدر السابق ، ص ٦١ .

وأما القوم الذين هم متباعدون عن مدار رأس السرطان الى الشمال وذلك مثل بابل ونحوه من البلدان فان الشمس لا تبعد من سمت رؤوسهم ولا تقرب منهم ، ولكن ممرها معتدل عليهم فان هواءهم حسن في التمزيج ووضعهم معتدل ليس فيه حر شديد ولا برد شديد وألوانهم وأبدانهم وطبائعهم معتدلة وعقولهم واخلاقهم حسنة ، وقد كثر فيهم العلم والذكاء وتقدمة المعرفة بالاشياء ومحاسن الاخلاق . . . الخ »[١٨] .

وأخيراً لا بد لنا من الاشارة الى الملاحظة المناخية البارعة التي أوردها البيروني في دراسته الشهيرة عن الهند في كتابه المعنون (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) . فقد شرح في تلك الدراسة نظام سقوط الامطار في الهند شرحاً قويماً ، وقد بين أثر امتداد سلاسل جبال هيملايا في غزارة الامطار في بعض الجهات . ويمكن القول ان شرحه لنظام سقوط الامطار الموسمية في الهند ـ بالرغم من ايجازه ـ يعتبر من أدق الكتابات المناخية القديمة . قال البيروني :

« وأرض الهند تمطر مطر الحميم في الصيف ويسمونه برشكال ، وكلما كانت البقعة أشد امعاناً في الشمال وغير محجوبة بجبل فهذا المطر فيها أغزر ومدته أطول وأكثر . وكنت أسمع أهل المولتان يقولون ان برشكال لا يكون لهم . فأما فيما جاوزهم الى الشمال واقترب من الجبال فيكون ، حتى أن في بهاتل واندربيذ يكون من عند شهر آشار ويتوالى أربعة أشهر كالقرب المصبوبة . وفي النواحي التي بعدها حول جبال كشمير الى ثنية جودري وهي فيما بين دنبور وبين برشاور يغزر شهرين ونصفاً أولها شرابن ، ويعدم فيما وراء هذه الثنية وذلك لان هذه الغيوم ثقيلة قليلة الارتفاع عن وجه الارض . فاذا بلغت هذه الجبال صدمتها وعصرتها فسالت ولم تتجاوزها . ولأجل هذا تعدمه كشمير . والعادة فيها أن تتوالى الثلوج في شهرين ونصف اولها ماك ، فاذا جاوز نصف جيتر (جيتر) توالت أمطاره أياماً يسيرة فأذابت الثلوج وأطهرت الارض ، وهذا فيها قلما يخطىء »[١٩] .

هذه هي أهم المواضيع التي طرقتها الجغرافية العربية في الحقل المناخي وهي كما يتضح من صلب الدراسات المناخية الحديثة . وقد أورد فيها الكتاب المسلمون حقائق مناخية هامة ما تزال تعتبر عماداً للدراسات الحديثة في هذا الميدان .

(١٨) الاعلاق النفيسة ـ لابن رستة ـ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .
(١٩) Al - Biruni's India, Edited in Arabic Original By Sachau, Leipzig, 1925, P. 103.

- ٢ -

الحقل الهيدروغرافي

لقد ناقش الجغرافيون العرب والمسلمون الجوانب المختلفة في حقل الهيدروغرافيا وتوسعوا على نحو الخصوص في ناحيتين هما : آ - جغرافية البحار ، ب - جغرافية الانهار .

أ - جغرافية البحار :

لقد اهتم الجغرافيون العرب والمسلمون اهتماماً عظيماً بجغرافية البحار . وتدين الجغرافية الوسيطة للجغرافيين المسلمين في ثرائها بمعلومات واسعة عن البحار والمحيطات في العالم القديم . وقد فاقت تلك المعلومات ما ورد في كتب الجغرافية اليونانية والرومانية في هذا الموضوع . والواقع ان معلومات الجغرافيين القدماء كانت على درجة عالية من الكفاءة فيما يختص بالبحر المتوسط والبحار المجاورة (بحر الادرياتيك وارخبيل اليونان) ، لكنها كانت ضعيفة عموماً فيما يخص البحار والمحيطات الاخرى . وبالرغم من ان الجغرافيين العرب والمسلمين تأثروا الى حد ما بالنظريات اليونانية في توزيع البحار والمحيطات ، لكنهم كانوا عملياً قلما يلتزمون بها . ومن الممكن ان نتفهم سبب اتساع معلومات الجغرافيين المسلمين عن المحيطات والبحار ، فهذا الأمر يعزى الى اتساع رقعة الممالك الاسلامية ، والى امتداد النشاط التجاري وشموله أقصى أقطار الشرق الأقصى . وان شهرة الملاحين العرب في القرون الوسيطة لا تدانيها شهرة .

ومن أوائل المؤلفات الجغرافية العربية التي عالجت بتوسع توزيع البحار والمحيطات كتاب (الاعلاق النفيسة) لابن رسته الهمذاني . فقد ذكر أن البحار المعروفة من المعمورة هي خمسة بحار عظيمة ، أولاها بحر الهند وفارس والصين ،

وثانيها بحر الروم(*) وافريقيا الشمالية ، وثالثها بحر اوقيانوس(**) الذي هو بحر المغرب ، ورابعها بحر نيطس(***) ، وخامسها بحر طبرستان وجرجان(****) . وقد حدد كل من هذه البحار والمناطق التي تطل عليها ، وذكر طول كل منها وعرضه بالاميال ، ثم عدد ما يخرج من كل منها من خلجان وما تشتمل عليه من جزر . وقد شرح ابن رستة بشيء من التفصيل صفات البحر الأول ، أي بحر فارس والهند والصين ، وأحوال الملاحة فيه في الفصول المختلفة . ومما قال في ذلك«) « وهذه البحار مختلفة الاحوال . فقد ذكر عدة من المتخبرين من العلماء بحالاتها اشياء نذكرها ، قالوا ان بحر فارس والهند هما في الجملة بحر واحد ، واتصل أحدهما بالآخر الا انهما متضادان بحالاتهما لان بحر فارس تكثر أمواجه وتشتد ويصعب مركبه عند لين بحر الهند وتقاذف مياهه واضطراب امواجه وظلمته وصعوبة مركبه . وأول ما تبتدىء صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس وقرب الاستواء الخريفي فلا يزال في كل يوم تكثر أمواجه وتتقاذف ويصعب ظهره الى أن تصير الشمس الى الحوت . وأشد ما يكون صعوبة ظهره وكثرة أمواجه وشدته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس . فاذا كان قرب الاستواء الربيعي يبتدىء في قلة الامواج ولين وسهولة المركب الى أن تعود الشمس الى السنبلة . وألين ما يكون ظهراً وأسهله مركباً في آخر زمان الربيع وهو عند كون الشمس في الجوزاء . وأما بحر الهند فاذا صارت الشمس في السنبلة تقل ظلمته وتنقص أمواجه ويلين ظهره ويسهل مركبه الى أن تصير الشمس الى الحوت . وألين ما يكون ظهراً عند كون الشمس في القوس الا أن يكون بحر فارس قد يركب في كل أوقات السنة فأما بحر الهند فانه لا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه »(٢٠) .

« وأما البحر الارمني فان بعده في الشمال من مدار أول السرطان واحد وعشرون جزءاً فتشتد فيه الرياح العواصف وتشتد ظلمته حتى لا يركبه الناس . وأما البحر

(*) البحر المتوسط ، ومن المعروف ان اجزاء البحر المتوسط كانت تتخذ لدى الجغرافيين العرب والمسلمين اسماء البلاد التي تطل عليها .

(**) والمراد به هنا المحيط الاطلسي ، ولكنه يستخدم أحيانا من قبل الجغرافيين العرب والمسلمين بمفهوم يعني المحيط الذي يطوّق جميع الارض اليابسة .

(***) البحر الاسود .

(****) بحر الخزر .

(٢٠) الاعلاق النفيسة ، ص ٨٦ - ٨٧ .

الشامي[*] فانه اذا صارت الشمس أول العقرب الى أن تصير في أول الحوت في هذه الاربعة أشهر لا يستطيع ركوبه وذلك أن الشمس تتباعد عنه وتحدث فيه الرياح العاصفة ، وذلك في ناحية الشمال منه »[٢١] .

« وقيل ان البحر الذي يركبون فيه من البصرة الى الصين هو بحر واحد وماء واحد متصل الى الصين والهند ، ومنهم من يزعمون انها سبعة ابحر من البصرة الى الصين ويعدونها كذلك » ، ولكل بحر عندهم حد وعلامة ويزعمون ان لكل بحر منها ريحاً أخرى وطعماً آخر ولوناً آخر وأشياء من الحيوانات ليست في غيرها ، وان لكل منها مدا وجزراً الا أن مد بعضها أظهر وأبين ومد بعضها أخفى وأقل »[٢٢] .

أما ابن الفقيه فيكرر في كتابه (مختصر كتاب البلدان) نفس المعلومات التي اوردها ابن رسته عن توزيع البحار وكأنه ينقل عنه ، لكنه يذكر أن البحار الكبار اربعة هي البحر الكبير الذي ليس في العالم أكبر منه والذي يمتد من الغرب حتى واق واق الصين ، ثم البحر المغربي الدبوري الرومي[*] وهو من انطاكية الى جزائر السعادة ، ثم البحر الثالث وهو الخراساني الخزري ، والبحر الرابع ما بين رومية وخوارزم ولم يوضع عليها سفينة قط[٢٣] .

ولا يكاد الاصطخري يعترف الا ببحرين وهما بحر فارس وبحر الروم . وقد ذكر بان بحر فارس يبدأ ببحر القلزم[**] وينتهي في سواحل الصين ، كما ذكر ان بحر الروم يبدأ من مضيق جبل طارق حتى مدخل البحر الاسود . وقد شرح كلا منهما بالتفصيل .

كذلك تبدو اشارات ابن حوقل الى البحار في كتابه (صورة الارض)

(*) البحر المتوسط . ومن المعروف ان أجزاء البحر المتوسط كانت تتخذ لدى الجغرافيين العرب والمسلمين اسماء البلاد التي تطل عليها .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(*) البحر المتوسط .

(٢٣) مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمداني ، منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن عام ١٨٨٥ ، ص ٨ .

(**) البحر الاحمر .

ضعيفة عموماً . فهو لا يكاد يذكر سوى بحر فارس ، ويكرر القول أنه خليج من البحر المحيط في حد الصين وبلد العراق ، وهو بحر يجري على حدود بلدان السند وكرمان الى فارس فينسب من بين سائر الممالك التي عليه الى فارس لانه ليس عليه مملكة أعمر منها[٢٤] . ولكنه يشير الى بحر الخزر اشارات قيمة ، وربما كان أول جغرافي يصف هذا البحر وصفاً دقيقاً ، فلقد فال : « ان هذا البحر ليس له اتصال بشيء من البحار التي على وجه الارض بطريق المادة والاختلاط الا ما يدخل اليه من نهر الروس . ولو ان رجلا طاف بهذا البحر لرجع الى مكانه الذي ابتدأ به لا يمنعه مانع ولا يقطعه قاطع . وهو بحر مالح ولا مد له ولا جزر . مظلم قعره بخلاف بحر القلزم لان قعره طين آجن آسن »[٢٥] .

ولقد تحدث المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) عن البحار المعروفة بشيء من التفصيل ، وذكر تفرعاتها وخلجاتها والبلدان التي تطل عليها واحوال الملاحة فيها ، الا ان تفصيلاته لم تكن ذات أهمية كبيرة . وقد أعتبر البحار المعروفة بحرين فقط ، احدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء ويمتد بين بلد الصين وبلد السودان ، وثانيهما يخرج من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والاندلس . وقد اعتبر البحار الاخرى الممتدة في العالم الاسلامي عبارة عن خلجان وتفرعات لهذين البحرين[٢٦] .

ولقد سجل اخوان الصفا ملاحظات قيمة في رسالتهم الخامسة من (الجسمانيات الطبيعيات) عن هيدرولوجية البحار وعن اتصالها ببعضها وبينوا أسباب حدوث التيارات والأعاصير فيها ، ومما قالوا في ذلك :

« واعلم يا أخي ان هذه البحار التي ذكرنا انها كالمستنقعات على وجه الارض وبينها جبال شامخة وهي كالمسنيات لها وهي متصلة بعضها ببعض أما بخلجان بينها على ظاهر الارض وأما بمنافذ لها وعروق في باطن الارض ، وان في وسط هذه البحار جزائر كثيرة صغاراً وكباراً وانهاراً ومنها عامرة بالناس فيها مزارع وقرى ومدن وممالك ، ومنها براري وقفار فيها جبال وآجام تسكنها سباع ووحوش وانعام وأنواع من الحيوانات لا يعلم كثرتها الا الله . وفي وسط تلك الجزائر بحيرات صغار وكبار وأنهار وغدران

---

(٢٤) صورة الأرض ، لابن حوقل ، القسم الثاني ، ص ٢٧٦ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .

(٢٦) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ١٠ - ١٩ .

وآجام . ومنها ما مياهها عذبة ومنها مالحة شديدة الملوحة ومنها دون ذلك مختلفة احوالها وأوصافها . . . .

أما علة هيجان البحار وارتفاع مياهها وبروزها على سواحلها وشدة تلاطم أمواجها وهبوب الرياح في وقت هيجانها الى الجهات الخمس في أوقات مختلفة من الشتاء والصيف والربيع والخريف ، أوائل الشهور وأواخرها ، وساعات الليل والنهار فهي من أجل أن مياهها اذا حميت في قرارها وسخنت لطفت وتحللت وطلبت مكاناً أوسع مما كانت فيه قبل فيتدافع فيه بعض أجزائها الى الجهات الخمس فوقاً وشرقاً وجنوباً وشمالاً وغرباً للاتساع فيكون في الوقت الواحد على سواحلها رياح مختلفة في جهات مختلفة . وأما علة هيجانها في وقت دون وقت بحسب شكل الفلك ومطارح شعاعاته على سطوح تلك البحار من الآفاق والاوتاد الاربعة »[٢٧] .

ويبرز اسم المسعودي أيضاً كأكثر الجغرافيين العرب والمسلمين اهتماماً بدراسة توزيع البحار والمحيطات ومدى صلاحيتها للملاحة . ففي كتابه (أخبار الزمان) يفصّل الكلام على البحر المحيط وما يشتمل عليه من اسماك وحيوان ونبات وجزر . وبالرغم من أن تفصيلاته عن هذا البحر حافلة بالخرافات ، لكنها تشتمل أيضاً على معلومات قيمة . فهو يذكر أن عمق هذا البحر يختلف، فمنه لا يلحق قعره ولا يدرى، ومنه ؛ ما يكون سبعة آلاف باع وأكثر واقل ، ومنه ما يكون فيه شجر كالمرجان . ويذكر أيضاً أن البحر الأسود الزفتي به وهو شديد النتن ، كما يخرج منه أيضاً بحر الصين الذي يقع أوله من بلاد المغرب ويمتد من بحر فارس الى بلاد الصين ، وهو بحر ضيق فيه مغايص اللؤلؤ ويقال ان فيه اثني عشر ألف جزيرة[٢٨] . ولعل أهم ما ورد في هذا البحث هي المعلومات المتعلقة بجزر البحر المحيط ، فلم يرد ها مثيل في سعتها وشمولها في أي كتاب من كتب الجغرافيين المسلمين . فقد فصل فيها الكلام عن الجزر المتناثرة في خلجان وبحار هذا المحيط ، وعن زراعتها ونباتاتها وحيواناتها ، ومن الممكن التعرف في الوقت الحاضر على الكثير من تلك الجزر[٢٩] . وبالرغم من ان تفصيلاته كانت تشتمل أيضاً على أساطير وخرافات لكنها كانت في بابها قيمة جداً . كذلك تحدث

(٢٧) رسائل اخوان الصفا ، الجزء الثاني ، ص ٨٢ - ٨٣ .
(٢٨) أخبار الزمان ، تصنيف المؤرخ ابي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، منشورات دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦ ، الطبعة الثانية ، ص ٤٢ .
(٢٩) المصدر السابق ، ص ٥٠ - ٧١ .

شكل ١٣ : البحر الشرقي الكبير (عن الدكتور حسين فوزي)

عن الرياح الموسمية في المحيط الهندي ومواعيد هبوبها وأثرها في الملاحة عبر المحيط .

ولقد شرح المسعودي أيضاً في الجزء الاول من موسوعته الضخمة (مروج الذهب) توزيع البحار وظواهرها الهايدروغرافية المختلفة شرحاً مفصلاً(٣٠) . وقد ذكر انه استوفى الكتابة في موضوع البحار في كتابه الآخر (أخبار الزمان) حيث أورد ما أورده العارفون « من البراهين في مساحة البحار ومقاديرها والمنفعة في ملوحة مائها واتصال بعضها ببعض وانفصالها وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان ولأية علة كان الجزر والمد في البحر الحبشي أظهر من دون سائر البحار »(٣١) . ولكن النسخ المطبوعة لهذا الكتاب لم تتضمن مع الأسف مثل تلك الاشارات . وقد أكد المسعودي على حقيقة هامة تتعلق بمدى اتساع البحار المعروفة يومذاك ، اذ قال : « ووجدت نواخذة بحر الصين(*) والهند والسند والزنج(**) واليمن والقلزم والحبشة من السيرافين والعمانيين يخبرون عن البحر الحبشي في أغلب الامور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم في المقادير والمساحة وان ذلك لا غاية له . وفي مواضع منه شاهدت أرباب المراكب في البحر الرومي(***) من البحرية والعمالة يعظمون طول البحر الرومي وعرضه وكثرة خلجانه وتشعبه »(٣٢) .

وقد سجل لنا البتّاني أيضاً معلومات قيمة عن البحار وتوزيعها ومساحاتها في كتابه (الزيج الصابي) حيث قال :

« وقدروا بحر الهند وقالوا أن طوله يعد من المغرب الى المشرق من أقصى الحبش الى أقصى الهند ثمانية آلاف ميل وعرضه ألفان وسبعمائة ميل ، ويجاوز من جزيرة استواء الليل والنهار الى ناحية الجنوب ألفاً وتسعمائة ميل . وله خليج بارض الحبش يمد الى ناحية البربر يسمى الخليج البربري(****) وطوله خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض أيلة وهو بحر القلزم طوله ألف وأربعمائة

(٣٠) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لابي الحسن علي بن الحسين المعروف بالمسعودي ، منشورات المكتبة المصرية لصاحبها محمود حلمي ، بغداد ١٩٢٨ ، الجزء الاول ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(*) ومفردها (ناخذاه) وهي كلمة فارسية تعني رئيس السفينة أو القبطان .

(**) المراد بـ (الزنج) سكان زنجبار وساحل افريقيا الشرقي .

(***) البحر المتوط .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(****) بحر الصومال .

ميل ، وعرض طريقه الذي يسمى البحر الاخضر مائتا ميل وعرضه في الاصل سبعمائة ميل . وخليج آخر يخرج نحو أرض فارس يسمى الخليج الفارسي وهو بحر البصرة طوله ألف واربعمائة ميل وعرضه في الاصل خمسمائة ميل وعرض طريقه مائة وخمسون ميلا . ويكون بين هذين الخليجين اعني خليج أيلة وخليج فارس أرض الحجاز واليمن ويكون ما بين هذين الخليجين ألف وخمسمائة ميل . ويخرج منه أيضاً خليج آخر الى أقصى أرض الهند عند تمامه يسمى الخليج الأخضر(*) طوله ألف وخمسمائة ميل . وفي هذا البحر كله أعني بحر الهند والصين من الجزائر العامرة وغيرها ألف وثلثمائة وسبعون جزيرة . . .

وأما بحر الروم ومصر فانه يخرج من عند الخليج الذي يخرج من بحر اوقيانوس الغربي عند الجزيرة التي تسمى غديرة مقابل الاندلس الى صور وصيدا من ناحية المشرق وطوله خمسة آلاف ميل وعرضه في مكان ستمائة ميل ، وفي مكان سبعمائة ميل وفي مكان ثمانمائة ميل ، وفيه خليج واحد يخرج الى ناحية الشمال قريباً من رومية طوله خمسمائة ميل يسمى أذريس(**) وخليج آخر يخرج نحو أرض نربونه طوله مائتا ميل . وفي هذا البحر كله من الجزائر مائة واثنتان وستون جزيرة عامرة .

وبحر بنطس(***) يمد من لاذقة الى القسطنطنية العظمى طوله ألف وستون ميلا وعرضه ثلثمائة ميل يدخل فيه النهر الذي يسمى طنايس(****) ومجراه من ناحية الشمال من البحيرة التي تسمى مايطس(*****) وهو بحر ضخم وان كان يسمى بحيرة طوله من المشرق الى المغرب ثلثمائة ميل وعرضه مائة ميل . وعند القسطنطينية ينفجر منه خليج يجري كأنه نهر ويصب في بحر مصر ، وعرضه عند القسطنطينية قدر ثلاثة أميال والقسطنطينية عليه .

وبحر جرجان وهو بحر الباب(******) طوله من المغرب الى المشرق ثماني مائة ميل وعرضه ستمائة ميل . . وهذه المواضع العامرة من موضع بحر الارض المعروف والله بذلك أعلم »(٣٣) .

(*) المقصود به هنا البحر الممتد جنوب افريقيا متصلا بالمحيط الهندي .

(**) بحر الادرياتيك .

(***) البحر الاسود .

(****) نهر الدون .

(*****) بحر آزوف .

(******) بحر الخزر .

(٣٣) كتاب الزيج الصابي - لابي عبد الله محمد بن سنان المعروف بالبتاني روما ١٨٩٩ ص ٢٦ - ٢٧ .

كذلك شرح سهراب في كتابه (عجائب الاقاليم السبعة) بحار الارض وحدد مواقعها من خطوط الطول والعرض وما فيها من جزر ، فذكر انها خمسة بحار هي (البحر المغربي الخارج من الشمال) و (بحر أفريقية وبرقة ومصر والشام والروم) و (بحر القلزم والسند والهند والصين وفارس) وهو البحر الجنوبي الكبير المسمى بالبحر الاخضر ، و (البحر المظلم) وهو خلف خط الاستواء ، و (بحر جرجان وطبرستان والديلم)(٣٤) .

ولعل من أفضل الكتابات الجغرافية العربية وأدقها عن توزيع البحار والمحيطات القديمة هي تلك التي وردت في كتاب ابي الريحان البيروني عن الهند . ففضلا عن تميزها بالرصانة والضبط ، فانها ثبتت حقائق هامة كانت مثار الجدل، لا سيما ما يتعلق بالتفاف المحيط الاطلسي حول قارة أفريقيا واتصاله بالمحيط الهندي وما يتعلق باحاطة الارض بالمياه من جهتها الشمالية . قال البيروني :

« تصور المعمورة انها في نصف الارض الشمالي ، ومن هذا النصف في نصف ، فالمعمورة اذن في ربع من ارباع الارض . ويطيف به بحر يسمى في جهة المغرب والمشرق محيطاً . ويسمي اليونانيون ما يلي المغرب منه وهو ناحيتهم اوقيانوس وهو قاطع ما بين هذه المعمورة وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر في الجهتين من بر أو عمارة في جزيرة اذ ليس بمسلوك من ظلام الهواء ومن غلظ الماء ومن اضطراب الطرق وعظم الغرر مع عدم الفائدة . ولذلك عمل الاوائل فيه وفي سواحله علامات تمنع من سلوكه . واما من جهة الشمال فالعمارة تنقطع بالبرد دونه الا في مواضع يدخل اليها من ألسنة وأغباب . وأما من جهة الجنوب فان العمارة تنتهي الى ساحل البحر المتصل بالمحيط في الجانبين وهو مسلوك والعمارة غير منقطعة عنده وانما هو مملوء بالجزائر الصغار والعظام . وهذا البحر مع البر يتنازعان الوضع حتى يلج احدهما في الاخر . أما البر فانه يدخل البحر في النصف المغربي ويبعد ساحله في الجنوب فيكون في تلك البراري سودان المغرب التي يجلب الخدم من عندهم وجبال القمر التي منها منابع نهر النيل وعلى الساحل والجزائر اجناس الزنج . ويدخل في هذا النصف المغربي من البحر خلجان في البر كخليج بربرا وخليج قلزم وخليج فارس . ويدخل ارض المغرب فيه فيما بين هذه الخلجان دخولا ما . واما في النصف المشرقي فانه يدخل في بر

---

(٣٤) راجع كتاب (عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة) تصنيف سهراب - نشره هانس فون مثيك - فينا ١٩٢٩ ، ص ٥٤ الى ٦٨ .

الشمال دخول ذلك البر في الجنوب وربما أمعن بأغباب منه واخوار اليه وهذا البحر يسمى في أغلب الاحوال باسم ما فيه أو ما يحاذيه »(٣٥) .

وفي موضع آخر شرح البيروني بحار الارض ومحيطاتها شرحاً دقيقا ، ومما قال في ذلك : « أما البحر الذي في مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والاندلس فانه سمي البحر المحيط(*) وسماه اليونانيون اوقيانوس ، ولا يلجج فيه وانما يسلك بالقرب من ساحله . وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة ارض الصقالبة . ويخرج منه خليج عظيم في شمال الصقالبة ويمتد الى قرب بلغار بلاد المسلمين ويعرفونه ببحر ورنك(*) ، وهم أمة على ساحله . ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق ، وبين ساحله وبين أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة. وأما امتداد البحر المحيط الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب فانه ينحرف غن جنوب ارض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التي تنتج منها عيون نيل مصر ، وفي سلوكه غرر لا تنجو منه سفينة . . وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصي أرض الصين فانه أيضاً غير مسلوك ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذي يسمى في كل موضع من الارض التي تحاذيه . فيكون ذلك أول بحر الصين ، ثم الهند . وخرج منه خلجان عظام يسمى كل واحدة منها بحراً على حدة كبحر فارس والبصرة الذي على شرقيه تيز ومكران وعلى غربية في حياله فرضة عمان ، فاذا ما جاوزها بلغ بلاد الشحر التى يجلب منها الكندر ومرّ الى عدن . وانشعب من هناك خليجان عظيمان أحدهما المعروف بالقلزم وهو ينعطف فيحيط بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة ، ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فانه يسمى بهما فيقال لجنوبه بحر الحبشة ، وللشمالي بحر اليمن ولمجموعهمابحر القلزم . وانما اشتهر بالقلزم لان القلزم مدينة على منقطعه في أرض الشام حيث يستدق ويستدير عليه السائر على الساحل نحو ارض البجة . . والخليج الأخر المقدم ذكره وهو المعروف ببحر البربر يمتد من عدن الى سفالة الزنج ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطرة فيه ، ويتصل بعدها ببحر اوقيانوس المغربي ، وفي هذا البحر من نواحي المشرق جزائر الزابج(**) ثم جزائر الديبجات(***) وقمير(*) ثم جزائر

---

(٣٥) كتاب الهند ، للبيروني ، ص ١٥٦ .

(*) وهو المحيط الذي يطوّق جميع الارض الهابسة .

(*) بحر البلطيق .

(**) الجزر الاندنوسية . (الزابج = جاوة) .

(***) جزر لكديف وملديف .

(*) كمبوديا .

شكل ١٤ : شكل يمثل توزيع البحار للبيروني

الزنج(**) . ومن أعظم هذه الجزائر الجزيرة المعروفة بسرنديب(***) ، ويقال لها بالهندية سيلانديب ، ومنها تجلب أنواع اليواقيت جميعها ومنها يجلب الرصاص ، وسربزة

(**) المقصود بها بعض جزر المحيط الهندي الجنوبية .

(***) جزيرة سيلان .

ومنها يجلب الكافور . ثم في وسط المعمورة في أرض الصقالبة والروس بحر يعرف ببنطس عند اليونانيين وعندنا يعرف ببحر طرابزندة لأنها فرضة عليه . ويخرج منه خليج يمر على سور القسطنطينية ، ولا يزال يتضايق حتى يقع على بحر الشام الذي على جنوبيه بلاد المغرب الى الاسكندرية ومصر وبحذائها في الشمال أرض الاندلس والروم . وينصب الى البحر المحيط عند الاندلس في مضيق يذكر في الكتب بمعبرة هرقليس(*) ويعرف الآن بالزقاق يجري فيه ماؤه الى البحر المحيط ، وفيه من الجزائر المعروفة قبرص وسامس ورودس وصقلية وأمثالها . وبالقرب من طبرستان بحر فرضة جرجان عليه مدينة أبسكون وبها يعرف ، ثم الى طبرستان وأرض الديلم وشروان وباب الابواب وناحية اللاك ثم الخزر ثم نهر أتل الاتي اليه ، ثم ديار الغزية ، ثم يعود الى أبسكون . وقد سمي باسم كل بقعة حاذاها ، ولكن اشتهاره عندنا بالخزر وعند الاوائل بجرجان وسماه بطليموس بحر ارقانيا ، وليس يتصل ببحر آخر . . فأما سائر المياه المتجمعة في مواضع من الأرض فهي مستنقعات وبطائح وربما سميت بحيرات كبحيرة آفامية وطبرية وزغر بأرض الشام ، وكبحيرة خوارزم وأبسكون(**) بالقرب من برسخان »[٣٦] .

أما الشريف الادريسي فان معلوماته عن البحار لم تكن ذات أهمية كبيرة . ومن الاشارات الطريفة التي وردت في كتاباته تفسيره لكيفية اتصال البحر المتوسط بالمحيط الاطلسي ، فقد ذكر بان البحر الشامي كان بركة منحازة مثل ما هو عليه بحر طبرستان لا يتصل ماؤه بشيء من مياه البحر ، وان الاسكندر المقدوني قد كلف المهندسين بحفر الزقاق بينه وبين البحر الاعظم (المحيط الاطلسي) فمر ماؤه بسيله وفوقه بين الرصيفين ودخل البحر الشامي ففاض ماؤه وهلكت مدن كثيرة كانت على الشطين معاً[٣٧] . وربما كان في هذا التفسير تعليل لفكرة طغيان مياه البحر المتوسط القديم (بحر تش) على الجهات المجاورة خلال الأزمان الجيولوجية .

كذلك قدم لنا ابن خلدون تلخيصاً وافياً لمعلومات الجغرافيين السابقين عن توزيع البحار على النحو التالي : « وذكروا ان هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة

(*) مضيق جبل طارق .

(**) بحيرة ايسيق كول .

(٣٦) القانون المسعودي - البيروني ، ص ٥٣٧ .

(٣٧) وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ، للشريف الادريسي ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي يبدأ في خليج متضايق في عرض اثني عشر ميلا أو نحوها ما بين طنجة وطريف ويسمى الزقاق(*) . ثم يذهب مشرقاً وينفسح الى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر الجزء الرابع من الاقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه ، وعليه هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب أولها طنجة عند الخليج ثم افريقية ثم برقة الى الاسكندرية ، ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية عند الخليج ، ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس الى طريف عند الزقاق قبالة طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقريطش وقبرص وصقلية وميورقة وسردانية . قالوا ويخرج منه من جهة الشمال بحران آخران من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضايقاً في عرض رمية السهم يمر ثلاثة بحار فيتصل بالقسطنطينية ، ثم ينفسح في عرض أربعة أميال ويمر في جريه ستين ميلا ويسمى خليج القسطنطينية . ثم يخرج من فوهة عرضها ستة أميال فيمد بحر نيطش وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهبه الى ناحية الشرق فيمر بأرض هرقلة وينتهي في بلاد الخزرية على ألف وثلثمائة ميل من فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبرجان والروس . والبحر الثاني من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة(*) يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال فاذا انتهى الى سمت الجبل انحرف في سمت المغرب الى بلاد البنادقة والروم وغيرهم أمم ويسمى خليج البنادقة . قالوا وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمر في الجنوب قليلا حتى ينتهي الى الاقليم الاول ثم يمر فيه مغرباً الى أن ينتهي في الجزء الخامس منه الى بلاد الحبشة والزنج والى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي ، وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج وبلاد بربر(**) وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب . ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وارض الوقواق وأمم أخر ليس بعدهم الا القفار والخلاء . وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزبيد وغيرها ، ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة . قالوا ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران أحدهما يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقاً ثم يمر

(*) مضيق جبل طارق .

(*) بحر الادرياتيك .

(**) الصومال .

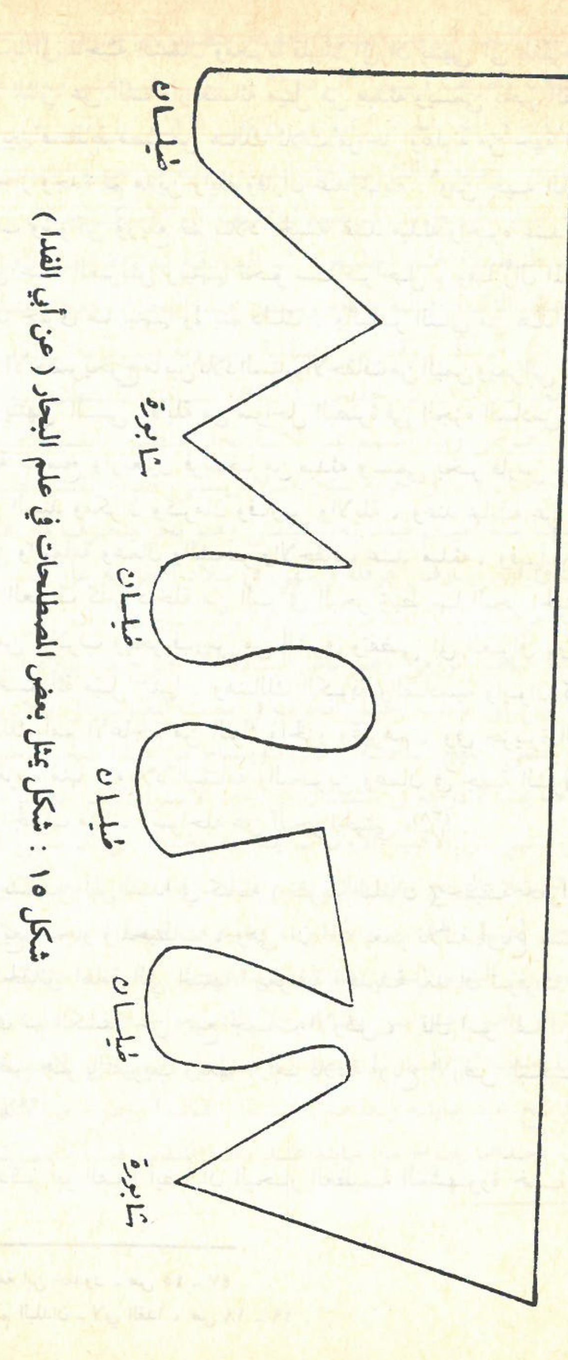
مستبحرا الى ناحية الشمال ومغرباً قليلا الى ان ينتهي الى القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على ألف واربعمائة ميل من **مبدئه** ويسمى بحر القلزم وبحر السويس ، وبينه وبين فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم الحجاز وجدة ثم مدين وايلة وفاران عند نهايته . ومن جهة الغرب سواحل الصعيد وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند **مبدئه** وآخره عند القلزم يسامت البحر الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل ، وما زال الملوك في الاسلام وقبله يرومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك . والبحر الثاني من هذا البحر الحبشي ويسمى **الخليج الاخضر يخرج ما بين بلاد السند والأحقاف من اليمن ويمر الى ناحية الشمال مغرباً قليلاً الى ان ينتهي الـــى الابلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم الثاني على** اربعمائة فرسخ واربعين فرسخاً من **مبدئه** ويسمى بحر فارس وعليه من جهة الشرق سواحل السند ومكران وكرمان وفارس والابلة ، وعند نهايته عن جهة الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والاحقاف عند **مبدئه** ، وفيما بين بحر فارس والقلزم وجزيرة العرب كأنها داخلة من البر في البحر يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي الى العراق بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما . وهنالك الكوفة والقادسية وايوان كسرى وبغداد والحيرة ووراء ذلك أمم الأعاجم من الترك والخزر وغيرهم . وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة المغرب منها ، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها ، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها ، وسواحله على البحر الحبشي »[٣٨] .

ويسجل أبو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) حقيقة جغرافية هامة عند كلامه على توزيع البحار والمحيطات ، وهي ان الماء يغمر ثلاثة أرباع مساحة الارض . وهذه احدى الحقائق الهامة التي اثبتتها الجغرافية الحديثة بعد أن توفرت لها الوسائل العلمية وبعد ان تم الكشف عن جميع جهات الارض ، قال ابو الفدا : « والقدر المكشوف من الارض هو بالتقريب ربعها . أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية بالتقريب فمغمور بالبحار »[٣٩] .

وذكر أبو الفدا أيضاً ان البحار العظيمة المشهورة خمسة هي : البحر المحيط

(٣٨) مقدمة ابن خلدون ـ ص ٤٥ ـ ٤٧ .

(٣٩) تقويم البلدان ـ لابي الفدا ، ص ١٨ ـ ١٩ .



شكل ١٥ : شكل يمثل بعض المصطلحات في علم البحار (عن أبي الفدا)

وبحر الصين وبحر الروم وبحر نيطش وبحر الخزر . ثم أورد بعض المصطلحات المتعلقة بالبحار منها (الخور) وهو كل خليج يمتد من البحر الى بعض النواحي ، ومنها (المجرى) وهو ما يقطعه المركب في يوم وليلة بالريح الطيب . وأورد أيضاً اصطلاحات الجغرافيين عن البحار وامتداداتها مثل (القوارة) و (الشابورة) و (الطيلسان) ، ووضح تلك التعاريف بالرسم ، ثم شرح امتدادات كل بحر من البحار المعروفة وحدد مواقعها من خطوط الطول والعرض تحديداً دقيقاً(٤٠) . وتعتبر معلومات أبي الفدا عن البحار والمحيطات تلخيصاً جيداً لكتابات الجغرافيين المسلمين السابقين عن هذا الموضوع .

وقد وردت في كتب الكتّاب المتأخرين الآخرين تلخيصات طيبة أيضاً للمعلومات القديمة عن البحار والمحيطات ، مع اضافات هامة في بعض الاحيان . مثال ذلك ما ورد في كتاب النويري (نهاية الارب) من كلام مفصل عن البحار ومواضعها ومساحاتها وامتداداتها وأشهر جزرها . ولقد اعتبر أعظم البحار المعمورة ثلاثة هي البحر المحيط وبحر مانيطس(*) وبحر الخزر(٤١) . كذلك وردت في كتاب (صبح الاعشى) لابي العباس القلقشندي تفصيلات ممتازة عن البحار ربما كانت تمثل أفضل ما ورد في كتب المتأخرين عن هذا الموضوع . فقد تناول **أولاً** شرح البحر المحيط وما يخرج ويتصل به من بحار مثل بحر الروم وبحر الصين وبحر الهند وبحر فارس وبحر القلزم والخليج البربري وبحر برديل (بحر بريطانية) . وقد سجل بالتفصيل جميع الموانىء التي تقع على سواحل البحار المذكورة والخلجان التي تخرج منها(٤٢) .

كذلك فعل الانصاري الدمشقي في كتابه « نخبة الدهر » حيث جمع كل ما كتب عن البحار من معلومات . وقد لخص لنا مسميات البحار الكبرى وامتداداتها على النحو التالي : « قال أهل العلم بذلك تعريفاً ان الماء المحيط بالارض هو جرم بسيط مشف جرمه طبعه ان يكون بارداً رطباً متحركاً الى المكان الذي تحت كرة الهواء وفوق الارض

---

(٤٠) المصدر السابق ، ص ١٩ - ٣٧ .

(٤١) نهاية الارب ، لشهاب الدين النويري ، منشورات دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ ، السفر الاول ، ص ٢١٩ - ٢٣٨ .

(*) بحر آزوف .

(٤٢) صبح الاعشى - تأليف الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي - منشورات دار الكتب الخديوية - المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، الجزء الثالث ، ص ٢٣٣ - ٢٤٩ .

وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار ولا يعرف له ساحل وله اسماء في الجهات سماه بها اليونان ومن قبلهم . فاسمه في الجهة المغربية اوقيانوس والبحر الاخضر ، وفي جهة جنوب الارض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد ، وفي جهة محض الجنوب البحر الاحمر ، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة وبحر ورنك والمحيط الشمالي ، وفي شمال الاندلس اللبلابة وبحر قادس . وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الارض مالح ، وسائر البحار التي بوجه الارض غيره فانها خلجان منه متصلة به فائضة عنه »(٤٣) .

ولم يكتف الدمشقي بشرح مواقع البحار ومساحاتها وامتداداتها ، بل شرح جانبا هاماً من جيومورفولوجيتها ، وهو تحدب سطح المحيطات حسب كروية الارض ، وهذه الناحية قلما تعرض لذكرها الجغرافيون الاوائل . قال الدمشقي : « وسائر مياه البحار المالحة والحلوة من المتصلة بالمحيط والمنفصلة عنه كلها مسجورة بحبسها في بقاعها ووحدات الارض المغمورة بمياهها . ومعنى الانسجار منها انها كروية الشكل في دورانها وكروية مع الأرض في تحديها الكروي . فكل جزء منها مكفوف الاطراف كصورة نصف سدس دائرة ، وهذا في صورته الخاصة ، فالبحار مستديرة باستدارة كرة الارض وكهيئاتها في التدوير والانكفاف . ولذلك الراكب في البحر اذا توغل فيه غابت عنه الارض ، واذا ما استشرف على السواحل فأول ما يظهر له رؤوس الجبال العالية »(٤٤) .

وناقش الدمشقي أيضاً الآراء المختلفة في أسباب ملوحة مياه البحار فقال : « وتكلم العلماء بعلمهم في الشيء الذي كان عنه الماء . فمنهم من زعم ان المياه من الاستحالة ، فطعم كل ماء على قدر تربته ، ومنهم من يزعم ان البحر بقية الرطوبة التي جفت أكثرها جوهر النار وباحراقه لهذه البقية استحالت الى الملوحة . ومنهم من زعم ان أصل الماء العذوبة واللطافة ، وانما لطول مكثه جذبت الارض ما فيها من العذوبة لملوحتها وجذبت الشمس ما فيه من اللطافة بحرارتها فاستحال الى الغلظ والملوحة »(٤٥) .

(٤٣) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لشمس الدين أبي عبد الله محمد ابي طالب الانصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة - منشورات مكتبة المثنى عن طبعة للمستشرق مهرن MEHREN، ص ١٢٧ .
(٤٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ .
(٤٥) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

ولقد ناقش الجغرافيون العرب والمسلمون أيضاً ظاهرة المد والجزر وان لم يصب غالبيتهم في تفسيرها . فقد كان تفسير ابن الفقيه **الهمذاني** مثلا اسطورياً . فقد روى عن ابن عباس انه سئل عن ظاهرة المد والجزر فأجاب ان ملكاً موكل بقاموس البحر اذا وضع رجله فيها فاضت واذا رفعها غاضت . كما روى عن ابن كعب ان الخضر لقي ملكاً من الملائكة فسأله عن المد والجزر فقال الملك ان الحوت يتنفس فيشرب الماء ويرفع الماء الى منخريه فذلك الجزر، ثم يتنفس فيخرجه من منخريه فذلك المد(٤٦) .

أما الاصطخري فقد أشار الى ظاهرة المد والجزر التي تحدث في بحر فارس اشارة عابرة حيث قال : « يحدث في بحر فارس في اليوم والليلة مرتان مد وجزر من حد القلزم الى حد الصين . وليس لبحر المغرب ولا لبحر الروم ولا لسائر البحار مد وجزر غير بحر فارس . وهو أن يرتفع الماء قريبا من عشرة اذرع ثم ينصب حتى يرجع الى مقداره »(٤٧) .

ولم تكن اشارة الشريف الادريسي الى ظاهرة المد والجزر تنم عن وعي صحيح أيضاً . فقد ذكر أن المد والجزر يحدث في البحر الصيني وما يليه من بحر الصنف(*) واللاروي (**) وبحر هركند(***) وبحر عمان ، وهي تحدث مرتين في اليوم والليلة في بحر عمان وبحر فارس . ثم عاد واستدرك بان بعض ربانيو البحر الهندي والبحر الصيني قد حكوا بأن المد والجزر يكونان مرتين في السنة ، فمرة يمد في شهور الصيف شرقاً ويجزر ضد البحر الغربي ، ثم يرجع المد غرباً ستة أشهر(٤٨) .

ولقد اقترب اخوان الصفا من التفسير العلمي لظاهرة المد والجزر حيث ربطوها بحركة القمر والكواكب الاخرى . ومما قالوا في ذلك : « وأما علة مدود بعض البحار في وقت طلوعات القمر ومغيبه دون غيرها من البحار فهي من أجل أن تلك البحار في قرارها صخور صلبة ، فاذا أشرق القمر على سطح ذلك البحر وصلت مطارح شعاعاته الى تلك الصخور والاحجار التي في قرارها ثم انعكست من هناك راجعة فسخنت تلك

(٤٦) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، ص ٩ .
(٤٧) كتاب الاقاليم للاصطخري ، ص ١٧ .
(*) بحر الصين الجنوبي .
(**) بحر الهند الغربي .
(***) خليج بنغالة .
(٤٨) وصف الهند وما يجاورها من البلاد للشريف الادريسي ، ص ٢٠ - ٢١ .

المياه وحميت ولطفت وطلبت مكاناً أوسع وارتفعت الى فوق ودفع بعضها بعضاً الى فوق وتموجت الى سواحله وفاضت على سطوحها وأرجعت مياه تلك الانهار التي كانت تنصب اليها خلف . فما يزال ذلك دأبها ما دام القمر مرتفعاً الى وتد سمائه . فاذا انتهى الى هناك وأخذ ينحط سكن عند ذلك غليان تلك المياه وبردت وانضمت تلك الاجزاء وغلظت ورجعت الى قرارها وجرت الأنهار على عادتها . فلا يزال ذلك دأبها الى أن يبلغ القمر الى افق تلك البحار الغربي منها ، ثم يبتدىء المد على مثل عادته وهو في الافق الشرقي ، ولا يزال ذلك دأبه حتى يبلغ القمر الى وتد الارض فينتهي المد من الرأس . ثم اذا زال القمر من وتد الارض أخذ المد راجعاً الى ان يبلغ القمر أفقه الشرقي من الرأس وذلك تقدير العزيز الحكيم . فان قيل لم لا يكون المد والجزر عند طلوع الشمس واشراقها على سطوح هذه البحار ، فقد بينا علة ذلك في رسالة العلل والمعلول »[٤٩] .

ولقد اقترب البيروني أيضاً من الحقيقة في تفسيره لظاهرة المد والجزر حيث نقل آراء العلماء الهنود فيها حول ارتباطها بتغير وجه القمر ، غير أن تفسيره خالطته بعض الأفكار الاسطورية[٥٠] .

هذه هي أهم الجوانب التي تناولها الجغرافيون المسلمون من جغرافية البحار . أما البحيرات فلم يعن الجغرافيون المتقدمون بالتحدث عنها . ولعل ابن حوقل كان أكثرهم اهتماماً بذكرها عند الكلام على المدن . غير ان الجغرافيين المتأخرين افردوا لها فصولا خاصة . وكان أبو الفدا أشدهم احتفالا بهذا الموضوع ، فقد ورد في كتابه (تقويم البلدان) اسماء جميع البحيرات المعروفة ، وقد حدد مواضعها ، وبين أهم صفاتها ، وذكر الانهار التي تخرج منها أو تصب فيها . وقد استدرك بأن البحيرات من الكثرة على وجه لا ينحصر ولم ينقل في الكتب الا بعضها[٥١] . وقد قدم أيضاً تعريفاً للبحيرة فذكر ان (البحيرة) و (البطيحة) بمعنى واحد وهي المياه المتجمعة التي هي في الغور دون البحار ، ثم ذكر بان من جملة تلك البحيرات البطيحتان اللتان تقعان جنوبي خط الاستواء واللتان ينبع منها نيل مصر ، وبحيرة تونس في تونس ، وبحيرة الفيوم وتنيس في مصر ، وبحيرة نسترو بالقرب من الاسكندرية وبحيرة طبرية وبحيرة اورمية وبحيرة

(٤٩) رسائل اخوان الصفا ، ص ٨٣ .

(٥٠) كتاب الهند للبيروني ، ص ٤٣١ .

(٥١) تقويم البلدان ، لأبي الفداء ، ص ٣٧ .

زرة في سجستان وبحيرة جيحون وبحيرة خوارزم(*)[٥٢] . ومن الامثلة على كلامه على البحيرات حديثه عن بحيرات مصر حيث قال :

« . . بحيرة الفيوم وهي بحيرة بقرب الفيوم يصب فيها فضلات ماء الفيوم ولا تخرج منها وفيها سمك كثير وطرفاء وآجام ، وهي عن الفيوم على نحو نصف يوم في جهة الشمال بميلة الى الغرب وطولها شرقاً بغرب نحو يوم وهي حلوة . بحيرة نسترو وهي بحيرة مالحة تخرج من البحر فيما بين الاسكندرية ورشيد وهي في جهة الغرب والشمال عن رشيد وهي على ما دون مسافة يوم من رشيد . ولهذه البحيرة فم من البحر المالح ولها خليج يأتيها من النيل من جهة رشيد . وفي طرف هذه البحيرة جزيرة فيها قرية تسمى نسترو وتنسب البحيرة اليها ، وليس لهذه القرية مزروع بل جميع اهل نسترو انما يعيشون من صيد السمك . وليس في البحيرات بحيرة يبلغ ضمانها ما يبلغه بحيرة نسترو فان ضمان سمكها يبلغ فوق عشرين ألف دينار مصرية . واذا توسطها الانسان في المركب لا يرى شيئاً من جوانبها لسعتها وبعد مركزها عن البحر . بحيرة دمياط وتنيس وهما بحيرتان متصلة احداهما بالاخرى ومتصلتان بالبحر المالح ، فبحيرة تنيس هي البحيرة الشرقية منها وبحيرة دمياط هي الغربية ، ويصب فيها بحر اشمون وهو النيل الشرقي من النيلين المتفرقين عند جرجر والمنصورة . وبحيرة تنيس ودمياط متسعة الى الغاية وهي متصلة بالبحر ويعذب ماؤها في زيادة النيل ويملح اذا نقص النيل وهي قليلة العمق يسار في أكثرها بالمرادي وتنيس في وسطها حيث الطول أربع وخمسون ونصف والعرض ثلاثون ونصف . .[٥٣] .

ومن تحدث عن البحيرات أيضاً من الكتّاب المتأخرين النويري في كتابه (نهاية الارب)[٥٤] والعمري في كتابه (مسالك الابصار)[٥٥] والدمشقي في كتابه (نخبة الدهر)[٥٦] . غير ان اوصافهم للبحيرات كان يشوبها الكثير من الخرافات لا سيما في

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٣٧ - ٤٤ .

(*) بحيرة أورال .

(٥٣) تقويم البلدان ، ص ٣٨ - ٣٩ .

(٥٤) نهاية الارب ، للنويري ، ص ٢٣٩ - ٢٤٣ .

(٥٥) مسالك الابصار في ممالك الامصار - لابن فضل الله العمري ، منشورات دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٨٧ - ٩٠ .

(٥٦) نخبة الدهر ، للدمشقي ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

تفصيلات الدمشقي . وقد ختم الدمشقي حديثه عن البحيرات بقوله ان عددها يبلغ ثلاث وتسعون بحيرة .

ب - جغرافية الانهار :

لقد حفلت كتب الجغرافية العربية بالكلام عن الانهار . وكانت لدى الجغرافيين العرب والمسلمين معلومات طيبة عن الانهار الكبرى في العالم القديم ، وكان غالبيتهم يحدد منابعها بشكل دقيق . ومن الحقائق المعروفة لدى الجغرافيين العرب والمسلمين عن الانهار ان الامطار والثلوج والينابيع هي المسؤولة عن تغذيتها بالماء. والواقع ان مؤلفات الجغرافية العربية بذلت اهتماماً خاصاً بمصادر المياه عند الكلام عن المواضع والمدن . ولعل طبيعة البلاد العربية التي يسودها الجفاف هي التي وجهت الجغرافيين العرب الاوائل الى الاهتمام بتتبع الانهار في كل موضع تحدثوا عنه . فقد أفرد كتاب (الاعلاق النفيسة) مثلا فصلا خاصاً للحديث عن أنهار العالم الاسلامي ، كبيرها وصغيرها ، مع التأكيد على صفات اوديتها ومواضع جريانها ومنابعها ومصباتها[٥٧] . كذلك خصص ابن خرداذبة في كتابه (المسالك والممالك) فصلا خاصاً بعنوان (مخارج الانهار) ، حدد فيه منابع جميع الانهار المعروفة في العالم الاسلامي ومصباتها ، بما فيها الانهار الصغيرة ، وتكلم بايجاز عن أوديتها[٥٨] .

أما سهراب فقد حاول في كتابه (عجائب الاقاليم السبعة) أن يلمّ بجميع أنهار الارض المعمورة بما تشتمل عليه من روافد وفروع ، مع تحديد مواضعها من خطوط الطول والعرض ، وقد فصّل الكلام عن أنهار العراق على نحو الخصوص[٥٩] .

وعني المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) بالتحدث عن الانهار أيضاً ، فأفرد لها فصلا موجزاً في مقدمة كتابه وشرح مخارجها ومصباتها ومجاريها ، الا انه أهمل ذكر كثير من الأنهر . وقد لخص لنا الانهار المعروفة في عهده بما يلي : « وأما الانهار الفائقة في المملكة فالمشهور منها فيما رأيت وميزت اثني عشر ، دجلة والفرات والنيل وجيحون ونهر الشاش وسيحان وجيحان وبردان مهران ونهر الرسّ ونهر الملك ونهر الأهواز يجري فيها السفن . ودونها خمسة عشر أخرى نهر المروين ونهر هراة ونهر سجستان ونهر بلخ

(٥٧) الاعلاق النفيسة ، لابن رستة ، ص ٨٩ - ٩٩ .
(٥٨) المسالك والممالك ، لابن خرداذبة ، ١٧٣ - ١٨٠ .
(٥٩) كتاب عجائب الاقاليم السبعة - لسهراب ، ص ١١٨ - ١٥٥ .

ونهر الصفد وطيفوري وزندرود ونهر العباس ونهر بردى ونهر الاردن ونهر المقلوب ونهر انطاكية ونهر ارجان ونهر شيرين ونهر سمندر . ثم ما بعدهن صغار نذكر بعضهم في الاقاليم مثل نهر طاب والنهروان والزاب ونظائرهن »[٦٠] .

أما المسعودي فبالرغم من انه شرح الانهار في الجزء الاول من موسوعته (مروج الذهب) شرحاً مفصلاً ، لكنه اهمل ذكر كثير من الانهار المعروفة[٦١] ، غير انه أشار الى ملاحظة بارعة جداً في جيومورفولوجية الانهار حيث ذكر « بان للانهار شباباً وهرماً وحياة وموتاً ونشوراً كما يكون ذلك في الحيوان والنبات »[٦٢] . ومن المعلوم ان هذه الفكرة اصبحت في الجغرافية الحديثة من مبادىء جيومورفولوجية الانهار .

وأكد اخوان الصفا في رسائلهم من (الجسمانيات الطبيعيات) على طبيعة هيدروغرافية الانهار . وبينوا ان اكثرها يبتدىء من الجبال والتلال ويمر في جريانه نحو البحار والآجام والبحيرات ، وان الامطار والثلوج تقوم بتزويدها بالمياه . وشرحوا ايضاً اسباب جريان بعض الانهار المعروفة نحو الشمال او نحو الغرب . والواقع ان شرحهم للانهار لا يكاد يختلف عن الشرح الحديث . ومما قالوه في ذلك[٦٣] :

« واعلم ان الاودية والانهار تبتدىء من الجبال والتلال وتمر في جريانها نحو البحار والآجام والغدران والبطائح والبحيرات . فمنها ما هو انهار طوال جريانها من المشرق الى المغرب كنهر مأوند من سجستان فانه يبتدىء من جبال باميان وجبال تمور ويمر نحو المغرب الى تربة كرمان ثم الى بحر هرمز . ومنها ما يمر في جريانه نحو المشرق كالأرس والكرسي وهما نهران ببلاد آذربيجان ابتداؤهما من جبال الروم ويمران متوجهين نحو المشرق الى بحر طبرستان فينصبان فيه . ومنها ما جريانه من الجنوب الى الشمال نحو نيل مصر فانه يبتدىء من جبال القمر من وراء خط الاستواء ويمر في جريانه متوجهاً نحو الشمال الى ان ينصب في بحر الروم . ومنها ما يكون جريانه من الشمال الى الجنوب مثل دجلة فانها تبتدىء من جبال نصيبين وتمر في جريانها الى الجنوب ثم تنصب الى بحر فارس بعبادان . ومنها ما يكون جريانه متوجهاً في احدى نكباوات مثل جيحون خراسان والفرات ، وذلك ان جيحون يبتدىء من جبال صنعانيان ويمر متنكباً

(٦٠) أحسن التقاسيم ، للمقدسي ، ص ١٩ - ٢٠ .
(٦١) مروج الذهب ، للمسعودي ، جـ ١ ، ص ٨١ - ٨٧ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٦٣) رسائل اخوان الصفا - الجزء الثاني ، ص ٨٧ - ٨٨ .

للغرب والشمال وينصب الى بحر جرجان بشمال بلاد خوارزم ، والفرات يبتدىء من جبال الروم ويمر متنكباً للمشرق والجنوب وينصب الى بحر فارس من عبادان . وعلى هذا المثال سائر الانهار في الجريان .

وأما علة مدود أكثر الانهار التي جريانها من الشمال الى الجنوب في أيام الربيع فهي من أجل ان الثلوج اذا كثرت في الشتاء على رؤوس الجبال الشرقية ثم حمي الجو بقرب الشمس من سمتها ، ذابت تلك الثلوج وسالت منها الاودية والانهار . وأما علة مد نيل مصر في أيام الصيف فهو من أجل ان هذا النهر يجري من الجنوب الى الشمال ومبدأ جريانه من وراء خط الاستواء حيث يكون الشتاء عندنا يكون صيفاً هناك ، وفي الصيف عندنا يكون الشتاء هناك فتكون في ذلك الوقت كثرة الأمطار هناك . ولهذه الأنهار عطفات وعراقيل يطول شرحها وشرح علتها وهي تسقي في جريانها السوادات والمزارع والمدن والقرى ، وما يفضل من مياهها ينصب الى البحار والآجام والبطائح والبحيرات ويمتزج بمياهها عذبة كانت أو مالحة . فاذا اشرقت عليها الشمس والكواكب سخنتها وحميت ولطفت وتحللت وصارت بخاراً فارتفعت في الهواء وتموجت الى الجهات ويكون منها الرياح والغيوم والضباب والطل والندى والصقيع والانداء والثلوج والبرد على رؤوس الجبال والبراري والعمران والخراب .

وأما الامطار التي تكون على رؤوس الجبال فانها تفيض في شقوق تلك الجبال وخللها وتنصب الى مغارات وكهوف وأهوية هناك وتمتلىء وتكون كالمخزونة ، ويكون في اسفل تلك الجبال منافذ ضيقة تمر منها تلك المياه وتجري وتجتمع وتصير اوديةوانهاراً وتذوب تلك الثلوج على رؤوس تلك الجبال وتجري الى تلك الاودية وتمر في جريانها راجعة نحو البحار ثم تكون فيها البخارات والرياح والغيوم والامطار كما كان في العام الاول وذلك تقدير العزيز العليم » .

ولقد أفرد أبو الفداء في كتابه (تقويم البلدان) فصلاً خاصاً عن الانهار . واعتذر منذ البداية « بأن الانهار من الكثرة على حد لا يبلغ الانسان الاحاطة بجميعها وانما المذكور بعض »(٦٤) . ثم فصل الحديث في الانهار الكبرى لا سيما نهر النيل . وتعتبر تفصيلاته عن الانهار ، وهي تلخيص لجميع ما ورد ذكره في كتب الجغرافيين المسلمين الاوائل ، من أفضل الكتابات الجغرافية عن الانهار . ومن مزاياها انها لم

(٦٤) تقويم البلدان ، لابي الفدا ، ص ٤٤ .

تهمل ذكر انهار أي بلد اسلامي مهما كانت صغيرة ، كما انها عنيت بذكر الروافد والفروع الصغيرة ايضاً(٦٥) . ومن أمثلة ذلك وصفه لنهر الفرات حيث قال(٦٦) :

« نهر الفرات أوله من شمالي مدينة ارزن الروم وشرقيها ، وارزن في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق وهي من حيث الطول اربع وستون والعرض اثنتان واربعون ونصف . ثم يأخذ الى قرية ملطية حيث الطول احدى وستون والعرض سبع وثلاثون ، وقيل تسع وثلاثون ثم يأخذ الى سميساط عند طول اثنتين وستين وعرض سبع وثلاثين ، ثم يأخذ مشرقاً ويتجاوز قلعة الروم وهي حصن منيع على جنوبي الفرات وغربيها . وتمر الفرات مع جانب الحصن من شماليه وشرقيه ثم تسير الى البيرة وهي على جانب الفرات من شماليها . ثم تمر مشرقاً حتى تتجاوز بالس وقلعة جعبر وتتجاوزها الى الرقة حيث الطول ثلاث وستون والعرض ست وثلاثون . ثم تسير مشرقاً وتتجاوز الرحبة من شمالي الرحبة وتسير الى عانة حيث الطول ثمان وستون ونصف والعرض ثلاث وثلاثون وعشر دقائق . ثم تسير الى هيت حيث الطول تسع وستون والعرض اثنتان وثلاثون . ثم تسير الى الكوفة حيث الطول تسع وستون ونصف والعرض احدى وثلاثون وخمسون دقيقة . ثم تسير مشرقاً وتصب في البطائح حيث الطول ثلاث وسبعون درجة (وعن سليمان بن مهنا ان بجانبي الفرات سعة الى قائم عنقا . وفي قائم عنقاً تدخل في واد الى عانة الى حديثة الى هيت الى الانبار . ومن هيت تخرج الى فضاء العراق والسهول) . ويصب في الفرات ويخرج منها انهار كثيرة ، فمن الانهار التي تصب فيها نهر شمشاط وهو نهر يمر على شمشاط ثم يمر على حصن زياد وهو خرت برت ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية . ويصب في الفرات أيضاً نهر البليخ وأول البليخ من أرض حران من عين يقال الذهبانية ، ويسير مشرقاً ويمر على ظهر مدينة الرقة من شماليها ثم يصب في الفرات اسفل من الرقة . يصب في الفرات أيضاً نهر الخابور ، واول الخابور من رأس عين يقال لها عين الزاوية ، ويسير نهر الخابور حتى يمر على قرقيسيا حيث الطول اربع وستون وثلثان والعرض اربع وثلاثون وثلث ويصب عندها في الفرات . ويصب الى الفرات ايضاً نهر الهرماس وأوله من أرض نصيبين ثم يسير ويتشعب منه نهر الثرثار ، ويمر الثرثار بالحضر وبرية سنجار ويصب في دجلة عند تكريت . وأما الهرماس فيمر بعد خروج نهر الثرثار منه ويصب

(٦٥) المصدر السابق ، ص ٤٤ - ٦٤ .
(٦٦) المصدر السابق ، ص ٥١ - ٥٣ .

في الخابور قبل وصوله الى قرقيسيا ، ويصير الهرماس والخابور نهراً واحداً ويصبان في الفرات عند قرقيسيا . ويحمل من الفرات عدة أنهار فمنها نهر عيسى ومخرجه من الفرات عند طول ثمان وستين وعرض اثنتين وثلاثين وذلك أعني مخرجه من قبالة الكوفة من موضع يقال له دهماً ، وقيل مخرجه من قرب الانبار تحت قنطرة دهما (واخبر سليمان ابن مهنا ان مخرج نهر عيسى تحت الانبار بالقرب منها تحت ضيعة يقال لها الفلوجة . قال وفي ايام نقص الفرات ينقطع جريان نهر عيسى وتسقى البساتين التي عليه بالدواليب من مستنقعات تبقى في النهر المذكور) . ويسير الى بغداد فاذا وصل الى المحول تفرع منه عدة انهر ويصب في جوف الجانب الغربي من بغداد في دجلة ونسبته الى عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس وهو عم المنصور . ومنها نهر صرصر ومخرجه من الفرات تحت مخرج نهر عيسى ويسير في سواد العراق الذي بين بغداد والكوفة حتى يصل الى صرصر ويسقي ما عليه من البلاد ، ويصب في دجلة بين بغداد والمدائن . ومنها نهر الملك ومخرجه تحت نهر صرصر ويسقي ما عليه من سواد العراق ويصب في دجلة تحت المدائن . ومنها نهر كوثي ومخرجه من تحت نهر الملك وكذلك يسقي سواد العراق ويصب في دجلة تحت مصب نهر الملك . واذا جاوزت الفرات نهر كوثي بستة فراسخ انقسمت قسمين ومر احدهما وهو الجنوبي الى الكوفة ويتجاوزها ويصب في البطائح ، ويمر الآخر وهو اعظمها بازاء قصر ابن هبيرة عند طول سبعين ونصف وعرض اثنتين وثلاثين وخمس واربعين دقيقة ويعرف هذا القسم الاعظم الثاني بنهر سورا ويتجاوز قصر ابن هبيرة ويسير جنوباً الى مدينة بابل القديمة عند طول سبعين وعرض اثنتين وثلاثين درجة وخمس عشرة دقيقة . ويتفرع من نهر سورا المذكور بعد ان يتجاوز بابل عدة انهار ويمر عموده الى مدينة النيل وتسمى من بعد النيل نهر الصراة ثم يتجاوز النيل ويصب في دجلة . وسورا بضم السين المهملة وآخره الف تمد وتقصر وهي قرية على هذا النهر نسب النهر اليها » .

أما العمري في كتابه (مسالك الابصار) فقد عالج موضوع الانهار بالتفصيل حسب ارباع الارض المعمورة ، الشرقي ثم الغربي ثم الشمالي ثم الجنوبي . واسرف في الكلام على نهر النيل بشكل خاص . ويبدو انه اعتمد اعتماداً كبيراً على آراء بطليموس في هذا الموضوع ، فقد ختم حديثه عن الانهار قائلاً : « وهكذا صورها صاحب الجغرافيا في لوح الرسم »(٦٧) .

(٦٧) مسالك الابصار ، للعمري ، ص ٦٦ - ٨٦ .

كذلك فصل النويري في كتابه (نهاية الارب) الكلام عن انهار العالم الاسلامي وشرح ما يلحق بها من الغدران والعيون(٦٨) .

ولقد كان الدمشقي (شيخ الربوة) اكثر الجغرافيين المتأخرين اهتماماً بموضوع الانهار ، فقد أفرد في كتابه (نخبة الدهر) فصلاً ضافياً عن انهار العالم الاسلامي وذكر كل ما يتعلق بها من معلومات . ولم تشمل شروحه الكلام عن طوبوغرافية الانهار فحسب ، بل تعدتها الى شرح نظام الدورة المائية باكملها وربط هيدروغرافية الانهار بها . ويمكن القول ان الدمشقي كان من الجغرافيين القلائل الذين خاضوا في هذا الموضوع النظري ، وان شروحه لا تختلف كثيراً عن الشروح الحديثة لأطوار الدورة المائية(٦٩) . قال الدمشقي :

« اختلف العلماء في ملة كون الماء وملة كون نبعه من الارض . فقال بعضهم ان المطر اذا وقعت على الارض واجتمعت منه مياه كثيرة ووجدت لها الجريان والسيلان سبيلاً جرت سيولاً ومدوداً ، اذ من شأن الماء الانحدار والانصباب ، وان اتفق انها تنحصر بين أطراف مرتفعة تمنعها من السيلان بقيت محقونة . فان كانت تلك الارض المحاصرة لها رخوة ويحللها ذلك الماء الى ارض اسفل منها صلبة لا يقدر على نفوذها وقف ، ثم تموج واضطرب طلباً للخروج حتى يخرق بها خرقاً فيسمى ذلك الخرق عيناً ، فان سالت سميت جدولاً ان كان قليلاً ، وان كان كثيراً سمي نهراً . وان اجتمعت من المطر منه جمل وسالت بكثرة سميت سيلاً . وكلما كانت الامطار أكثر كانت الماء اغزر . وقال آخرون ان علة تكون الماء وتكثرها انما هو من عصارات الارض ومخازنها المجموعة فيها من مياه الامطار ورطوبات الابخرة الندية المسماة الندى . وذلك ان الرطوبات والعصارات المذكورة تحركها حرارة الشمس وسخونة الارض المستكنة في أعماقها فيلطف جوهر تلك العصارات بهذا التحريك المذكور فيرقى بخاراً حاراً رطباً ، ويقوى ترطيبه عندما يصل في ارتقائه من الزمهرير في الجو ويصير به بارداً رطباً . فينعقد هناك اجزاء مائية مبثوثة . ثم اذا انعقد ذلك جمعته الرياح وأمدرته مطراً . فتأخذ الارض حينئذ منه حاجتها فتجنه في دواخلها ثم يسيح الباقي منه سيولاً ومدوداً على وجهها سيحا ويستجن منه ايضاً في شراياناتها ونفاخاتها ما يستجن وتقبل منه وهداتها ما تقبل غدراناً ومخازن والباقي الفاضل ينصب الى البحار المالحة فيختلط

(٦٨) نهاية الارب ، للنويري ، ص ٢٥٠ - ٢٦٣ .
(٦٩) نخبة الدهر ، للانصاري الدمشقي ، ص ٨٨ - ١٢٦ .

بها . ثم يعود عليه ذلك التحريك الكائن من حرارة الشمس والحر المستجن ببطن الارض فتحرك تلك الاجزاء والعصارات والمياه المختلطة بمياه البحار المالحة فتعود راقية كالاول الى أن يصير مطراً وسيلاً وفضالات محتضنات كالاول ، وهذا دأبها »(٧٠) .

ولا بد لنا من الاشارة اخيراً الى رأي الجغرافيين المسلمين في العيون والينابيع . فقد اجمعوا على كونها تصدر من مستودعات في باطن الارض ، وان تلك المستودعات تنشأ عن مياه الامطار والثلوج التي تتسرب من الشقوق والمسام ومن بخار الماء المتكاثف بسبب حرارة باطن الارض . وقد حاول بعض الكتاب تفسير ظاهرة العيون الحارة ، وورد هذا التفسير في (رسائل اخوان الصفا) على النحو التالي : « أما علة حرارة مياه أكثر العيون في الشتاء وبردها في الصيف فهي من أجل كون الحرارة والبرودة ضدين لا يجتمعان في مكان واحد . فاذا جاء الشتاء وبرد الجو فرت الحرارة فاستجنت في باطن الارض وسخنت تلك المياه التي في باطنها وعمقها . فاذا جاء الصيف وحمي الجو فرت البرودة واستجنت في باطن الارض وبردت تلك المياه في باطنها وعمقها . وأما علة حرارة بعض العيون في الشتاء والصيف على حالة واحدة فهي ان في باطن الارض وكهوف الجبال مواضع تربتها كبريتية فتصير تلك الرطوبات التي تنصب هناك دهنية ، وتكون الحرارة التي فيها راسية دائماً بينها او فوقها مياه في جداول وعروق نافذة فتسخن تلك المياه بمرورها هناك وجوازها عليها ، ثم تخرج وتجري على وجه الارض وهي حارة حامية ، فاذا اصابها نسيم الهواء وبرد الجو بردت وربما جمدت »(٧١) .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
(٧١) رسائل اخوان الصفا ، ص ٨٥ .

- ٣ -

الحقل الجيومورفولوجي

١ ـ التفصيلات الطوبوغرافية :

لقد وردت التفصيلات الطوبوغرافية في كتب الجغرافية العربية بشكل ثانوي . وبالرغم من ان طبيعة الجغرافية الوصفية تقتضي الاهتمام بتلك التفصيلات ، لكن الجغرافيين المسلمين عموماً لم يوجهوا نحوها عناية كافية . ولعل اكثر الجغرافيين العرب والمسلمين الاوائل اهتماماً بتلك التفصيلات هو ابن حوقل . فقد كان يعنى بذكر السهول والجبال والصحاري عناية خاصة . وقد حدد في خرائطه التي رسمها للاقاليم المختلفة سلاسل الجبال بحدود واضحة . ومن أمثلة تفاصيله الطوبوغرافية ما ذكره عن اقليم الجبال حيث قال: « والغالب على هذه المدن المذكورة والنواحي الموصوفة الجبال الشاهقة العالية والاوكار الصعبة من حد شهرزور الى آمد فيما بين حدود اذربيجان والجزيرة ونواحي الموصل . وهو من طولها وربما كان عرضها في غير موضع الثلاثين ٣٠ فرسخاً والى الاربعين وأزيد وانقص فلا يرى فيها مرحلة واحدة في سهل »(٧٢) .

وكان المفروض ان يوجه الادريسي في كتابه (نزهة المشتاق) اهتماماً اكبر نحو التفصيلات الطوبوغرافية لا سيما وانه قد درس الاقاليم الجغرافية السبعة للمعمورة بالتفصيل . لكن تفصيلاته الطوبوغرافية كانت في الحقيقة ثانوية للغاية ، حتى بالنسبة للبلدان التي يعرفها معرفة جيدة كأقطار المغرب العربي .

أما أبو عبيدالله البكري فقد حفل كتابه (المسالك والممالك) بتفصيلات طوبوغرافية جيدة ، لا سيما عن اقطار شمالي افريقيا ، مما جعله مرجعاً لكثير من الجغرافيين المتأخرين في كتاباتهم عن تلك البلدان(٧٣) .

(٧٢) صورة الارض ، لابن حوقل ، القسم الثاني ، ص ٣٧١ .
(٧٣) انظر كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، لابي عبيد الله البكري ، منشورات مكتبة المثنى ، عن طبعة لدى سلان ، ١٩٥٧ .

وأورد سهراب في كتابه (عجائب الاقاليم السبعة) قوائم مفصلة عن جميع الجبال المشهورة في الارض المعمورة حسب مواقعها من أقاليم الارض السبعة مع تحديد خطوط طولها وعرضها(٧٤) .

ولقد أفرد أبو الفداء في كتابه (تقويم البلدان) فصلاً ضافياً عن الجبال المشهورة ، ووصف كل جبل منها على انفراد وما يقع عليه من البلدان ، وما يسكنه من أقوام ، كما حدد طوله بالفراسخ او الدرجات . وركز أبو الفداء بشكل خاص على جبال جزيرة العرب المشهورة وجبال الشام وجبال المغرب(٧٥) . الا ان تفصيلاته المذكورة لم تكن في باب الدراسة الطوبوغرافية بل مجرد قائمة باسماء الجبال المشهورة في العالم العربي .

وقد حذا العمري في كتابه (مسالك الابصار) حذو ابي الفداء فأفرد فصلاً خاصاً في الكلام على الجبال ، لكن بحثه كان أكثر دقة وعلمية . فقد كان يبدأ بذكر الجبل أو السلسلة الاصيلة التي تتفرع منها السلاسل الجبلية الاخرى ، ثم يتحدث عن كل سلسلة حسب موقعها من ارباع المعمورة الاربعة ، فيصفها اولاً ثم يتحدث عن زراعاتها ومعادنها ومدنها(٧٦) . وقد استند العمري في شرحه لجبال المعمورة الى النظرية اليونانية القديمة التي كانت تعتقد بوجود حزام جبلي يطوق الارض من الغرب الى الشرق ، وان هذا الحزام هو مصدر تفرعات السلاسل الجبلية الاخرى . وقد أخذ الكثير من الجغرافيين العرب والمسلمين الاوائل بهذه النظرية واطلقوا على تلك السلسلة اسم (جبل قاف) . قال العمري : « ان الجبال كلها متشعبة من الجبل المستدير بغالب معمور الارض وهو المسمى بجبل قاف وهو أم الجبال ، كلها تتشعب منه فتتصل في موضع وتنقطع في آخر . وهو كالدائرة لا يعرف له أول على التحقيق ، وقد زعم بعضهم ان امهات الجبال جبلان ، خرج احدهما من لدن البحر المحيط في المغرب واخذ جنوباً ، وخرج الآخر من البحر الرومي واخذ شمالاً حتى تلاقيا عند السد . وسموا الجنوبي قاف ، وسموا الشمالي جبل فاقونا »(٧٧) .

ولقد أشار أبو الريحان البيروني أيضاً في كتابه عن الهند الى تلك السلسلة الجبلية

(٧٤) راجع كتاب (الاقاليم السبعة) لسهراب ، ص ٨٢ - ١١٧ .
(٧٥) تقويم البلدان ، لابي الفدا ، ص ٦٤ - ٧٢ .
(٧٦) مسالك الابصار ، للعمري ، ص ٤٦ - ٥١ .
(٧٧) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

العظيمة التي تطوق المعمورة من الغرب الى الشرق ، حيث قال : « وبعد ذلك فتصور في المعمورة جبالاً شاهقة متصلة كأنها فقار ظهر تمتد في أواسط عروضها على الطول من المشرق الى المغرب فتمر على الصين والتبت والاتراك ثم بذخشان وطخارستان وباميان والغور وخراسان والجبل واذربيجان وأرمينيا والروم وفرنجة والجلالقة ، ولها في امتدادها عرض ذو مسافة وانعطافات تحيط ببراري وسكان فيها ويخرج منها انهار الى كلتا الجهتين »(٧٨) .

والواقع ان الجانب الطوبوغرافي في هذه الفكرة قد لا يكون بعيداً عن الصواب ، وان كان أساس النظرية مخطوءاً ، فسلسلة الجبال الالتوائية الحديثة تكاد تمتد في وسط العالم القديم بالفعل . وهي تبدأ عملياً عند البحر المحيط في المغرب (المحيط الاطلسي) ، وتمتد تشعباتها في شمال أفريقيا وفي شبه جزيرة ايبريا وايطاليا وسويسرا وشبه جزيرة البلقان في أوربا ، ثم تواصل امتداداتها في قارة آسيا في شبه جزيرة الاناضول ثم في شمالي الهند وجنوبي الصين وفي أقطار الهند الصينية حتى تختفي اطرافها في المحيط الهندي ، فهذه السلسلة العظيمة وتفرعاتها قريبة الشبه من تلك السلسلة التي أشار أليها البيروني والعمري وبقية الجغرافيين المسلمين .

الملاحظات الجيومرفولوجية :

عالج الجغرافيون المسلمون بعض الجوانب النظرية في حقل الجيومورفولوجيا بالاضافة الى الجوانب العملية للموضوع . الا ان علاجهم هذا كان عرضياً ولم يرد على أساس نظريات جديدة في علم الجغرافيا . وقد تأثروا الى حد غير قليل بالآراء والنظريات اليونانية والرومانية .

ويقف البيروني في المقدمة بين الجغرافيين العرب والمسلمين في ملاحظاته الجيومورفولوجية الذكية . فقد فطن في استعراضه لطوبوغرافية بلاد السند الى التكوين الجيولوجي الخاص لهذا السهل ، واعتقد انه لا بد ان يكون حوضاً بحرياً قديماً قد طمرته الترسبات . ولم يكن البيروني في ملاحظته هذه بعيداً عن الحقيقة . قال « وارض الهند من تلك البراري يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور ، ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ واليها مصاب مياهها . واذا تفكرت عن المشاهدة فيها وفي احجارها المدملكة الموجودة الى حيث يوجد الحفر عظيم بالقرب من الجبال وشدة جريان مياه

(٧٨) كتاب الهند ، للبيروني ، ص ١٥٧ .

الانهار وأصغر عند التباعد وفتور الجري ورمالاً عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر ، لم تكن تتصور أرضه الا بحراً في القديم قد انكبس بحمولات السيول »[٧٩] .

ومن الجدير بالملاحظة ان البيروني قد فطن ايضاً الى عملية الترسيب النهري لا سيما عند اقتراب النهر من مصباته في المغايض او البحار . وللبيروني ملاحظات بارعة اخرى تتعلق باختلاف توزيع اليابس والماء على مر الازمان الجيولوجية . وملاحظاته تلك لا تختلف بشيء عن حقائق العلم الحديث ، قال : « لا ينتقل البحر الى البر والبر الى البحر في أزمنة ان كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة وان كانت بعده فغير محفوظة ، لان الاخبار تنقطع اذا طال عليها الامد وخاصة في الاشياء الكائنة جزءاً بعد جزء بحيث لا تفطن لها الا الخواص . فهذه بادية العرب وقد كانت بحراً فانكبس حتى ان آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها فانها تبدي أطباقاً من تراب ورمال ورضراض ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع ان يحمل على دفن قاصر اياها هناك بل يخرج منها احجار اذا كسرت كانت مشتملة على اصداف وودع وما يسمى آذان السمك أما باقية على حالها وأما بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاء متشكلاً بشكلها »[٨٠] .

وقد اشتمل هذا الكلام ايضاً على اشارة ذكية الى أهمية الحفريات والتحجرات في تقرير تاريخ الصخور والطبقات الارضية ، وهذا المبدأ من أهم مباديء « علم الطبقات الارضية » الحديث .

ولقد ساهم « اخوان الصفا » بدورهم مساهمة هامة في تنمية الجانب النظري في حقل الجيومورفولوجيا بآرائهم القويمة عن العمليات الجيومورفولوجية . فقد أكدوا على أثر عامل التعرية والنحت في التضاريس الارضية ، وبينوا اختلاف توزيع اليابس والماء على مر العصور الجيولوجية ، ووضحوا نشوء السهول الرسوبية البحرية ، وناقشوا مسألة تكون الجبال الالتوائية . وهكذا يتضح انهم قد اشاروا الى اهم النقاط التي يعنى علم الجيومورفولوجيا الحديث بدراستها . قال اخوان الصفا في رسالتهم الخامسة من (الجسمانيات الطبيعيات) : « واعلم يا اخي ان الاودية والانهار كلها تبتديء من

(٧٩) كتاب الهند ، للبيروني ، ص ١٥٧ .
(٨٠) راجع كتاب نفيس أحمد ، ص ٦٨ .

الجبال والتلال وتمر في مسيلها وجريانها نحو البحار والآجام والغدران ، وان الجبال من شدة اشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الدهر تنشف رطوبتها وتزداد جفافاً ويبساً وتنقطع وتنكسر وخاصة عند انقضاض الصواعق وتصير احجاراً وصخوراً أو حصى ورمالاً . ثم ان الامطار والسيول تحط تلك الصخور والرمال الى بطون الاودية والانهار ويحمل ذلك شدة جريانها الى البحار والغدران والآجام . وان البحار لشدة امواجها وشدة اضطرابها وفورانها تبسط تلك الرمال والطين والحصى في قعرها سافاً على ساف بطول الازمان والدهور ويتلبد بعضها فوق بعض وينعقد وينبت في قعور البحار جبالاً وتلالاً كما تتلبد من هبوب الرياح دعاص الرمال في البراري والقفار . واعلم يا اخي انه كلما انطمت قعورها من هذه الجبال والتلال التي ذكرنا انها تنبت ، فان الماء يرتفع ويطلب الاتساع وينبسط على سواحلها نحو البراري والقفار ويغطيها الماء . فلا يزال ذلك دأبه بطول الزمان حتى تصير مواضع البراري بحاراً ومواضع البحار يبساً وقفاراً . وهكذا لا تزال الجبال تنكسر وتصير احجاراً وحصى ورمالاً تحطها سيول الامطار وتحملها الى الاودية والانهار بجريانها حتى البحار وتنعقد هناك كما وصفنا وتنخفض الجبال الشامخة وتنقص وتقصر حتى تستوي مع وجه الارض . وهكذا لا يزال ذلك الطين والرمال تنبسط في قعر البحار وتتلبد وتنبت عنها التلال والروابي والجبال ، وينصب من ذلك المكان حتى تظهر تلك الجبال وتنكشف هذه التلال وتصير جزائر وبراري ويصير ما يبقى من الماء في وهادها وقعورها بحيرات وآجاماً او غدراناً وينبت فيها القصب والوحال . فلا تزال السيول تحمل الى هناك الطين والرمال والوحول حتى تجف تلك المواضع وتنبت الاشجار والعكرش والعشب وتصير مواضع للسباع والوحوش . ثم يقصدها الناس لطلب المنافع والمرافق من الحطب والصيد وغيرها . وتصير مواضع الزروع والغروس والنبات بلداناً وقرى ومدناً يسكنها الناس »[٨١] .

وألف عمر الخيام الملقب بعمر العالم والمتوفي عام ٥٢٦ هجرية رسالة بعنوان « تراجع البحار » برهن فيها على تقلص البحار في جهات شرقي آسيا ، وأقام براهينه على ما تخلف في تلك الجهات من ينابيع ملحية وسبخات وكذلك على وجود بحر قزوين .

وساهم المسعودي أيضاً في الجانب النظري من حقل الجيومورفولوجيا . فقد أشار

(٨١) رسائل اخوان الصفا ، الجزء الثاني ، ص ٨١ - ٨٢ .

في موسوعته (مروج الذهب) الى مسألة اختلاف توزيع اليابس والماء عبر الازمان الجيولوجية والى نشوء السهول الرسوبية البحرية حيث قال : « فليس موضع البر ابداً براً ولا موضع البحر أبداً بحراً ، ويكون بحراً حيث كان مرة براً ، ويكون براً حيث كان مرة بحراً »[٨٢] . كذلك أشار في كتابه (التنبية والاشراف) الى أهمية اختلاف التضاريس الارضية . فقد قال : « فجعل عز وجل منها انجاداً ومنها اغواراً ومنها انشازاً ومنها مستوية . واما انشازها فمنها الجبال الشامخة ومنافعها ظاهرة في قوة وتحدر السيول منها فتنتهي الى الأرضين البعيدة بقوة جريها ولتقبل الثلوج فتحفظها الى ان تنقطع مياه الامطار وتذيبها الشمس فيقوم ما تحلب منها مقام الامطار . ولتكون الآكام والجبال في الارض حواشر للمياه لتجري من تحتها ومن شعوبها واوديتها فيكون منها العيون الغزيرة ليعتصم بها الحيوان ويتخذها مأوى ومسكناً ولتكن مقاطع ومقاتل وحواجز بين الارض من غلبة مياه الامطار عليها »[٨٣] .

وقد وردت ايضاً في كتابات الفيلسوف ابن سينا بعض الملاحظات الجيومورفولوجية الهامة ، لا سيما ما يتعلق منها بتكون الجبال وبأهمية عوامل التعرية ، فقد اشار الى ان الجبال تنقسم الى نوعين ، نوع ينشأ بسبب حركات رافعة كتلك التي تسبب الزلازل ، ونوع ينشأ عن فعل الرياح والمياه الجارية[٨٤] . ومن الواضح ان هذا التصنيف يقترب اقتراباً كبيراً من التصنيف الحديث للجبال . فالنوع الاول يدخل في صنف الجبال الالتوائية ، والنوع الثاني يدخل في صنف جبال التعرية . ولابن سينا ملاحظات هامة ايضاً عن أهمية عوامل التعرية ، فقد أكد بشكل خاص على بطء عملية النحت ، وعلى آثارها الطويلة الامد[٨٥] . واذا علمنا ان النظرية المتعلقة بالتضاريس الارضية التي سادت التفكير الجغرافي الجيولوجي حتى القرن السابع عشر كانت تؤمن بمبدأ « التغير السريع » أو « الثبات الدائم » في التضاريس الأرضية ، ادركنا أهمية الفكرة التي أكد عليها ابن سينا .

كذلك اهتم ابن سينا بتصنيف الصخور ، حيث صنفها الى صخور رسوبية وصخور نارية ، وشرح كيفية تكون كل منها ، وما يمر بكل منها من عمليات جيولوجية ، وقد

---

(٨٢) مروج الذهب ، للمسعودي ، جـ ١ ، ص ٨٠ .
(٨٣) التنبيه والاشراف ، للمسعودي ، ص ٢٥ .
(٨٤) قشرة الارض ـ للدكتور محمد صفي الدين ، منشورات مكتبة مصر ، ص ٩ .
(٨٥) المصدر السابق ، ص ٩ .

قاد هذا الاهتمام بعض العلماء العرب الى دراسة المعادن وتصنيفها حسب خصائصها الطبيعية والكيميائية .

أما الظواهر الجيولوجية الاخرى كالزلازل والبراكين فلم ترد عنها في ابحاث الجغرافية العربية الا اشارات خاطفة . ولعل أهمها تلك التي وردت في (رسائل اخوان الصفا) فقد اشاروا الى ظاهرة البراكين على النحو التالي : « واعلم ان في بعض المواضع يرى من بعيد على رؤوس الجبال وبطون الاودية نيران وضياء بالليل ودخان معتكر ساطع في الهواء ومرتفع في الجو ، وعلته ان في جوف الجبال كهوفا ومغارات وأهوية حارة ملتهبة تجري اليها مياه كبريتية او نفطية دهنية فتكون مادة لها رائحة وهي مثل التي بجزيرة صقلية وبجبل مزمهر من خوزستان »[٨٦] .

كذلك فسروا ظاهرة الزلازل على النحو التالي : « واما الكهوف والمغارات والاهوية التي في جوف الارض والجبال اذا لم يكن لها منافذ تخرج منها المياه بقيت تلك المياه هناك محبوسة زماناً . واذا حمي باطن الارض وجوف تلك الجبال سخنت تلك المياه ولطفت وتحللت وصارت بخاراً ، وارتفعت وطلبت مكاناً اوسع . فان كانت الارض كثيرة التخلخل تحللت وخرجت تلك البخار من تلك المنافذ . وان كان ظاهر الارض شديد التكاثف حصيناً منعها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج في تلك الاهوية لطلب الخروج وربما انشقت الارض في موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوي وهدة وزلزلة . وان لم تجد لها مخرجاً بقيت هناك محتبسة ، وتدوم تلك الزلزلة الى ان يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ »[٨٧] .

وقد أشار اخوان الصفا ايضاً اشارة سريعة الى اختلاف انواع الجبال من حيث طبيعة تكوينها حيث قالوا : « واعلم ان الجبال التي ذكرناها منها ما هو صخور صلدة وحجارة صلبة وصفوان املس فلا ينبت عليه النبات الا شيء يسير مثل جبال تهامة . ومنها ما هو صخور رخوة وطين لين وتراب ورمل وحصاة مختلفة متلبدة ساف فوق ساف متماسك الاجزاء ، وهي مع ذلك كثيرة الكهوف والمغارات والاودية والاهوية والعيون والجداول والانهار والاشجار كثيرة النباتات والحشائش والاشجار مثل جبال

---

(٨٦) رسائل اخوان الصفا ، ص ٨٤ .
(٨٧) المصدر السابق ، ص ٨٦ .

فلسطين وجبال لكام وطبرستان وغيرها »[89] .

تلك هي أهم المواضيع الطبيعية التي طرقتها الجغرافية العربية ، وقد تناولت كما وضحنا اهم النقاط التي تعالجها الجغرافية الطبيعية بمفهوم لا يختلف كثيراً عن المفهوم الحديث .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٨٤ .

الفصل الرابع

في أدب الرحلات الجغرافي

مما لا ريب فيه أن « الرحلات » كانت منذ بداية التفكير الجغرافي من أهم وسائل المعرفة الجغرافية ، وظلت «الاداة» الرئيسية للجغرافي حتى نهاية القرن الماضي . فالجغرافيون اليونانيون والرومانيون الكبار أمثال اراتوستيني وسترابو وبليني وبطليموس قد استعانوا بالرحلات استعانة كبيرة في جمع معلوماتهم الجغرافية ، وكذلك فعل الجغرافيون المسلمون الكبار أمثال اليعقوبي والاصطخري والمقدسي وابن حوقل والمسعودي والادريسي . ولقد ظل الكشف الجغرافي المعتمد على التجربة الشخصية من ابرز متطلبات الجغرافي الاوروبي لغاية بداية القرن العشرين حيث تمّ الكشف عن جميع مجاهل الارض عدا أجزاء قصية محدودة منها . وقد اعتمد رواد الجغرافية العلمية الحديثة من أمثال همبولدت HUMBOLDT وريتر RITTER وراتزل RATZEL وفيدال دي لابلاش VEDAL DE LA BLACHE على الرحلات الشخصية اعتمادا كبيرا .

أما ما يتعلق بالجغرافية العربية فكانت الرحلات تمثل في الحقيقة الهدف المركزي لها والعدة الاساسية للجغرافي ، ولا نكاد نلتقي بأي جغرافي عربي مرموق لم يكن قد اعتمد في كتاباته اعتمادا أساسياً على رحلاته الشخصية ، عدا بعض جغرافيي العصور المتأخرة . فالجغرافيون العرب والمسلمون عموماً هم « رحالة » أصلا . وكانت الظروف المادية عوناً لهم على القيام برحلاتهم الواسعة ضمن رقعة العالم الاسلامي الشاسعة التي كانت تربط بين أجزائها وحدة سياسية ودينية ولغوية . غير اننا لا بد أن نميز بين صنفين من الرحالة ، صنف يطوف البلدان لهدف علمي وذلك لكي يسجل المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية عنها تسجيلاً أميناً ، وينتمي الى هذا الصنف

الجغرافيون العلميون وصنف يسوح في الأمصار لغرض سياسي أو تجاري أو ديني ، ثم يدون ملاحظاته ومشاهداته في كتاب ، وينتمي الى هذا الصنف الرحالة الادباء ، حيث يغلب على هذا الضرب من « الرحلات » الطابع الأدبي . ومع أن كتابات كل من هذين الصنفين تؤدي في النهاية الى زيادة حصيلة المعلومات الجغرافية ، الا أن من الواضح ان هناك فروقاً جوهرية تميز بينهما، فكتابات الرحالة الجغرافي تحمل بذور « البحث العلمي » ، بما تنطوي عليه من استقصاء وبحث دائمين ، وملاحظاته تشمل كل ناحية من نواحي البلاد التي يحل فيها طبيعية كانت أم بشرية أم اقتصادية . أما كتابات الرحالة الاديب فذات أفق محدود وهي تكتفي بتسجيل مشاهد عابرة وملاحظات شاردة . فلا يمكننا اذن أن نطالب الرحالة بمثل ما نطالب به الجغرافي من دقة علمية واستقصاء عميق ، وغاية ما يطالب به أن يكون أميناً في نقل المشاهد التي تقع تحت أبصاره وان يرصد أكبر عدد منها مما يمكن ان يكون ذا فائدة علمية .

واذا كان أدب الرحلات الجغرافي قد ظهر بصورة مبكرة في ميدان الجغرافية العربية ، فانه لم يظهر كحقل متميز ذي سمات خاصة الآ في منتصف القرن السادس الهجري . ويعتقد كراتشوفسكي ان أولى المصنفات التي يمكن أن تكون بداية لهذا الضرب من الأدب الجغرافي هو كتاب الفقيه الاندلسي أبو بكر محمد بن العربي (٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م - ١٠٧٦/٥٤٣) المسمى (ترتيب الرحلة) ،وأن مؤلفه هو واضع أصول هذا الفن[1] ، غير أن من المتفق عليه بين الباحثين أن ابن جبير هو الاب الشرعي لهذا النمط من الفنون الادبية الجغرافية .

ومنذ البداية تفوّق المغاربة على المشارقة في هذا النوع من الكتابة . فما عدا نفر قليل جداً من المشارقة الذين اشتهرت (رحلاتهم) في العهود التالية ، كالسائح الهروي ، فان قائمة الرحالة المغاربة المشهورين تضم اسماء عديدة من أمثال ابن جبير وابن بطوطة وابن سعيد والعبدري والتجاني وغيرهم . ويمكننا ان ندرك سبب تفوق المغاربة في هذا الفن فيما لو بحثنا عن المحرك الرئيسي لتلك الرحلات . فلقد ذكر لنا جميع اولئك الرحالة بان هدفهم الاساسي كان حج بيت الله الحرام والدراسة على أيدي علماء الفقه المشهورين . وكانت مراكز العلوم الرئيسيةمبثوثة في جهات المشرق العربي

(١) كراتشكوفسكي ، ص ٢٩٨ .

ولا سيما في بغداد ودمشق والقاهرة ، كما أن الوصول الى مكة المكرمة والمدينة المنورة كان يتطلب اجتياز بلدان عربية واسلامية عديدة . وكان الحاج كثيراً ما يتخلف في تلك المراكز يغترف فيها من مناهل العلوم الشرعية والأدبية على أيدي علماء عصره ، وكان يحاول أثناء ذلك تقييد مقابلاته مع أولئك العلماء بالاضافة الى تسجيل مشاهداته في البلدان التي مر بها أو عاش فيها بعض الوقت . وبما أن الغرض الديني كان هدفه الاساسي ، لذلك حفلت تلك « الرحلات » بأنباء الفقهاء المشهورين والاولياء وأصحاب الكرامات ،وازدحمت باخبار المزارات والمساجد والمشاهد الدينية المشهورة . وكان الرحالة يتنافسون في ذكر أكبر عدد ممكن من الفقهاء والعلماء ورجال الدين الذين التقوا بهم ، وفي تعداد المساجد والمزارات التي شاهدوها . وقد لقيت كتاباتهم ذات النزعة الدينية اقبالا من جمهور القراء الذي كانت تغلب عليه الروح الدينية ، بالاضافة الى ما يتميز به هذا النوع من الكتابة من اثارة وتسلية . وقد شجع هذا الاقبال اولئك الرحالة على التركيز على النواحي الدينية واهمال المواضيع الاخرى ذات الجوانب الاجتماعية والاقتصادية ، بل واغفال الحديث عن المعالم الطبيعية للبلدان والمدن الا فيما ندر . كما ان البعض منهم اتجه بفن الرحلة اتجاها كوزموغرافيا ، وذلك بحشدها بمجموعة عظيمة من العجائب والغرائب ، وخصوصاً ذات الصفة الدينية ، استجلابا لاعجاب الجمهور ومماشاة للتفكير الديني السطحي السائد .

وبالنظر للاهمية الجغرافية لهذا الضرب من الفنون الادبية فلا بد لنا أن نقدم لدارسي الجغرافية العربية فكرة واضحة عنه . وخير ما نفعله في هذا الباب تقديم دراسة وافية عن أشهر رحلتين في الادب الجغرافي العربي وهما (رحلة ابن جبير) و (رحلة ابن بطوطة) واللتان تمثلان القمة في هذا الميدان . أما الرحلات المشهورة الاخرى فسنمر عليها مراً سريعاً محاولين ايضاح أبرز مقوماتها .

- ١ -

رحلة ابن جبير

لقد أصاب ابن جبير شهرة واسعة في أدب الرحلات العربي على الصعيد الاكاديمي حتى لقد اعتبر بعض الباحثين (رحلته) ارقى ما وصل اليه أدب الرحلات الجغرافي العربي[٢] .

ولقد استغرقت رحلته الاولى حوالي سنتين وثلاثة أشهر بدأها في يوم الاثنين التاسع عشر من شوال عام ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) وختمها في يوم الخميس الثاني عشر من محرم عام ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . ولقد غادر غرناطة الى سبتة ثم استقل منها مركباً جنويا فوصل الى الاسكندرية بعد حوالي شهر . وسافر منها الى القاهرة قاصداً ميناء عيذاب على البحر الاحمر ، فمر بمنفلوط وأسيوط واخميم وقنا وقوص . ومن عيذاب استقل مركباً من مراكب البجا الى جدة . وأقام في مكة حوالي تسعة أشهر ، وبعد فراغه من أداء الحج غادرها بصحبة موكب الحج العراقي مارا بالمدينة المنورة ، واجتاز الموكب الصحراء النجدية حتى وصل الى الكوفة ، ثم مر بالحلة فبغداد . ومكث ابن جبير في بغداد حوالي اسبوعين ثم واصل سفره الى بلاد الشام ، فمر بتكريت وسامراء والموصل ونصيبين وحران حتى بلغ حلب . وزار من مدن الشام حمص وحما وبانياس وصور ، وأقام في دمشق حوالي شهرين ونصف ، ثم استقل مركباً مسيحياً حمله الى بلده . واجتاز في طريقه جزيرة صقلية ، حيث اضطر الى النزول الى برّها والبقاء فيها لبضعة أيام .

تلك هي الرحلة التي سجل فيها ابن جبير مشاهداته ، وهي رحلته الاولى الى بلاد الشرق العربي . وقد قام برحلتين اخريين لم يدون اخبارهما ، الاولى حينما أعاد

---

(٢) حسين مؤنس ، ص ٣٨٤ .

صلاح الدين فتح بيت المقدس . وقد بدأها عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وختمها عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، والثانية حينما توفيت زوجته عاتكة ام المجد فحزن عليها حزناً شديداً وهجر موطنه عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وظل يتنقل بين فاس وسبتة والاسكندرية مزاولا التدريس حتى توفي عام ١٢١٧ م ودفن في الاسكندرية[٣] . ويعتقد بعض الباحثين ان مسجد سيدي جابر بالاسكندرية ربما كان مسجده وقد حرف العامة اسمه مع الزمن[٤] .

ويقول محقق (الرحلة) الدكتور حسين نصار ان عنوانها غير متفق عليه ، فهو في المخطوط يبتدىء بعبارة (تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار) وينتهي بعبارة (كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك)[٥] . ومما يضاعف صعوبة التوصل الى عنوانها الحقيقي ان محققها وناشرها الاصلي وهو ' . رايت William Wright (١٨٥٢) لم يعثر الا على نسخة خطية واحدة (وهي محفوظة في مكتبة جامعة لندن)[٦] ، وقد كتبها في مكة عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشي عام ٨٧٥ هـ وربما نقلها عن نسخة مغربية[٧] . لذلك فضّل رايت ان يختار للرحلة عنواناً عاماً فجعله (رحلة ابن جبير)[٨] . وقد جدد رايت تحقيق الرحلة فيما بعد وساهم معه مستشرقون آخرون ، وأعاد دي غويه De Gaeje طبعها عام ١٩٠٧ م . أما الطبعات التي ظهرت في العواصم العربية فقد نقلت عن الطبعات الاوروبية ، وقد تولى تحقيقها مجدداً الدكتور حسين نصار ونشرها في القاهرة عام ١٩٥٥ .

ولكي نقيّم الرحلة تقييماً صحيحاً ونحدد مكانتها بين الرحلات السابقة واللاحقة فسنتناول بالدرس النقاط التالية :

أولا ـ ثقافة الرحالة وأثرها في الرحلة .

ثانياً ـ أهداف ومضامين الرحلة .

---

(٣) نفيس أحمد ، ص ٧٩ .

(٤) الرحلات ـ باشراف الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦ (فنون الادب العربي ـ الفن القصصي) ، ص ٧١ .

(٥) رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، مكتبة مصر بالقاهرة ، ١٩٥٥ ، ص : هـ .

(٦) يقول كراتشكوفسكي انه عثر على مخطوطة اخرى للرحلة في مدينة فاس (كراتشكوفسكي ص ٣٠٠) .

(٧) المصدر السابق ، ص : و .

(٨) يعتقد كراتشكوفسكي ان عنوانها ربما كان (رحلة الكناني) (كراتشكوفسكي ص ٣٠٠) .

ثالثاً ـ قيمة الرحلة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ومكانتها في الأدب الجغرافي العربي .

أولا ـ ثقافة الرحالة وأثرها في الرحلة :

تكشف حياة ابن جبير عن اهتمامات مبكرة بحقلين هما علوم الدين والحديث وعلوم اللغة والادب . وقد أخذ علوم الدين عن أبيه وعن آخرين ، أما علوم العربية والادب فقد درسها على أيدي جمهرة كبيرة من العلماء[9] . وقد هيأ له تحصيله العلمي أن يتبوأ مركزاً طيباً بين كتاب بلده مما دعا حاكم غرناطة ابو سعيد بن عبد المؤمن الى اختياره كاتباً له .

ولقد طبع هذا الانصراف الى التحصيل العلمي ذهنية ابن جبير بطابع معين انعكست آثاره على « الرحلة » في جانبين ، جانب يمس اسلوبها والآخر يتصل بمنهجها ومواضيعها .

فأما أسلوب « الرحلة » فيكاد يجمع الباحثون انه من أفضل أساليب كتب الرحلات العربية القديمة ، اذ ان ابن جبير كان يعنى بلغته وتصويره عناية فائقة . ولقد اعتبرها كراتشكوفسكي ذروة ما بلغه نمط « الرحلة » في الأدب الجغرافي العربي من الناحية الفنية[10] . والواقع ان ابن جبير كان بتصويره الحي الجذاب أقرب الى فنان بارع منه الى رحالة اعتيادي . وبالرغم مما كان يشوب أسلوبه من سجع متكلف أحياناً ، وهي احدى سمات الكتابة الادبية في ذلك العصر ، لكنه يكشف في الوقت ذاته عن التفاتات رائعة تنم عن موهبة ادبية اصيلة . ومن أمثلة أوصافه الرائعة تصويره للعاصفة البحرية التي عصفت بمركبهم بين صور وصقلية[11] ، وحديثه عن أهوال عبور البحر الاحمر (بحر فرعون)[12] ، ووصفه للمخاطر التي ألمت بمركبهم عند انطلاقه من سبتة[13] . وتبرز براعته الفنية ايضا في وصفه للمدن الكبرى وصفاً حياً ودقيقاً وواضحاً ، الا ان اهتمامه بالجانب الادبي قد جاء في بعض الحالات على حساب

(٩) راجع المصدر السابق ، ص : ج .

(١٠) كراتشكوفسكي ، ص ٣٠١ .

(١١) رحلة ابن جبير ، منشورات دار التراث ـ بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٩ .

(١٣) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

الجانب الجغرافي . فكثيراً ما ألحق بالمدن أوصافاً لا تساعد بأية حال من الاحوال على توضيح معالمها الجغرافية وان كانت ذات نكهة أدبية جذابة . مثال ذلك مقدماته في وصف بغداد ودمشق وحلب . قال يصف بغداد :

« هذه المدينة العتيقة وان لم تزل حاضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القرشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهير اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه أنحت الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس ، والاثر الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز العقلة والنظر الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين أو العقد المنتظم بين لبّتين ، فهي تردها ولا تظمأ وتتطلع منها في مرآة صقيلية لا تصدأ ، والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشأ ، هو من ذلك على شهرة في البلاد معروفة موصوفة ، ففتن الهوى الا ان يعصم الله منها مخوفة »[14] .

ولقد أغرى نجاح ابن جبير من الناحية الفنية عدداً من الرحالة والكتّاب على اقتباس اجزاء من رحلته وتضمينها كتبهم ورحلاتهم ، ولا سيما ما يتعلق بوصف المدن ، ومن أمثلتهم الرحالة المشهور ابن بطوطة الذي اقتبس وصف الاسكندرية وبغداد ودمشق ووصف الطريق بين المدينة والكوفة .

وأما منهج الرحلة ومواضيعها فيتجلى فيهما تأثر ابن جبير بالروح العلمية . فهو لم يلجأ الى املاء رحلته من الذاكرة ، كما فعل ابن بطوطة مثلا ، بل أخذ على نفسه تسجيل مشاهدها يوماً بيوم ، فجاءت أقرب الى مذكرات يومية منها الى رحلة سردية . ولم يكن يكتفي بذكر الشهر فحسب ، بل كان ينص على اليوم بل والساعة في غالب الاحيان . وقد حافظ بهذه الطريقة على دقة مشاهداته وانطباعاته مما جعل (رحلته) وثيقة تاريخية أمينة .

ويبرز تأثره بالروح العلمية أيضاً في تجنبه المبالغات بصورة عامة ، ما يتصل منها بمشاهداته أم بالمصاعب التي تعرض لها أثناء السفر . فنحن لا نواجه في رحلته أية مشاهد غريبة يرفضها العقل ، كما اننا لا نقرأ أي حديث عن مصاعب غير واقعية . وقد تفوق ابن جبير في هذه الميزة على كثير من الرحالة السابقين واللاحقين الذين

(١٤) المصدر السابق ، ص ١٧٣

انزلقوا الى المبالغات في حكاياتهم بوعي أو بغير وعي ، وتلك آفة من أكثر آفات الرحالة شيوعاً . ومع ذلك ، فلم ينج من الوقوع في شرك المبالغات احياناً ، لا سيما ما يتعلق بالاطراء على جمال بعض المدن أو تعداد ما فيها من مدارس ومساجد ورسوم دينية .

كذلك تتجلى روحه العلمية في حديثه الصريح عن العلاقات الطيبة بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الشام بالرغم من حالة الحرب القائمة يومذاك بين صلاح الدين والصليبيين وقد صورها ، وهو المسلم المتدين ، تصويراً أميناً صادقاً . بل لقد ذكر بأن احوال الفلاحين المسلمين في بعض جهات بلاد الشام التي يسيطر عليها المسيحيون هي أفضل من حال اخوانهم في المناطق التي يحكمها حكام مسلمون[15] . ولدى مروره بصقلية أشاد بمعاملة ملكها وليم الثاني لرعاياه من المسلمين[16] .

وانطلاقاً من روحه العلمية أيضاً فقد تجنب رواية أية حكاية يرفضها العقل والمنطق ، مما جرّد رحلته من الخرافات والاساطير التي تحفل بها العديد من كتب الرحالة الاخرين ، وجعل السمة الرئيسية لها الواقعية في المشاهد والاحداث . وفي الحالات القليلة التي أورد فيها بعض الروايات الغريبة المتداولة سارع الى تصحيحها أو رفضها كلياً اذا كانت مجافية للمنطق . وخير مثال يوضح رفض ابن جبير للخرافات قصة فيضان بئر زمزم . فقد سمع اثناء وجوده في مكة بأن مياهها تزداد زيادة ملحوظة في أول جمعة من شهر شعبان ، باعتباره شهراً مباركاً ، وهو أمر كان يدعو أهالي مكة الى التبرك بمياهها في ذلك اليوم . فوجد تلك الحكاية مجافية للمنطق، وعزم مع جماعته على امتحان صحتها . وقاموا بقياس ارتفاع المياه في البئر فظهر لهم بالبرهان أن الحكاية مختلقة من أساسها[17] . ولعل الحكاية الغريبة الوحيدة التي اثبتها في رحلته دون معارضة هي تلك المتعلقة بدار أبي بكر الصديق رضي الله عنه . وقد رواها على النحو التالي: « ومن مشاهدها (مكة) أيضاً دار ابي بكر الصديق رضي الله عنه وهي اليوم دارسة الاثر ويقابلها جدار فيه حجر مبارك يتبرك الناس بلمسه ، يقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم متى اجتاز عليه . وذكر انه جاء يوماً صلى الله عليه وسلم الى دار ابي بكر رضي الله عنه فنادى به ولم يكن حاضراً ، فأنطق الله عز وجل

(١٥) المصدرالسابق ، ص ٢٤ .
(١٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .
(١٧) المصدرالسابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

الحجر المذكور وقال: يا رسول الله ليس بحاضر »[18]. ومع ذلك فهذه الحكاية تختلف عن غيرها من الحكايات باعتبارها تتعلق بقدرة الله .

ومما يتماشى مع روحه العلمية انه ، خلافاً لكثير من الرحالة المسلمين ، لم يحفل بأخبار الاولياء والدراويش والزهاد وكراماتهم ، ولم يشر اليهم الا عرضاً كظاهرة من الظواهر الدينية الشائعة يومذاك .

الروح العلمية اذن تطبع « الرحلة » بطابع الصدق والدقة . ولا مجال للقول بأن عواطف ابن جبير كانت تؤثر في أحكامه كما زعم بعض الباحثين[19] . فاذا وردت في (رحلته) بعض عبارات الاعجاب أو الاستنكار بشكل مبالغ فيه ، فذلك أمر لم يؤثر على دقة احكامه وأوصافه بأي حال من الأحوال .

ثانياً ـ أهداف ومضامين « الرحلة » :

يروي مؤرخو ابن جبير انه بينما كان ذات يوم في مجلس حاكم غرناطة يأخذ عنه ، وكان الحاكم مقبلا على شرابه ، ملأ كأساً فقدمها له ، فاعتذر بأنه لم يمسها قط ، لكن الحاكم أصر ، فاحتساها على مضض . وقد كافأه الحاكم بسبعة كؤوس مترعة بالدنانير ، فأضمر أن يكفر عن خطيئته بحج بيت الله الحرام ، وهكذا نبتت فكرة الرحلة نحو الشرق في ذهنه . فالهدف الأول من « رحلته » اذن كان حج بيت الله الحرام ، أي ان الدافع الديني كان أقوى دوافع خلق الرحلة . ولكن هل كان الدافع الديني هو الوحيد الذي خامر ابن جبير؟ من الواضح أنه فكر منذ البداية بتأليف كتاب يروي فيه مشاهداته في ديار المشرق ، ولا سيما الديار الحجازية ، بالاضافة الى تحقيق هدفه في حج بيت الله الحرام ، لهذا نراه قد بدأ بتسجيل خواطر ومشاهدات رحلته منذ اليوم الاول . فهو يفتتح (رحلته) بالقول : « ابتدىء بتقيدها يوم عرفنا الله السلامة بمنه »[20] . وبما ان ابن جبير رحالة مثقف فلا ريب انه قد اطلع على كتب الجغرافيين السابقين وتأثر بها . ومما يدل على ذلك حديثه عن مدينة سامراء التي أشار اليها بقوله : « وهي مدينة كبيرة قد استولى الخراب عليها الا

(١٨) المصدر السابق ، ص ٨٢ .
(١٩) رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، ص : د .
(٢٠) رحلة ابن جبير ، منشورات دار التراث ببيروت ، ص ٧ .

بعض جهات منها هي اليوم معمورة . وقد أطنب المسعودي رحمه الله في وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حسنها »[٢١] .

غير انه ـ بطبيعة ثقافته وهدفه ـ لم يكن ينوي ان يجعل رحلته كتاباً جغرافياً من نوع كتب الادريسي والبكري والغرناطي وغيرهم من جغرافيي المغرب ، بل كان يهدف الى جعلها كتاباً ادبياً ذا قيمة دينية يشتمل على مشاهدات وانطباعات شخصية عن ديار المشرق . وهذا يفسر لنا تركيز « الرحلة » على نواحي معينة وأغضائها عن نواحي أخرى لم يكن يجدر برحالة مثقف اهمالها . فقد عنيت « الرحلة » بالامور الثقافية عموما ، والنواحي الدينية منها على الخصوص ، واهملت ذكر الاوضاع الاجتماعية والاحوال الاقتصادية ولم تشر اليها الا عرضا . أما المعالم الجغرافية والمشاهد الطوبوغرافية فلم تدخل في اهتمامات رحالتنا على الاطلاق . وقد كرس ابن جبير بالفعل ما يقرب من ثلث رحلته للحديث عن المدينتين المقدستين مكة والمدينة وعن مشاهدهما الدينية وعن مناسك الحج وشعائره . وكان يبادر في كل بلد يحل فيه الى تفقد المشاهد الدينية وإلى لقيا العلماء والوعاظ وتقصي اخبارهم ومجالسهم . وقد اضعفت اهتمامات ابن جبير هذه القيمة الجغرافية والانثروبولوجية لرحلته ، لكنها جعلت منها في الوقت نفسه وثيقة تاريخية هامة للاحوال الثقافية والسياسية لبلدان المشرق العربي في ذلك العصر . ويمكن أن تتجلى أهداف « الرحلة » في استعراض مضاميتها واستخلاص معلوماتها عن كل بلد تناولته بالبحث .

١ ـ الرحلة المصرية :

عني ابن جبير خلال تجواله بين المدن المصرية بأمرين رئيسين هما تتبع الرسوم الدينية ووصف معالم الآثار القديمة ، كما بذل اهتماماً خاصاً بطبيعة الحكم السائد في البلاد . أما الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فلم ترد في أحاديثه الا عرضاً . ولعل أهم اشاراته ذات العلاقة بالاحوال الزراعية هي شرحه لفيضان النيل وتوضيح علاقة ذلك بالضرائب على المحاصيل الزراعية[٢٢] . وقد أشار أيضاً اشارة عابرة الى ازدهار الزراعة وازدحام السكنى على ضفتي النيل ،حيث ذكر وهو في طريقه من الاسكندرية الى القاهرة بأن المنطقة كلها أرض محروثة يعمها النيل بفيضه والقرى فيها يمينا وشمالا لا

(٢١) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .
(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ ـ ٢٨

تحصى كثرة[٢٣] . كذلك علق على الطريق بين القاهرة والصعيد بقوله ان القرى فيه متصلة على شطي النيل علاوة على المدن الكبيرة[٢٤] .

وتخلو الرحلة المصرية ، فيما عدا هذه الاشارات العابرة ، من أي حديث صريح عن الوضع الزراعي في البلاد . أما الصناعات فلم يرد لها أي ذكر على الاطلاق . وقد وردت اشارة عابرة الى حالة التجارة اثناء وصفه للطريق بين قوص وعيذاب حيث قال : « ورمنا في هذه الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذبية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب . وأكثر ما شاهدناه من ذلك احمال الفلفل ، فلقد خيل الينا لكثرته انه يوازي التراب قيمة »[٢٥] :

وقد شكا ابن جبير من صرامة التفتيش الكمركي في الثغور المصرية مما ينم عن اهمية الدور الذي تلعبه التجارة في حياة البلاد الاقتصادية . وأكد بشكل خاص على اجراءات التفتيش في ميناء الاسكندرية ، وكذلك على دقة التفتيش لمراكب المسافرين في نهر النيل . وبالرغم من ان ابن جبير يقطع بأن السلطان صلاح الدين الايوبي لا يدري بمثل تلك الاجراءات الصارمة والا لأبطلها ، الا ان من الواضح ان الضرائب الكمركية كانت تشكل موردا مهما من موارد الدولة تستحق العناية والاهتمام ، وهو أمر ينبيء عن ازدهار تجاري .

أما الاحوال الاجتماعية فلا تتناولها (الرحلة) الا من جانب واحد هو الجانب الديني ، بينما لا نجد اية اشارات الى جوانب الحياة الاجتماعية الاخرى من عادات وتقاليد ومستوى المعيشة . وهناك تأكيد واضح على سيادة الروح الدينية بين الناس ، فثمة عدد هائل من الجوامع والمساجد والمشاهد الدينية وقبور الشهداء والاولياء . ويؤكد ابن جبير بصدد حديثه عن الاسكندرية انها أكثر بلاد الله مساجد ، وان بعض المبالغين يقدرون عددها بأثني عشر الف مسجد ، وان في غالبيتها أئمة تدفع لهم الدولة أجوراً شهرية[٢٦] . أما عن القاهرة فقد ذكر ان مساجدها لا يحصيها العد ،

(٢٣) المصدر السابق ، ص ١٧
(٢٤) المصدر السابق ، ص ٣٠ .
(٢٥) المصدرالسابق ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٦ .

وان الدولة تتولى الانفاق عليها بسخاء . « وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي اليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الاموال »[٢٧] . ويبدو ان هناك غرضاً سياسياً في تشجيع الدولة للشؤون الدينية والانفاق عليها بسخاء ، وهو كسب ولاء رجال الدين وابناء الشعب لتثبيت دعائم الحكم الجديد بعد اسقاط الدولة الفاطمية . وكان رجال الدين يلعبون دوراً مهماً في ذلك الاسناد ، اذ ان خطباء الجوامع كانوا ـ كما أشار ابن جبير ـ يستفتحون خطبهم بالدعاء للحكم الجديد[٢٨] .

ويستأثر الجانب الثقافي باهتمام ابن جبير على اختلاف وجوهه ، فهو دائم السؤال عن المدارس والمارستانات (المستشفيات) والآثار التاريخية ، وان رحلته المصرية غنية بالمعلومات في هذا الحقل أكثر من أي جزء آخر من أجزاء رحلته . فلدى حديثه عن الاسكندرية اهتم اهتماماً خاصاً بمنارتها ووصفها وصفاً مسهباً[٢٩] . واشادة بكثرة المدارس فيها واعتبرها مفخرة من مفاخر المدينة . « وهي مدارس لاهل الطب والتعبد يفدون اليها من الاقطار النائية فيلقى كل واحد مسكناً يأوى اليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه واجراء يقوم به في جميع أحواله »[٣٠] .

أما القاهرة فقد سجل لنا عنها صورة ثقافية حية وشاملة للغاية ، فقد تناول بالوصف جميع مشاهدها الدينية والثقافية والتاريخية . فوصف باسهاب مسجد سيدنا الحسين ، وقلعة القاهرة ، والاهرام التي سماها (معجزة البناء) . وأولى اهتمامه مارستان القاهرة فحدثنا عنه بالتفصيل ، وكان يحتل قصراً من القصور الفخمة ، وقد خصص جزءاً من هذا المستشفى للنساء ، وخصص جزءاً آخر للمجانين[٣١] . وأشار الى وجود مستشفى آخر في القاهرة على غرار المستشفى المذكور .

ويتجلى اهتمام ابن جبير بالمعالم الثقافية بشكل أوضح اثناء تنقله بين المدن المصرية الواقعة على ضفتي النيل . وبالرغم من انه يعتذر عن عدم امكانية الحديث عن

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٢٨) المصدر السابق ، ص ٢٣ .
(٢٩) المصدرالسابق ، ص ١٤ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٥ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ٢٤ .

جميع الآثار على ضفتي النهر وانه يقصد الى الاكبر والاشهر ، الا انه مع ذلك أفاض في وصف الآثار البارزة الفرعونية منها والاسلامية . وفضلا عن اشارته الى الآثار الثانوية فقد وصف باسهاب المعابد الفرعونية بجوار مدينتي اخميم واسيوط ، وكان وصفه على جانب عظيم من الدقة مما يكسبه اهمية خاصة في حقل الدراسات الاركيولوجية .

وتكتسب رحلة ابن جبير المصرية اهمية خاصة من وجهة النظر التأريخية ، فهي سجل حي لسيرة صلاح الدين الايوبي في مصر . وبالرغم من ان ابن جبير يبدو متحمساً لصلاح الدين ، ربما لتأثره بما لمسه من احتفاله بالشؤون الدينية ، أو ربما لعنايته بالمغاربة ، الا انه لم يفقد صفة الحيادية في احكامه . ولعل ابرز ما حققه صلاح الدين لمصر مدة حكمه هو الاستقرار والاطمئنان ، فقد علق ابن جبير على الحياة في الاسكندرية بقوله : « ومن الغريب ايضا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم في النهار في جميع احوالهم »[٣٢] . وقال في موضع آخر : « ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ان الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعنيهم ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم . على مثل ذلك شاهدنا احوالهم بمصر والاسكندرية »[٣٣] .

ومنذ دخل ابن جبير مدينة الاسكندرية شرع بالحديث عن مناقب السلطان صلاح الدين . فحدثنا عن اهتمامه بالغرباء وتعيينه المدارس والاطباء لهم ، بل وحتى الحمامات التي يستحمون فيها ، كما حكى لنا عن اهتمامه بالمغاربة وتعيينه رغيفين من الخبز لكل منهم يومياً . وختم حديثه عنه بقوله : « ومآثر هذا السلطان ومقاصده في العدل ومقاماته في الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة »[٣٤] .

وأثناء وجوده في مدينة القاهرة عاد الى الحديث عن اهتمام صلاح الدين بأمور الدين وسخائه في الانفاق على المساجد والجوامع والمدارس ، وقدّر مجموع ما ينفق على تلك الجوامع والمدارس بما ينيف على ألفي دينار مصرية في الشهر[٣٥] .

وروى لنا أيضاً منجزاته الأخرى ومنها اقامة مارستان القاهرة وبناء قناطر بغربي

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٦ .
(٣٣) المصدرالسابق ، ص ٢٩ .
(٣٤) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٣٥) المصدر السابق ، ص ٢٢ .

مصر للدفاع عن شمالي البلاد ، وبناء قلعة القاهرة لاعدادها مسكناً له . وضرب لنا أمثلة من عدله بازالة المكس المضروب على الحجاج مدة دولة الفاطميين . والواقع ان ابن جبير كان يتغنى باسم صلاح الدين طيلة (الرحلة) فقد عاد الى الحديث عنه اثناء الرحلة الحجازية واثناء الرحلة الشامية بشكل خاص واثنى عليه عاطر الثناء .

أما أوصاف المدن المصرية فهي لا تنفع الجغرافيين كثيراً ، فقد اهتم ابن جبير بوصف المعالم الثقافية اكثر من اهتمامه بالمعالم الجغرافية . فقد وصف مدينة الاسكندرية على النحو التالي : « فأول ذلك حسن موضع البلد واتساع مبانيه حتى انا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا اعتق ولا أحفل منه ، واسواقه في نهاية الاحتفال أيضاً . ومن العجب في وصفه ان بناءه تحت الارض كبنائه فوقها واعتق وامتن لان الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الارض فيتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضاً . وعاينا فيها أيضاً من سواري الرخام وألواحه كثرة وعلوا واتساعاً وحسناً ما لا يتخيل يالوهم حتى انك تلقى في بعض الممرات بها سواري يغض الجو بها صعوداً لا يدري ما معناه ولا لم كان أصل وضعها . وذكر لنا انه كان عليها في القديم مبان للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان والله أعلم ويشبه ان يكون ذلك للرصد . ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، ولولاه ما اهتدوا في البحر الى بر الاسكندرية يظهر على ازيد من سبعين ميلا . ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضاً يزاحم الجو سموا وارتفاعا يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف، الخبر عنه يضيق والمشاهدة له تتسع »(٣٦) .

ومن الواضح ان الصورة الجغرافية للمدينة باهتة تماما، وان ابن جبير كعادته قد ركز على الآثار والمعالم الثقافية . أما مدينة القاهرة فلم يقدم لها أي وصف جغرافي واضح بل استعرض مساجدها ورسومها الدينية وآثارها القديمة والاسلامية . كذلك وصف بعض احيائها وصفا موجزاً ، مثال ذلك وصفه لحي (الروضة) بقوله) « وعلى شط نيلها مما يلي غربيها والنيل معترض بينهما قرية كبيرة حفيلة ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة وهي مجتمع اللهو والنزهة وبينها وبين مصر خليج من النيل يذهب بطولها نحو الميل ولها مخرج له . وبهذه الجزيرة مسجد

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٣ - ١٤ .

جامع يخطب فيه . ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر فيه زيادة النيل عند فيضه كل سنة »(٣٧) .

ووصف ابن جبير المدن الواقعة على ضفتي النيل وصفاً موجزاً . فقال عن مدينة منفلوط : « وهي بمقربة من الشط الغربي ميامنا للصاعد في النيل فيها الاسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق ، وهي بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها ، وقمحها يجلب الى مصر لطيبة ورزانه حبته قد اشتهر عندهم بذلك فالتجار يصعدون المراكب لاستجلابه»(٣٨) .

وقال عن مدينة اسيوط : « وهي من مدن الصعيد المشهورة بينها وبين الشط الغربي من النيل مقدار ثلاثة أميال ، وهي جميلة المنظر حولها بساتين النخل وسورها سور عتيق »(٣٩) .

وقال عن مدينة قنا : « وهي من مدن الصعيد ، بيضاء أنيقة المنظر ، ذات مبان حفيلة ، ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة . . . وهذه المدينة المذكورة في الشط الشرقي من النيل وبينها وبين قوص نحو البريد »(٤٠) .

وقال عن مدينة قوص : « وهذه المدينة حفيلة الاسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين وتجار أرض الحبشة لانها محظر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ومنها يفوزون بصحراء عيذاب واليها انقلابهم في صدرهم من الحج »(٤١) .

ولقد تحدث ابن جبير باسهاب عن الطريق الصحراوي الممتد بين قوص وميناء عيذاب القديم وذكر مواضع الماء فيه موضعاً موضعاً . ثم وصف ميناء عيذاب على النحو التالي : « وهو من أحفل مراسي الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٢٧ .
(٣٨) المصدر السابق ، ص ٣٢ .
(٣٩) المصدر السابق ، ص ٣٢ .
(٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٧ .
(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٧ .

وتقلع منها زائداً الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة وهي صحراء لا نبات فيها ولا يؤكل فيها شيء الا مجلوب »(٤٢) .

وهكذا يتضح ان المعلومات الجغرافية التي قدمها ابن جبير عن مصر قليلة للغاية ، وان فوائد الرحلة المصرية تاريخية أكثر منها جغرافية .

٢ ـ الرحلة الحجازية :

تكتسب رحلة ابن جبير في الديار الحجازية أهميتها من دقة وصفها للكعبة المشرفة والمسجد النبوي ومن اوصافها المسهبة لمكة المكرمة والمدينة المنورة وآثارهما ورسومها الاسلامية ، وكذلك من براعة وصف الطريق الصحراوي الذي يربط بين المدينة والكوفة . وقد أولى ابن جبير اهتمامه للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، كما سجل صورة واضحة للاحوال السياسية والثقافية للبلاد .

وقد لاحظ اثناء مكثه في جدة ان الوضع الاقتصادي للسكان مترد للغاية ، وانهم يحيون في شظف من العيش(٤٣) . وذكر انهم يستخدمون انفسهم في جميع المهن : من اكراء جمال ان كانت لهم أو مبيع لبن أو ماء أو تمر يلتقطونه أوحطب يحتطبونه . ومن الواضح أنهم يعتمدون في موارد رزقهم على الحجاج اعتماداً رئيسياً .

واهتم ابن جبير اهتماماً خاصاً بمظاهر الحياة الاقتصادية في مكة المكرمة . وقد لاحظ ان موسم الحج يكاد يكون قوام حياتها الاقتصادية . ففي هذا الموسم تجتمع فيها التجارات من كل مكان . فتعرض في الاسواق من الذخائر النفيسة الجواهر والياقوت وسائر الاحجار الكريمة ، ومن انواع الطيب المسك والكافور والعنبر والعود ، كما تعرض فيها العقاقير الهندية ، والامتعة العراقية واليمانية ، والبضائع المغربية . « كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم ، حاشا ما يطرأ بها مع طول الايام من اليمن وسواها ، فما على الارض سلعة من السلع ولاذخيرة من الذخائر الا وهي موجودة فيها مدة الموسم »(٤٤) .

وذكر ابن جبير أيضاً أن أسواق مكة تغص بالفواكه طيلة موسم الحج ، وهي على

(٤٢) المصدر السابق ، ص ٤١ .
(٤٣) المصدر السابق ، ص ٤٨ .
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

انواع كثيرة كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والاترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار ، وتجلب هذه الفواكه من الطائف ومن القرى المحيطة بها . كذلك تزدحم أسواقها بالخضروات كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب وغيرها ، فضلا عما يجلب اليها من زبيب ولوز وقصب سكر(٤٥) .

ولم يعن ابن جبير بالحديث عن مظاهر الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة ، ولم يشر اليها على الاطلاق . ولكنه رسم لنا صورة طريفة للعلاقات التجارية بين الحجاج وبدو الصحراء النجدية . وقد عكست تلك الصورة أهمية تجارة المقايضة بالنسبة للبدو الاعراب . وقد ذكر ابن جبير مواضع عديدة على الطريق الصحراوي بين المدينة والكوفة تتخذ مراكز لتبادل البضائع بين الحجاج والبدو ، منها سميرة ووقصة والثعلبية ، وكان البدو يبادلون السمن واللبن والاغنام بقماش الخام .

أما ملاحظاته الاجتماعية فقد اقتصرت على الجوانب المتصلة بالدين ، وهو أمر طبيعي ، وقد وصف ما يجري من احتفالات في المناسبات الدينية بإسهاب وتفصيل . فوصف احتفالات الليلة الاولى للعمرة الرجبية ، وهي احتفالات يخرج فيها أهل مكة على بكرة ابيهم ويلعبون بالاسلحة ، كما وصف أيضاً احتفالات بداية شهر شعبان ومنتصفه ، واحتفالات شهر رمضان وعيد الفطر المبارك . ثم تناول بإسهاب ودقة وصف مناسك الحج وشعائره مما يجعل كتاباته مرجعاً هاماً في هذا الشأن . وقد ختم ملاحظاته الاجتماعية عن أهل الحجاز بقوله : « وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى . وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها ينتهبونهم انتهاباً ، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة الى أن ييسر الله رجوعه الى وطنه »(٤٦) .

ولقد انصبت اهتمامات ابن جبير الثقافية في هذا الجزء من رحلته على تتبع مجالس الوعظ والخطابة التي انعقدت في مكة والمدينة اثناء وجوده ، وقد سجل لنا صورة دقيقة عنها وعن مستوى خطبائها .

وسجل لنا أيضاً صورة واضحة عن الوضع السياسي في الديار الحجازية . وكان

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٨٧ ـ ٨٩ .
(٤٦) المصدر السابق ، ص ٤٨ .

أمراء مكة يدينون بالطاعة للخليفة العباسي ولممثله في مصر صلاح الدين الايوبي ، الا انهم كانوا يتمتعون في الوقت نفسه بنوع من الاستقلال الذاتي . وقد أشار ابن جبير الى جشعهم واستغلالهم للحاج والى تفشي الفساد والرشوة بينهم[47] .

وتبرز اهمية رحلة ابن جبير الحجازية ـ كما ذكرنا ـ بما اشتملت عليه من أوصاف دقيقة مسهبة للمدينتين المقدستين ، ولا سيما مكة المكرمة . والواقع ان ابن جبير لم يترك شاردة ولا واردة عن مكة المكرمة من دون ان يسجلها ، مما يجعل كتابته عن هذه المدينة مرجعاً هاماً للمؤرخين والمعنيين بشؤون الدين . وقد عني على وجه الخصوص بوصف الكعبة المشرفة وصفاً بليغاً دقيقاً لعله من أفضل وأدق ما ورد من أوصاف لها في كتب الرحالة والمؤرخين . وتحدث عن جميع المشاهد والرسوم الدينية ، ولم يترك أثراً أو رسماً من دون ان يشير اليه» . وما قيل عن مكة المكرمة يقال عن المدينة المنورة ، فقد تناول بالوصف المسهب جميع آثارها ورسومها الدينية ، وعلى رأسها مسجد الرسول (ص) . غير ان أوصافه الجغرافية لكل من المدينتين المقدستين لم تكن دقيقة ولا وافية . فقد وصف مكة بقوله : « هي بلدة وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها وهي بطن واد مقدس ، كبيرة مستطيلة، تسع من الخلائق ما لا يحصيه الا الله عز وجل »[48] .

ولم يورد أي وصف جغرافي للمدينة المنورة ، كما لم يصف أية مدينة حجازية أخرى . بيد أن وصفه المفصل الدقيق للصحراء النجدية عبر الطريق الذي سلكه من المدينة الى الكوفة يعتبر من أجمل الكتابات الجغرافية عن تلك المنطقة . وقد أغرى ذلك الوصف بعض الرحالة الذين سلكوا نفس الطريق فيما بعد على اقتباسه وتضمينه رحلاتهم ، ومن بينهم الرحالة المشهور ابن بطوطة .

وأخيراً فقد تضمنت الرحلة الحجازية أيضاً بعض الملاحظات ذات القيمة الجغرافية عن طريقة سفر ركب الحجاج عبر الصحراء النجدية ، فضلا عن براعة ذلك الوصف ودقته .

٣ ـ الرحلة العراقية :

لعل الرحلة العراقية هي من أكثر أجزاء رحلة ابن جبير فائدة للجغرافي ، فقد وردت فيها ملاحظات هامة تكشف عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد .

---

(٤٧) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(٤٨) المصدر السابق ، ص ٧٧ .

وتنم تلك الملاحظات عن ازدهار زراعي في القسم الاوسط من العراق . فقد ذكر بصدد حديثه عن مدينة الكوفة بأن الجانب الشرقي منها كله حدائق نخيل ملتفة يتصل سوادها ويمتد امتداد البصر[49] . كما ذكر بأن : « الطريق من الحلة الى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الارض وعمائر تتصل بها القرى يميناً وشمالا . ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تتسرب بها وتسقيها ، فمحرثها لا حد لاتساعه وانفساحه »[50] .

ومن الواضح أن هذا الازدهار الزراعي ثمرة من ثمار العناية بشؤون الري ، يؤيد ذلك ما لاحظه ابن جبير من كثرة الجداول والقنوات المتفرعة من الفرات . فقد ذكر انه لا يكاد المرء يمشي ميلا الا ويجد قنطرة على نهر متفرع من الفرات ، وان تلك الطرق هي أكثر الطرق سواقي وقناطير[51] . وقد انعكس هذا الازدهار الزراعي على حالة القرى المتناثرة بين الحلة وبغداد ، حيث وصفها ابن جبير بانها على غاية من الحسن والاتساع[52] .

ولقد واصل ابن جبير عنايته بالاحوال الزراعية في العراق بعد مغادرته بغداد في طريقه الى الموصل ، فذكر بأن ركب الحج قد نزل بعد ارتحاله من بغداد بقرية يمر بقربها نهر دجيل وهو يتفرع من دجلة ويسقي القرى المجاورة بأجمعها . ولاحظ بأن العمران ينقطع بعد مدينة تكريت فيضطر المسافرون الى استصحاب الماء ليوم وليلة ، الا انه ما يلبث ان يظهر ثانية بعد قرية العقر ، وتتصل القرى والعمائر حتى مدينة الموصل[53] .

وهناك ملاحظات أخرى تنم عن ازدهار الوضع الاقتصادي في البلاد . فقد أشار الى نشاط النقل المائي في شط الحلة ، كما أشار الى ازدهار الاسواق وازدحام السكان في بغداد والحلة وتكريت . لكن الامر الملفت للنظر انه لم يشر الى الاحوال الاقتصادية في مدينة كبيرة كالموصل ، مع انها مدينة تجارية قبل كل شيء .

واذا كان قد أولى الوضع الزراعي اهتمامه ، فانه أهمل ذكر صناعات البلد اهمالا

---

(٤٩) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
(٥٠) المصدر السابق ، ص ١٧٠ .
(٥١) المصدر السابق ، ص ١٧١ .
(٥٢) المصدر السابق ، ص ١٧١ .
(٥٣) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

تاما ، سوى اشارته العرضية الى تخصص احدى محلات بغداد ـ وهي محلة العتابية ـ بصناعة الثياب العتابية من حرير وقطن مختلفة الالوان .

ومن الاشارات الاقتصادية المهمة التي عرض لها حديثه عن عيون القار بجوار القيارة ، وقد وصف عملية تدفق القير وصفاً دقيقاً ، ثم أوضح أهميته الاقتصادية[٥٤] .

أما ملاحظاته الاجتماعية فلم تكن ذات قيمة كبيرة . فهي لم تتعرض الى عادات السكان وتقاليدهم ومظاهر حياتهم ، بل سجلت انطباعه العام عن اخلاقهم ، وكان انطباعاً عاطفياً في غالب الاحيان . فقد امتدح مثلا أهالي تكريت وذكر انهم احسن احلاقا وقسطا في الموازين من أهل بغداد[٥٥] . كما امتدح أيضاً أهل الموصل بقوله : « وأهل هذه البلدة على طريقة حسنة يستعملون اعمال البر فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء واقبال عليهم ، وعندهم اعتدال في جميع معاملاتهم »[٥٦] .

ولكنه حمل حملة قاسية على أهل بغداد وأسهب في ذم اخلاقهم بدرجة ملفتة للنظر ، حتى ظن بعض الباحثين ان تلك الحملة منبثقة عن أسباب شخصية[٥٧] ، ومما قاله في ذلك : « وأما اهلها (بغداد) فلا تكاد تلقى منهم الا من يتصنع بالتواضع رياء ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يزدرون الغرباء ويظهرون لمن دونهم الانفة والاباء ، ويستصغرون عمن سواهم الاحاديث والانباءَ ، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده ان الوجود كله يصغر بالاضافة لبلده ، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم كأنهم لا يعتقدون ان الله خلق بلادا أو عبادا سواهم ، يسحبون اذيالهم أشرا وبطرا ، ولا يغيرون في ذات الله منكرا . يظنون ان أسنى الغمار في سحب الازرار ، ولا يعلمون ان فضله بمقتضى الحديث المأثور في النار ، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن الله قرضا فلا نفقة فيها الا من دينار تقرضه ، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من خوالص أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها الا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب ، كأنهم من بقايا مدين قوم النبي شعيب .

---

(٥٤) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٥٥) المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٥٦) المصدرالسابق ، ص ١٩٠ .

(٥٧) الرحلات ، للدكتور شوقي ضيف ، ص ٨٤ .

فالغريب فيهم معدوم الارفاق متضاعف الانفاق ، لا يجد من اهلها الا من يعامله بنفاق أو يهش له هشاشة انتفاع واسترفاق كأنهم من التزام هذه الخلة القبيحة على شرط اصطلاح بينهم واتفاق ، فسوء معاشرة ابنائها يغلب على طبع هوائها ومائها »[٥٨] .

وتكشف اشارات ابن جبير الاجتماعية ايضا عن ضعف الروح الدينية بين السكان ، لا سيما بين أهل بغداد ، اذا ما قورنت بقوتها في بلاد الشام أو مصر . كما تكشف ايضا عن ارتفاع نسبي في مستوى المعيشة ، لا سيما في العاصمة بغداد . فقد ذكر عند حديثه عن مدينة بغداد ان الجهة الشرقية منها حفيلة الاسواق عظيمة الترتيب تشتمل على بشر لا يحصيهم الا الله ، كما ذكر بأن حماماتها لا تحصى وان البعض يقدرها بحوالي الفي حمام »[٥٩] .

وأولى ابن جبير ـ كعادته ـ النواحي الثقافية اهتماماً كبيراً ، فأفاض في الحديث عنها ، وأوضح لنا ان المستوى العلمي في بغداد كان ما يزال مرتفعاً . فقد ذكر ان ببغداد ثلاثين مدرسة يقصر كل منها عن الوصف ، أشهرها النظامية ، وان لكل من تلك المدارس أوقافاً عظيمة وعقارات يعود ريعها الى الفقهاء المدرسين بها والى الطلبة المقيمين بها »[٦٠] . كذلك حدثنا باسهاب عن مجالس الوعاظ ، واثنى بشكل خاص على جمال الدين أبي الفضائل بن علي بن الجوزي امام عصره في الحديث والوعظ . وتحدث باعجاب عن مستشفى بغداد المطل على دجلة والذي كان أشبه بمدينة صغيرة بما يحف به من بيوت وسوق حافلة . وكان الاطباء يتفقدونه كل يوم اثنين وخميس ويرتبون للمرضى ما يحتاجون اليه من الادوية ، كما كان يقوم بشؤونه موظفون يتولون الاشراف على راحة المرضى وطعامهم وأدويتهم[٦١] .

وأشار ابن جبير اشارات عابرة الى الوضع السياسي في البلاد ، ولم يوله من العناية ما أولى وضع مصر أو الحجاز أو بلاد الشام . وتدل اشاراته على ان الخليفة كان مغلوبا على أمره ، وان السلطة الحقيقية كانت بأيدي قواد الجيش من المماليك ، وان العباسيين كانوا معتقلين في بيوتهم لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم[٦٢] .

---

(٥٨) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

ولسنا نجد في رحلة ابن جبير العراقية اشارات الى المعالم الجغرافية القائمة على طريق سفره ، سوى اشارته العابرة الى دجلة والفرات بقوله : « وهذان النهران الشريفان دجلة والفرات قد اغنت شهرتهما عن وصفهما ، وملتقاهما ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابهما الى البحر ، ومجراهما من الشمال الى الجنوب ، وحسبهما ما خصهما الله به من البركة هما وأخاهما النيل »(٦٣) .

أما الأوصاف الجغرافية للمدن العراقية فكانت محدودة وغير وافية ، ولم يذكر سوى مدن قليلة ، مركّزاً اهتمامه على بغداد . ويعود ذلك الى قصر المدة التي أمضاها في العراق ، والى ارتباط مشاهداته بالمدن التي اعترضت طريق سفره الى بلاد الشام .
قال يصف مدينة الكوفة : « هي مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أكثرها ، فالغامر منها أكثر من العامر . ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، فهي لا تزال تضر بها ، وكفاك بتعاقب الايام والليالي محييا ومغنياً . وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها ، والجامع العتيق آخرها مما يلي شرق البلد ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق »(٦٤) .

وقال يصف مدينة الحلة : « هي مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها . وهي على شط الفرات يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها . ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية . وهي قوية العمارة كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلا وخارجاً ، فديارها بين حدائق النخيل . وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشط تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع »(٦٥) .

وقال يصف مدينة تكريت : « وهي مدينة كبيرة واسعة الارجاء فسيحة الساحة حفيلة الأسواق كثيرة المساجد غاصة بالخلق ، أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً في الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها في جوفيها ولها قلعة حصينة على الشط هي قصبتها المنيعة ، ويطيف بالبلد سور قد أثر الوهن فيه . وهي من المدن العتيقة المذكورة»(٦٦) .

(٦٣) المصدر السابق ، ص ١٧٣ .
(٦٤) المصدر السابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .
(٦٥) المصدر السابق ، ص ١٦٩ .
(٦٦) المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

وقال يصف مدينة الموصل : « هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن ، قد كادت ابراجها تلتقي انتظاماً لقريب مسافة بعضها من بعض ، وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وضعه ، وللمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية . وفي أعلى البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى أسفله . ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وابراجه في مائها . وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق . وللمدينة جامعان أحدهما جديد والآخر من عهد بني أمية . وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة . ولها مارستان حاشا الذي ذكرناه في الربض »(٦٧) .

أما بغداد فقد فصّل الحديث عنها ، ومما ذكره : « هذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القريشية الهاشمية قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها الا شهير اسمها . . . وهي كما ذكرناه جانبان : شرقي وغربي ، ودجلة بينهما . . . فأما الجانب الغربي فقد عمه الخراب واستولى عليه ، وكان المعمور أولا . وعمارة الجانب الشرقي محدثة لكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفي كل واحدة منها الحمامان والثلاثة والثمانية ، منها بجوامع يصلى بها الجمعة. فأكبرها القرية وهي التي نزلنا فيها بربض فيها يعرف بالمربعة على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدها السيلي فعاد الناس يعبرون بالزوارق ، والزوارق فيها لا تحصى كثرة ، فالناس ليلا ونهاراً من تمادي العبور فيها في نزهة متصلة رجالا ونساء . والعادة ان يكون لها جسران أحدهما مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع منها . . ثم الكرة وهي مدينة مسورة . ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة . . ثم الشارع وهي أيضاً مدينة ، فهذه الاربع أكبر المحلات . . وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد . . واسماء سائر المحلات يطول ذكرها كالوسيطة وهي بين دجلة ونهر يتفرع من الفرات وينصب في دجلة ، يجيء فيه جميع المرافق التي في الجهات التي يسقيها الفرات ، ويشق على باب البصرة التي ذكرنا محلته نهر آخر منه وينصب أيضاً في دجلة . ومن اسماء المحلات العتابية وبها تصنع الثياب

(٦٧) المصدر السابق ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الألوان . ومنها الحربية وهي أعلاه وليس وراءها الا القرى الخارجة عن بغداد ، الى اسماء يطول ذكرها . . . وبالغربية البساتين والحدائق ومنها تجلب الفواكه الى الشرقية . . والشرقية حفيلة الاسواق ، عظيمة الترتيب تشتمل من الخلق على بشر لا يحصيهم الا الله تعالى . . وبها من الجوامع ثلاثة . . وأما حماماتها فلا تحصى عدة . . . وأما المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الاحصاء . . . والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية . . وللشرقية أربعة أبواب : فأولها وهو في أعلى الشط باب السلطان ، ثم باب الظفرية ، ثم يليه باب الحلبة ، ثم باب البصلية . هذه الأبواب التي هي في السور المحيط بها من أعلى الشط الى أسفله ، وهو ينعطف عليها كنصف دائرة مستطيلة . وداخلها في الاسواق ابواب كثيرة . . . »[٦٨] .

تلك هي أبرز المعلومات التي وردت في رحلة ابن جبير العراقية ، وهي كما يتضح ذات قيمة جغرافية وتأريخية بالرغم من ايجازها .

٤ ـ الرحلة الشامية :

الرحلة الشامية غنية بالمعلومات على اختلاف انواعها ، كما انها ثرية بالصور التي تصور الحياة في هذه الديار ببراعة وحذق . الا ان ابن جبير أهمل كعادته العناية بجوانب الحياة الاقتصادية . واذا شئنا ان نستخلص صورة واضحة عن الوضع الاقتصادي للبلاد فلا بد لنا أن نفتش بين السطور . فهناك اشارات متفرقة تنم عن نشاط تجاري وازدهار زراعي وصناعي . فالاهتمام بالاسواق في حلب دليل معقول على أهمية التجارة فيها . فاسواقها واسعة كبيرة متصلة الانتظام يتخصص كل جزء منها ببضاعة معينة . « وكل سوق منها تقيد الابصار حسنا وتستوقف المستوفز تعجباً »[٦٩] .

وكذلك حال الاسواق في دمشق التي وصفها ابن جبير بانها من أحفل اسواق البلاد واحسنها انتظاماً وابدعها وضعاً[٧٠] . وهو أمر يدل على ازدهارها التجاري . لكن وصف الاسواق على هذا النحو لا يمكن ان يعطي بالطبع صورة واضحة عن الوضع الاقتصادي والتجاري في البلاد . ولم ترد أي اشارة الى صناعات البلاد ، بالرغم مما عرف عن بلاد الشام من حذق في صناعات كثيرة متنوعة .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ١٧٣ ـ ١٨٤ .
(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

وأشار ابن جبير الى الاوضاع الزراعية اشارات عابرة وردت اثناء تنقلاته بين المدن الشامية أو من خلال وصفه لها ، وهي تنم عن ازدهار الزراعة . فقد ذكر مثلا عند حديثه عن بلاد المعرة أنها من أخصب بلاد الله وأكثرها ارزاقاً ، وانها غنية باشجار الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه الاخرى ، وان بساتينها وقراها تتصل لمسيرة يومين[٧٠] . وذكر كذلك عند حديثه عن مدينة حماه ان المزارع ـ ولا سيما مزارع الاعناب ـ تمتد خارج المدينة امتداداً عظيماً وتتصل البساتين على شطي النهر . أما الطريق المؤدي الى دمشق فقد وصفه بانه بساتين متصلة لا يوصف حسنها[٧١] . وفيما عدا تلك الاشارات لم يتحدث ابن جبير حديثاً صريحاً عن الزراعة .

وتناول ابن جبير الجوانب الاجتماعية باسهاب نسبي ، وركز حديثه عن سكان دمشق . وقد اهتم بجانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية وهو الجانب الديني ، الا انه صور أيضاً بعض عادات وتقاليد سكان دمشق . فقد لاحظ ان أهل دمشق يخاطبون بعضهم بعضاً بالتمويل والتسويد والتعظيم الشديد . فاذا لقي أحد منهم آخر مسلماً يقول : جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة ، كناية عن السلام . . وصفة سلامهم ايماء للركوع أو السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحط وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً[٧٢] .

واستنكر ابن جبير طريقة سير أهالي دمشق ، فقد لاحظ انهم جميعاً ، الصغير والكبير ، يمشون وأيديهم الى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام على تلك الحالة وكأنهم قد سيموا تعنيفا وأوثقوا تكتيفاً . وقد شرح أيضاً باسهاب طريقة أهل البلاد في وداع موتاهم ، وأوضح المراسيم المتبعة في جنائزهم .

وأكد ابن جبير تأكيداً خاصاً على روح التدين التي يتميز بها أهل دمشق خصوصاً وسكان بلاد الشام عموماً . وضرب أمثلة كثيرة على ذلك . ومثال ذلك تعظيمهم للحاج ، فهم يتمسحون بهم عند سفرهم ويتهافتون عليهم تبركاً عند عودتهم . وكذلك اقبالهم الشديد على الجوامع والمساجد . وهم يبذلون الاموال على انشاء المرافق للغرباء من حفاظ القرآن والمنتمين للطلب وللفقراء المعدمين . وقد علق ابن جبير على

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .
(٧١) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ .
(٧٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

ذلك بقوله : « ولو لم يكن بهذه المشرقية كلها الا مبادر أهلها الكرام الغرباء وايثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها ، فانك تجد من بدار الى بر الضعيف عجباً ، كفى بذلك شرفاً لها . وربما يعرض أحدهم كسرته على فقير فيتوقف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله في خيرا لاكل الفقير طعامي ، لهم في ذلك سر شريف »(٧٣) .

وقد نجم عن روح التدين هذه كثرة الصوفية في دمشق . ويقول عنهم ابن جبير انهم الملوك بتلك البلاد فقد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها واسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان(٧٤) . ولم يكن الصوفية والزهاد كثيرين في دمشق فحسب ، بل كانوا يكثرون في جميع بلاد الشام ، وكان البعض منهم يلجأ الى أماكن منعزلة في الجبال يتفرغ فيها لعبادة الله . وكان اولئك الزهاد يلقون الرعاية حتى من النصارى المجاورين لجبال لبنان ، اذ كثيراً ما يجلبون لهم القوت ويحسنون اليهم(٧٦) .

ان هذا التدين الذي اتسمت به حياة سكان بلاد الشام لم يدفعهم - كما يشير ابن جبير - الى التعصب ضد أصحاب الاديان الاخرى . فقد لاحظ ان علاقتهم بجيرانهم المسيحيين طيبة جداً وقائمة على التسامح . الا ان هذا التسامح الديني لا ينعكس على علاقة المسلمين بعضهم ببعض على اختلاف طوائفهم . وحينما يتحدث ابن جبير عن تلك العلاقة التي اتسمت بالقسوة الشديدة من قبل أهل السنة تجاه بعض طوائف الشيعة فانه يكشف عن تعصبه لمذهبه السني(٧٧) . قال في الموضوع مشيراً في الوقت نفسه الى جماعة (الفتوة) ونظامها : « وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة ، وهم أكثر من السنيين بها . وقد عمروا البلاد بمذاهبهم ، وهم فرق شتى ، منهم الرافضة وهم السبابون ، ومنهم الامامية والزيدية ، وهم يقولون بالتفضيل خاصة ، ومنهم الاسماعيلية والنصيرية وهم كفرة ، فهم يزعمون الآلهية لعلي رضي الله عنه تعالى عن قولهم ، ومنهم الغرابية وهم يقولون ان عليا رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب وينسبون الى الروح الامين عليه السلام قولا تعالى الله عنه علوا كبيراً ، الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء ، قد أضلهم الله عنه وأضل بهم

(٧٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .
(٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .
(٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٣١ .
(٧٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ .
(٧٧) الرحالة العرب ، تأليف الدكتور نقولا زيادة ، دار الهلال بالقاهرة عام ١٩٥٦ ، ص ٥٩ .

كثيرا من خلقه نسأل الله العصمة في الدين ونعوذ به من زيغ الملحدين . وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها . وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزمونه بالسراويل فيلحقونه بهم ، ولا يرون ان يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به ، لهم في ذلك مذاهب عجيبة . واذا أقسم أحدهم بالفتوة بر بقسمه . وهم يقتلون هؤلاء الروافض اينما وجدوهم . وشأنهم عجيب في الانفة والإئتلاف»(٧٨) .

وفي موضع آخر أشار الى مذبحة أوقعها السنيون بالاسماعيلية فاستأصلوهم عن آخرهم وكوموا بالبطحاء جماجمهم(٧٩) .

وأولى ابن جبير - كعادته - اهتمامه بالجوانب الثقافية المختلفة من آثار ورسوم دينية ومدارس ومستشفيات . فعند حديثه عن حلب اهتم اهتماماً كبيراً بقلعتها المشهورة ووصفها وصفاً دقيقاً . كذلك اسهب في وصف جامعها . وحينما انتقل الى دمشق تناول جميع مشاهدها ورسومها الدينية بالشرح المسهب . وقد بدأها بوصف جامعها المشهور وصفاً بلغ من الدقة شأوا بعيداً . ويعتبر حديثه عن جامع دمشق مرجعاً تأريخياً هاماً ذا قيمة عالية ، وهو لا يقل أهمية عن وصفه للكعبة المشرفة ، ولعله أفضل ما ورد من أوصاف لهذا الجامع في كتب الرحالة الآخرين .

وقد أشاد ابن جبير باهتمام السلطات والسكان بأمور التعليم ، ولا سيما التعليم الديني ، وبذلهم الاموال الطائلة من اجله . وقد ذكر ان بدمشق نحو عشرين مدرسة ، غير ان كثيراً من المساجد والمشاهد الدينية تتخذ مرافق لتعليم القرآن وكتب الدين ، ولا سيما بالنسبة للغرباء وقد خصصت لها الاوقاف لتقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها . هذا فضلا عن اتخاذ جامع دمشق موضعاً للتدريس ، حيث ان كل سارية من سواريه لها وقف معلوم يأخذه المستند اليها للمذاكرة والتدريس(٨٠) . ولذلك فقد دعا ابن جبير مواطنيه الى انتهاز الفرصة والارتحال الى بلاد الشام لطلب العلم . « فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة »(٨١) .

(٧٨) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .
(٧٩) المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
(٨٠) المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .
(٨١) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ .

وأشار ابن جبير أيضاً الى مستشفيات دمشق ، فذكر ان بها مارستانين اجدهما قديم والآخر حديث ، وان الحديث احفلهما واكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ويدير شؤونه موظفون يتكفلون برعاية المرضى واعداد الادوية والاغذية لهم، ويزوره الاطباء كل يوم متفقدين المرضى ، فيأمرون باعداد ما يناسبهم من الاغذية والادوية . وقد خصص جناح منه للمرضى المجانين(٨٢) .

أما ملاحظات ابن جبير ذات الطابع السياسي فتكتسب اهمية خاصة نظراً لانها تلقي ضوءا كاشفاً على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ابان الحروب الصليبية . . فقد عرض جانباً من سير تلك المعارك ، وتحدث عن احتلال صلاح الدين الايوبي لحصن الكرك . وقد دهش من استمرار العلاقات التجارية بين الجانبين من دون ان تؤثر عليها المعارك الحاسمة الدائرة بينها . « ففي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين يحاصر حصن الكرك ، كان اختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع . واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك . وتجار النصارى أيضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الآمنة على غاية . وتجار النصارى يؤدون أيضاً في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب »(٨٣) .

وازدادت دهشة ابن جبير حينما خرج الى بلاد الافرنج فلم يعترضه أو يضايقه احد ، في الوقت الذي كان فيه صلاح الدين قد استولى على مدينة نابلس وسبى كل من فيها ، وكان سبيهم في ذلك الوقت يدخل بلاد المسلمين(٨٤) . وقد مر عند ارتحاله من دمشق الى بانياس على أراضي زراعية يتقاسمها المسلمون والمسيحيون ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة مناصفة ومواشيهم مختلطة(٨٥) . وقد أوضح أوضاع المسلمين تحت الحكم المسيحي على النحو التالي : « والطريق بين تبنين إلى عكة كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم مع الافرنج على حالة ترفيه نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند

(٨٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٨٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٨٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
(٨٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ، ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أموالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدي الافرنج من المدن بساحل الشام على هذا السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع »(٨٦) .

أما ملاحظاته ذات الصفة الجغرافية البحتة فكانت نزرة وقليلة الفائدة . فقد وصف جبل لبنان بقوله : « وهو سامي الارتفاع ممتد الطول يتصل من البحر الى البحر . . وجبل لبنان هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج لأنه وراء انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم »(٨٧) .

وأشار الى انهار بلاد الشام اشارة عابرة فقال عن نهر العاصي : « والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي لأن ظاهر انحداره من سفل الى علو ومجراه من الجنوب الى الشمال ، وهو يجتاز على قبلي حمص وبمقربة منها »(٨٨) . وأشار في موضع اخر الى منبع نهر الخابور(٨٩) . ووصف أيضاً بحيرة طبرية بقوله : « وبحيرة طبرية مشهورة وهي ماء عذب وسعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ . والاقوال فيها تختلف وهذا القول اقربها الى الصحة لأنا لم نعاينها ، وعرضها أيضاً مختلف سعة وضيقاً »(٩٠) .

أما أوصافه الجغرافية للمدن السورية فتكتسب أهمية كبيرة نظراً لرصانتها ودقتها . وقد أسهب في وصف مدينتي حلب ودمشق . ومما قاله في وصف حلب : « أما البلد فموضوعه ضخم جداً ، حفيل التركيب ، بديع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة الى سماط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب »(٩١) .

(٨٦) المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .
(٨٧) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .
(٨٨) المصدر السابق ، ص ٢٠٧
(٨٩) المصدر السابق ، ص ١٩٦
(٩٠) المصدر السابق ، ص ٢٥٤
(٩١) المصدر السابق ، ص ٢٠٣

وقال أيضاً : « وأمرها في الاحتفال عظيم فهي بلدة تليق بالخلافة ، وحسنها كله داخل لا خارج لها الا نهير يجري من جوفيها الى قبليها ويشق ربضها المستدير بها ، فان لها ربضاً كبيراً فيه من الخانات ما لا يحصى عدده . وبهذا النهر الارجاء وهي متصلة بالبلد وقائمة وسط ربضة . وبهذا الربض بعض بساتين تتصل بطوله . وكيفما كان الأمر فيه داخلا وخارجاً فهو من بلاد الدنيا التي لا نظير لها والوصف فيه يطول »[٩٢] .

أما مدينة دمشق فلم يترك فيها شاردة ولا واردة من دون أن يصفها أو يتحدث عنها باسهاب . ومن أوصافه للمدينة : « لهذه البلدة ثمانية أبواب : باب شرقي وهو شرقي .. ويلي هذا الباب باب توما ، وهو أيضاً في حيز الشرق ، ثم باب السلامة ، ثم باب الفراديس وهو شمالي ، ثم باب الفرج ، ثم باب النصر ، وهو غربي ، ثم باب الجابية كذلك ، ثم باب الصغير وهو بين الغربة والقبلة ، والمسجد الجامع مائل الى الشمالية من البلد والارباض به مطيفة ، الا من جهة الشرق مع ما يتصل بها من القبلة يسيرا . والارباض كبار والبلد ليس بمفرط الكبر وهو مائل للطول وسككه ضيقة مظلمة وبناؤه طين وقصب طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك ما يسرع الحريق اليه ، وهو كله ثلاث طبقات فيحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن لانه أكثر بلاد الله خلقاً وحسنه كله خارج لا داخل »[٩٣] .

وقال يصف ربوتها : « وهذه الربوة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ، ينقسم فيها الماء على سبعة أنهار يأخذ كل نهر طريقه ، وأكبر هذه الأنهار يعرف بثورا وهو يشق تحت الربوة . ويشرف من هذه الربوة على جميع البساتين الغربية من البلد ولا اشراف كاشرافها حسناً ومجالا واتساع مسرح للابصار . وتحتها تلك الانهار السبعة تتسرب وتسيح في طرق شتى فتحار الابصار في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها»[٩٤] .

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
(٩٣) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
(٩٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٤ .

وقال يصف مدينة حمص : « هي فسيحة الساحة مستطيلة المساحة نزهة لعين مبصرها من النظافة والملاحة موضوعة في بسيط من الأرض عريض مداه لا يخترقه النسيم بمسراه يكاد البصر يقف دون منتهاه ، أفيح أغبر لا ماء ولا ظل ولا ثمر ، فهي تشتكي ظمأها وتستقي على البعد ماءها فيجلب لها من نهيرها العاصي وهو منها بنحو مسافة الميل وعليه طرة بساتين تجتلي العين خضرتها وتستغرب نضرتها ، ومنبعه في مغارة يسفح جبل فوقها بمرحلة بموضع يقابل بعلبك »[٩٥] .

وقال يصف مدينة حماه : « مدينة شهيرة في البلدان ، قديمة الصحبة للزمان غير فسيحة الغناء ولا رائقة البناء ، أقطارها مضمونة وديارها مركومة لا يهش البصر اليها عند الاطلال عليها كأنها تكن بهجتها وتخفيها فتجد حسنها كامناً فيها حتى اذا جست خلالها ونقرت ظلالها أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً تتسع في تدفقه اساليبه وتتناظر بشطيه دواليبه ، قد انتظمت طرتيه بساتين تتهدل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذارا بصفحتيه يتسرب في ظلالها وينساب على سمت اعتدالها . . . وموضوع هذه المدينة في وهدة من الارض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق يرتفع لها جانبان أحدهما كالجبل المطل ، والمدينة العليا متصلة بسفح ذلك الجانب الجبلي والقلعة في الجانب الآخر في ربوة منقطعة قد تولى نحتها الزمان ، والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذي النهر عليه ، وكلتا المدينتين صغيرتان . وسور المدينة العليا يمتد على رأس جانبها العلي الجبلي ويطيف بها .

وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب لان جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج الى سور . وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى الى ربضها »[٩٦] .

وقال يصف مدينة عكا : « هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق

(٩٥) المصدر السابق ، ص ٢٠ .
(٩٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

فيها مواطىء الاقدام . . وهي وصور لا بساتين حولها وانما هما في بسيط من الارض أفيح يتصل بسيف البحر ، والفواكه تجلب اليها من بساتينها التي بالقرب منهما . ولها عمالة متسعة والجبال التي تقرب منها معمورة بالضياع ومنها تجبى الثمرات اليها . وهما من غر البلاد . ولعكّة في الشرق منها مع آخر البلد واد يسيل ماء . ولها مع شاطئه مما يتصل بالبحر بسيط رمل لم ير أجمل منه منظراً ولا ميدان للخيل يشبهه »(٩٧) .

وهكذا يتضح لنا أن الرحلة الشامية هي من أغنى أجزاء الرحلة بمعلوماتها التاريخية والجغرافية ، كما أن أوصاف المدن فيها هي من أفضل ما ورد في الرحلة من أوصاف .

ثالثاً ـ قيمة الرحلة من الناحيتين الجغرافية والتأريخية :

بعد أن استعرضنا منهج ابن جبير وأهدافه ومضامين رحلته بات من اليسير علينا أن نحدد قيمة معلوماتها من الناحيتين الجغرافية والتاريخية .

فأما من وجهة النظر الجغرافية فان (الرحلة) لم تشتمل الا على معلومات نزرة قليلة القيمة عن البلدان التي تعرضت لها . ففي الجانب الطبيعي كانت عنايتها بالمعالم الطوبوغرافية والمناخية والهيدروغرافية ضعيفة تماماً . فهي لم تشر الى طبيعة التضاريس في البلدان المذكورة الا اشارات عابرة للغاية . وبالرغم من أنها تناولت بعض الجبال في الحجاز وبلاد الشام بالذكر ، لكن وصفها كان ادبياً أكثر منه جغرافياً . كذلك حال وصفها للصحراء النجدية ، وكانت اشاراتها للانهار الكبرى كالنيل ودجلة والفرات اشارات عامة لا تنطوي على قيمة جغرافية . ولم ترد فيها ملاحظات مناخية على الاطلاق .

وفي الجانب البشري ، كانت عنايتها بالاحوال الاقتصادية والاجتماعية ضعيفة عموماً . وقد أهمل ابن جبير ـ خلافاً لكثير من الرحالة ـ مظاهر الحياة الاقتصادية اهمالا يكاد يكون تاماً ، فهو لم يذكر شيئاً عن صناعة أي بلد من البلدان ، الا ما ورد عرضاً . ولم يهتم بالاحوال الزراعية واكتفى بوصف عام لما اعترض طريقه من مزارع وبساتين . ولسنا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في أي من البلدان التي زارها ، سوى عبارته التقليدية التي يرددها دائماً عن المدن المزدحمة وهي أن سكانها لا

(٩٧) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ و ٢٥٩ .

يحصيهم الا الله تعالى(٩٨) . وهو لا يوضح لنا أيضاً ، الا بشكل محدود جداً ، عادات وتقاليد الشعوب التي عرفها . غير انه ركز ـ كما اشرنا اعلاه ـ على الجانب الثقافي والديني على وجه الخصوص تركيزاً عظيماً . وقد نجح في رسم صورة واضحة حية لجوانب الحياة الثقافية والدينية ، لا سيما في بلاد الشام ومصر .

ولعل أبرز جانب جغرافي في (الرحلة) هو ما يتعلق بتناولها لشؤون السفر ومسالكه ووصفها للمدن في البلدان المعنية . فقد سجل لنا ابن جبير صوراً دقيقة لمتطلبات السفر وظروفه والمصاعب التي تواجه الرحالة أثناء تنقلاته بواسطة البر أو البحر . وقد تهيأ له ان يخترق البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وان يسافر بواسطة النيل من أقصى شمالي مصر الى أقصى جنوبها وان يخترق الصحراء النجدية من غربيها الى شرقيها ، فأمدنا بمعلومات قيمة عن مشاكل السفر في تلك الجهات خصوصاً ، وعن وسائل ومتطلبات ومصاعب السفر البحري على العموم . وقد أتيح له ان يستعمل كثيراً من مصطلحات الملاحة وبناء السفن في العصور الوسطى ، فحفظ لنا بذلك عدداً وافراً منها مما يمكن الافادة منه في فهم بعض النصوص الاخرى المدونة في ذلك العصر(٩٩) . وفضلا عن ذلك فقد وصف لنا الطريق التي سلكها وصفاً دقيقاً وواضحاً ، وكان يلتزم دائماً بتعيين خط واتجاه سيره بشكل مضبوط ، كما كان يلتزم بذكر الزمن الذي يستغرقه تنقله من موضع الى آخر . لذلك أصبح في الامكان تتبع تنقلاته بيسر ووضوح . ولم يشب تنقلاته الغموض الا في المرحلة الاخيرة من رحلته حينما تهيأ لمغادرة بلاد الشام في طريق عودته الى بلده .

أما وصفه للمدن فهو على جانب كبير من الأهمية ، فقد تميز بالرصانة والدقة ، وقد نجح في رسم صورة واضحة وحية لكثير من المدن التي زارها ، ولعلها تمثل أبرز جانب جغرافي في رحلته . ولا يغض من قيمة وصفه للمدن ما كان يلحقه ببعضها من مقدمات أدبية أو مبالغات عاطفية .

وأما من وجهة النظر التاريخية ، فلا ريب ان « الرحلة » تقدم لنا معلومات مهمة عن الفترة التأريخية التي أمضاها الرحالة في التجول بين بلدان المشرق . وتخص تلك الفترة بالذات حكم الايوبيين وعهد احتدام الحروب الصليبية . وقد رسم لنا ابن جبير

(٩٨) الجغرافية والرحلات عند العرب ، للدكتور نقولا زيادة ، ص ١٦٨ .
(٩٩) الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، للدكتور زكي محمد حسن ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨٦ .

صورة واضحة لصلاح الدين الايوبي . وبالرغم من تحمسه الشديد له باعتباره بطل حركة التحرير الاسلامية ضد الصليبيين ، الا انه حاول ان يكون موضوعياً في أحكامه فروى لنا انجازاته في مصر وبلاد الشام والحجاز ، وذكر وقائع ملموسة تبين ميله الى الاصلاح الديني والعمراني ، والى توطيد دعائم العدل والاستقرار في الجهات التي يسيطر عليها .

ومن المعلومات التأريخية التي اكسبت « الرحلة » أهمية كبيرة ملاحظات ابن جبير عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام والتي كان يتقاسم حكمها آنذاك المسلمون والمسيحيون . وتعود أهمية تلك المعلومات الى طابع الموضوعية الذي اتسمت به . وقد أوضح ابن جبير ان التسامح كان عنوان تلك العلاقات ، فكانت التجارة تجري بشكل طبيعي بين كل من الجهات التي يسيطر عليها المسيحيون والجهات التي يحكمها المسلمون ، وكانت معاملة المسلمين للرعايا المسيحيين ، ومعاملة المسيحيين للرعايا المسلمين طبيعية وعادلة . وقد اعترف الاب لامنز LAMENZ بأن ملاحظاته في هذا الخصوص تمتاز بقوة ملاحظة نافذة[١٠٠] .

ومن المعلومات التأريخية الهامة أيضاً ما يخص وضع المسلمين في جزيرة صقلية أيام حكم النورمان . فقد ذكر كراتشكوفسكي ان تلك المعلومات تكسب « الرحلة » قيمة فريدة[١٠١] ، وقد صور فيها ابن جبير مظاهر الحضارة المادية والروحية لمسلمي صقلية ، كما صوّر فيها معاملة وليم (غليام) النورماني لرعاياه من المسلمين . وقد قال في ذلك : « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب ، وكلهم أو أكثرهم كاتم ايمانه متمسك بشريعة الاسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله ، حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان وله منهم جملة كبيرة من أهل دولته والمرتسمون بخاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وما منهم الا من له الحاشية والخيول والاتباع »[١٠٢] .

وقد علق بعض الباحثين على حديث ابن جبير عن وضع المسلمين في صقلية بأنه

(١٠٠) كراتشكوفسكي ، ص ٣٠٠ .
(١٠١) المصدر السابق ، ص ٣٠٠ .
(١٠٢) رحلة ابن جبير ، دار التراث ببيروت ، ص ٢٦٧ .

كان متناقضاً في آرائه ، فمرة يشيد بما يلقوه من تسامح ديني ، وطوراً يذكر انهم يتكتمون في دينهم ، الا ان المؤرخين قد اثبتوا على اية حال بأن الدولة النورمانية في صقلية كانت تشمل المسلمين بقسط وافر من رعايتها ، وكانت تعترف بفضلهم وسبق مدنيتهم في كثير من نواحي الحياة[١٠٣] .

وهناك معلومات تاريخية أخرى تلقي ضوءا كاشفاً على الاحوال السياسية في البلدان المعنية بالرغم من ايجازها ، وهي تلك التي تتعلق بالعراق. فقد أوضح بأن زمام الأمور كانت بأيدي قواد الجيش ، وان الخليفة لم يكن سوى رمز لا حول له ولا قوة ، كما اوضح ان الاقامة الاجبارية كانت مفروضة على العباسيين . وصور لنا أيضاً فساد الحكم في الديار الحجازية وتفشي الرشوة بين أمراء البلاد والقائمين على شؤون الكعبة المكرمة ، كما بين ما يلاقيه الحجاج من عنت واستغلال وسوء معاملة من قبل القائمين على الأمور .

أما ما يتعلق بمركز (رحلة ابن جبير) في الادب الجغرافي العربي فلا شك انها قد احتلت مركزاً مرموقاً ، بل يمكن القول انها قد تبوأت مركز الصدارة ، فقد اكسبت صاحبها شهرة أدبية واسعة بين الاجيال لا سيما بين مواطنيه المغاربة، ولم يحدث لاية (رحلة) أخرى ان اقتبس منها الكتّاب بالقدر الذي حدث لرحلة ابن جبير . وما تزال « الرحلة » تستأثر باهتمام البحاثة العرب والاجانب وجمهور واسع من القراء بما يظهر لها من طبعات جديدة .

(١٠٣) زكي حسن ، ص ٨٧ .

- ٢ -

رحلة ابن بطوطة(*)

اذا كانت (رحلة ابن جبير) تعتبر في نظر الكثيرين من دارسي الادب الجغرافي العربي قمة ادب الرحلات العربي ، فلا ريب ان (رحلة ابن بطوطة) هي اعظم (الرحلات) شعبية ، وان صاحبها أوسع الرحالة المسلمين شهرة لدى جمهرة القراء ، حتى لقد لقبه بعض البحاثة بـ (سيد الرحالة العرب والمسلمين)[١٠٤] .

ولم يكتسب ابن بطوطة هذه الشهرة عبثاً ، فهو بلا شك يتفوق على جميع الرحالة القدماء - العرب والافرنج بما فيهم ماركو بولو - في اتساع رحلاته ، حتى لقد قدر ما قطعه بحوالى مائة وخمس وسبعين ألف ميل[١٠٥] . ولقد أمضى ما يقرب من نصف عمره وهو يتجول بين البلدان ويختزن في ذاكرته المشاهد والصور والاخبار . وكان قد غادر موطنه طنجة وهو في الثانية والعشرين من عمره بهدف حج بيت الله الحرام ، وعاد اليه وقد شارف على الخمسين . وقد زار خلال رحلاته معظم اجزاء العالم القديم المعروف ، عدا القسم الاوروبي . فساح في جزيرة العرب شمالا وجنوبا وشرقاً وغرباً ، ماراً بنجد والحجاز والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ، وطوّف في أرجاء العراق ومصر وبلاد الشام واقطار المغرب العربي وساحل افريقيا الشرقي . وتجول في بلاد فارس والاناضول واواسط آسيا وتركستان والحوض الادنى لنهر الفولغا ، ثم اتجه الى أقطار الشرق الاقصى فأقام في بلاد الهند زمناً ، ثم تجول بين جزر الساحل الجنوبي الغربي للهند . ومكث ما ينيف على عام ونصف في جزر الملديف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية وزار سرنديب والملايو ، ثم رحل الى جنوبي الصين ، وربما تقدم في جولته

(*) للتفصيل : راجع كتابنا (ابن بطوطة ورحلته) .

(١٠٤) الجغرافية والرحلات عند العرب ، ص ١٨٧ .

(١٠٥) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢١ .

حتى شمالي الصين . ولما عاد الى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاماً حنّ الى السفر ثانية فقام برحلة قصيرة الى الاندلس . ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجها الى السودان الغربي في مهمة رسمية ، ولبث يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين . وحينما استقر به المقام اخيراً في فاس عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان ابي عنان المريني راح يقص على الناس اخبار رحلاته الطويلة وما صادف خلالها من عجائب وغرائب وما عرف من الاشخاص ، فيثير دهشة سامعيه ويستحوذ على اعجابهم ، مما حمل السلطان ابي عنان الى دعوته الى املاء رحلته على كاتبه ابن جزي . وهكذا كسب الادب الجغرافي العربي رحلة من امتع ادب الرحلات هي المسماة (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) .

ولكي نقيّم (رحلة ابن بطوطة) تقييماً علمياً لا بد لنا اولا من القاء الضوء على شخصيته ومقوماتها النفسية والاجتماعية . وفي هذا المجال يمكن القول ان هناك صفتين قد غلبتا على طبعه وتحكمتا في حياته وهما روح المغامرة وحب الاستطلاع ونزعة التدين والورع . ولقد قادته الصفة الاولى الى الطواف في بلدان عديدة والى قطع المسافات الطويلة ، ولم يكن له من هدف سوى اشباع تلك الرغبة الجامحة . فقد لبث شهوراً طويلة يتجول بين جزر المحيط الهندي ويقطع الهند شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً دون هدف واضح . وقد كان بهذا الاعتبار يمثل الرحالة القديم المثالي الذي لا يهدف الى تحقيق غرض علمي معين كما لا يبغي كسب مغانم تجارية معينة . لهذا فاننا نعتقد ان ابن بطوطة لم يلجأ في يوم من الايام الى تسجيل أية ملاحظات ذات صفة علمية اثناء رحلاته . ولعل هذه الناحية تكشف لنا عن العفوية والسطحية التي تتصف بها ملاحظاته عموما . فلم ترد في (رحلته) ملاحظات تنم عن ترو وتفكير ومقارنة الا نادرا . والواقع ان ملاحظاته هي من النوع الذي يعلق بالذاكرة نتيجة المشاهدة . وربما كان أفضل وصف لروح (الرحلة) هو ذلك الذي سجله ابن جزي كاتب (الرحلة) في المقدمة حيث قال : « . . . وهو يملي ما شاهده في رحلته من الامصار وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخيار واوليائها الابرار »[١٠٦] .

ولقد استتبع عدم لجوء ابن بطوطة الى تسجيل ملاحظاته في حينها الى فقدان (الرحلة) لكثير من المقومات الجغرافية الضرورية . فلم يكن في كثير من الاحيان يعنى

---

(١٠٦) الرحلة - جـ ١ ، ص ٤ .

بذكر الاتجاهات اثناء سفراته ، بل انه كان يقفز في بعض المواضع قفزات غريبة من مدينة الى اخرى . لهذا اصبح من الصعب رسم خارطة واضحة لخط سيره في كثير من البلدان . كذلك اتسم وصف المدن لديه بسطحية وعمومية واضحة بحيث لا يمكن للمرء ان يتمثل الموضع الجغرافي ، بل ولا يمكن الاستشهاد به . والحقيقة ان اغلب اوصافه للمدن متشابهة ومتكررة ونادرا ما تكشف عن سمة جغرافية متفردة. وفضلا عن ذلك فقد حرف نطق عدد غير قليل من المدن نتيجة النسيان ، لاسيما ما يتعلق بالبدان الاعجمية مما حير الباحثين في صحة وجودها أو في مواضعها الحقيقية . . ولعل أهم مشكلة تواجه الباحث في (رحلة ابن بطوطة) هو عدم انطباق اسماء كثير من المدن المذكورة على المدن الحالية .

ولو قارنا الجوانب الجغرافية في (رحلة ابن بطولة) بمثيلاتها في (رحلة ابن جبير) من حيث أوصاف المدن وخط السير لوجدنا ابن جبير متفوقاً عليه ، ويعود ذلك الى قيام ابن جبير بتسجيل ملاحظاته ومشاهداته يوماً بيوم مما أكسبها الدقة والتميز، بينما عمد ابن بطوطة الى املاء مشاهداته على ابن جزي بعد مضي ما يزيد على ربع قرن .

أما الصفة الثانية التي تحكمت في حياة ابن بطوطة وهي نزعة الورع والتدين فلا ريب انها قد طبعت (رحلته) بطابعها الخاص كلياً . فلا تكاد أية صفحة من صفحات (الرحلة) تخلو من الحديث عن رجال الدين أو من الحكايات ذات الصبغة الدينية . وقد يرد البعض على مثل هذا الادعاء بالقول بأن الظرف الذي أملى فيه ابن بطوطة (رحلته) ظرف يعنى بأمور الدين ورجاله أكثر من أي شيء آخر، ويقبل قصص كراماتهم وخوارقهم كحقائق مسلم بها ، وان حكاياته لم تكن منبعثة من افراط شخصي بالورع بل كانت انعكاساً لرغبات العصر ، وهو قول غير بعيد عن الصحة . ومع ذلك فان هذا العذر لم يكن يقتضي بالضرورة تكريس (الرحلة) لشؤون الدين ورجاله ، فهي لم تكن رحلة دينية وان كان غرضها الاول حج بيت الله الحرام ، وقد انتفى ذلك الهدف بمرور الزمن . بل اننا نرى ان (رحلة) مشابهة كان غرضها الاول حج بيت الله الحرام ، وهي (رحلة ابن جبير)، لم تنصرف ذلك الانصراف الى تقصي اخبار رجال الدين والاولياء والزهاد ورواية الاساطير عنهم كما حفلت بذكرها (رحلة ابن بطوطة) ـ ولقد أدت بابن بطوطة نزعته الدينية الى اهمال النواحي الجغرافية فوردت ملاحظاته الجغرافية بصورة ثانوية ومبتسرة ، سوى حالات قليلة ، بينما أفاضت (الرحلة) في تناول النواحي الدينية ، وان لم تكتسب معلوماتها تلك اهمية خاصة . بيد اننا لا نود ان نحمل نزعة ابن بطوطة الدينية ما في (الرحلة) من قصور جغرافي ،

فالحس الجغرافي لدى ابن بطوطة كان ضعيفاً أصلا . ولقد كانت تفوته معالم جغرافية بارزة في بعض المدن لم تكن تنطبع في ذاكرته ، ولم تكن تستلفت انتباهه .

أما ما يتعلق بحكاياته فقد كانت معقولة عموما وتنم عن الصدق . ولا يعني ذلك انها كانت مجردة من المبالغة دائما ، لكن درجة الاختلاق فيها لم تكن عالية . واذا قارنا حكاياته بحكايات الرحالة الاخرين لوجدناها عموماً أقل مبالغة . ففي أحد مواضع رحلات ماركو بولو مثلا يقول بأنه قام بقياس ريشة طير الرخ فوجد انها تبلغ تسعين شبراً من أشباره[١٠٧] . أما المسعودي فيذكر في كتابه (أخبار الزمان) قائمة طويلة باسماء الطيور والاسماك والحيوانات الغريبة التي لا وجود لها[١٠٨] . وكذلك يفعل الغرناطي في كتابه (المعرب في بعض عجائب المغرب) حيث يزعم بأن هناك نوعاً من العنب في مدينة سرقسطة في الاندلس يبلغ وزن الحبة الواحدة عشرة مثاقيل ، أي ما يعادل ٤٥ غراماً[١٠٩] . ومع ذلك فقد تعرضت بعض حكايات ابن بطوطة الى الشك والارتياب الذي يبلغ حد التكذيب .

ولقد لمح ابن جزي نفسه ـ كاتب الرحلة ـ الى تلك الشكوك في حكايات ابن بطوطة مع انه كان من أشد المتحمسين لها . فقد ذكر في بداية (الرحلة) انه قد أورد جميع ما أقره من الحكايات والاخبار ولم يتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار[١١٠] ، فكأنه كان يعتذر مقدماً عما يبدو من غرابة في تلك الحكايات وعما قد توحيه من عدم الثقة ، بل ان ابن بطوطة نفسه كان يوثق حكاياته بين حين وآخر بايمان غليظة لكي يصدقه سامعوه . فهو يقول في أحد مواضع حكاياته عن السلطان محمد طغرل شاه ملك الهند : « وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه ، وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله ان جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق ويكفي بالله شهيداً »[١١١] . وفي موضع آخر يقول : « وانما أذكر منه ما حضرته وشهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى بالله شهيداً »[١١٢] .

(١٠٧) الارتياد والكشف الجغرافي ـ ترجمة شاكر خصباك ، ص ٤٤ .
(١٠٨) اخبار الزمان . للمسعودي ، ص ٥٠ ـ ٧١ .
(١٠٩) حسين مؤنس ، ص ٣٢٧ .
(١١٠) الرحلة ، الجزء ١ ، ص ٤ .
(١١١) المصدر السابق ، الجزء ٢ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(١١٢) المصدر السابق ، الجزء ٢ ، ص ٤١ .

ولم تراود الشكوك معاصريه فحسب ، بل راودت عدداً غير قليل من دارسي (رحلته) في الوقت الحاضر أيضاً . ولقد أثارت شكوكهم اجزاء معينة من (الرحلة) ، لا سيما حكاياته عن ملك الهند محمد طغرل شاه ومشاهداته في الصين والقسطنطينية ، فالمستشرق فران Ferrand مقتنع تماماً انه لم يصل الى الصين . والمستشرق يول Yule يؤكد بأنه لم يدخل القسطنطينية . ويؤيدهما في هذين الرأيين آخرون . لكن عدداً آخر من المستشرقين دافعوا عنه وبرروا ما يبدو من خلط أو غرابة في حكاياته عن هذين البلدين . فقد أكد جب Gibb ان ابن بطوطة قد روى ما اعتقده حقيقياً الا ان بعد الشقة الزمنية وخضوعه للعاطفة الدينية قد أديا به الى خلط الحقيقة بالخيال في بعض المواضع والحكايات فلم يميز بين ما شاهده حقيقة وبين ما سمعه سماعاً[١١٣] . كذلك أكد كراتشكوفسكي ان حكاياته بوجه عام جديرة بالثقة[١١٤] . بل ان بعض المستشرقين تحمس له تحمساً عظيماً كالمستشرق الايطالي دوزي Dozy فاطلق عليه لقب (الرحالة الامين)[١١٥] . ومهما بلغ تفاوت المستشرقين حول مدى صدقه فلا بد ان نعترف بانه استسلم للخرافات في بعض حكاياته استسلاماً مطلقاً وبدرجة غير مقبولة ، وأبرز مثل على ذلك حكاية الفرجية[١١٦] وحكاية الرجل الصيني المعمر[١١٧] وحكاية الشجرة المقدسة[١١٨] وغيرها من الحكايات .

واذا ضربنا صفحاً عما اشتملته (الرحلة) من عيوب جغرافية أو مبالغات أو حكايات مختلفة ، فانها تظل ذات قيمة كبرى بما تحفل به من معلومات متنوعة عن اجزاء واسعة من العالم القديم . فقد تميزت بشمولية عظيمة تكاد تفتقد في أي مؤلف من مؤلفات الرحالة القدماء . وقد مكنت تلك الشمولية ابن بطوطة ان يدلي بأحكامه عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لكل بلد عن خبرة ومعرفة بالاوضاع السائدة في بقية بلدان العالم القديم . ومما لا ريب فيه ان رحلاته الواسعة قد اكسبته فهما خاصا لاحوال الشعوب كما اكسبته معرفة باقتصادها ، هذا بالاضافة الى معاصرته

---

(١١٣) Gibb, H. A. R., Ibn Battuta Travels in Asia And Africa, Routledge And Kegan, London 1953, P. 12.

(١١٤) كراتشكوفسكي ، ص ٤٢٨

(١١٥) دائرة المعارف ، - بيروت ١٩٥٨ ، ص ٣٦٩

(١١٦) رحلة ابن بطوطة ، الجزء الثاني ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(١١٧) المصدر السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(١١٨) المصدر السابق ، ص ١١٤ .

لكثير من الاحداث التاريخية للبلدان التي زارها ومعرفته المباشرة بحكامها .

لذلك يمكن القول أن (رحلة ابن بطوطة) ذات اهمية عظيمة لدارسي الجغرافية التأريخية ولعلماء الانثروبولوجيا . فقد حفلت بالاوصاف المسهبة والدقيقة للانظمة الاجتماعية والسياسية لبلدان جنوب شرقي آسيا ، ولا سيما الهند وجزر الهند الشرقية والصين ، وكذلك لاقطار آسيا الوسطى والغربية كتركستان وبلاد الاناضول ، وكذلك لجهات افريقيا الغربية ، مما يمكن اعتباره سجلا ممتازا للاحوال السائدة في البلدان المذكورة في ذلك العصر . وسنحاول في الصفحات التالية ان نستعرض ابرز المعلومات ذات الاهمية الجغرافية والانثروبولوجية التي وردت في ثنايا « الرحلة » .

١ ـ العالم العربي :

تتصف ملاحظات ابن بطوطة عن أقطار العالم العربي بالايجاز والسطحية عموما ، بالرغم من انه زار تلك الاقطار مرات عديدة ومكث فيها شهوراً طويلة . والواقع انه لم يضف جديداً الى المعلومات عن تلك الاقطار بالقياس لما قدمه الرحالة الجغرافيون السابقون . واذا كان لوصفه الجغرافي لعدد من مدن العالم العربي قيمة ما ، فان تلك القيمة تتضاءل بعد ان ثبت ان قسماً كبيراً منها قد اقتبس من (رحلة ابن جبير) او ربما من رحلات اخرى . ولو قارنا ملاحظاته الجغرافية بملاحظات ابن جبير الذي سبقه بما يقرب من قرن في التجوال بين أقطار العالم العربي لتبين لنا أن ملاحظات ابن جبير اكثر دقة ونفاذا . فقد أشار ابن جبير الى ظاهرات هامة ـ جغرافية وأثرية ـ كانت تغيب عن ابن بطوطة . وقد يكون لبعد الشقة الزمنية بين وقت زيارته للاقطار العربية وبين تسجيله « للرحلة » أثر في ذلك . لكن من الواضح ايضا ان ما يتمتع به ابن بطوطة من حس جغرافي وعلمي كان أدنى مرتبة لما كان يتمتع به ابن جبير . ولعل مرجع ذلك أيضاً الى عناية ابن بطوطة بالاشخاص واخبارهم أكثر من عنايته بتسجيل الاوضاع الجغرافية للمدن والاقطار المعنية .

ويمكن القول ان اقل ملاحظات (الرحلة) قيمة هي التي تتعلق ببلدان شبه الجزيرة العربية . فلم يذكر ابن بطوطة من مدنها سوى عدد محدود ، كما انه لم يسجل عنها اية ملاحظات اقتصادية أو اجتماعية جديرة بالاهتمام .

وتأتي كتابته عن العراق بالدرجة الثانية بعد شبه الجزيرة العربية في ايجازها وسطحيتها . هذا فضلا عن ان ملاحظاته ـ لا سيما الاجتماعية منها ـ يعوزها الوضوح والدقة في كثير من الاحيان . ومما لا ريب فيه أنه لم يأت بجديد عن هذه البلاد .

والمعروف ان الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين قد مسحوا العراق جغرافيا اكثر من أي قطر اسلامي آخر ، باعتباره مركز الخلافة الاسلامية . وكانت كتابات اليعقوبي وابن خرداذبة والمقدسي والاصطخري وغيرهم شاملة لشتى نواحي الجغرافية من طبيعية واقتصادية وبشرية . ولم يضف الرحالة والجغرافيون المتأخرون أية معلومات هامة الى المعلومات المبكرة . وبالرغم من ان ابن بطوطة كان قد زار العراق مراراً عديدة ، لكنه لم يحاول التعمق في طبيعة الحياة الاجتماعية ، كما انه لم يسجل اية ملاحظات اقتصادية ذات قيمة تذكر . ويمكن ان يعزى اهماله للعراق الى حالة النفور التي تملكته تجاه البلاد ، والتي تتجلى في ثنايا حديثه عن مدن وسط وجنوب العراق وعن سكانها الشيعة ، وربما كانت غزارة المعلومات الجغرافية عن العراق وسهولة تداولها سبباً اضافياً آخر لذلك الاهمال .

وتعتبر أحاديثه عن بلاد الشام أفضل ما ورد في (الرحلة) من معلومات عن أقطار العالم العربي . وبالرغم من انه اقتبس الكثير من أوصاف المدن عن ابن جبير - لا سيما ما يتعلق بدمشق - الا ان ملاحظاته عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية قيّمة واصيلة . وقد أمدنا بصور دقيقة عن عادات السكان في حياتهم اليومية وعن نشاطهم الاقتصادي ومستواهم الثقافي . كذلك قدم لنا صوراً واضحة عن نوع الحكم السائد في البلاد . وتعزى جودة ملاحظاته عن بلاد الشام وسعتها وشمولها الى تكرار زيارته لهذه البلاد والى اقامته الطويلة نسبياً فيها . فقد أقام في دمشق - كما اخبرنا - ما يزيد على عام يدرس على أيدي علمائها في الجامع الاموي ، اضافة الى زياراته المتكررة . وكان قد أحب البلاد وطابت نفسه للاقامة فيها . كل ذلك قد لوّن أحاديثه عن بلاد الشام بلون خاص وأكسبها نكهة طيبة ، وجعل (رحلته) من المراجع الهامة لدراسة أحوال البلاد الاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية في ذلك العهد .

أما أحاديثه عن مصر فلم تشتمل على ملاحظات قيمة سوى ما أورده عن نهر النيل وطريقة فيضانه . وقد اقتصرت بقية المعلومات على حكايات عن الاولياء والسلاطين . ويجدر بالذكر ان كتب الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين حافلة بالمعلومات عن نهر النيل ، وقد أسهبوا في وصف مجراه وطريقة فيضانه .

أما ملاحظاته عن بلدان المغرب العربي والاندلس فهي أقل ملاحظات (الرحلة) قيمة من وجهة النظر الجغرافية . ومما يزيد في ضآلة قيمتها ما كتب من أدب جغرافي غزير عن تلك البلدان . فقد قام عدد كبير من المغاربة برحلات الى أقطار العالم العربي والاسلامي ودونوا مشاهداتهم عن بلدان المغرب العربي بالذات كابن سعيد والتجاني

والعبدري وابن جبير ، فضلا عن الكتابات الجغرافية القيمة للادريسي والبكري .

وهكذا يتضح ان اضافات ابن بطوطة الجغرافية عن أقطار العالم العربي محدودة عموماً ، وهي أقل قيمة من اضافاته عن الأقطار الاسلامية الاخرى .

٢ - جنوب غربي آسيا :

تتركز أهمية جولات ابن بطوطة في بلدان جنوب غربي آسيا على ما احتوته من معلومات جديدة عن بلاد الاناضول وعن مدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، في حين أن ما ورد من معلومات عن البلاد الايرانية كان ضئيل الاهمية .

فأما كتاباته عن بلاد الاناضول فانها ذات أهمية تاريخية خاصة ، اضافة الى ما احتوته من معلومات أصيلة لم ترد في كتب معاصريه أو سابقيه من الجغرافيين المسلمين . فقد زار هذه البلاد في الوقت الذي كانت فيه عملية قيام الدولة العثمانية آخذة في التبلور . ويقول جب GIBB بهذا الصدد : « تعتبر قصص ابن بطوطة عن تركيا من التقارير الاولية القليلة التي تمتلكها عن الايام الاولى للامبراطورية العثمانية »[١١٩] . ولعل من أهم ملاحظاته الاجتماعية حديثه عن نظام « الأخّي » الذي كان سائداً في بلاد الاناضول . كذلك سجل ابن بطوطة ملاحظات اجتماعية هامة أخرى تكشف عن الوضع الاجتماعي قبل تبلور الدولة العثمانية ، ومثال ذلك انتشار تعاطي (الحشيش) انتشاراً واسعاً بين مختلف طبقات السكان ، وانتشار البغاء العلني على نطاق واسع . أما ملاحظاته الاقتصادية فقد كانت مفيدة ووافية ، حيث تحدث عن الزراعة في البلاد وعن أنواع المزروعات ، كما أبدى اهتماماً خاصاً بالصناعات .

أما أحاديثه عن البلاد الايرانية فتكاد تخلو من أية أهمية علمية لا سيما اذا أخذنا بنظر الاعتبار الادب الجغرافي العربي الغزير الذي ألف عن هذه البلاد منذ القرن التاسع الميلادي حتى عصر ابن بطوطة . وفضلا عن ذلك فان خط سير ابن بطوطة بين المدن الايرانية كان متلفعا بالغموض والارتباك . كذلك لم تكن ملاحظاته عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية قيمة على وجه العموم . وقد انصبت ملاحظاته الاجتماعية على ايضاح أثر الدين على سلوك الناس ، حيث بين لنا انه كان يسيطر على تصرفاتهم سيطرة تامة . وتكشف ملاحظاته الاقتصادية عن ازدهار زراعة الفواكه في ايران والتي

(١١٩) جب ، ص ٣٥٦ .

كانت عصب الحياة الاقتصادية في البلاد ، كما تكشف عن اهمية صيد اللؤلؤ كمورد اقتصادي هام .

٣ ـ آسيا الوسطى :

شملت جولات ابن بطوطة في آسيا الوسطى بلاد القرم وجنوبي روسيا وتركستان ، وهي مناطق كان يحكمها السلطان محمد أوزبك خان القبيلة الذهبية . وقد صوّرت أحاديثه أوضاع المغول وحياتهم الاجتماعية في أول عهدهم بالاسلام . وتعتبر تلك المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية معلومات أصيلة لم يسبق ابن بطوطة اليها أحد . فهو اول رحالة مسلم صور النظام الاسري لدى القبائل المغولية وأوضح مكانة المرأة العالية فيه ، كذلك أفاض ابن بطوطة في وصف الجوانب المختلفة من حياة القبائل التركستانية ، حيث تحدث عنها في حلها وترحالها وفي مأكلها وملبسها ومشربها وأوضاعها الاقتصادية مما هيأ لنا صورة دقيقة عن نمط حياتها . ويمكن القول ان ملاحظاته في هذا الباب من أفضل الكتابات الأنثروبولوجية العربية القديمة .

٤ ـ الشرق الأقصى :

تضمنت جولات ابن بطوطة في الشرق الاقصى الهند وجزر المحيط الهندي والصين ، ويشغل حديثه عن هذه الجولات ما يقرب من نصف (الرحلة) . ويعود سبب هذا الاهتمام الى كونه قد أمضى قرابة عشرة أعوام من غربته في تلك الجهات فامتلأت جعبته بالحكايات عنها . وقد بلغت بعض تلك الحكايات حدا من الغرابة أثار الشكوك في نفوس السامعين من معاصريه ، كما أثار ظنون بعض دارسي « الرحلة » ، لا سيما ما يتعلق برحلته الى الصين . ولقد كانت حكاياته عن الهند وملكها محمد طغرل شاه أشد الحكايات غرابة بالنسبة لمعاصريه . فقد روى من القصص عن بذخه وترفه وكرمه ما يفوق الخيال ، كما حكى عن قسوته وبطشه ما يتجاوز التصور . ومما لا ريب فيه ان خياله قد لعب دوراً هاماً في تلك الحكايات ، الا انه بالتأكيد لم يختلقها اختلاقاً . فلقد تهيأت له فرصة للعيش في معية الملك محمد شاه قرابة ثماني سنين ، وقد خالط اثناء تلك المدة رجال بلاطه والمقربين منه وسمع منهم كثيراً من القصص ، ولكنه لم يمحصها . وقد أثبت ابن بطوطة خلال (رحلته) بأكملها انه مستعد لتصديق كل ما يسمع من حكايات واخبار مهما بلغت غرابتها، وندر ما حاول محاكمتها محاكمة منطقية . ويمكن ان يعزى موقفه هذا الى كثرة ما شاهد وسمع من حكايات يفوق بعضها الخيال بالرغم من واقعيتها ، إضافة الى طبيعة ثقافته الضحلة . فهو اذن لم يتعمد الكذب في رواية أخبار ملك الهند أو في تصوير ما جرى له من حوادث

وغرائب ، لكن خياله الحي زوّق بعض تلك الاحداث . واذا كانت حكاياته عن الهند قد بدت غريبة لمعاصريه فإن تلك الحكايات لم تعد غريبة على سمعنا في الزمن الحاضر. فنحن نعرف اليوم ان شبه القارة الهندية بأرضها الواسعة المتنوعة وغاباتها الكثيفة وجبالها الشاهقة وطبقاتها الاجتماعية المتنافرة بثرائها الباذخ وفقرها المدقع حافلة بكل عجيب وغريب . وعلى أية حال فلا بد لنا أن نؤكد بأن ابن بطوطة قد عني عناية خاصة بالتحدث عن الجوانب التأريخية والسياسية في الحياة الهندية دون الجوانب الاجتماعية والاقتصادية مما جعل ملاحظاته الاقتصادية والاجتماعية قليلة الاهمية ، في حين باتت أخباره التأريخية عن الامارات الاسلامية الهندية مرجعا هاما واصيلا للمؤرخين ولدارسي تاريخ الهند في العصور الوسطى .

أما حكاياته عن جزر المحيط الهندي ، لاسيما جزر الملديف (جزر ذيبة المهل) التي أقام فيها ما ينيف على عام ونصف فقد أثارت الريبة في نفوس سامعيه بما اشتملته من معلومات غريبة عن الحياة الاجتماعية لتلك الاقطار النائية ، وخصوصا عن الحياة العائلية . وبما ان سكان تلك الجزر كانوا يدينون بالاسلام فقد بدت بعض عاداتهم شاذة ومتنافية مع طبيعة التعاليم الدينية. ومهما قيل عن غرابة تلك المعلومات فانها تعتبر مصدرا أوليا عن الحياة الاجتماعية لتلك الجزر في ذلك العهد . ويعتبر ابن بطوطة أول كاتب يدوّن الملاحظات عنها .

أما ما يتعلق باخباره عن الصين فلم تشتمل على أية غرائب بل كانت تصويراً أميناً لأهم معالم الحياة الاجتماعية والاقنصادية في تلك البلاد ، وقد قدم لنا صورة واضحة جداً عنها . ومن الجدير بالذكر ان شكوك البحاثة والمعاصرين عن زيارته للصين تعزى الى غموض وصفه للطريق الذي سلكه الى تلك البلاد ، والى اضطراب أسماء المدن والبقاع التي تحدث عنها . غير أن مسألة زيارته لتلك البلاد وعدمها لا تغض من أهمية ودقة معلوماته عنها .

٥ ـ أفريقيا الغربية :

لعل جولات ابن بطوطة في الصحراء العربية الكبرى وافريقيا الغربية من أدق وأفضل ما اشتملت عليه (رحلته) ، كما انها من أكثر أجزاء (الرحلة) خلواً من المبالغات . وقد امتازت بوضوح خط سيرها بالرغم من اختلاف الباحثين حول مواضع بعض المدن ، والتي تعتبر في الوقت الحاضر مدناً تأريخية منقرضة . ويمكن أن نعلل دقة (الرحلة الافريقية) بكونها آخر رحلاته وبكونه قد شرع في تدوينها عقب عودته بشهور قليلة ، فكانت معلوماتها ما تزال طرية في ذهنه . وقد حاول ان يروي مشاهداته بحياد

تام مما جنبها شطحات الخيال . أما معلوماتها فهي بمجموعها دقيقة كما انها أصيلة وقيمة ، ولم يرد لها مثيل فيما كتبه الادريسي أو البكري عن تلك الجهات . وقد أثبتت تحقيقات الرحالة الاوروبيين في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أن معلوماته عن الصحراء العربية الكبرى وعن غربي أفريقيا صحيحة ودقيقة . ويمكن القول أن أبرز أخطائه في هذه الرحلة حديثه عن نهر النيجر ، وهو خطأ وقع فيه بعض الجغرافيين العرب من قبله وشاركهم بعض الرحالة الغربيين من بعدهم ، ألا وهو اعتبار نهر النيجر فرعاً من فروع نهر النيل . وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً بين الرحالة الغربيين حتى أثبت منجو بارك PARK عام ١٧٩٥ انعدام الصلة بين النهرين . ولعل ابن بطوطة اقتبس هذا الرأي من الادريسي . وفيما عدا هذا الخطأ الجغرافي الذي وقع فيه فان معلوماته وأوصافه الجغرافية للمناطق التي اخترقها خلال رحلته الافريقية هي من أفضل ما ورد في (الرحلة) من أوصاف جغرافية . وقد لخص لنا بدقة وبراعة الاوضاع الطوبوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية للصحراء الكبرى ولافريقيا المدارية الغربية ، وحقق فيها مستوى عالياً في الكتابة الجغرافية .

كذلك تتصّف رحلة ابن بطوطة الافريقية بأهمية تاريخية وانثروبولوجية . وتكمن أهميتها التاريخية في كونها سجلا قيما مبنيا على تجربة شخصية لاحوال مملكة مالي الاسلامية في عهد السلطان منسى سليمان . فقد أسهب ابن بطوطة في وصف بلاط مالي وما يجري فيه من مراسيم واحتفالات ، وقد استغرقت اوصافه تلك صفحات عديدة . وأما أهمية (الرحلة) من الناحية الانثروبولوجية فتكمن في ثرائها بالملاحظات الاجتماعية والاقتصادية عن قبائل الطوارق والقبائل الزنجية التي تقطن افريقيا الغربية . ويعتبر ابن بطوطة من أوائل الرحالة الذين كشفوا عن النظام الأمي -MATRIAR CHAI الذي تتبعه قبائل الطوارق لا سيما في منطقة ايوالاتن والجهات المجاورة ، وهو النظام الذي يجعل المرأة على قدم المساواة مع الرجل ان لم تكن أعظم شأناً منه ، ويجعل النسب والوراثة متعلقين بالأم وعائلتها . كذلك رسم لنا ابن بطوطة صورة اقتصادية متكاملة لكل منطقة مر بها في افريقيا الغربية موضحاً طريقة تعاملها الاقتصادي وما تتبادله من بضائع وما تنبته من مزروعات وما تصنعه من صناعات .

وهكذا يبدو لنا من هذا الاستعراض ان رحلة ابن بطوطة حافلة بالمعلومات الاصيلة عن كثير من بلدان الشرق الاقصى وغربي أفريقيا . والواقع انها ليست مؤلفاً ذا قيمة جغرافية وتأريخية وانثروبولوجية فحسب، بل هي في الوقت نفسه كتاب أدبي قيم حافل بالحكايات الممتعة والعبر النافذة .

- ٣ -

رحالة آخرون

يضم بعض الباحثين الى طائفة « الرحالة » عدداً من الكتاب الذين زاروا قطراً معيناً أو مدينة معينة ودوّنوا مشاهداتهم عنها ، كعبد اللطيف البغدادي وابن فضلان واسامة بن منقذ . غير ان كتابات أمثال هذه الشخصيات لا تمثل في الحقيقة السمات العامة لادب الرحلات ، فهم لم يكونوا رحالة أصلا بل قاموا برحلاتهم لأهداف خاصة مما جعل كتاباتهم من طراز معين ، وان كانت ذات فائدة جغرافية . والواقع اننا لو شئنا ان نحصي كتب « الرحلات » الحقيقية لوجدنا ان عددها ليس كبيراً . ولعل أشهرها - فيما عدا رحلتي ابن جبير وابن بطوطة اللتين تتبوآن المكانة الاولى - (رحلات) ناصري خسرو وسليمان التاجر وبزرك بن شهريار والهروي وابن سعيد والعبدري وابي حامد الغرناطي وعدد آخر من (الرحلات) ذات المكانة الثانوية .

فأما رحلة ناصري خسرو (١٠٥٠ م - ١٠٦١ م » المعنونة (سفرنامة) (زاد المسافر) فلا يمكننا ان نضمها الى أدب الرحلات الجغرافي العربي بالرغم مما حوته من ملاحظات قيمة عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية للبلدان العربية وخصوصاً فلسطين ومصر وسوريا والحجاز . ذلك ان هذا الكتاب قد دون باللغة الفارسية ، وهو يمت بذلك الى الادب الفارسي .

وأما رحلات سليمان التاجر وبزرك بن شهريار ، فان الحديث عنهما يشوبه الكثير من الغموض . فسليمان التاجر الذي يعتبر من طلائع الرحالين (القرن التاسع الميلادي والثالث الهجري) لم يخلف أثراً مكتوباً ، بل نقلت أخباره عن الرواة . وقد قام بتسجيلها شخص آخر هو ابو زيد السيرافي ، الذي ربما أضاف اليها مما جمعه من حكايات الشيء الكثير . ولسنا نعرف بالضبط مدى الدقة في أخبار هذا الرحالة ، الا أن من المتفق عليه انه كان من اهالي سيراف وانه كان من ابرز تجارها الذين كانوا يتاجرون ببضائع الهند والصين ، لذلك كانت حكاياته من المصادر المبكرة جداً عن بلاد

الهند والصين وعن البحار الشرقية . وقد استفاد من تلك الاخبار والحكايات عدد كبير من الجغرافيين العرب اللاحقين .

وأما بزرك بن شهريار الناخذاه فالغموض يحيط به وبحكاياته أكثر من سابقه . ويدل لقبه انه كان ربانا يحترف الملاحة ، وكان يجوب البحار الشرقية . ويبدو ان كتابه الذي نشره بعض المستشرقين بعنوان (عجائب الهند بره وبحره وجزائره) قد ضمّ كثيراً من حكايات غيره من ملاحي عصره (القرن الرابع الهجري) والعصور التالية ، حتى أصبح الكتاب عبارة عن قصة ملاحي العرب فوق متن المحيطين الهندي والهادي على توالي العصور وما شاهدوا فيهما من عجائب الملاحة وغرائب العواصف وما أبصروه من حيوانات واسماك بحرية ونسور وطيور مائية(١٢٠) .

وأما الهروي (ابو الحسن علي بن ابي بكر) المتوفى عام ٦١١ هـ / ١٢١٤ م ، فقد اكتسب صفة الرحالة بحق ، اذ كان يلقب بالسائح الهروي . وقد قال عنه ابن خلكان « انه لم يترك براً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن قصدها ورؤيتها الا رآه ، ولم يصل الى موضع الا كتب خطه على حائطه »(١٢١) . وكان الهروي يعنى على نحو الخصوص بوصف المساجد والمواضع الدينية التي كانت هدفه الاول ، فرحلته المسماة (الاشارات في معرفة الزيارات) تنبيء عن نزعة دينية قوية ، الا انه كان اضافة الى ذلك يسجل بعض الملاحظات الاجتماعية والتأريخية العامة . وقد أوضح منهجه في كتابه بالعبارات التالية : « أما بعد فانه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين ان اذكر له ما زرته من الزيارات وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات ، وما رأيته من الاصنام والآثار والطلسمات في الربع المسكون والقطور المعمور . ووقع الامتناع الى انه حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته اذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الرسول زيارات الشيخ .. فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب .. »(١٢٢) .

ولقد ذكر البلدان التي زارها وتحدث عنها في كتابه على النحو التالي : « وهنا

(١٢٠) الرحلات ـ باشراف شوقي ضيف ، ص ٣٣ .

(١٢١) أدب الرحلات . لأحمد ابو سعد ، ص ١٣٨ .

(١٢٢) الاشارات الى معرفة الزيارات ـ لابي الحسن علي بن ابي بكر الهروي ، عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل ـ طومين ـ منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ـ ١٩٥٣ ، ص ١ .

ابتدىء بذكر الروايات من مدينة حلب واعمالها والبلاد التي تليها ، ثم أذكر الشام بأسرها والساحل بأسره وبلاد الفرنج وفلسطين والارض المقدسة وجميع زيارات البيت المقدس ومدينة الخليل وديار مصر بأسرها والصعيدين والبلاد البحرية والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق بأسرها واطراف الهند والحرمين الشريفين والمدينة واليمن وبلاد والعجم .. وهذا الكتاب مقتصر على ذكر الزيارات . واما ذكر الابنية والآثار والعجائب والاصنام فلها كتاب مفرد غير هذا .. »(١٢٣) .

وأما الرحالة الآخرون فجميعهم من المغرب ، ولا تكتسب رحلاتهم أهمية خاصة فقد خلت من الملاحظات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية الهامة وركزت بصورة خاصة على النواحي الدينية .

فابن سعيد الاندلسي (المتوفى عام ١٢٧٤ م) لم يكن دقيق الملاحظة فيما كتبه عن الأقطار التي شاهدها ، ولا سيما مصر التي اتهمه المقريزي بالتحامل عليها(١٢٤) ، علماً بأن مشاهداته في مصر هي أهم ما تضمنته (رحلته) . وكان قد زار أيضاً دمشق وحلب والموصل وبغداد والبصرة وارجان وتونس والمغرب . وقد نقل المقري في كتابه (نفح الطيب) الكثير من نصوص رحلاته .

وأما محمد العبدري (محمد بن علي بن عبد الدار القرشي) فقد كان يمكن ان يخلف لنا « رحلة » من مستوى « الرحلات » التي خلفها ابن جبير وابن بطوطة ، الا ان مزاجه الخاص قد غلب احكامه على المدن وسكانها فجاءت عاطفية كما أكد ذلك من قبل ابن عبد السلام الناصري(١٢٥) . كما ان احتفاله الشديد بالجانب الادبي قد جاء في كثير من الاحيان على حساب النواحي الجغرافية . وقد اتبع في كتابة رحلته المسماة (الرحلة المغربية) التي كتبها في حدود ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م طريقة ابن جبير . فقد افتتحها قائلا : « كان سفرنا تقبله الله تعالى في اليوم الخامس والعشرين من ذي قعدة من عام ثمانية وثمانين وستمائة (١٢٨٩ م) مبدؤها من حاحة صانها الله وكان طريقنا على بلاد القبلة »(١٢٦) .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٣ .

(١٢٤) الجغرافية والرحلات عند العرب ـ لنقولا زيادة ، ص ١٧٠ .

(١٢٥) رحلة العبدري ـ تحقيق محمد الفاسي ـ منشورات جامعة محمد الخامس .

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٧ .

ولقد أفاض العبدري في امتداح المدن والسكان التي لقي رعاية وحفاوة من أهلها ، بينما ذم الاماكن التي لم يلق فيها ترحيباً خاصاً . وكان ميالاً في الحقيقة الى الذم أكثر من المديح ، ففيما عدا مدينة تونس ومدن قليلة أخرى ، فقد ذم ذماً شديداً مدن القاهرة والاسكندرية والقيروان وطرابلس وقابس وتلمسان وغيرها . بل اننا لا نكاد نعثر في كتب الرحالة على ذم يضارع في حدته ما ورد في (رحلته) عن مدينة القاهرة وسكانها ، ومما قال في ذلك : « ثم وصلنا الى قاعدة الديار المصرية ، ومدينة المملكة بالبلاد المشرقية فوجدناها معدية المعنى ببعض ما رأينا بها وسمعنا . وهي مدينة كبيرة القطر وساكنها يحاكي عديد الرمل والقطر ، وهي مع ذلك تصغر عن أن يسطر ذكرها في سطر تريك صورة ليلى في عين ابن الحمير وتسفر لك خبرتها عن وجه كثير تبلد الذكي النحرير وتحير . . . وحسبها شراً أنها جريد لحثالة العباد ووعاء لنفاية البلاد ومستقر لكل من يسعى في الارض بالفساد من أصناف أهل الشقاق والعناد والالحاد استولى الحسد على قلوبهم . واستوى الغش في جيوبهم فنار الحسد مضطربة في الجوانح وسهم الغش ممزوج في عسل النصائح ، خرجت عمارتها عن الحد المعروف وزادت كثيراً عن القدر المألوف . . فهي سوق ينصب بها الشيطان رايته ويجري اليها غايته . ويرى فيها لاتباعه وهم أهلها آيته . أطبقوا على سوء الاخلاق وتوافقوا على رفض الوفاق وتراضعوا ألبان اللوم وتحالفوا ألا وجد منّا افتراق . فجوادهم أبخل من الحباحب وشجاعهم أجبن من صافر الجنادب وعالمهم أجهل من فراش ورفيعهم أوضع من خشخاش ورصينهم أحير من خداش وجميلهم أقبح من غول وصحيحهم أسقم من مذبول . . الخ »[١٢٧] .

غير انه كان على العموم دقيقاً وبارعاً في وصف المعالم الطبيعية للمدن والبلدان . ومن ذلك قوله في وصف مدينة أنسا مثلا : « وأما بلد أنسا فهو بلد منفسح منشرح في بسيط مليح طيب التربة يغل كثيراً وبه ماء جار كثير ونخل وبساتين وهو آخر بلاد السوس من أعلاه متصل بالجبل وكان فيما مضى مدينة كبيرة فتوالت عليها الخطوب المجتاحة ونزول الأقدار المتاحة حتى صارت رؤيتها قذى في المقلتين فليس بها الا رسوم حائلة وطلول مائلة »[١٢٨] .

ولقد اشتملت رحلة العبدري على زيارة مدن عديدة مبتدئاً إياها من مدينة حاحة

(١٢٧) المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(١٢٨) المصدر السابق ، ص ٨ .

في منطقة السوس الاقصى قاصداً حج بيت الله الحرام ، فاجتاز بلاد السوس الاوسط ومر بتلمسان والجزائر وبجاية وقسطنطينة وتونس ، ثم قطع ليبيا حتى الاسكندرية . وسافر من الاسكندرية الى القاهرة . ومن هناك اتبع الطريق البري الى مكة . وبعد ان فرغ من الحج قفل عائداً ماراً بفلسطين ثم القاهرة ثم الاسكندرية ثم متخذاً نفس الطريق الاول .

أما أبو حامد الغرناطي فيتطلب منا وقفة خاصة ، ولا نبالغ ان قلنا ان مشاهداته تأتي في أهميتها بعد رحلتي ابن جبير وابن بطوطة . وبالرغم من ان المعلومات عنه ضئيلة ، وما تزال معظم كتاباته في حيز المخطوطات ، الا ان في الامكان اعطاء فكرة واضحة عن انجازاته في أدب الرحلات الجغرافي . والواقع انه جدير بأن يوضع مع رحالة الصف الاول في الادب الجغرافي العربي ، فلقد امضى فترة طويلة من عمره يتجول بين البلدان ، وشملت جولاته أقطاراً عديدة في أوروبا وآسيا ، اضافة الى البلدان العربية . فلقد غادر مسقط رأسه في الاندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وهو في السابعة والعشرين من عمره وطاف بنواحي المغرب الاقصى ووصل سجلماسه . ثم انتقل الى افريقية (تونس الحالية) . ثم غادرها بطريق البحر الى الاسكندرية ونزل بسردينية . ومن الاسكندرية انتقل الى القاهرة عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، وظل في مصر حتى عام ٥١٥ هـ . ثم سافر الى دمشق ومكث وقتاً قصيراً . ثم وصل الى بغداد سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٣ م ، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة الذي كان سنده . وبعد ثماني سنوات من الاقامة في بغداد سافر الى أبهر في ايران عام ٥٢٤ هـ ثم الى اردبيل . وأقام في هذه النواحي فترات طويلة ، وتردد عليها المرة بعد المرة حتى ليذكر انه دخل خوارزم ثلاث مرات . ولقد دخل خوارزم عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا ، أي انه عبر البحر الاسود من آسيا الصغرى الى القرم . ثم عبر بحر آزوف واتجه شرقاً حتى وصل الى مصب الفولجا . ثم انحدر الى شرق ايران وخوارزم ماراً ببحر الخزر . وأقام في هذه الجهات فترات طويلة ، حوالى ثلاث سنوات ، وخاصة في مدينة سجسين (وكانت تسمى ايضاً مدينة أتل وتقع آثارها قرب مدينة استراخان الحالية) . كذلك أقام فترة طويلة في بلاد المجر التي يسميها انقورية ويسمي قومها (الباشغرو) . ثم غادر المجر قاصداً سجسين ومر ببلاد الصقالبة، ووصل خوارزم في أواخر عام ٥٤٥ هـ / ١١٥٣ م ، وغادرها في ٥٤٦ هـ / ١١٥٥ م . قاصداً الحج فمر ببخارى ومرو ونيسابور والري واصفهان والبصرة . وأدى فريضة الحج ثم قصد الى بغداد ، وظل في بغداد حتى سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م . وفي سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٥ م .

ذهب الى الموصل وبقي فيها عاماً . ثم خرج الى حلب فأقام فيها سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ، ثم انتقل الى دمشق في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ ـ ١١٧٠ م . وتوفي فيها وهو في الثانية والتسعين من عمره »[١٢٩] .

وهكذا يتضح بأن أبا حامد الغرناطي كان يحب الاسفار حباً حقيقياً حتى لم يكن يستقر له قرار في مدينة معينة ، وانه بذلك قد جمع من التجارب والمشاهدات ما لم يتوفر لاي رحالة عربي آخر سوى ابن بطوطة . ولو أنه تجنب في رواية مشاهداته اسلوب المبالغات والغرائب لتفوق على أية رحالة آخر . ولكنه بسبب هذا الاسلوب اعتبر من قبل كثير من الباحثين انه من أوائل من انحدر بالعلم الجغرافي الى درجة الخرافة ، وانه خلق منه علماً عجائبياً هدفه الاول البحث عن عجائب الكون والارض والمخلوقات والمبالغة في التحدث عنها . ويعتقد كراتشكوفسكي ان مادته الجغرافية فقيرة للغاية ومضطربة ، كما يعتقد ان ميله الى الغرائب واضح جداً[١٣٠] .

غير ان الباحثين يتفقون أيضاً على أن ما خلفه لنا الغرناطي من مادة جغرافية يمكن ان تمدنا بمعلومات طيبة اذا ما غربلت ومحصت تمحيصاً دقيقاً . ولا تشمل تلك المادة المعلومات الجغرافية التي أوردها في بعض كتاباته ، وهي معلومات نقلها عن كتاب ثانويين بصورة مشوهة ، بل تشمل الحكايات التي جمعها عبر سياحاته في البلدان . وقد أودع تلك الحكايات في كتابين هما (تحفة الالباب ونخبة الاعجاب) و (المعرب عن بعض عجائب المغرب) . أما الكتب الاخرى التي ينسبها اليه بعض الكتاب امثال (تحفة الكبار في أسفار البحار) و (نخبة الاذهان في عجائب البلدان) فلم تثبت نسبتها اليه . ويبدو انه ألف كتاب (المعرب) في سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥٥ م في بغداد وأهداه الى الوزير عون الدين بن هبيرة ، وكتب (تحفة الالباب) بعد ذلك بعامين في الموصل بناء على الحاح من الشيخ معين الدين أبي حفص عمر الأردبيلي .

فأما كتابه الثاني (تحفة الالباب) فقد حاول فيه الغرناطي ان يظهر كعالم جغرافي اضافة الى كونه رحالة ، غير ان معلوماته المبتسرة ومعارفه البسيطة قد خانته ، فلجأ مرة أخرى الى حشر الكتاب بحكاياته الاسطورية . ولقد اشتمل الكتاب على أربع ابواب . وخصص الباب الاول لصفة الدنيا وسكانها من انسانها وجانها ، والباب الثاني لصفة عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والباب الثالث لصفة البحار وعجائب حيواناتها وما

(١٢٩) حسين مؤنس ، ص ٣٢٤ .

(١٣٠) كراتشكوفسكي ، ص ٢٩٥ .

يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والقار ، والرابع لصفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام الى يوم النشور[١٣١] . وقد تعطينا عناوين هذه الابواب فكرة عن مضمون الكتاب . فهو عبارة عن خليط غريب من المعلومات الاسطورية والواقعية ، وهو يمثل بذلك أفضل تمثيل النهج الجديد في الجغرافية العربية ، وهو النهج الكوزموغرافي . وقد جعل هذا النهج الذي اتبعه فيما بعد كثير من الجغرافيين الجغرافية العربية أقرب الى علم هدفه التسلية .

أما كتابه الاول الذي اشتمل على حكايات رحلاته ، وهو كتاب (المعرب . .) ، فقد احتوى أيضاً على معلومات جغرافية وفلكية كثيرة ، كالحديث عن أوقات الصلاة ومعرفة الفيء والزوال والاقاليم السبعة والفصول الفلكية وطول الارض وعرضها والبحار وعرضها ، الا انه مع ذلك عني عناية خاصة بمشاهداته الشخصية مما جعل الكتاب وثيق الصلة بأدب الرحلات . ولقد أفاض في هذا الكتاب بذكر عجائب مدن الاندلس والمغرب ، كما خصص جزءاً هاماً منه لوصف بلاد تركستان والقوقاز وجنوب روسيا وبلاد المجر ، وهي منطقة شاسعة تحتل أجزاء من آسيا وأوروبا فيما بين خوارزم وسهل المجر . وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالحديث عن الناس وحرفهم وأشكالهم وعاداتهم وتقاليدهم وانتاجاتهم الاقتصادية . ويعتقد بعض الباحثين ان أوصافه لهذه المناطق تعتبر من الاسانيد العلمية التي يمكن الاعتماد عليها في دراسات الجغرافية التأريخية والبشرية ، لانها معلومات أصيلة قد سجلت بصدق وأمانة بالرغم مما يشوب بعض حكاياتها من مبالغات[١٣٢] . أما كراتشكوفسكي فيقول بان أبا حامد أحد المؤلفين الذين تظفر حكاياتهم بأهمية خاصة بالنسبة لتاريخ شعوب الاتحاد السوفياتي[١٣٣] . والحقيقة ان المعلومات المتعلقة بالجهات المذكورة هي أهم ما خلفه لنا أبو حامد الغرناطي واعظمها قيمة في مجمل كتاباته . أما مشاهداته في البلاد العربية فليست بذات قيمة تذكر . ولعل من أفضل الأمثلة على أسلوبه ذي النكهة الجغرافية البشرية وصفه التالي لبلاد الصقالبة ، قال : « لما دخلت الى بلاد الصقالبة خرجت من بلغار وركبت سفينة في نهر الصقالبة وماؤه أسود مثل ماء بحر الظلمات كأنه الحبر ، وهو مع ذلك طيب صاف ليس فيه سمك ، وفيه الحيات السود الكبار بعضها على

(١٣١) المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

(١٣٢) حسين مؤنس ، ص ٣٣٥ .

(١٣٣) كراتشكوفسكي ! ص ٢٩٧ .

بعض اكثر من السمك لا تؤذي أحداً ، وفيه حيوان مثل السنور الصغير له جلد أسود يسمى سمور الماء تحمل جلوده الى بلغار . ولما وصلت الى بلادهم رأيت بلاداً واسعة كثيرة العسل والحنطة والشعير والتفاح الكبير .. ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه .. وللصقالبة سياسات عظيمة ، .اذا تعرض احدهم لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدى بأي شيء من التعدي كان ، أخذ من المتعدي جملة من المال . فان لم يكن له مال بيع اولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية . فإن لم يكن له اهل ولا اولاد بيع هو ، فلا يزال عبداً يخدم من عنده حتى يموت .. وبلادهم آمنة ، واذا عامل المسلم منهم أحداً وأفلس الصقلبي بيع هو وأولاده وداره ويعطى لذلك التاجر دينه ،والصقالبة شجعان وهم على مذهب الروم في النصرانية ، نسطورية ... وحدثت انهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهم وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحرة ، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم فيشدون أيديهن فارجلهن ويلقين في النهر ، فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها وعلموا انها ليست بساحرة ، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار »(١٣٤) .

وقال يتحدث عن جهات شمالي روسيا التي يسميها ولايتي (ويسوا) و (يورا) : « .. وفيها يصطاد والقندز والقاقم والسنجاب الجيد . والنهار يكون هنالك في الصيف اثنتين وعشرين ساعة . ومنهم تجيء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام ويتخذ بيوتاً في البر الى جانب النهر .. ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات يكون النهار عندهم في الصيف طويلا جداً ، حتى ان التجار يقولون ان الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً ، وفي الشتاء يكون الليل طويلا مثل ذلك .. وأهل يورا ليس عندهم دواب ولا مواش الا أشجاراً عظيمة وغياضاً يكثر فيها العسل ، ويكثر عندهم السمور جداً ويأكلون لحمه . والتجار يحملون اليهم السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ويأخذون أثمانها جلود السمور ، ولهم في ذلك ربح كثير . والطريق اليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبداً . ويتخذ الناس لأرجلهم الواحاً ينحتونها طول كل لوح باع وعرضه شبر ، مقدم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الارض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدوا فيه سيورا من جلود قوية يشدونها على أرجلهم ، ويقرب (الرجل) بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده

(١٣٤) أدب الرحلات - لاحمد أبو سعد ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

الشمال وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوة بصوف كثير مثل رأس الانسان خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ويرفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة فيذهب على ذلك الثلج بسرعة . ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحداً ان يمشي هناك البتة لان الثلج على الارض مثل الرمل لا يتلبد ، وأي حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت ، الا الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والارنب فانها تمشي عليه بخفة وبسرعة . والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيض جلودها حتى تكون مثل القطن ، وكذلك الذئاب أيضاً تكون في ناحية بلغار تبيض جلودها في زمن الشتاء »(١٣٥) .

وقال يصف الحياة في مدينة سجسين : « والشتاء عندهم شديد البرد وبيوتهم في الشتاء من خشب الصنوبر ، ويوقدون النار ، ولهم أبواب صغار مغشاة بجلود الأغنام بصوفها ، وداخلها حارة مثل الحمام ، والحطب عندهم كثير . ويجمد النهر حتى يصير كالأرض تمشي عليه الخيل والعجل من البهائم جميعا ويتقاتلون على ذلك الجمد . ومشيت عرض ذلك النهر لما جمد فكان عرضه ألفي خطوة وثمانمائة ونيفاً وأربعين خطوة بخطوي سوى الأنهار التي تخرج من ذلك النهر »(١٣٦) .

أما جانب المبالغات في حكاياته فيمكن أن يتمثل بالحكايات التالية ، قال : « وأهل ويسوا ويورا يمنعون في الصيف من دخول بلاد البلغار لأنه اذا دخل في تلك الديار واحد في شدة الحر يبرد الهواء والماء مثل الشتاء وتفسد على الناس زروعهم . وهذا مجرب عندهم .. وفي بلادهم نوع من الطير الكبير لها مناقير طوال مقلوبة على اليمين وعلى الشمال ، الأعلى على اليمين ستة أشبار وعلى الشمال ستة أشبار مثل لام ألف .. واذا وقعت بيضة هذا الطير على الجمد أو الثلج أذابته كما تذيب النار »(١٣٧) .

وقال في موضع آخر : « ولقد حدثت ان ببلغار سمكة من تلك السمك في بعض السنين ثقبوا أذنها وجعلوا فيه حبالا وجروا تلك السمكة فانفتح اذنها وخرج من داخلها جارية تشبه الآدمية بيضاء حمراء الخدين سوداء الشعر من أحسن النساء ، فأخذها أهل يورا واخرجوها الى البر ، وتلك الصورة تضرب وجهها وتنتف شعرها

(١٣٥) الرحلات ، باشراف شوقي ضيف ، ص ٥٢ - ٥٣ .
(١٣٦) حسين مؤنس ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .
(١٣٧) الرحلات ، ص ٥٤ .

وتصيح ، وقد خلق الله لها في وسطها مثل جلد أبيض كالثوب الصفيق القوي من وسطها الى ركبتها يستر عورتها كأنه أزار مشدود على وسطها ، فامسكوها حتى ماتت عندهم ، وقدرة الله تعالى لا نهاية لها »[١٣٨] .

وقال في موضع آخر : « وقد رأيت في مدينة البلغار من نسل العاديين رجلا طويلا طوله أكثر من سبعة أذرع كان يسمى نقي كان يأخذ الفرس تحت ابطه كما يأخذ الانسان الحمل الصغير ، وكان من قوته يكسر ساق الفرس بيده ويقطع جسده وأعضاءه كما يقطع باقة البقل ، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً يحمل على عجلة وبيضة لرأسه كأنها مرجل ، وكان اذا وقع القتال يقاتل بخشبة من شجرة البلوط يمسكها كالعصا بيده لو ضرب بها الفيل لقتله »[١٣٩] .

وقال متحدثاً عن اليمن : « عند صنعاء أمة من العرب قد مسخوا ، كل انسان منهم نصف انسان ، له نصف رأس ونصف بدن ويد واحدة ورجل واحدة يقال لهم وبار ، وهم من ولد ارم بن سام أخي عاد وثمود، ليس لهم عقول، يعيشون في الآجام وبلاد الشحر على شاطىء بحر الهند، والعرب تسميهم النسناس ويصطادونهم ويأكلونهم ، وهم يتكلمون العربية ويتناسلون ويسمون بأسماء العرب ويقولون الاشعار »[١٤٠] .

وهكذا يتضح بأن كتابات الغرناطي تجمع بين الضدين ، الملاحظات البشرية الدقيقة البارعة ، والحكايات الخرافية التي لا يمكن ان يقبلها العقل والتي تفوق بغرابتها حكايات أي جغرافي أو رحالة عربي آخر .

(١٣٨) المصدر السابق ، ص ٥٤ .
(١٣٩) حسين مؤنس ، ص ٣١٦ .
(١٤٠) المصدر السابق ، ص ٣٤٥ .

الفصل الخامس

في الجغرافية الفلكية والرياضية

لا يعنينا في هذه الدراسة استعراض جهود المؤلفين العرب والمسلمين في علم الفلك الذي أسموه بعلم « الهيئة »(*) ، فالواقع ان أمثال هذه البحوث من اختصاص علماء الفلك ، وهي تكاد تستقل عن الدراسات الجغرافية البحتة . غير أننا سنحاول استعراض أهم الآراء والانجازات الفلكية ذات الجوانب الجغرافية ، لا سيما وان الجغرافيين العرب والمسلمين قد ربطوا الجغرافيا بالفلك . وبناء على ذلك سنتناول بالبحث النقاط التالية :

أولا ـ مفاهيم الجغرافيين العرب والمسلمين عن الأرض .

ثانيا ـ آراء الجغرافيين العرب والمسلمين في تحديد مساحات ومواقع الارض .

ثالثا ـ أهم الانجازات الفلكية للجغرافيين العرب والمسلمين .

(*) كان العرب يطلقون على عالم الفلك لقب (صاحب صنعة) .

- ١ -

مفاهيم الجغرافيين العرب والمسلمين عن الأرض

لا ريب أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد تأثروا في آرائهم عن الارض بالآراء اليونانية ـ الرومانية ، ولا سيما بآراء أرسطو وبطليموس . وكانت الفكرة السائدة عن الأرض لدى العرب انها مسطحة ، ولعل تلك الفكرة ثمرة للافكار التقليدية المتوارثة عن الاجداد ، وربما اقتبست من اليهود . غير أن الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين سرعان ما نبذوا تلك الفكرة منذ أن شاعت بينهم آراء بطليموس، وآمنوا جميعاً بكروية الارض . وظهر تأثرهم بالآراء اليونانية كذلك في اعتقادهم بأن الارض تحتل مركز الكون ، وانها محاطة بالبحار . ويمكن القول أن آراءهم عن الارض باتت تحكمها ثلاث فرضيات : الاولى انها مدورة ، والثانية انها ثابتة في مركز الفلك ، والثالثة انها محاطة بالبحار . وقد اعتاد معظم الجغرافيين العرب أن يصدروا مؤلفاتهم بتلك الفرضيات الثلاث . فلقد وصف ابن خرداذبة مثلا في مقدمة كتابه « المسالك والممالك » شكل الارض على النحو التالي : « قال أبو القاسم صفة الارض انها مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الارض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك ، وبنية الخلق على الارض ان النسيم جاذب لما في ابدانهم من الثقل لأن الارض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد »[١] .

أما ابن رستة فقد ذكر في المجلد السابع من كتابه (الاعلاق النفيسة) بان « الله عزّ وجلّ وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك قائمة في الهواء يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها فهي في وسطها كالمح في البيضة . . وكذلك أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ،

(١) المسالك والممالك ـ لابن خرداذبة ، ص ٤ .

والدليل على ذلك ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الارض في وقت واحد ، بل يرى طلوعها على المواضع المشرقية من الارض قبل طلوعها على المواضع المغربية ، وغيبوبتها على المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية، ويتبين ذلك من الاحداث التي تعرض في العلو فانه يرى وقت الحادث الواحد مختلفاً في نواحي الأرض ، مثل كسوف القمر فانه اذا رصد في بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب فوجد وقت كسوفه في البلد الشرقي منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلا ، أقول وجد ذلك في الوقت في البلد الغربي على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين . فتدل زيادة الساعات في البلد الشرقي ان الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربي . . ويوجد هذا الاختلاف في الأوقات في جميع ما يسكن من الأرض . . فانه ان سار أحد في الارض من ناحية الجنوب الى الشمال رأى انه يظهر له من ناحية الشمال بعض الكواكب التي كان لها غروب فيكون أبدي الظهور ، وبحسب ذلك يخفى عنه من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع فيصير أبدي الخفاء على ترتيب واحد . . فيدل جميع ما ذكرناه على أن بسيط الارض مستدير وان الارض على مثال الكرة »[٢] .

وقال المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف) : « وذكر من عني بمساحة الارض وشكلها ان تدويرها[*] يكون بالتقريب أربعة وعشرين ألف ميل وذلك تدويرها مع المياه والبحار فان المياه مستديرة مع الارض وحدهما واحد ، فكلما نقص من استدارة الارض وطولها وعرضها شيء تم باستدارة الماء وطوله وعرضه »[٣] .

وقال ابن الفقيه في كتابه (مختصر كتاب البلدان) : « وذكر بعض الفلاسفة ان الارض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الارض وهو جاذب لها من جميع جوانبها الى الفلك . وبنية الخلق على الارض أن النسيم جاذب لما في ايديهم من الخفة والارض جاذبة لما في ايديهم من الثقل ، لان الارض بمنزلة الحجر الذي يجذب الحديد »[٤] .

أما أبو الريحان البيروني فكان من أكثر الجغرافيين المسلمين عناية بشرح نظرية

(٢) الاعلاق النفيسة ـ لابن رستة ، ص ٨ و ١٢ .

(*) المقصود به محيطها .

(٣) كتاب التنبيه والاشراف ـ للمسعودي ـ منشورات مكتبة خياط ـ بيروت ١٩٦٥ ، ص ٣١ .

(٤) مختصر كتاب البلدان ، لابن الفقيه الهمذاني ، ص ٤ .

كروية الأرض . وقد أورد بالتفصيل البراهين التي ذكرها العلماء الأغريق والرومان عن هذه النظرية ، ولا سيما براهين أرسطو وبطليموس ، وأضاف اليها براهين جديدة . وختم براهينه قائلا : « ومما ذكرنا يعرف سبب كروية الارض لأن أبعاضها لو لم تتماسك مع نزوعها الى المركز ونزوع ما هو أبعد عنه الى الموضع الاقرب منه ان خلاله لم يكن بـد من اجتماعها حول الوسط اجتماعا مستويا للابعاد تسوية الميزان ، لكن اجزاءها متماسكة مخرجة عن وجهها عن الاستواء الى التضريس بالجبال والانجاد بقصد من التدبير الالهي وان لم يخرج لها جملة الأرض ، وليس منه في الماشي معنى يضمهما وان كان يتفاضل ، فان سطح الماء مستدير وأصدق كروية من الأرض لانه ان توهم مستوياً كان وسطه أقرب الى المركز من حواشيه ، فما منها سائل لا محالة الى وسطه وغير مستقر الا بعد استواء الأبعاد وزوال الأعلى والأسفل من السفح بالانتقال من الاستواء الى الاستدارة . وهذا معنى قصده بطليموس في الأصل الثاني وحوّله في الاستدلال من الأرض الى الماء . فان السائر في براريها نحو الجبال يظهر له منها أعاليها كأنها تبرز من الأرض شيئاً بعد شيء حتى ينتهي اليها . وهذا ظاهر في الوجود يستقيم منه الدلالة على الارض والماء معاً في الكروية . ومتى كان بين السائر وبين الجبل الشامخ الذي وراءها معا في الكرية . ومتى كان بين السائر وبين الجبل الشامخ الـذي وراءها لان المدرك منه هو أعاليه ، فلو كانت الأرض مستقيمة السطح لكان أدراك الأقرب من تلك المتوسطات أولا أولى من الأبعد بل سفوح الشامخ وأسافله لأنها أقرب الى البصر من أعاليه بحسب فضل ما بين القطر وبين الضلع من المثلث القائم الزاوية . فان اعتبر الحال بتأمل نيران مؤججة في أعلى الجبل ووسطه وأسفل سبقت رؤية التي توقد في القمة من التي في الوسط ، ومن التي في الوسط من التي في السفح . وعلى استمرار هذا الدليل في الأرض والماء معا يتفرد الماء بدليل مما يخصه وهو المراكب في البحار ، فان أدقالها تظهر للناظر اليها من بعيد قبل جثتها ، والجثة أعظم منها لولا ان حدبة الماء الكروية يمنعها وتخفيها مع انبطاحها بسبب اختلاف الانتصاب الى ان يزول الستر بالاقتراب فيظهر حينئذ »[٥] .

وأيـد أخوان الصفـا في رسالتهم الـرابعة كـروية الارض وقـالوا في ذلـك : « والأرض جسم مدور مثل الكرة وهي واقفة في الهواء بأن الله يجمع جبالها وبحارها وبراريها وعماراتها وخرابهـا ، والهواء يحيط بها من جميع جهاتها شرقيها وغربيها وجنوبها

(٥) راجع كتاب القانون المسعودي - لابي الريحان البيروني - الجزء الاول ، ص ٢٥ - ٣٧ ، و٤٧ - ٤٩ .

وشمالها ومن ذا الجانب ومن ذلك الجانب ، وبعد الأرض من السماء من جميع جهاتها متساو »[٦] .

ولقد فصّل ياقوت الحموي في شرحه لشكل الارض آراء الخوارزمي فقال في كتابه (معجم البلدان) : « وأصلح ما رأيت في ذلك وأسداه في رأيي ما حكاه محمد ابن أحمد الخوارزمي ، قال أن الأرض في وسط السماء والوسط هو السفل بالحقيقة ، والأرض مدورة بالكلية ، مضرسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة ، ولا يخرجها ذلك من الكروية ، اذا وقع الحس منها على الجملة ، لان مقادير الجبال وان شمخت صغيرة بالقياس الى كل الارض . ألا ترى ان الكرة التي قطرها ذراع أو ذراعان اذا نتأ منها كالجاورسات وغار فيها أمثالها ، لم يمنع ذلك من اجراء أحكام المدور عليها بالتقريب ؟ ولولا خذا التضريس لاحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها حتى لم يكن يظهر منها شيء . . . »[٧] .

وأيد الكتّاب المتأخرون أيضاً فرضية كروية الارض ، وعلى رأسهم ابن خلدون . فلقد ذكر في المقالة الثانية من (مقدمته) الشهيرة : « أعلم انه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم ان شكل الارض كروي وانها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها . وقد يتوهم من ذلك ان الماء تحت الارض وليس بصحيح وانما التحت الطبيعي قلب الارض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من الثقل . . »[٨] .

كذلك أيد هذه الفرضية أبو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) واورد البراهين على كروية الارض حيث قال : « أما جملة الارض فكروية الشكل حسبما ثبت في علم الهيئة بعدة أدلة منها أن تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها للمشرقين على طلوعها وغروبها للمغربين يدل على استدارتها شرقاً وغـرباً ، وارتفـاع القطب والكـواكب الشماليـة وانحطاط الجنوبية للواغلين في الجنوب بحسب وغولها وتركب الاختلافين للسائرين على سمت بين السمتين وغير ذلك دليل على استدارة جملة باقي الارض . وأما تضاريسها

(٦) رسائل اخوان الصفا - الجزء الثاني ، ص ١١١ .

(٧) معجم البلدان - لياقوت الحموي ، ص ١٧ .

(٨) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٤ .

التي تلزمها من جهة الجبال والاغوار فانه لا يخرجها عن أصل الاستدارة ولا نسبة لها محسوسة الى جملة الأرض . فانه قد تبرهن في علم الهيئة ان جبلاً يرتفع نصف فرسخ يكون عند جملة الأرض كخمس سبع عرض شعيرة عند كرة قطرها ذراع . وكذلك ثبت في علم الهيئة أن الارض في وسط الفلك بعدة أدلة ، منها ان انخساف القمر في مقاطراته الحقيقية للشمس يدل على ان الارض في الوسط والواقف على الارض من جميع الجوانب رأسه الى ما يلي المحيط وهو الفوق ورجله الى ما يلي المركز وهو التحت ، ومحدب الارض مواز لمقعر الفلك المحيط به ، والسائر على الارض يجب ان يصير سمت رأسه في كل وقت جزءا آخر من الفلك . . . »[٩] .

وافتتح الدمشقي كتابه ؛ (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) بشرح مسهب لشكل الارض ومركزها في الكون حيث قال : « اجمع المحققون لعلم الهيئة على أن الارض جسم بسيط طباعه ان يكون بارداً يابساً متحركاً إلى الوسط . وانما خلقت باسطة باردة يابسة للغلظ والتماسك ، اذ لولا ذلك لما أمكن قرار الحيوان عليها ولا حدث النبات والمعدن فيها . وهي كروية الشكل بالكلية مضرسة بالجزوية من جهة الجبال البارزة والوهدات الغائرة ولا يخرجها ذلك من الكروية . وهي في الوسط من الفلك ولا نسبة لها اليه » ، لان أصغر كوكب من الثوابت بقدرها مرات ووسط الفلك هو السفل منه ومثلها فيه كمثل النقطة في الدائرة أو كالمح من البيضة ، فهي واقفة في الوسط والماء محيط بها الا المقدار البارز الذي خلقه سبحانه وتعالى وجعله مقراً للحيوان فانه بمنزلة التضاريس والخشونات على ظهر الكرة ، فمثلها بها كمثل الثمرة المفص المضرسة مع الاستدارة . وجعل الله البارز منها مقراً للحيوان البري ووهداتها المغمورة بالماء مقراً للحيوان البحري . وجعل كل واحد من العناصر فلكاً محيطاً بما دونه الا الماء فانه منعته العناية الالهية عن الاحاطة . لذلك المذكور ولما بين مركزي الشمس والارض من المخالفة ، فان الشمس تدور على مركزها الخاص بها الذي هو غير مركز الارض ، فتقرب من جانب الارض وهو الجنوب موضع حضيضها ، وتبعد من جانب وهو الشمال موضع أوجها . ولما كان ذلك انجذبت المياه الى جهة الجنوب وانحسرت من جهة الشمال فصار الشمال يبساً (أرضاً طافية) . وجعل الله تعالى لون الارض في الغالب أغبر أدكن ليظهر النور والضياء وليتمكن أبصار الحيوان من النظر فتمت الحكمة

---

(٩) تقويم البلدان ـ لابي الفدا ، ص ٣ .

(واتقن نظام الحيوان والنبات والمعدن) . قالوا والدليل على أن الارض كروية الشكل مستديرة ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع النواحي في وقت واحد ، بل يرى طلوعها في النواحي المشرقية من الارض قبل طلوعها على النواحي المغربية ، وغيبوبتها عن المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية . وكذلك خسوف القمر اذا اعتبرناه وجدناه في النواحي المشرقية والمغربية مختلفاً متفاوت الوقت ، ولو كان طلوعه وغروبه في وقت واحد بالنسبة الى النواحي لما اختلف . ولو أن انساناً سار من ناحية الجنوب الى ناحية الشمال رأى أنه يظهر له من الناحية الشمالية بعض الكواكب التي كان لها غروب فتصير ابدية الظهور . وبحسب ذلك يكون عنده من ناحية الجنوب بعض الكواكب التي كان لها طلوع ابدية الخفاء على ترتيب واحد . والماء محيط بالارض ولولا التضريس لغمرها حتى لم يبق منها شيء ، ولكن العناية الالهية اقتضت اللطف بالعالم الانسي فأبرز له من الماء جزءاً منها ليكون مركزاً للعالم . وأحاطة الماء لها بالأمر الطبيعي اذ كل خفيف يعلو على الثقيل . والماء أخف من الأرض فكان مركزه بها والهواء جاذب لها من جميع جهاتها الى الفلك بالسوية كجذب المغناطيس للحديد ولذلك وقفت في الوسط .

وذهب آخرون الى انها واقفة في الوسط من دفع الفلك لها من جميع جهاتها كتراب ملقى في قارورة تدور بسرعة قوية دورانها مستمر فان ذلك التراب ينجذب الى وسطها ، وكذلك التبن اذا ألقي في طشت مملوء بماء وأدير ذلك الماء بقوة دار التبن معه وانضم الى الوسط مجتمعاً بعضاً مع بعض . وذهب آخرون الى ان الارض بطبعها هاربة من الفلك الى ذاتها على ذاتها فهي اذن منضمة منه من سائر جهات احاطته بها انضماماً الى نفسها عنه بالتساوي ، واذا زال الفلك يوم القيامة وانتشرت كواكبه وطوي طي السجل ذهب عنها الموجب لهروبها فامتدت وانتشرت واهتزت وتساوت بالانفراش الى قريب من اذيال السماء الثانية (الثابتة) والله أعلم .

ثم انهم مثّلوا حلول الساكن فيها بتفاحة غرز فيها شعير من سائر جهاتها ، فكل شعيرة منتصبة الى ما قابلها من جميع جهاتها ، لا فرق بين شيء منها في استقامته ، وحيث كان الناس في استيطانهم فإن أرجلهم الى الارض ورؤ وسهم الى السماء . وكل فريق منهم يرى ان ارضه التي هو عليها هي المستقيمة في الاعتدال . وقالوا في تحقيق هذه الدعوى لو ان أهل ناحية من نواحي الارض حفروا بئراً واطالوها الى المركز ، وحفر أهل الناحية التي تقابلهم بئراً أخرى وأطالوها الى ان يلتقي الحفيران ويكون الماء

واحداً لارسل كل واحد دلوه ، وكان أسفل هذا الدلو مقابلا لأسفل الدلو الآخر وكأن هؤلاء يجرون دلوهم الى فوق والآخرون كذلك لا يشك كل واحد منهم انه جاذب دلوه من أسفل البئر الى اعلاه . واستدلوا أيضاً على ذلك ان الانسان اذا كان في موضع من الأرض وأخرج خطاً مستقيماً من مكانه الى مركز الأرض وانتهى به الى الجهة الأخرى فانه يمكن أن يكون على طرف الخط من الجهة الأخرى من رجليه ، حتى انهم قالوا متى قيس بين أهل الصين وبين أهل الاندلس اللذين هما على طرفي المعمور كانت أقدامهم متقابلة وكان طلوع الشمس والقمر عند هؤلاء غروبها عند هؤلاء وليل هؤلاء نهار وبالعكس »[١٠] .

أما ما يتعلق بحركة الارض فقد مال الجغرافيون العرب والمسلمون الى الاخذ بفرضية العلماء اليونانيين وهي سكون الارض ، لا سيما وان هذه الفرضية تتناسب ومعتقداتهم الموروثة . والحقيقة انهم لم يتعرضوا لمناقشة هذه الفرضية آلا بصورة عابرة باعتبارها من الحقائق المسلم بها ، ونادراً ما تجشموا عناء البرهنة عليها . وبطبيعة الحال فقد عزوا ظاهرتي الليل والنهار والفصول الاربعة الى حركة الشمس حول الارض . ومن بين القلائل الذين تعرضوا لهذه القضية اخوان الصفا في (رسائلهم) المعروفة والبيروني في كتابه (القانون المسعودي) . فقد فسر اخوان الصفا ثبات الارض في وسط السماء على النحو التالي : «وأما سبب وقوف الأرض في وسط الهواء ففيه أربعة أقاويل . منها ما قيل ان سبب وقوفها هو جذب القلب لها من جميع جهاتها بالسوية فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الجذب من جميع الجهات . ومنها ما قيل انه الدفع بمثل ذلك فوجب لها الوقوف في الوسط لما تساوت قوة الدفع من جميع الجهات . ومنها ما قيل أن سبب وقوفها في الوسط هو جذب المركز لجميع اجزائها من جميع الجهات الى الوسط ، لانه لما كان مركز الارض مركز الفلك أيضاً وهو مغناطيس الاثقال يعني مركز الارض ، واجزاء الارض لما كانت كلها ثقيلة انجذبت الى المركز وسيق جزء واحد وحصل في المركز فصارت الارض بجميع أجزائها كرة واحدة بذلك السبب . ولما كانت اجزاء الماء أخف من اجزاء الارض وقف المله فوق الارض . ولما كانت اجزاء الهواء أخف من أجزاء الماء صار الهواء فوق الماء . والنار لما كانت اجزاؤها أخف من أجزاء الهواء صارت في العلو مما يلي فلك القمر . والوجه الرابع ما قيل في

(١٠) عجائب البر والبحر ـ للدمشقي ، ص ٩ ـ ١١ .

سبب وقوف الارض في وسط الهواء هو خصوصية الموضع (اللائق به) . وذلك ان الباري عز وجل جعل لكل جسم من الاجسام الكليات يعني النار والهواء والماء والارض موضعاً مخصوصاً هو أليق المواضع به ، وهكذا القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، جعل لكل واحد منها موضعاً مخصوصاً في فلكه هو ثابت فيه والفلك يديره معه . وهذا القول أشبه الأقاويل بالحق . . . »[١١] .

وقال البيروني مبرهناً على ثبات الأرض ومؤيداً بذلك فرضية بطليموس : « ثم نعود الى القسم الثاني من حركة الارض وهي على نفسها نحو المشرق من غير انتقال من مكانها وقد قال بها أصحاب أرجبهد من علماء الهند ونظن بالداعي اليها الزام السماء ما يرى من حركات الكواكب فيها بالحركة الثانية الشرقية والزام الارض لوازم الحركة الاولى الغربية كيلا تجتمع على السماء حركتان مختلفتان معاً ـ وهذا وان لم يكن قادحاً في مباني هذه الصناعة فقد قلنا ان لا أثر للحركة الاولى في الاثير لانها تدير جملته ادارة واحدة . فليس يحسن من مناهج التحصيل ان يتمسك به ان انتقض من جهات أخر ، أو أن يمهل البحث عن حقيقته ولم يخرج الامر فيه من طريقته . فأما بطليموس فانه استجهل القائلين بها عن جهة حملهم سرعة الحركة على الاشياء الثقيلة الكثيفة وبطؤها أو بطلانها على الاشياء الخفيفة اللطيفة . وهذا استدلال هو بالبحث الطبيعي أليق منه بالتعليمي بل هو اقناعي فان في اللطيف والكثيف الى أن يحصل منهما على حقيقة معنى . . .

وأما النظر التعليمي في هذا المعنى فإن القول فيه راجع الى أن الارض لو كانت متحركة بهذه الحركة لتخلف عنها ما انحاز منها من طائر محلق أو شيء مرمي به نحو جو السماء أو سحاب واقف في الهواء ، فترى حركتها نحو المغرب دائماً وان كانت لها أيضاً هذه الحركة كما للارض وجب أن يرى ساكناً من أجل حركتها على التحاذي ، لكنا نراها متحركة في جميع الجهات فليست ولا هي بمتحركة هذه الحركة التي بها الليل والنهار . . .

فليعلم الآن أن الارض لو كانت متحركة كما ذكر لكان ما ذكرنا من الأميال لمنطقة حركتها ثلاثمائةوستين ضعفاً في أربع وعشرين ساعة يختص الجزء من تسع ماية من الساعة، وهو الدقيقة من الفلك ماية ألف وسبع ماية وثمان وسبعين ذراعاً ،

(١١) رسائل اخوان الصفا ، ص ١١٣ .

ومقدار دوران هذه الدقيقة من الأزمان بتقدير الهند اياه نفس واحد من أنفاس الانسان . فاذا كانت الحركة فيه قريباً من ميل كانت ظاهرة للقياس ، فان كانت الاشياء المنفصلة عن الارض حافظة للمسافة بما لها مع الارض من الحركة فمعلوم انه اذا غشيها قوة زائدة قاسرة انها يزيلها عن ذلك السكون المتخيل ويظهر فيها أثرها ما وجبت اختلافها في الجهات لان القاسرة في جهة المشرق مجتمعة مع الطبيعة وفي جهة المغرب معاندة لها دافعة ، فتكون وثبة الواثب فيهما مختلفتين ومرور السهم المرمي اليهما والطائر القاطع نحوهما متباينا . ويتفاوت كذلك في الشمال والجنوب للاتساع في احدهما والتضايق في الآخر ، وليس من ذلك شيء بموجود ، فليس للارض في مكانها حركة دورية في مركزها »[١٢] .

وبالرغم من اجماع الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين على ثبات الارض وعدم حركتها فان نفراً قليلا منهم قد خامرته الشكوك في سكون الأرض ، واشاروا الى احتمال تعرضها لدورة يومية حول مركزها من أمثال عمر الكاتبي وأبي الفرج الشامي . بل أن نفراً آخر ، ومن بينهم ابي سعيد السجزي ، قد ألمح الى امكان حدوث حركة الارض حول الشمس . وقد ورد على لسان البيروني قوله بأنه رأى الاصطرلاب المسمى بالزرقالي اخترعه أبو سعيد السجزي فأعجبه ويستحق مبدعه الثناء . وهذا الاصطرلاب مؤسس على ما ذهب اليه البعض من أن الحركة المشاهدة لنا هي حركة الأرض لا حركة الفلك . ولعمري هذه عقدة يصعب حلها[١٣] .

وعلى أية حال فلا بد من أن نؤكد ان هذه الشكوك لدى بعض العلماء المسلمين لا تمثل سوى اتجاه ضعيف وقد رفضته الغالبية العظمى من علماء العرب والمسلمين وبرهنوا على خطئه كما فعل البيروني وعمر الكاتبي والزويني وقطب الدين الشيرازي وغيرهم . ومن المعروف ان العلماء اليونانيين قد رفضوا أيضاً من قبل رأي اريستارخس ARISTRACHUS الاسكندري القائل بدوران الارض حول نفسها وحول الشمس ، ولم يأخذ علماء الفلك بفرضيته الا في منتصف القرن السادس عشر على يدي كوبرنيكس وغاليلو .

---

(١٢) راجع : القانون المسعودي ، ص ٤٩ ـ ٥٢ .
(١٣) علم الفلك وتاريخه عند العرب في القرون الوسطى ـ تأليف كارلو نالينو ـ روما ١٩١١ ، ص ٢٥٢ .

ـ ٢ ـ

آراء الجغرافيين العرب والمسلمين في تحديد مساحات ومواقع الأرض

لقد شغلت الجغرافيين العرب والمسلمين مسألة حجم الأرض ، ومساحات الجهات المسكونة منها ، ومدى امتدادها على سطح الارض ، وكيفية تحديد مواقع المدن والظواهر الطوبوغرافية المختلفة من جبال وأنهار وبحار وبحيرات .

فأما ما يتعلق بحجم الارض فقد تداولوا أولا أرقاماً عديدة يمت البعض منها الى الهنود ويمت البعض الآخر الى اليونانيين والرومانيين ، الى ان توصلوا الى رقم خاص بهم . ولقد تراوحت التقديرات الهندية لمحيط الارض بين ٣٣١٧٧ ميلا (ارياباتا) و ٥٠٩٣٨ ميلا (براهما جوبتا) و ٤٧١٤٠ ميلا (اكاريا)[١٤] . كما تراوحت التقديرات اليونانية ـ الرومانية بين ٤٤٠٠٠ ميل (ارسطو) و ٢٦٦٦٠ ميلا (اراتوستنس) و ١٨٠٠٠ ميلا (بوسيدونيوس وبطليموس)[١٥] . أما التقديرات العربية فقد أشار اليها ابن رسته في الجزء السابع من كتاب (الاعلاق النفيسة) على النحو التالي : « الذي يحيط بالارض اعني الدائرة العظمى التي على كرتها اربعة وعشرون ألف ميل[*] ، لان كثيراً من القدماء ذكروا ان الذي وجد بين مدينتين على خط واحد من الخطوط التي تدور على أقطار معدل النهار اذا كان بينهما من العرض جزء واحد من ثلاثمائة وستين جزءاً من الدائرة العظمى التى على الارض من الاميال ستة وستين ميلا وثلثي ميل . وقطرها سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلا بالتقريب مع الماء المحيط بها ، يكون نصف ذلك ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية عشر ميلا بالتقريب »[١٦] .

---

(١٤) نفيس أحمد ، ص ١٩٢ .
(١٥) شريف محمد شريف ، ص ٢١١ و ٣٣٠ و ٤٠٨ .
(*) لقد توصل العلامة الايطالي نالينو الى ان الميل العربي يساوي ١٩٧٣,٢ مترا وهو أكثر من الميل الايطالي بحوالى ٣٨٤ مترا فالميل الايطالي يساوي ١٥٨٩ مترا . (نالينو ، ص ٢٨٩ وص ٢٩٣) .
(١٦) الاعلاق النفيسة ـ لابن رستة ، ص ١٧ ـ ١٨ .

وقال ابن الفقيه : « والارض مقسومة نصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب ، وهذا طول الارض وهو أكبر خط في كرة الارض ، كما ان منطقة البروج أكبر خط في الفلك . وعرض الارض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش . واستدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً(*) والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة وعشرون أصبعاً ، والأصبع ست حبات شعير مصفوفة بطن بعضها الى بعض فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ »(١٧) .

أما المسعودي فقد أورد الارقام التالية لمحيط الارض : « قال المسعودي : وذكر من عني بمساحة الارض وشكلها ان تدويرها يكون بالتقريب أربعة وعشرون الف ميل . وذلك انهم نظروا الى مدينتين في خط واحد احداهما أقل عرضاً من الاخرى وهما الكوفة ومدينة السلام فأخذوا عرضيهما فنقصوا الأقل من الاكثر ثم قسموا ما بقي على عدد الاميال التي بينهما فكان نصيب الدرجة مما يحاذيها من أجزاء الأرض المستديرة ستة وستين ميلا وثلثي ميل على ما ذكر بطليموس(**) . فاذا ضربوا ذلك في جميع درج الفلك التي هي ثلاثمائة وستون درجة كان ذلك أربعة وعشرين ألف ميل . وكان قطرها الذي هو طولها وعرضها وغلظها سبعة آلاف ميل وستمائة وسبعة وستين ميلا ، والميل أربعة آلاف ذراع بالسوداء ، وهو الذراع الذي وضعه المأمون لذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل(*) . والذراع أربع وعشرون اصبعاً والأصبع ست شعيرات مضموم بعضها الى بعض ، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال . ومنهم من يجعل الميل ثلاثة آلاف ذراع والفرسخ أربعة أميال ، وكلاهما يؤولان الى شيء واحد . وفيما ذكرناه من مقدار حصة الدرجة من الاميال تنازع ؛ فمنهم من رأى ان ذلك سبعة وثمانون ميلا ، ومنهم من

(*) الفرسخ يساوي ٣ أميال عربية ، وهو يبلغ حوالى ٦ كيلومترات (٥٩١٩ مترا) .

(١٧) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ٤ ـ ٥ .

(**) من المعلوم ان تقدير بطليموس لمحيط الارض كان حوالى ١٨٠٠٠ ميل ، فهو اذن غير مسؤول عن التقدير الذي تناقله الجغرافيون العرب . ويقول نالينو في تفسير هذا الخطأ : (حينما ترجم العرب كتب اليونان والسريان لم يعتبروا أن الميل الروماني والسرياني أصغر من ميلهم العربي ، فنتيجة سهوهم نسبوا الى بطليموس مقدارا زائدا على مقداره بكثير . ص ٢٧٩ ـ ٢٨١) .

(*) يعتقد نالينو أن مقدار الذراع السوداء هو ٤٩٣,٣ مليمترا ، ص ٢٨٩ .

رأى ذلك ستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل ، والمعول في ذلك على ما حكيناه عن بطليموس »(١٨) .

وأشار اخوان الصفا الى أن بعد الأرض من السماء من جميع جهاتها متساو ، وان أعظم دائرة في بسيط الارض هي ٢٥٤٥٥ ميلا (٦٨٥٥ فرسخاً) ، وقطر هذه الدائرة هو قطر الارض هو ٦٥٥١ ميلا (٢١٦٧) فرسخاً بالتقريب . ومركزها هي نقطة متوهمة في عمقها على نصف القطر وبعدها من ظاهر سطح الارض ومن سطح البحر من جميع الجهات متساو لان الارض بجميع البحار التي على ظهرها كرة واحدة »(١٩) .

ونقل ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) رأي أبي الريحان البيروني في حجم الارض ومساحتها ، حيث ذكر بان طول قطر الارض بالفراسخ الفان ومائة وثلاثة وستون فرسخاً وثلثا فرسخ ، ودورها بالفراسخ ستة آلاف وثمانمائة فرسخ . وعلى هذا تكون مساحة سطحها الخارج منكسراً أربعة عشر ألف وسبعمائة وأربعة وأربعين الفا ومئتين واثنين وأربعين فرسخاً وخمس فرسخ(*) . كذلك أورد الحموي تقديرات أخرى على النحو التالي : « وقال دورينوس ان الارض خمسة وعشرون ألف فرسخ ؛ من ذلك الترك والصين اثنا عشر ألف فرسخ ، والروم خمسة آلاف فرسخ ، وبابل ألف فرسخ . وحكي ان بطليموس صاحب المجسطي قاس حرّان وزعم انها أرفع الارض فوجد ارتفاعها ما عدد ، ثم قاس جبلا من جبال آمد ، ورجع فمسح

---

(١٨) التنبيه والاشراف ـ للمسعودي ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(١٩) رسائل اخوان الصفا ، ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٢٠) معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ، ص ٨ .

(*) لقد أوضح الدكتور احمد سوسة في كتابه (الادريسي في الجغرافية العربية) مدى اقتراب قياسات البيروني من القياسات الحالية على النحو التالي :

طول الدرجة على خط الاستواء ٢٢٤٣٨٩ ذراعا (٥٦,٩٩) ميلا عربيا أو ٦٨,٧٦ ميلا (١١٠,٦٨٠ كيلو متر) في قياسنا الحالي .

طول المحيط = ٨٠٧٨٠٠٤٠ ذراعا (٢٠١٦٠) ميلا عربيا أو ٢٤٧١٥,٥ ميلا بقياسنا الحالي .

طول القطر = ٦٤١٧ ميلا عربيا أو ٨٧٦٧ ميلا (١٢٦٦٢) كيلو مترا بقياسنا الحالي .

ولما كان محيط الارض الحقيقي ٢٤٨٨٠ ميلا (٤٠٠٤٤) كيلومترا ، والدرجة ٦٩,١١ ميلا (١١٠,٢٢٣ كيلومترا) والقطر ٧٩٢٠ ميلا (١٢٧٤٧ كيلو مترا) فيكون التفاوت بالنسبة للمحيط ١٦٤,٥ ميلا (٢٦٥ كيلو مترا) أقل من الرقم الحقيقي و(٠,٣٥) من الميل (٠,٥٦) من الكيلومتر بالنسبة للدرجة . أما بالنسبة للقطر فالتفاوت يصبح ٥٣ ميلا (٨٥ كيلو مترا) أقل من الرقم الحقيقي . (ص ٢٠٥) .

من موضع قياسه الاول الى موضع قياسه الثاني على مستو من الارض فوجده ستة وستين ميلا ، فضربه في دور الفلك وهو ست وستون درجة فبلغ ذلك أربعة وعشرين ألف ميل ، يكون ذلك ثمانية آلاف فرسخ . وقال غير بطليموس مما يرجع الى رأيه أن الأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق الى المغرب وهو أطول خط في كرة الارض ، كما أن منطقة البروج(*) أطول خط في الفلك ، وعرض الارض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى الشمال الذي تدور حوله بنات نعش ، فاستدارة الارض بموضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، الدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ . وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضاً مثل ذلك ، لان العمارة في الارض بين خط الاستواء وكل واحد أربع وعشرون درجة ، ثم الباقي قد غمره ماء البحر . فالخلق في الربع الشمالي من الارض والربع الجنوبي خراب ، والنصف الذي تحتها لا ساكن فيه ، والربعان الظاهران هما أربعة عشر اقليماً منها سبعة عامرة وسبعة غامرة من شدة الحر بها »(٢١) .

وذكر ابن خلدون في (مقدمته) ان « خط الاستواء يقسم الارض بنصفين من المغرب الى المشرق وهو طول الارض واكبر خط في كرتها ، كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار(**) أكبر خط في الفلك ، ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة ، والدرجة من مسافة الارض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر الف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والاصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها الى بعض ظهرا لبطن . وبين دائرة معدل الفلك التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الارض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة ، لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة ، والباقي منه خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجمود ، كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر »(٢٢) .

(٢١) المصدر السابق ، ص ١٩ .

(*) تمثل منطقة البروج الحلقة التاسعة والاخيرة من حلقات الفلك في مفهوم الجغرافيين العرب وهي منطقة النجوم الثابتة .

(**) المقصود بدائرة معدل النهار خطي الطول المتقابلين اللذين يكونان دائرة كاملة وهي التي تسمى MERI-DIAN CIRCLE . أما خط معدل النهار فيقصد به خط الاستواء .

(٢٢) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٥ .

ولم يقتنع الجغرافيون والفلكيون العرب والمسلمون بالتقديرات التي ورثوها عن الهنود والاغريق لمقدار محيط الارض ، وقاموا أنفسهم بمحاولة عملية للتثبت من هذه القضية . وقد جاءت المبادرة من الخليفة العباسي المأمون الذي أمر باجراء قياس لطول درجة من خط نصف النهار(*) للتوصل الى مجموع محيط الارض . وقد اقتضت هذه العملية القيام بمسح عملي لعله كان الاول من نوعه في هذا الميدان . وقد دلت قياساتهم بأن طول الدرجة يبلغ ٥٦ ميلا ، في حين ان بطليموس كان قد حدد طول الدرجة بـ ٦٦ ميلا(*) . وقد روى ابن خلكان تلك العملية على النحو التالي :

« ان المأمون كان مغرماً بعلوم الاوائل وتحقيقها ، ورأى فيها ان دور كرة الارض أربعة وعشرون الف ميل ، كل ثلاثة أميال فرسخ . فأراد المأمون أن يقع على حقيقة ذلك فسأل ابناء موسى بن شاكر المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعي . فقال أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل تتحقق ذلك أم لا . فسألوا عن الاراضي المتساوية أي البلاد هي ؟ فقيل لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء ، وكذلك وطآت الكوفة . فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون الى أقوالهم ويركن الى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا الى سنجار . وجاءوا الى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فاخذوا ارتفاع القطب الشمالي (أي خط عرض الموقع) ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلا طويلا . ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض من انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان ، فلما فرغ

(*) المقصود بخط نصف النهار خط الطول الذي يمتد من ـطب الشمالي الى القطب الجنوبي ، وهو يمثل نصف دائرة ويسمى أيضا بخط الهاجرة . ومن الواضح ان قيام العرب باستخراج مقدار « الدرجة » عن طريق قياس المسافة بين خطي عرض في موضع يتقاطعان فيه مع أحد خطوط الطول قد أوقعهم في خطأ طفيف ، وهذا الخطأ ناتج عن اعتقادهم بان الارض عبارة عن كرة كاملة وليست مفلطحة عند القطبين كما هو الواقع . وقد أدى شكلها هذا الى أن يزيد القطر الاستوائي على القطر القطبي بحوالى ٢٦ ميلا . وأدى ذلك بدوره أيضا أن يزيد مقدار الدرجة كلما اتجهنا نحو القطب . فهي تبلغ مثلا ١١٠٥٦٤ مترا بين درجة العرض صفر والدرجة الاولى ، في حين تبلغ ١١١٦٨٠ مترا بين درجة العرض ٨٩ و ٩٠ درجة . وقد أجرى فلكيو المأمون قياساتهم عند درجة العرض ٣٦٫٣٥ درجة ، مما أدى الى أن تزيد حساباتهم لمحيط الارض عن الحقيقة ، ولكن بمقدار غير كبير . فقد زاد تقديرهم لدرجة العرض عن الحقيقة بحوالى ٨٧٧ مترا . هذا مع العلم ان قياس ايراتوستين للدرجة زاد عن الحقيقة بحوالى ١٥٧٥ مترا .

(*) ينبغي ان نلاحظ بأن الميل العربي هو أكبر في الحقيقة من الميل الروماني في عهد بطليموس .

الجبل نصبوا في الارض وتداً آخر وربطوا فيه حبلا طويلا ومشوا الى الجهة الشمالية أيضاً كفعلهم الأول . ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على ارتفاع الاول درجة . فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الارض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلا وثلثي ميل ، فعلموا ان كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الارض ستة وستون ميلا وثلثان . ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الاول وشدوا فيه حبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال ، ثم اخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الجنوبي قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة ، فصح حسابهم وحققوا ما قصدوه من ذلك . وهذا اذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك . . فلما عاد بنو موسى الى المأمون واخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الاوائل طلب تحقيق ذلك في موضع آخر . فسيرهم الى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان ، فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء في ذلك »[٢٣] .

وقد علق المستشرق الايطالي نالينو على هذه الرواية بقوله : « لا تخلو رواية ابن خلكان من شيء من الخلط والخطأ . . والصحيح انما هو ما يستخرج من زيج ابن يونس وكتب غيره في أن جماعة من الفلكيين قاسوا قوساً من خط نصف النهار في صحراوين أي البرية عن شمال تدمر وبرية سنجار ، ثم أن حاصلي العملين اختلفا فيما بين ٥٦ ١/٤ من الأميال و ٥٧ ميلا ، فاتخذوا متوسطهما وهو ٥٦ ٢/٣ من الأميال تقريباً ، أي ان طول الدرجة عن فلكيي المأمون هو ١١١٨١٥ متراً ، وعلى هذا فطول المحيط ٤١٢٤٨ كيلومتراً (أي حوالى ٢٠٤٠٠ ميلا) ، وهو كما لا يخفى قريب من الحقيقة ودال على ما كان للعرب من البال الطويل في الارصاد والرياضيات واعمال المساحة . . . »[٢٤] .

ولقد حاول البيروني التثبت من هذه القضية واجرى مسحاً عملياً في احدى سهول داهستان الشمالية من اقليم جرجان ، كما أشار الى ذلك في المقالة السابعة من كتابه (القانون المسعودي) ، الا أن محاولاته تلك لم تنجح . ثم عاد فابتكر طريقة اخرى لقياس درجة من خط نصف النهار حيث وجد انها ٥٦٫٥٠ ميلا ، وقد ذكر

---

(٢٣) وفيات الاعيان - لابن خلكان ، الجزء الاول ، ص ٧٩ و ٨٠ ، طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ .

(٢٤) نالينو ، ص ٢٨٧ .

تلك الطريقة في كتابه (الاصطرلاب) على النحو التالي : « وفي معرفة ذلك الطريق قائم في الوهم الصحيح بالبرهان والوصول الى عمله صعب لصغر الاصطرلاب ، وقلة مقدار الشيء الذي يبنى عليه فيه . وهو أن تصعد جبلا مشرفاً على بحر أو تربة ملساء ترصد غروب الشمس فتجد فيه ما ذكرناه من الانحطاط ، ثم تعرف مقدار عمود ذلك الجبل وتضرب في الجيب المستوي لتمام الانحطاط الموجود وتقسم المجتمع على الجيب المنكوس لذلك الانحطاط نفسه ، ثم تضرب ما خرج من القسمة في اثنين وعشرين أبداً ، وتقسم المبلغ على سبعة فيخرج مقدار احاطة الارض بالمقدار الذي به قدرت عمود الجبل »[٢٥] (*) .

ولم تقتصر جهود الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين على محاولة التوصل الى مقدار محيط الارض ، بل حاولوا التعرف على مساحات الارض المسكونة أيضاً . وقد وردت في كتاباتهم تقديرات مختلفة لمساحات الارض المسكونة وللبحار التي تقع ضمنها ، وقد استند اغلبها الى كتابات اليونانيين ، كما اعتمد أيضاً على كتابات الهنود والايرانيين فضلا عن تقديراتهم الشخصية . وقد خضعت تقديراتهم بطبيعة الحال إلى الاعتقاد الذي توارثوه عن اليونانيين والرومانيين من ان جزءاً محدوداً فقط من الارض هو الذي يسكنه البشر ، وهو الجزء الذي أطلق عليه اسم (الربع المسكون) ، والذي حدده الرومان (بطليموس) بين خطي عرض ١٦ جنوباً و ٦٣ شمالا بينما حدده الجغرافيون العرب بين خطي عرض ٢١ جنوباً و ٦٣ شمالا . ولعل خير من درس هذه النقطة البيروني في كتابه (القانون المسعودي) . فقد أوضح بصورة دقيقة مساحات الاقاليم السبعة التي تمثل الجهات المعمورة من الارض مستنداً الى المراجع المختلفة ، وأورد التقديرات النهائية التي توصل اليها والتي كانت تمثل أفضل التقديرات القديمة . وقد نقلها عنه أبو الفدا في كتابه (تقويم البلدان) بعد أن شرح المقاييس التي استخدمها البيروني[٢٦] . أما اخوان الصفا فقد أوردوا مساحات الاقاليم السبعة من الأرض المعمورة

---

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(*) لقد روى البيروني في كتابه (القانون المسعودي) انه أراد تحقيق قياس المأمون فاختار جبلا في بلاد الهند مشرفا على البحر وعلى برية مستوية ، ثم قاس ارتفاع الجبل فوجده ٦٥٢ ١/٢ ذراع . وقاس الانحطاط فوجده ٣٤ دقيقة . فاستنبط ان مقدار درجة من خط نصف النهار هو ٥٨ ميلا تقريبا . ويعلق نالينو على هذه العملية بقوله بأننا اذا أجرينا الحساب بجداول اللوغاريتمات وجدناه ٥٦,٩٣ ميلا ، (ص ٢٩٢) .

(٢٦) راجع تقويم البلدان - لابي الفدا ، ص ١٦ - ١٨ .

على النحو التالي(٢٧) :

الاقليم الاول وطوله من المشرق الى المغرب ٩٥٥٥ ميلا ٣١٨٥ فرسخاً ، وعرضه من الجنوب الى الشمال ٤٤٥ ميلا ١٤٦ فرسخاً .

الاقليم الثاني وطوله من المشرق الى المغرب ٧٦٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٦٠٠ ميلا .

الاقليم الثالث وطوله من المشرق الى المغرب ٨٢٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٣٥٥ ميلا .

الاقليم الرابع وطوله من المشرق الى المغرب ٧٨٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٣٥٥ ميلا .

الاقليم الخامس وطوله من المشرق الى المغرب ٧٤٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٢٥٥ ميلا .

الاقليم السادس وطوله من المشرق الى المغرب ٧٥٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ٢٥٥ ميلا .

الاقليم السابع وطوله من المشرق الى المغرب ٦٦٥٥ ميلا وعرضه من الجنوب الى الشمال ١٨٥ ميلا .

كذلك أورد ياقوت الحموي تقديرات لمساحة الارض عموما نقلها عن الجغرافيين السابقين . ومما قال في ذلك : « واختلفوا في مساحة الارض : فذكر محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الزيج ان الارض على القصد تسعة آلاف فرسخ ، والعمران من الارض نصف سدسها والباقي ليس فيه عمارة ولا نبات ولا حيوان ، والبحار محسوبة من العمران ، والمفاوز التي بين العمران من العمران .

وقال ابو الريحان : طول قطر الارض بالفراسخ الفان ومائة وثلاثة وستون فرسخا وثلثا فرسخ ، ودورها بالفراسخ ستة آلاف وثمانمائة فرسخ . وعلى هذا تكون مساحة سطحها الخارج منكسراً أربعة عشر ألف ألف وسبعمائة وأربعة واربعين ألفاً ومئتين واثنين واربعين فرسخاً وخمس فرسخ .

أما بطليموس فقد ذكر ان تكسير جميع بسيط الارض مائة واثنان وثلاثون ألف ألف

(٢٧) رسائل اخوان الصفا ، ص ١٢٠ - ١٢٨ .

وستمائة ألف ميل ، يكون مائتي ألف وثمانية وثمانين ألف فرسخ »(٢٨) .

ولم تقتصر جهود الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين على مجرد معرفة مقدار محيط الارض وقطرها ومساحة المناطق المسكونة منها ، بل اهتموا اهتماماً خاصاً بتعيين عروض المكان لتحديد الموقع الجغرافي للمدن والظواهر الجغرافية المختلفة . والحقيقة ان اهتمامهم بتحديد مواضع المدن كان من العوامل الهامة في تطوير علم الفلك العربي . ولقد استفادوا في هذا الميدان من تجارب اليونانيين الا انهم في الوقت نفسه ابتكروا طرقاً جديدة أضفت على قياساتهم مزيداً من الدقة والضبط . ويقول عالم الرياضيات شوي Schoy بصدد ذلك : « لقد أجرى مختلف الجغرافيين العرب ابحاثا متقنة الى درجة تفوق المألوف انتهت بهم الى تحديد العروض الجغرافية ، ولذلك كانت الطرق التي مارسوها أصيلة ، كما كانت الطرق التي توصلوا اليها دقيقة ما بين حين وآخر »(٢٩) .

وكانت أهم وسائلهم لتعيين عرض المكان قياس ارتفاع النجم القطبي ، أو ارتفاع الشمس ، أو ارتفاع النجم حول القطبي ، الا أن الوسيلة الاولى كانت أكثرها شيوعاً . وقد برع ابن الهيثم براعة خاصة في استنباط طرق دقيقة للرصد والحساب والتي سجلها في رسالته المعروف باسم (رسالة ارتفاع القطب)(٣٠) . كذلك برع في هذا الميدان فلكيون عديدون من أمثال أبناء موسى بن شاكر وابن يونس ، كما استفاد الخوارزمي والفرغاني والبتاني من طرق الاغريق والهنود في ايجاد خطوط العرض(٣١) .

وكان من ثمار المعرفة بتحديد خطوط العرض اقامة المزاول الشمسية في الميادين والمساجد التي كانت تستخدم في ضبط أوقات النهار ، ولا سيما لاغراض اقامة الصلاة .

أما ما يتعلق بخطوط الطول فان أمر تحديدها كان أكثر صعوبة ، ذلك أن آراء الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين لم تتفق على نقطة واحدة . فقد اتجه بعضهم الى الأخذ بالطريقة البطليموسية في تحديد خط الطول صفر في أقصى غرب المعمورة ، الا انهم لم يتخذوا خط بطليموس الذي كان يمر بجزر الخالدات ، بل اتخذوا خطاً يبعد

(٢٨) معجم البلدان - لياقوت الحموي ، ص ١٨ - ٢٠

(٢٩) نفيس أحمد ، ص ١٨٧ .

(٣٠) تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك - لقدري حافظ طوقان - القاهرة ١٩٥٤ (الطبعة الثانية) ، ص ٩٢ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

عنه نحو الشرق بعشر درجات ويمر بطرف الساحل المغربي . وقد اعتبروا مجموع خطوط الطول ٣٦٠ خطاً ، وأحصوا ١٨٠ خطاً منها ابتداء من ساحل أفريقيا الغربي نحو الشرق تنتهي في أقصى حدود الصين الشرقية في مدينة أطلقوا عليها اسم « السيلي » أو « سيلا » . وفي بعض الأحيان أحصوا ٩٠ درجة الى الشرق و ٩٠ درجة الى الغرب من خط افتراضي يخترق (قبة الارين) في مركز الارض (ولعلها مدينة أجين UJJAIN الهندية التي حرّفت الى أُوزين ، ثم الى أرين الواقعة على خط الاستواء(٣٢) . ومنهم من جعل خط الصفر يبدأ عند ساحل افريقيا الغربي . ومنهم من اتبع نهج اراتوستين فجعل خط الصفر يمر بين ساحل افريقيا الشرقي وشبه جزيرة الهند مخترقاً جزيرة زنجبار التي أطلق عليها اسم جزيرة (الارين) أو (قبة الارض) وهي التي يتساوى فيها الليل والنهار . وعلى أية حال فقد كان تحديد خطوط الطول أمر يكتنفه الصعوبات ، وكانت أهم الوسائل التي أتبعها العلماء المسلمون في ذلك هي ملاحظة خسوف القمر ، وهي طريقة كانت تنطوي على اخطاء في الحساب قد تبلغ بضع درجات ، غير أن البيروني ابتكر طريقة جديدة سميت بالطريقة الارضية في الحساب ، وذلك بتحديد أقصر مسافة طولية بين نقطتين وتعيين خط عرض كل منهما ، ثم حساب الفروق في خطوط الطول بناء على النتائج المتوفرة(٣٣) . وقد استطاع البيروني بالفعل ان يقيس فرق الطول بين بغداد وغزنة وتوصل الى نتيجة دقيقة للغاية(٣٤) . كما استطاع الزرقالي بناء على ذلك ان يختزل طول البحر المتوسط الى ٤٢ درجة أي الى ما يعادل طوله الحقيقي بالتقريب بعد ان كان التقدير الروماني ٦٢ درجة(٣٥) .

ولقد استتبع براعة الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين في تحديد خطوط طول وعرض المواقع الجغرافية محاولتهم رسم خارطة للارض ، وهي المحاولة التي تمت بمبادرة من الخليفة المأمون والتي أثمرت ما سمي بـ (الصورة المأمونية) ، وقد ضاعت فيما ضاع من آثار الفترة العباسية المبكرة . ولعل خير من تحدث عنها هو المسعودي حيث قال : « ورأيت ذلك في كتاب جغرافيا لمارينوس وتفسير جغرافيا قطع الارض ، وفي هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ ، واحسن ما رأيت من الصورة

(٣٢) كراتشكوفسكي ، ص ٨٥ .
(٣٣) نفيس احمد ، ص ٨٩ .
(٣٤) كراتشكوفسكي ، ص ٨٥ .
(٣٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ .

المأمونية التي عملت للمأمون واجتمع على صنعتها عدة من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بافلاكه ونجومه وبره وبحره عامره وغامره ومساكن الامم والمدن وغير ذلك وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما »(٣٦) .

ويعلق كراتشكوفسكي على هذا الموضوع بقوله : « ومن العسير علينا بالطبع استكناه الطريقة الفنية التي اتبعت في عمل الخارطة المأمونية ، ولكن هناك ما يحملنا على الافتراض بانها تتلخص في مصور جغرافي موضحة عليه اسماء الاقطار والمدن المعروفة في كل اقليم طبقا للقسم المماثل من زيج المأمون . وفيها تم نهائياً استبدال الاسماء الكلاسيكية باسماء عربية ، غير ان حدود (المعمورة) والاقاليم قد حفظت لنا على الطريقة اليونانية . أما الاطوال فقد حسبت على ما يبدو على أساس المذهب الايراني ابتداء من المشرق كرد فعل ضد الاتجاه الغربي للعلم ، أو ربما كان ذلك أكثر ملاءمة لطريقة الكتابة العربية من اليمين الى اليسار . وبالطبع فان اعادة تصوير هذه الخارطة بحذافيرها أمر مستحيل بالرغم من ان بعض الفلكيين قد أفادوا منها بطريقة منتظمة وحفظوا لنا مجموعة من الحقائق عنها ، ولا يزال الكثير من الغموض يكتنف طبيعة الأسس التي رسمت عليها »(٣٧) .

ومهما قيل عن الظروف التي أحاقت بـ (الصورة المأمونية) فالذي لا ريب فيه أن براعة الجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين في تحديد خطوط عرض وطول المواقع الجغرافية هي التي مكنتهم من صنع تلك الخارطة . ومن المؤسف ان الجغرافيين العرب لم يستمروا على هذا النهج الفلكي في رسم الخرائط مما أدى بفن الكارتوغرافيا العربي الى التقهقر . ولم تحدث عودة الى هذا النهج السليم في رسم الخرائط الا على يدي الادريسي الذي قامت خرائطه للعالم على أساس تحديد درجات العرض والطول للمواقع الجغرافية مما جعل خرائطه ذات دقة كبيرة وأهمية عظيمة(٣٨) .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٣٧) المصدار السابق ، ص ٨٧ .
(٣٨) الدوميلي ، ص ٣٩٤ .

- ٣ -

أهم الانجازات الفلكية للجغرافيين العرب والمسلمين

لا ريب ان اهتمام العرب بعلم الفلك يرجع الى وقت مبكر ، وقد نبع هذا الاهتمام من طبيعة حياتهم البدوية التي كانت تفرض عليهم الاهتمام بتتبع حركات الشمس والقمر والكواكب والنجوم . ولعل خير من عبر عن حاجة الاعراب الى هذا العلم الجاحظ في كتابه (الحيوان) حيث قال : « عرفوا الآثار في الارض الرمل وعرفوا نجوم الاهتداء لان كل من كان بالصحاصح الاماليس حيث لا امارة ولا هادي ، مع حاجته الى بعد الشقة ، مضطر الى التماس ما ينجيه ويؤديه ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة واضطرته الحاجة الى تعرف شأن الغيث ، ولانه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من الكواكب ، ويرى التعاقب فيها والنجوم الثوابت وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً وما يكون منها راجعاً ومستقيماً »[39] .

ولقد دفعهم الى الاهتمام المبكر بعلم الفلك أمران ذوا مساس شديد بحياتهم اليومية ، وهما حاجتهم الى المطر ، وافتقارهم الى علامات هادية أثناء سراهم الليلي . فمما لا ريب فيه ان « المطر كان يمثل قوام حياتهم الرعوية ، فكانوا يحاولون التعرف على مواسمه ، فضلا عن التعرف على الظواهر الجوية الاخرى ، واستدلوا على ذلك بطلوع بعض النجوم وبحركات الكواكب في السماء مما أدى الى ظهور ما سمي بـ « علم الانواء » الذي اهتموا به اهتماماً شديداً في عصر ما قبل الاسلام[40] .

ومن المعلوم أيضاً أن البدو كانوا يضطرون الى الارتحال اثناء الليل - ولا سيما في

(٣٩) كتاب الحيوان لابي عمرو الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦٩ ، الجزء السادس ، ص ٣٠ .

(٤٠) المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب - لحبيب الراوي - مجلة الجمعية الجغرافية العراقية - المجلد الثامن ، حزيران ١٩٧٤ ، ص ٣٥ - ٣٧ .

فصل الصيف - فكان لا بد لهم من الاستهداء بنجوم معينة . ولقد بلغ من اهتمام العرب بمراقبة النجوم ان اتخذتها بعض القبائل رمزاً للعبادة قبل الاسلام ، حيث عبدت بعض جماعات طي « الثريا » وبعض جماعات ربيعة « المرزم » وهو نجم قريب من الشعري ، وبعض جماعات لخم وخزاعة وقريش « الشعري »[41] .

ولقد انتقل اهتمام العرب بهذا العلم الذي سمي تارة (بعلم الانواء) وطوراً (بعلم النجوم) أو (علم الهيئة) أو (الفلك) الى عصور ما بعد الاسلام ، فألفت فيه عشرات الكتب منذ بداية القرن الثاني الهجري وان ضاع أغلبها ولم يصل الينا سوى عناوينها التي اوردها الكتاب اللاحقون . وقد اشتملت تلك الكتب على معلومات متنوعة ، كالبحث في منازل القمر الثمانية والعشرين[*] ، وتحديد فصول السنة حسب ظهور نجوم معينة وحسب تحركات الشمس ، والكلام على الابراج الاثني عشر ، والحديث عن أنواع السحاب والبرق والمطر ، الى آخر ما هنالك من مواضيع ترتبط بالحياة العملية للفرد العربي الراعي والزارع . كذلك استخدم هذاالعلم في بداية العصر الاسلامي لمعرفة اتجاه القبلة وموقع الكعبة وتحديد اوقات الصلاة والصوم .

غير أن التطور الحقيقي قد دخل على هذا العلم في أواخر عهد ابي جعفر المنصور حينما بدأ اتصاله بالفكر الاجنبي ، وحقق تقدماً عظيماً في مفاهيمه ومناهجه في عهد الرشيد والمأمون نتيجة للتشجيع المفرط والحظوة البالغة التي لقيها هذا العلم وعلماؤه من قبل الخليفتين المذكورين . وكان ذلك التطور ثمرة من ثمار ترجمة أمهات الكتب الفلكية من اللغات الهندية والايرانية واليونانية والسريانية الى اللغة العربية . ومن أوائل الكتب الفلكية التي ترجمت الى اللغة العربية الكتاب الذي سماه المنجمون باسم (كتاب السندهند الكبير) والذي كلف الخليفة المنصور الفلكي ابراهيم الفزاري بترجمته

(٤١) المصدر السابق ، ص ٣٥ .

(*) لقد لاحظ العرب انحراف القمر اثناء دورته الشهرية عن موضع نجوم معينة فاختاروا في السماء ثمانية وعشرين مجموعة من نجوم غير بعيدة عن فلك البروج وفلك القمر لتكون علامات لمسير القمر بصفة أن يدل تقريبا كل أحد منها على موضع القمر في احدى ليالي الشهر النجومي ، وسموا هذه المجاميع النجومية منازل القمر . وقد استعمل العرب تلك المنازل لمعرفة احوال الهواء وحوادث الجو في فصول السنة لانهم كانوا ينسبون تلك الحوادث الى طلوع المنازل وغروبها وقت الفجر حين تطلع الشمس . . . وقد سمى العرب «نوءاً» سقوط منزلة مع انتهاء الفجر وطلوع مقابلتها في المشرق ، ونسبوا الى « الانواء » عدة تأثيرات كالامطار والرياح والحر والبرد (نالينو ، ص ١٢٢ - ١٢٣) .

من الهندية الى العربية . ويبدو أن أحد العلماء الهنود الذي كان من بين أعضاء السفارة الهندية الى بلاط المنصور في عام ١٥٤ هـ قد حمله معه وهو العالم (مانكا) MAN-KAH أو (كانكا) ، ومن المعتقد ان ذلك الكتاب هو رسالة (براهما سفوتا سدانتا) Brahma Sphuta Sidhanta التي وضعها في عام ٦٢٨ م . العالم الهندي براهما غبتا BRAHMAGUPTA(٤٢) .

ولقد ترك هذا الكتاب أثراً بعيداً في تفكير علماء الفلك العرب والمسلمين ، وانعكس هذا التأثير في الأخذ بالحساب الهندي بالنسبة لخطوط الطول التي يبدأ تعدادها حسب النظام الهندي من خط الطول (خط منتصف النهار) المار بجزيرة لانكا (سرنديب او سيرانيكا) والذي يمر بوسط المعمورة . وقد سمى العرب النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار (قبة الارض) أو (القبة) أو (العرين) أو (الارين) أو (أذين) ، بالنظر لان خط طول (خط الزوال) لانكا كان يمر بمدينة اوجين UJJAIN(٤٣) . ويعتبر الفزاري ويعقوب بن طارق من أهم دعاة المذهب الهندي في علم الفلك الذي ساد لفترة طويلة حتى أخذ يزاحمه المذهب اليوناني في عهد المأمون .

ولقد تأثر علم الفلك العربي في بداية نهضته أيضاً بالآراء الفارسية ، لكن ذلك التأثر كان طفيفاً ، وقد انعكس في الأخذ بحسابات كتاب (زيج الشاه) أو (زيج الشهريار) الذي ترجم الى اللغة العربية ، وقد تأثر بآرائه العديد من الفلكيين من أمثال ما شاء الله وحبش المروزي وابي معشر وحتى الخوارزمي . بل أن مصطلح (الزيج) الذي يطلق على الجداول الفلكية مستمد من أصل فارسي هي كلمة (زيكر) التي يقصد بها السدى الذي تنسج فيه اللحمة(٤٤) .

ولقد أخذ المذهب اليوناني يسيطر على علم الفلك العربي منذ بداية القرن التاسع الميلادي ، ثم ما لبث أن أصبح المذهب السائد منذ منتصف القرن التاسع حيث انتشرت مترجمات ارسطو واقليدس وبطليموس بما فيها من تدريب على الارصاد الشخصية القائمة على الملاحظات الدقيقة . والواقع ان علم الفلك العربي خضع في هذه الفترة لآراء بطليموس بالذات كما انعكست في كتابيه (المجسطي) و (جغرافيا) ،

(٤٢) كراتشكوفسكي ، ص ٧٠ .
(٤٣) المصدر السابق ، ص ٧٣ .
(٤٤) المصدر السابق ، ص ٧٥ .

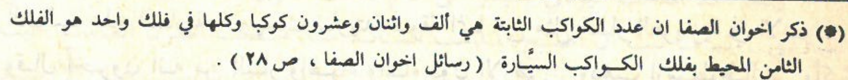
وصارت هذه الآراء مناراً يهتدي بها جميع الفلكيين ولا يجوز الخروج عنها . وقد شهدت هذه الفترة (ولا سيما عهد المأمون) اقبالاً لا مثيل له على الترجمة من اللغة السريانية واليونانية ، واشتهر من المترجمين حنين بن اسحاق وثابت بن قرة والحجاج بن يوسف والخوارزمي والكندي والفرغاني والبتاني ، كما شهدت أيضاً انشاء « بيت الحكمة » في أواخر عهد الرشيد .

ويمكن ان نلمس أثر آراء بطليموس في الكتابات المبكرة للجغرافيين والفلكيين العرب والمسلمين عن الافلاك والنجوم والكواكب التي كانت تساق كجزء من المعلومات الجغرافية ، فضلا عن انعكاسها في (الازياج) التي ألفها الفلكيون المشهورون في ذلك العهد كزيج البتاني وزيج الخوارزمي (السندهند الصغير) وأزياج موسى بن شاكر والزيج المسمى (الزيج المأموني الممتحن) . ولعل خير من لخص لنا من الجغرافيين المعلومات الفلكية الاساسية في عهده هو أبو الحسن المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف) حيث قال :(٤٥) .

« فلنبدأ بذكر الفلك(*) الذي نبهنا الله سبحانه عليه وأشار في نص الكتاب اليه لما فيه من عجائب حكمته ولطائف قدرته وخصائص التدبير وبدائع التركيب التي تدل بعجائب نظمها وغرائب تأليفها على وحدانية مبدعها وأزلية منشئها . قال الله عز وجل لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون أي في دائرة منها يكونون ، اذ اسم الفلك يدل على الاستدارة في لغة العرب ، والفلك السماء . قال الله عز وجل لخلق السماوات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قال المسعودي : وقد تنازع الناس في الفلك ممن سلف وخلف ، فقال افلاطون وثامسيطيوس والرواقيون وعدة ممن تقدم عصر افلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة انه مع الطبائع الاربع التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة الا ان الغالب عليه النارية ، وليست ناريته محرقة انما هي مثل النار الغريزية في الابدان . وقال آخرون انه من النار والهواء والماء دون الارض . وذهب ارسطوطاليس وأكثر الفلاسفة ممن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين الى ان طبيعة خامسة خارجة عن الطبائع الاربع ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا

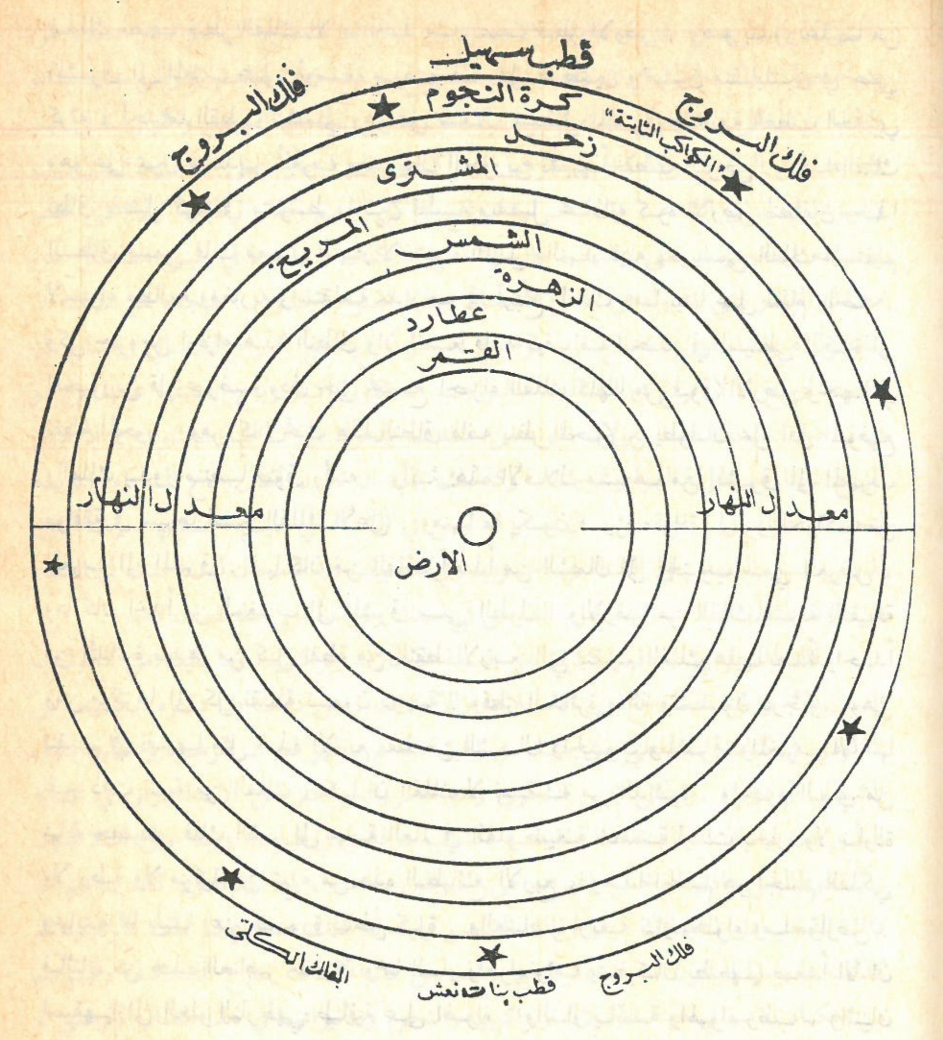
(٤٥) التنبيه والاشراف ـ للمسعودي ، ص ٨ - ١٣ .
(*) المراد بـ « الفلك » المدار وهو الذي يقابله المصطلح الافرنجي ORBIT . ومن الجدير بالذكر أن الكتّاب العرب كانوا يعنون بـ « المدارات » الدوائر المتوازية لدائرة معدل النهار .

يبوسة وانه جسم مدوّر كروي أجوف يدور على محورين وهما القطبان أحدهما رأس السرطان ومنتهى بنات نعش من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء في وسط الفلك وهو خط ما بين الشمال والجنوب وأوسع موضع فيه من نقطة المشرق الى نقطة المغرب ، وهو منقسم بأربعة أرباع كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه وهو موضع الأرض منه أحد الربعين وهو أحد القطبين نقطة الشمال وبازائه نقطة الجنوب والربع الثالث نقطة المشرق وبازائها نقطة المغرب ، وهو يدور دوراناً طبيعياً دائماً . وبدورانه ودوران الكواكب التي فيه تنفعل الكيفيات وانبسطت الاركان الاربعة وهي النار والماء والهواء والأرض . فيتصل ركنان منها وهما النار والهواء بالعلو ، وركنان منها وهما الماء والارض بالسفل ثم تتحرك هذه الكيفيات بتحرك الجواهر العلوية والاجسام السمائية على حسب مداراتها ومسيرها وحركاتها وتأثيراتها . فيتحرك الركنان الاعليان بتحرك الكيفيات والركنان الأسفلان بتحرك الركنين الاعليين وتهب بذلك الرياح الاثنتا عشرة فتنشأ السحائب وينزل المطر ويتصل بذلك الآثار العلوية بالآثار السفلية الموجودة في الحيوان والنبات البري والبحري وفي الجواهر والمعادن حتى يكون التدبير في جميع هذه العوالم متسقاً مطرداً متصلاً بعضه ببعض بالفعل كامناً بعضه في بعض بالقوة حتى تظهر آثار الصنعة وامارات الحكمة ودلائل الربوبية وترتبط المعلولات بعللها وتشهد للصانع بصنعته وبدائع حكمته . وجعل عز وجل الفلك الاعلى وهو فلك الاستواء وما يشتمل عليه من طبائع التدوير . فأولها كرة الارض يحيط بها فلك القمر ، ويحيط بفلك القمر فلك عطارد ، وبفلك عطارد فلك الزهرة وبفلك الزهرة فلك الشمس وبفلك الشمس فلك المريخ وبفلك المريخ فلك المشتري وبفلك المشتري فلك زحل وبفلك زحل فلك الكواكب الثابتة(*) وبفلك الكواكب الثابتة فلك البروج(**) وبفلك البروج فلك الاستواء وهو المحيط بها والمحرك لها .



(*) ذكر اخوان الصفا ان عدد الكواكب الثابتة هي ألف واثنان وعشرون كوكبا وكلها في فلك واحد هو الفلك الثامن المحيط بفلك الكواكب السيَّارة (رسائل اخوان الصفا ، ص ٢٨) .

(**) لقد شرح اخوان الصفا البروج على النحو التالي : « اعلم يا اخي ان البروج هي اثني عشر ، قسمة وهمية في سطح فلك المحيط يفصلها اثني عشر خطا وهميا وهي تبتدىء من نقطة وتنتهي الى نقطة أخرى في مقابلتها ، فيقسم سطح كل كرة باثني عشرة قسمة كل واحدة منها كأنها جزء البطيخة تسمى البرج ، والنقطتان تسميان قطبي الكرة . وان الشمس ترسم على سطح كرتها بحركتها في كل ثلاثمائة وخمس وستين يوما دائرة وهمية والدائرة تقسم الكرة بنصفين ، وكل برج بقسمين متساويين حصة كل برج من تلك الدائرة قطعة قوس قدرها ثلاثون جزءاً من ثلاثمائة وستين ، وبهذه الدائرة ودرجتها يقاس سائر حركات الكواكب في الزيجات ، (اخوان الصفا ، ص ٢٧) .



شكل ١٦ : شكل يمثل أفلاك الكواكب والنجوم

ومن ذوي المعرفة بعلم الافلاك والنجوم من يعد فلك الاستواء وفلك البروج الثابتة فلكاً واحداً لما يرى من تجاذبهما واتفاق أقطارهما ومراكزهما ، والارض في وسط الجميع مركز له كالنقطة في وسط الدائرة والفلك متجاف عنها من حيث ما أحاط بها بمثل ما كان وجهها الذي يكون عليها حيث ما كانت ، وهو أعلى الفلك على سمت رأسك

فذلك نصف قطر الفلك الا ما أخذ منه نصف قطر الارض . وهو يدور عليها من المشرق الى المغرب على أوسع موضع فيه على نقطتين وهميتين متقابلتين في جنبي كرته ، أحدهما القطب الشمالي وهو على شمال مستقبل المشرق والثانية القطب الجنوبي وهو على يمين مستدبر المغرب ويسميان المحورين تشبيهاً بقطب الرحى . ولهذا الفلك نطاق يفصل كرته في متوسط ما بين قطبيه ويفصل محاذاته كرة الارض بنصفين وهذا النطاق يسمى فلك معدل النهار لاستواء الليل والنهار فيه ، ويسمى الفلك المستقيم لاستواء مطالعه ومغاربه واستقامة مدارجه في أرباع الفلك وما بينها على نظام واحد . وكل جزء من اجزاء هذا النطاق وان اتسع فانه كيف ما انحدر في بسيطي الكرة الى المحورين قل عرضه ودق حتى تجتمع أجزاء الفلك كلها من فوق الارض وتحتها في نقطة المحور . ومن كان تحت هذا النطاق فانه ينظر المحورين يطوفان على افق الموضع والفلك يدور منتصباً فوق رأسه . وأكثر هذه الأفلاك مسيرها من المشرق الى المغرب موافقة في سيرها لسير الفلك الأعلى . ومنها ما يكون مسيره موافقاً لمسير الكواكب من المغرب الى المشرق . فما كان من الفلك آخذاً من الشمال الى الجنوب سمي العرض ، وما كان آخذاً من المغرب الى المشرق سمي الطول . والارض من الفلك بمنزلة النقطة من الدائرة بعدها من كل نقطة من النقط الاربع التي ينقسم الفلك عليها بعداً واحداً ومن مركزها الى كل نقطة تسعون درجة . وقطر الدائرة مائة وثمانون درجة . وهي تنقسم في نفسها مثل هذه الاربع نقط من الشمال والجنوب والمشرق والمغرب الا انها غير ذات نسبة من الفلك ، كما ان الفلك لا نسبة له من الدائرة . والجرم الذي من نهاية حضيض فلك القمر الى نهاية العالم في العلو طبيعة خامسة ليست بحارة ولا باردة ولا رطبة ولا مركبة من شيء من هذه الطبائع الاربع ، وهذا الجسم هو الجسم الفلكي ونهايته مما يلينا اعني كصورة باطن كرة . والعناصر اربعة نار وهواء وماء وارض . فاثنان من هذه العناصر حاران وهما النار والهواء وهما يتحركان بطبعهما صعداً الا ان اسبقهما الى العلو النار فهي طافية على الهواء . والنار يابسة والهواء رطب . واثنان باردان وهما الماء والارض ، والارض يابسة والماء رطب . فقد حصل بما ذكرنا ان الحرارة تفعل الحركة صعداً وان البرد يفعل الحركة سفلا وان.اليبس يفعل السبق الى الموضع الاخص بكل واحد منهما . وان الرطوبة تفعل الثقل في الحركة . فما كانت حركته صعداً سموه خفيفاً . وما كانت حركته سفلا سموه ثقيلا وانه لا فراغ في جرم العالم ، وان الاجسام اذا حميت احتاجت الى مواضع أوسع من المواضع التي كانت فيها ، فما تحدثه الحرارة فيها من تباعد نهاياتها عن مركزها وانها اذا بردت صارت بضد

ذلك لان البرد يفعل تقارب نهايات الاجسام من مركزها فتحتاج الى مواضع اصغر من مواضعها . وان الحرارة والبرودة تتبادل المواضع ، فاذا كان ظاهر الارض حاراً كان باطنها بارداً على ما تكون عليه السراديب وغيرها من أعماق الارض واغوارها في نهار الصيف من البرد . واذا كان ظاهرها باردا كان باطنها حاراً على ما عليه السراديب وغيرها في ليالي الشتاء . وان الحرارة ترفع من كل جسم رطب لطيفه اولا حتى تجف ارضيته فيتحجر او تفنى جملته . وان الشمس اذا كان مسيرها في الميل الشمالي عن معدل النهار حمي الهواء في ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبي . فيجب من ذلك ان ينقبض الهواء الجنوبي ويحتاج الى موضع أصغر ، ويتسع الهواء الشمالي ويحتاج الى موضع أوسع اذ لا فراغ في العالم . فبالواجب أن يكون أكثر رياح الصيف عند من هو في ناحية الشمال شمالية لان الهواء من عندهم يتحرك الى ناحية الجنوب ، اذ ليس الريح شيئا غير حركة الهواء وتموجه . وكذلك يجب ان تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية لتحرك الهواء الى ناحية الشمال لمسير الشمس في الشتاء في الميل الجنوبي . وما أبين للحس مسير الشمس في الشتاء في الجنوب وفي الصيف في الشمال لما نراه في الشتاء من طول ظلال المظلات وبعد جرم الشمس في سمت رؤوسنا من خط نصف النهار .

قال المسعودي : وفيما ذكرنا من قسمة الافلاك وتراكيبها وما يلينا من الكواكب النيرين(*) والخمسة تنازع بين الاسلاف والاخلاف . من ذلك ما ذكره ابطليموس القلوذي في كتاب المجسطي وفي كتابه في الهيئة انه لم يظهر له ان الزهرة وعطارد فوق الشمس او دونها . وحكى يحيى النحوي وهو المعروف بالحريص الاسكندراني في كتابه الذي دل فيه ان العالم محدث ونقيضه لكتاب برقلس في قدمه ورده على أفلاطون وارسطوطاليس وافلوطرخس وغيرهم من القائلين بقدمه ، ان افلاطون كان يزعم ان فلك القمر ادنى الافلاك الينا وفلك الشمس يليه ثم فلك عطارد ثم فلك الزهرة ثم كذلك ما رتبها الباقون . وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا السالفة تنازع الفلاسفة وغيرهم من حكاء الامم في هيئة الافلاك وتراكيبها والنجوم وتأثيراتها في هذا العالم الارضي ، وما يمين العالم وما شماله وما خلفه وأمامه وتحته وفوقه ، وما ذكره ارسطوطاليس في المقالة الثانية من كتاب السماء والعالم عن شيعة فوثاغورس في ذلك وما ذهب اليه من أن للسماء يميناً وشمالا واماماً وخلفاً وفوقاً وأسفل . فيمنة السماء الجهة المشرقية ويسرتها المغربية واعلاها القطب الجنوبي وهو فوق القطب الشمالي وهو أسفل وما اتصل بذلك » .

(*) المقصود بهما الشمس والقمر .

تلك هي عينة من المعلومات الفلكية ذات الطابع الجغرافي . وبطبيعة الحال فانها لا تمثل الابحاث الواسعة التي اختص بها الفلكيون في هذا الميدان . والحقيقة اننا يمكن ان نأخذ فكرة أوضح عن المواضيع التي كان يعالجها علماء الفلك العرب والمسلمون باستعراض الفهرست الذي ورد في مقدمة كتاب (الزيج الصابي) لمؤلفه أبي عبدالله محمد بن سنان جابر الحراني المعروف بالبتاني والذي ورد على النحو التالي :(٤٦)

- في تقسيم دائرة الفلك وضرب الاجزاء بعضها في بعض وتجذيرها وقسمتها بعضاً على بعض .

- في معرفة أقدار أوتار الدائرة واثبات أنصاف اوتار أضعاف القسي في الجداول ومايتبع ذلك من العمل بها .

- في مقدار ميل فلك البروج(*) عن فلك معدل النهار وتجزئة هذا الميل وجهاته ومراتبه في صعوده وهبوطه وهو ميل الشمس عن الفلك المستقيم .

- في معرفة اقدار ما يطلع من فلك معدل النهار مع قسي فلك البروج المفروضة تحت معدل النهار الذي يسمى خط الاستواء وبهذه الاقدار أيضاً تمر البروج وتجوز في فلك نصف النهار في كل موضع من الارض ويسمى لذلك مطالع البروج في الفلك المستقيم .

- في معرفة خواص كل خط من الخطوط الموازية لمعدل النهار المائل عنه الى الشمال وذكر مواضع الارض العامرة المعلومة الطول والعرض في كتاب صورة الارض .

- في معرفة سعة مشارق الشتاء والصيف ومغاربها من دوائر آفاق البلدان وهي القسي التي تكون بين فلك معدل النهار ومواضع فلك البروج في دائرة الافق ويسمى سمت المطالع والمغارب من دائرة الافق .

---

(٤٦) كتاب الزيج الصابي - للبناني ، ص ١ - ٥ .

(*) المراد بـ « البروج » النجوم الثوابت ، ومن المعلوم ان الفلكيين العرب قد ميزوا بين « الكواكب » و « النجوم » . فالكواكب نوعان : السيّارة وهي ذات الحركات السريعة سواء بالنسبة لبعضها البعض أم بالنسبة الى النجوم وعددها سبع ، والكواكب الثابتة وهي التي تحتل الفلك الثامن لان أوضاعها بالنسبة لبعضها البعض ثابت لا يتغير بمرور الايام . وقد اعتبروا الشمس والقمر ضمن الكواكب المتحركة واستثنوا الارض منها . أما النجوم التي تحتل الفلك التاسع فهي ثابتة لا تتحرك .

- في معرفة ارتفاع القطب الشمالي من قبل زيادة النهار الاطول اذا كان مفروضا .

- في معرفة زيادة النهار الاطول من قبل ارتفاع القطب المفروض .

- في معرفة الارتفاع والظل احدهما من قبل الآخر اذا كان الظل بسيطاً ومعرفة ذلك اذا كان الظل قائماً .

- في معرفة سمت الارتفاع والظل من دائرة الافق في كل بلد وفي كل وقت من النهار في جميع اجزاء فلك البروج وهو ما تقطع القوس التي تجوز على سمت الرؤوس والشمس من دائرة الافق من حد المطلع والمغيب .

- في معرفة خط نصف النهار في كل بلد وهو سمت الجنوب وما يظهر معه من سمت مشرق الاعتدال ومعرفته بجهات شتى .

- في معرفة قدر ما يطلع من فلك معدل النهار مع اجزاء فلك البروج المفروضة من الافق في كل موضع من مواضع الارض ويسمى مطالع البروج في كل بلد وما يتبع ذلك من معرفة مطالع أي وجه شئت في هذه المطالع وفي مطالع الفلك المستقيم ومعرفة اجزاء فلك البروج من قبل هذه المطالع ومقدار قوس النهار والليل ومسافاتها المعتدلة وازمان ساعات النهار والليل الزمانية وتحويل بعضها الى بعض .

- في معرفة عروض البلدان وهو ارتفاع القطب الشمالي بها عن الافق بالرصد .

- في معرفة ارتفاع الشمس في وقت انتصاف النهار(*) في كل يوم .

- في معرفة ما يمضي من النهار من ساعة وما يطلع من قبل قياس الشمس ومعرفة الارتفاع والظل القائم .

- في معرفة الارتفاع من قبل ما يمضي من ساعات النهار .

- في معرفة ابعاد الكواكب الثابتة او المتحيرة عن فلك معدل النهار اذا كانت مائلة عن نطاق البروج في العرض واجزاء فلك البروج التي تتوسط السماء معها من قبل مواضعها من فلك البروج في الطول والعرض .

(*) المراد بارتفاع الشمس في وقت انتصاف النهار أي ارتفاعها عن البلد أو الموضع وقت الزوال ، وهو يمثل أعظم ارتفاعها في اليوم المفروض والموضع أو البلد المفروض.

- في معرفة نصف قوس احد الكواكب وهو نصف مكثه فوق الارض وتحتها ايضا وأزمان ساعاته فوق الارض وتحتها .

- في معرفة الدرجة في فلك البروج التي يطلع معها احد الكواكب والدرجة التي معها يغيب .

- في معرفة ما يمضي من الليل من ساعة بقياس بعض الكواكب .

- في معرفة ارتفاع بعض الكواكب من قبل الساعات الماضية من الليل .

- في معرفة سمت احد الكواكب عن فلك معدل النهار وما يتوسط السماء معه من أجزاء البروج من قبل معرفة سمت الموضع الذي يطلع منه أو يغيب من دائرة الافق ، وبه يعلم أيضاً ميل الجزء من فلك البروج عن فلك معدل النهار .

- في معرفة الجزء الذي فيه الكوكب من أجزاء فلك البروج وعرض الكوكب من قبل بعده عن فلك معدل النهار والجزء الذي يتوسط السماء معه اذا كان معلوما .

- في معرفة أبعاد ما بين الكواكب على ترتيب مواضعها في الفلك في الطول والعرض .

- في معرفة مقدار طول أزمان السنة الشمسية الموجودة بالرصد وحركة الشمس الوسطى في الايام والشهور والسنين من قبل ذلك .

- في معرفة اختلاف الايام بلياليها اذا قيس نهار يوم مع ليلته الى نهار يوم آخر مع ليلته . وكيف تحول وتنقل من بعضها الى بعض .

- في صفة أفلاك القمر وحركاته وما يظهر فيها من الاختلاف في أوقات الاجتماعات والمقابلات الشمسية وما يتركب مع ذلك من الاختلاف من قبل أبعاده عن الشمس وعلل الكسوفين وبعد النيرين عن الأرض وزيادة ضوء القمر ونقصانه ببعده عن الشمس .

- في صفة افلاك الكواكب المتحيرة وحالاتها .

- في معرفة تاريخ العرب والروم والفرس والقبط ومعرفة بعض ذلك من بعض .

- في معرفة موضع الشمس الذي ترى فيه من فلك البروج بتاريخ الروم والعرب ايها شئت .

- في معرفة ساعات التقويم في كل بلد وهي الساعات المعتدلة الوسطى التي

تكون من بعد انتصاف النهار بمدينة الرقة وبها تستخرج الحركات في كل حين فيعرف وسط الكوكب في ذلك الوقت من أوقات النهار والليل وتحويل هذه الساعات الى ساعات البلدان .

- في اقامة الطالع والبيوت الاثني عشر من قبل ساعات النهاروالليل ومعرفة الساعات من قبل الطالع .

- في معرفة موضع القمر الحقيقي من فلك البروج في كل يوم وفي كل وقت .

- في معرفة موضع العقد الشمالي والجنوبي وهما الرأس والذنب اللذان يكون عليهما مجاز القمر في العرض .

- في معرفة عرض القمر وهو بعده عن نطاق البروج الى جهة الجنوب والشمال .

- في معرفة اختلاف المنظر الذي يعرض في القمر في الطول والعرض واقداره في نواحي الافق والسبب الذي يعرض عنه ذلك فيه بجهات شتى .

- في معرفة بعد القمر عن الارض من قبل اختلاف منظره في دائرة الارتفاع والتي فيما بين سمت الرؤوس والافق القاطعة لموضع القمر من فلك البروج .

- في معرفة رؤية الهلال في أوائل الشهور واواخرها وسمت موضعه الذي يرى فيه من السماء وارتفاعه عند ذلك عن الافق وصورته على ما فيه من الضوء واعتدال طرفيه او ميلهما .

- في معرفة اجتماعات ومقابلات الشمس والقمر الوسطى والحقيقية بتاريخ الروم ايهما شئت .

- في معرفة الكسوفات القمرية واقدارها واوقاتها في البلدان والناحية التي منها يبتدىء الكسوف والناحية التي منها يكون الانجلاء من دائرة القمر وصورة ذلك وعمله بالحساب والجدول .

- في معرفة كسوف الشمس واقداره المختلفة في كل بلد واوقاته ومعرفة الناحية التي منها يبتدىء وينجلي الكسوف من دائرة الشمس وصورة ذلك وعمله بالحساب والجدول .

- في معرفة مواضع الخمسة الكواكب المتحيرة ورجوعها .

- في معرفة عرض الكواكب الخمس المتحيرة وجهاتها .

- في معرفة ظهور الكواكب الخمسة المتحيرة واختفائها (عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل) .

- في معرفة الاشكال التسعة التي تكون للكواكب الثابتة وبعض المتحيرة عند الشمس .

- في ذكر ابعاد الكواكب عن الارض واقطارها وعظم اجرامها وسعة افلاكها .

- في معرفة حركة سائر الكواكب بالرصد ورسم مواضع ما يحتاج اليه منها في الجدول في الطول والعرض .

- فيما ذكر اصحاب الطلسمات ان للفلك حركة انتقال مقبلة ومدبرة وما يظهر فيه من الخلل .

- في معرفة اوقات تحاويل السنين الكائنة عند عودة الشمس الى الموضع الذي كانت فيه في الاصل .

- في تحقيق أقدار الاتصالات التي تكون بحسب عروض الكواكب اذا القت الشعاع على فلك البروج .

- في معرفة مطالع البروج فيما بين ارباع الفلك .

- في عمل الرخامة القائمة المسطوحة لمعرفة ساعات النهار الزمانية في كل بلد وتقويم نصبها وسمت الجنوب وكيف يعرف سمت القبلة في الرخامة وهو سمت مكة المحروسة .

- في ختم الكتاب وصفة صنعة الآلة التي على هيئة الفلك وتسمى البيضة وصنعة الآلتين آللتين للرصد .

تلك هي ابرز القضايا الفلكية التي عالجها الجغرافيون والفلكيون المسلمون . وينبغي التأكيد بأن الثروة التي خلفها الفلكيون العرب والمسلمون كانت في بعض وجوهها اعظم قيمة من ثروتهم الجغرافية . كذلك ينبغي التأكيد بانهم وان بدأوا مقلدين للهنود واليونانيين في آرائهم وجداولهم الفلكية الا انهم انتهوا مبدعين يعتمدون على مراصدهم وملاحظاتهم الشخصية في تثبيت الجداول الفلكية . وفي ذلك يقول كراتشكوفسكي : « لقد بدأ العرب يجمعون بين الاستيعاب النظري للعلم اليوناني

والتطبيق العملي لنظرياته في ابحاثهم المستقلة الامر الذي تجاوزت اهميته نطاق عصرهم بكثير »[٤٧] .

وقد خرجوا بالفعل في العصور اللاحقة على آراء بطليموس في نقاط عديدة وانتقدوها، ولعل خير مثال على ذلك كتاب جابر بن الافلح الاشبيلي المعنون (اصلاح المجسطي) .

وتتمثل أهم انجازاتهم النظرية في هذا العلم في الجداول الفلكية (الازياج) العديدة التي وضعوها والتي امتاز عدد منها بدقة عظيمة . وكانت للازياج أهمية مزدوجة . ففضلا عن انها تعطينا اطوال وعروض المواضع الجغرافية موزعة على الاقاليم السبعة ، فانها تحدد لنا تحركات الكواكب والنجوم في مختلف أوقات اليوم والسنة[*] . ومن أشهر الازياج زيج الفزاري ، وزيج الخوارزمي ، وزيج البتاني ، والزيج المأموني الممتحن ، وزيج ابي معشر البلخي ، والزيج الحاكمي الكبير لابن يونس ، وزيج الزرقالي ، وزيج المراكشي ، والزيج الايلخاني للطوسي .

كذلك تعددت انجازاتهم النظرية في علم الفلك وشملت جوانب كثيرة . وقد لخصها أحد المراجع فيما يلي :[٤٨]

- استخرجوا بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار (خط الزوال) .
- اكتشفوا بعض أنواع الخلل في حركة القمر .
- حسبوا ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجدوه ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة .

---

(٤٧) كراتشكوفسكي ، ص ٢٢ .

(*) لقد عرف ابن خلدون في (مقدمته) « الزيج » على النحو التالي :

« . . ومن فروع علم الهيئة علم الازياج وهي صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته ، وما أدى اليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك ، يعرف به مواضع الكواكب في افلاكها لاي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها ، على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة . ولهذه الصناعة قوانين في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية واصول متقررة في معرفة الاوج والحضيض والميول واصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها في جداول مرتبة تسهيلا على المنعلمين وتسمى الازياج . . » (ص ٥٨٥) ,

(٤٨) راجع : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ـ لقدري حافظ طوقان ، القاهرة ١٩٥٤ (الطبعة الثانية) ص ٨٧ ـ ١٠٦ .

- دققوا في حساب طول السنة الشمسية واخطأوا في حسابهم بمقدار دقيقتين و ٢٢ ثانية فقط .

- دققوا في حساب اهليليجية فلك الشمس فقالوا ان بعد الشمس عن مركز الارض اذا كانت في بعدها الابعد يساوي ١١٤٦ مرة مثل نصف قطر الارض ، واذا كانت في بعدها الاقرب يساوي ١٠٧٠ مرة مثل نصف قطر الارض واذا كانت في متوسط بعدها يساوي ١١٠٨ مرة مثل نصف قطر الارض .

- حققوا في مواقع كثير من النجوم ، ووجدوا ان مواقع بعضها تغير عما كانت عليه في زمن بطليموس ، وعين البتاني النجوم الثابتة لسنة ٢٩٩ هجرية . واطلقوا على العديد منها اسماء عربية .

هذا فضلا عن انهم جعلوا علم الفلك استقرائيا ، ولم يقفوا عند حد النظريات ، كما انهم طهروه من ادران التنجيم .

ولم يطور الفلكيون العرب والمسلمون الجوانب النظرية في علم الفلك فحسب بل طوروا الجوانب العملية أيضاً . وتتمثل تلك الجوانب في انشاء المراصد وفي تحسين آلات الرصد . فلقد شجع الخلفاء المسلمون منذ عهد المأمون انشاء المراصد ، فتناثرت في انحاء العالم الاسلامي مراصد ضخمة كانت تقوم بارصاد دقيقة . ولم يكن الخلفاء وحدهم الذين ينفقون على تلك المراصد بل كان يتولى الانفاق عليها في بعض الاحيان الاغنياء والعلماء انفسهم . ولعل من أشهر المراصد المرصد الذي انشأه المأمون في الشماسية والذي عمل فيه عدد من الفلكيين العظام من أمثال سند بن علي وخالد المروزي ويحيى بن أبي منصور . كذلك أنشأ المأمون مرصداً آخر في دمشق أقيم على جبل قاسيون . وقد أثمرت الارصاد التي أجريت في هذين المرصدين وضع (الزيج المأموني الممتحن) وهو من أدق الازياج التي أخرجها الفلكيون المسلمون . وفي الفترة نفسها ابتنى أولاد موسى بن شاكر لهم مرصداً في باب الطاق في بغداد ذاعت شهرته بما حقق العاملون فيه من أرصاد دقيقة . وأقام شرف الدولة أيضاً مرصداً آخر في بغداد عام ٩٨٨ م . بحديقة قصره كان يعمل فيه العالمان الفلكيان الكوهي وابو الوفا . وقد أنشأ الفاطميون مرصداً فوق جبل المقطم عرف باسم (المرصد الحاكمي) ، وقد أجرى ابن يونس الكثير من أرصاده في هذا المرصد . ولعل من أشهر المراصد هما المرصدان اللذان انشئا في شرقي آسيا برعاية امراء المغول ، وهما مرصد مراغة ومرصد سمرقند . فأما مرصد مراغة فقد كان تحت اشراف فلكي شهير هو نصير الدين الطوسي الذي جمع

في مرصده كبار علماء الفلك في عهده من العراق والشام وتفليس ، كما زود المرصد بأفضل الآلات والمعدات الفلكية ، فضلاً عن مكتبة غنية يربو عدد كتبها على ٤٠٠ ألف كتاب . وأما مرصد سمرقند فقد ابتناه أولوغ بك وكان من الضخامة والاعداد بحيث اعتبر من عجائب الدنيا السبع ، وقد تم فيه اعداد (الزيج السلطاني الجديد) الذي عرف باسم (زيج اولوغ بيك) .

ولقد رافق انشاء المراصد تحسين آلات الرصد المعروفة والتي ورثت عن اليونانيين والهنود ، كما تم اختراع آلات جديدة . فمن الآلات التي أدخل عليها الفلكيون المسلمون التحسينات (الحلقة الاعتدالية) و (اللبنة) و (الاصطرلاب) و (الثلاثية) و (ذات الشعبتين) و (السداسية) وغيرها . ومن الآلات التي اضافها الفلكيون العرب والمسلمون (ذات السمت والارتفاع) و (الحلقة الاعتدالية) و (ذات الاوتار) و (المشبهة بالناطق) و (ذات الجيب) وغيرها[٤٩] . وربما كان أهم انجازاتهم في صناعة الآلات الفلكية هي التحسينات التي ادخلوها على الاصطرلاب ، وهي أهم آلات الرصد بحيث تنوعت أغراضه ودقت أرصاده[٥٠] » .

وهكذا يتضح بان انجازات العلماء العرب والمسلمين في علم الفلك واسعة ومتنوعة . لذلك تركوا أثراً بعيداً في تفكير الاوروبيين في العصور الوسيطة ، ونال البعض منهم شهرة لم ينلها العلماء المسلمون في الحقول العلمية الأخرى .

(٤٩) طوقان ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٥٠) راجع : الاصطرلاب ، طرق وأساليب رسمه وصنعته - للدكتور ابراهيم شوكت - مطبوعات المجمع العلمي العراقي - بغداد ١٩٧٠ .

ملحق

أعلام الجغرافية العربية

سنقدم في هذا الملحق فكرة مجملة عن أعلام الجغرافية العربية . وبطبيعة الحال فان الملحق المذكور لن يتضمن اسماء كل من كتب في الجغرافية العربية . فهناك العشرات من الاسماء الثانوية التي لم يكن لها دور بارز في تطوير الفكر الجغرافي العربي ولم تترك أثراً ذا قيمة تذكر . كذلك أهمل الملحق التحدث عن الاسماء المبكرة التي ظهرت في أفق الجغرافية العربية قبل اتصالها بالفكر الاجنبي والتي اعتبر أدبها جغرافياً من باب التجاوز من أمثال الكلبي والأصمعي والجاحظ . وأهمل الملحق أيضاً ذكر طلائع الرحالين العرب الذين أوفدوا بمهمات رسمية الى بعض البلدان الآسيوية والاوروبية ودوّن البعض منهم مشاهداته عن تلك البلدان فانتفع بها الجغرافيون اللاحقون ، من أمثال عرام بن الأصبغ السلمي وأبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي وابن وهب القرشي وأسامة بن منقذ وابن فضلان . كما أهمل الملحق أيضاً الرحالة الثانويين من أمثال العبدري والسبتي والتجاني والتشريسي والمراكشي والعياشي . وأغفل الملحق أيضاً ترجمة حياة جغرافيين ورحالة مسلمين مرموقين من أمثال بزرج بن شهريار صاحب كتاب (عجائب الهند) وناصري خسرو صاحب كتاب (سفرنامة) وحمدالله المستوفي القزويني صاحب كتاب (نزهة القلوب) وحافظ آبرو صاحب كتاب (زبدة التواريخ) وعبد الرزاق صاحب كتاب (مطلع السعدين ومجمع البحرين) وحاجي خليفة صاحب كتاب (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) ، بالرغم من أن مؤلفاتهم قد أضافت الى الجغرافية الاسلامية اضافات طيبة ، ذلك لانها كتبت باللغة الفارسية أو التركية فهذا الكتاب يبحث في الجغرافية العربية فقط ، أي التي كتبت باللغة العربية ، وان لم يكن جميع كتّابها عرباً . أما مؤلفو الموسوعات من أمثال النويري والعمري والقلقشندي فهم ليسوا جغرافيين أصلا . وهذا ما حدا بنا الى الاقتصار على ذكر الجغرافيين التالية اسماؤهم .

الخوارزمي

هو أبو عبد الله (وقيل ابو جعفر) محمد بن موسى الخوارزمي أصله من خوارزم ، وقد عاش في النصف الاول من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، وعمل أميناً لخزانة كتب بيت الحكمة . ولا يعرف عن حياته ومولده سوى القليل ، الا ان البحاثة يتفقون على كونه قد عمل ضمن مجموعة فلكيي المأمون ، وانه ربما شارك في رسم (الصورة المأمونية) وفي عملية قياس درجة من محيط الارض . وقد اشتهر في ميدان الجغرافيا بكتابه المعنون (صورة الارض) الذي يعتقد البعض انه نسخة مختصرة لكتاب (جغرافيا) لبطليموس ، بينما يعتقد البعض الآخر أنه كتاب أصيل وقد ألفه على غرار كتاب بطليموس . ومهما يكن الأمر فقد حظي الخوارزمي بتقدير فائق من لدن المستشرقين الاوروبيين ، واعتبره البعض واضع أسس علم الجغرافيا العربية . وقال المستشرق نللينو NALLINO عن كتابه المذكور أنه ما من أمة أوروبية كان في مقدورها أن تنتج مثله في أوج نشاطها العلمي في العصور الوسطى .

وللخوارزمي نشاط علمي في ميادين أخرى وأخصها الرياضيات التي اشتهر فيها كتابه المعنون (حساب الجبر والمقابلة) . وقد أصاب في هذا الميدان شهرة أعظم حتى لقد أطلق العلامة سارتون SARTON في كتابه (مقدمة لتاريخ العلم) اسم « عصر الخوارزمي » على النصف الاول من القرن التاسع الميلادي ، واعتبره أكبر رياضي عصره وواحداً من أكبر رياضيي جميع العصور على الاطلاق اذا ما أخذ بنظر الاعتبار اختلاف الظروف .

ومن المعتقد انه توفي فيما بين عام ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م و ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م ، وقيل ان عام وفاته كان ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م .

ابن خرداذبة

هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ، عاش في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وهو ينتمي الى أسرة فارسية ، وقد درس الأدب والموسيقى ، ثم عمل مديراً للبريد في اقليم الجبال ، ثم في بغداد وسامراء . وقد استفاد من مركزه الاداري في جمع المعلومات لكتابه المشهور (المسالك والممالك) . ويعتبر هذا الكتاب من المؤلفات المبكرة جداً للجغرافية العربية الوصفية ، وقد اقتبس منه الجغرافيون اللاحقون على نطاق واسع . وقد عني الكتاب عناية خاصة بوصف

طرق المواصلات بين الأقطار والمدن الاسلامية ، واشتمل على معلومات عن المدن وعن الانتاج الزراعي والخراج في الممالك الاسلامية ، كذلك اشتمل على بعض المعلومات الفلكية السطحية ، وشيء من الغرائب والطرف عن البلدان القصية كالصين وتركستان والهند . ولعل ابن خرداذبة أول جغرافي مسلم استخدم مصطلح (المسالك والممالك) الذي شاع استعماله فيما بعد بين مؤلفي الجغرافية الوصفية . وقد توفي في حوالى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

اليعقوبي

هو أبو العباس احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي والمكنى بالعباسي . وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وبالرغم من انه ولد في بغداد الا انه أمضى معظم حياته في مصر والمغرب في أيام حكم الطولونيين . وقد اشتهر برحلاته الواسعة في ارمينيا وخراسان والهند وفلسطين وتركستان ، فضلا عن المغرب ومصر والعراق . ولذلك فانه يعتبر طليعة الكتاب البلدانيين الذين اعتمدوا على خبرتهم ومشاهداتهم الشخصية في تسجيل المعلومات عن البلدان ، وقد حظي مؤلفه المعنون (كتاب البلدان) بشهرة واسعة في العالم الغربي حتى أن البعض وصف كاتبه بانه (ابو الجغرافية العربية). ويتميز كتابه بتفاصيل ممتازة عن المدن الرئيسية في العراق ولا سيما بغداد وسامراء والكوفة والبصرة ، كما يشتمل الكتاب على تفصيلات مسهبة عن طرق المواصلات في بلاد فارس ، ومعلومات تاريخية وطبوغرافية غزيرة عن المدن والمقاطعات والبلدان التي وصفها. وقد توفي في عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م .

ابن الفقيه

هو أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحاق بن الفقيه الملقب بالهمذاني . ولد في مدينة همذان ، وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، واشتهر في أيام المعتضد العباسي بكونه جغرافياً مرموقاً . وأما كتابه المعنون (مختصر كتاب البلدان) فلم يعثر الا على نسخة مختصرة منه قام باعدادها علي بن جعفر الشيرازي عام ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م. والكتاب يمثل خطوة الى الوراء في الجغرافية العلمية العربية ، فقد حفل بالخرافات والاساطير والمعلومات البعيدة عن المنهج الجغرافي العلمي . ولذلك فانه لا يحتل موضعاً مهماً في الأدب الجغرافي العربي ، وان لم يخل من

معلومات مفيدة عن بعض أقطار العالم الاسلامي . ويعتقد بعض المستشرقين ان الكتاب ذو أهمية خاصة ، اذ انه يقدم لنا لوحة معبرة للنزعات والاتجاهات الادبية للمجتمع العربي المثقف في نهاية القرن الثالث الهجري . ولعل أهم أجزاء الكتاب هي التي تتناول بالوصف الارض والبحار والانهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر والمغرب وبلاد البربر والشام وفلسطين والعراق وبلاد الروم . وقد أفاض المؤلف أيضاً في وصف البصرة والكوفة . وقد توفي في حوالى عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م.

ابن رسته

هو أبو علي أحمد بن محمد بن اسحق المعروف بابن رسته ، وهو فارسي الأصل ، وقد عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي وأوائل القرن العاشر الميلادي) وأمضى شطراً كبيراً من حياته في مدينة أصفهان . وقد اشتهر بموسوعته المعنونة (الاعلاق النفيسة) والتي يبدو انه كتبها في حدود ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، ولم يصل الى أيدينا سوى الجزء السابع منها وهو الجزء المتعلق بالجغرافيا . وبالرغم مما في هذا الجزء من خلط في معلوماته الفلكية وأساطير في معلوماته الكوزموغرافية الا أنه ظل يعتبر مرجعاً هاماً للكثيرين من الجغرافيين الذين أتوا بعده ، ولا سيما الجغرافيين المتأخرين منهم ، وقد أكثروا من الاقتباس منه وخاصة في معلوماته المتعلقة بالامبراطورية البيزنطية والهند الشرقية وجهات تركستان وأواسط آسيا وبلاد البلغار . وقد تصدرت الكتاب مقدمة وافية جداً في الجغرافيا الرياضية والفلكية ، كما الحق بالكتاب قسم مخصص لعجائب العالم من حيوان ونبات وآثار ومبان . كذلك اشتمل الكتاب على وصف للبحار والانهار المشهورة والاقاليم السبعة بمدنها الرئيسة ، فضلا عن وصف مفصل لمدن ايران والعراق والحجاز ومصر . وقد توفي في حوالي عام ٣١٠ هـ / ٩٢٣ م.

سهراب

يحوط الغموض بهذا الكاتب الذي دعي بـ (أفقر الورى سهراب) والذي سماه البعض بـ (ابن سرابيون) . ويبدو انه عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري (التاسع الميلادي أو أوائل القرن العاشر) . ويعتقد بعض البحاثة أنه مصري قبطي وأنه قد ألف كتابه المعنون (عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة) في حدود عام ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، ومنهم من يعتقد انه ربما كتبه في حدود عام

٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م. وقد اهتم الكتاب بالجانب العملي من الجغرافيا ، أي ما يتعلق برسم خارطة للارض ، وضمّ بين دفتيه معلومات عملية بهذا الصدد وفقا للاقاليم السبعة كما وردت لدى بطليموس والخوارزمي . كذلك اشتمل الكتاب على معلومات واسعة عن المدن والجبال والانهار والبحار والبحيرات المشهورة حسب مواقعها من الاقاليم السبعة ، واهتم اهتماماً خاصاً بأنهار العراق وبشبكة قنوات الري فيه مما يعتبر سجلا ممتازاً لنظام الري العراقي في ذلك العصر .

قدامة بن جعفر

هو أبو الفرج قدامة بن جعفر ، وهو من اسرة آرامية كانت مقربة للخلفاء العباسيين . عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وتقلد مناصب هامة في الدولة حيث عمل محاسباً في ديوان الخراج بمدينة بغداد ، كما شغل أيضاً منصب صاحب البريد . وقد هيأت له وظائفه الادارية ان يجمع معلومات وفيرة عن مدن الأقطار الاسلامية وطرق مواصلاتها وانتاجها الزراعي وخراجها مما يسر له تأليف كتابه المعروف (كتاب الخراج وصنعة الكتابة) . ولم يصل الينا من هذا الكتاب سوى أربعة أقسام (من مجموع ثمانية أقسام) وهي تمثل الجزء الثاني منه ، وقد نشر الجزء المتعلق بالخراج . ويشتمل الكتاب على معلومات متنوعة ذات جانب رياضي وفلكي ، مع اهتمام بوصف الجبال والانهار المشهورة ضمن الاقاليم السبعة . ولكن الاهتمام الرئيسي للكتاب انصب على وصف طرق البريد ضمن العالم الاسلامي مع ايراد معلومات هامة عن تقسيم الأراضي وجباية الخراج في الممالك الاسلامية .

ويختلف البحاثة في تاريخ وفاة قدامة الا ان من المعتقد انها تقع فيما بين ٣١٠ هـ /٩٢٢ م. و ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م .

الجيهاني

هو أبو عبد الله محمد بن احمد بن نصر الجيهاني ، وينتسب الى بلدة جيهان في خراسان ، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وشغل الوزارة في بلاط الساسانيين في عهد الامير اسماعيل وابنه احمد . وبالرغم من تردد اسم الجيهاني في مؤلفات الجغرافيين المسلمين والاقتباس منه على نطاق واسع فاننا لم نظفر بمؤلفه حتى الآن . ويذكر المؤلفون القدامى ان كتاب الجيهاني كان بعنوان (المسالك في معرفة الممالك) أو (المسالك والممالك) ، وقد تعرض فيه لوصف الهند

واهتم اهتماماً خاصاً باقليم السند ، كما أورد أيضاً معلومات واسعة عن جهات أواسط آسيا . وقد أشار المسعودي الى الجيهاني بقوله : « انه ألف كتاباً في صفة العالم واخباره وما فيه من العجائب والمدن والأمصار والبحار والأنهار والأمم ومساكنهم وغير ذلك من الاخبار العجيبة والقصص الطريفة » . غير أن بعض الكتاب القدامى ، ولا سيما المقدسي ، اتهمه بانه اقتبس كتابه عن ابن خرداذبة . ومن النشاطات الهامة للجيهاني أيضاً الخرائط العديدة التي قام برسمها للاقاليم الاسلامية ، ولا سيما خارطته للارض بمجموعها .

البتّاني

هو أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابي المعروف بالبتاني ، ويسمى أيضاً بالرقّي نسبة الى مدينة الرقة . وقد ولد في عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م. في حران أو ربما في الرقة ، وأمضى معظم حياته فيها . واكب على دراسة علم الفلك حتى برز فيه ، وكان يقوم بارصاده الخاصة بالاجرام السماوية بمرصد الرقة . وقد اختص بدراسة مؤلفات بطليموس وشرحها ، ثم عمد فيما بعد الى تصحيح اخطائها ، لذلك لقب بطليموس العرب .

وقد اشتهر البتاني بكتابه المعنون (الزيج الصابي) وهو الوحيد من مؤلفاته الذي وصل الينا وقد ضمنه نتائج أرصاد الكواكب الثابتة، وحدد فيه ميل دائرة الكسوف (فلك البروج) بدقة كبيرة ، وطول السنة ، والفصول ، ومدار الشمس . كذلك حقق كثيراً من مواقع النجوم ، وبحث في حركات القمر والكواكب السيارة ، وصحح بعض المعلومات عنها ، كما صحح العديد من الأخطاء البطليموسية . ومن المعلومات الهامة في هذا الكتاب ما يتعلق بوصف البحار ، فقد اعتبر البتاني المحيط الهندي بحراً مفتوحاً خلافاً لرأي بطليموس . وكان للبتاني أثر كبير في تقدم موضوع حساب المثلثات الكّرى في أوروبا في العصور الوسطى . وقد توفي في مدينة سامراء في عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م.

البلخي

هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي . ولد في احدى قرى بلخ في خراسان في حوالى عام ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م. وأمضى الصدر الاول من حياته في التعليم ، ثم رحل الى بغداد وتتلمذ على يد الفيلسوف الكندي . ثم عاد الى مسقط رأسه ولازمها حتى وفاته ، حيث عمل في خدمة أميرها الساماني . وقد انصرف البلخي الى دراسه الفلك

والفلسفة ، وفي آخر حياته وضع كتابه المشهور المسمى (صور الاقاليم) والذي ربما كتبه في حدود ٩٢١ م . وهناك الكثير من الغموض حول هذا الكتاب ، فهو يرد تارة بالعنوان المذكور ، وأخرى بعنوان (أشكال البلاد) ، وثالثة باسم (تقويم البلدان) . وترجع أهميته الى كونه رائداً لكتب البلدانيين التي اعتمدت الخارطة أساساً للدراسة الاقليمية ، فضلا عن استقلاله عن النفوذ البطليموسي في الكتابة الجغرافية . وقد وصف الكتاب المذكور بانه عبارة عن شرح كارتوغرافي أكثر من كونه وصفاً جغرافياً للعالم الاسلامي . وتعتبر خرائطه طليعة للخرائط الكلاسيكية العربية التي أطلق عليها ميلر MULLER اسم (أطلس الاسلام) ، ولعل من أتى بعده من الكتّاب كالاصطخري وابن حوقل كان مقلداً له . وقد توفي في سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م .

الاصطخري

هو أبو القاسم (وقيل أبو اسحاق) ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري . وقد عاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في مدينة اصطخر (برسبوليس) بايران . ولا يعرف من تفصيلات حياته سوى الشيء القليل ، غير أن من المعتقد انه قد ساح في أقطار العالم الاسلامي على نطاق واسع ، فزار أكثر بلدان آسيا حتى بلغ سواحل المحيط الهندي . وقد أفادته رحلاته في تأليف كتابه المعنون (المسالك والممالك) ، والذي يرد في بعض المخطوطات بعنوان (صور الاقاليم) . ويبدو أنه انتفع أيضاً من معلومات البلخي بدرجة غير قليلة . ويكتسب كتابه هذا أهمية بالغة ، اذ يعتبر رائداً للكتب الاقليمية التي أُلفت بعده في منهجه ومعلوماته وتبويبه . وقد اعتبر الخارطة أساساً للبحث ، فقسّم بلاد الاسلام الى عشرين اقليماً ورسم خارطة لكل من هذه الأقاليم جعلها في مطلع الحديث عنه . وقد أورد عن كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ، كما روى تفاصيل عن الحاصلات الزراعية والتجارة والصناعة والاجناس ، هذا فضلا عن بعض المعلومات التاريخية . ولم يستطع الباحثون تحديد تاريخ وفاة الاصطخري .

ابن حوقل

هو أبو القاسم محمد بن العلي الموصلي المشهور بابن حوقل . ولد في بغداد وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . وقد اشتهر برحلاته الواسعة في العالم الاسلامي حيث دامت رحلاته ما يقرب من ثلاثين عاماً .

وقد طاف في انحاء مصر والشام والعراق والبحرين والاحساء وايران واذربيجان وارمينيا ، كما تجول في بعض جهات آسيا الوسطى والجنوبية الشرقية حيث بلغ اقليم السند ، كذلك دخل بلاد البلغار ووصل الى أواسط نهر الفولغا ، كما تجول في ربوع بلدان المغرب العربي والاندلس وجهات غربي افريقيا حتى مملكة غانة ، كذلك زار نابولي وصقلية . ولذلك فقد حفل كتابه بالمعلومات القيمة عن بلدان الاسلام التي قصر كتاباته عنها . وكان هدفه الاول من هذه الجولات الواسعة الاشتغال بالتجارة ، الا انه استفاد في الوقت نفسه فائدة علمية عظمى انعكست في كتابه (صورة الارض) . وقد ذكر بانه التقى بالجغرافي الاصطخري في جرجان فطلب منه أن يعيد النظر في كتابه وخرائطه فقبل بذلك . الا أنه غيّر رأيه فيما بعد كما يبدو وتولى تأليف كتابه المعروف (صورة الارض) الذي يعتقد انه كتبه في حدود ٩٦٧ م . أو ٩٧٧ م . لذلك يتهمه بعض البحاثة انه استمد الكثير من معلوماته وخرائطه من كتاب الاصطخري، لا سيما وان هناك تشابها واضحا بين بعض اجزاء ونصوص الكتابين كالاجزاء المتعلقة بجزيرة العرب والخليج العربي وخوزستان وفارس وكرمان وحوض نهر السند والديلم وبحر الخزر. ومهما يكن الأمر فان كتابه يعتبر من أبرز وأهم الكتب الجغرافية العربية المبكرة التي تمثل ركناً هاماً من أركان الجغرافية العربية . وقد تميّز الكتاب بمنهجه القويم الذي يعتبر الخارطة جزءاً لا يتجزأ من النص . ولم يستطع الباحثون تحديد تاريخ وفاته .

المسعودي

هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله الشهير بالمسعودي حيث ينتسب الى الصحابي ابن مسعود . ولد في بغداد ونشأ فيها وعاش في النصف الاول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . ويعتبر المسعودي طليعة الرحالة العلميين الذين استفادوا من تجاربهم ومشاهداتهم في إغناء الجغرافية العربية . فلقد تجول في جهات واسعة من العالم القديم ، ودامت جولاته ما يقرب من ربع قرن . وقد بدأ رحلاته في عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م. فزار بلاد فارس وكرمان ، ثم رحل الى الهند فزار السند والبنجاب وكنكان ومليبار وسنيمور ، ووصل الى سرنديب ، ثم رافق جماعة من التجار الى بحار الصين وربما زار الهند الصينية أيضاً . ثم عاد بطريق المحيط الهندي الى افريقيا فزار ساحلها الشرقي وزنجبار ومدغشقر وتجول في السودان الشرقي ثم عاد الى بغداد عن طريق عمان . وفي عام ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م . عاود اسفاره فتنقل بين الشواطىء الجنوبية لبحر قزوين وزار آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين وأقام في

انطاكية ردحاً من الزمن . ثم زار أرمينية وممالك الروم وعاد الى مصر وأقام فيها حتى وافته المنية . وكان المسعودي خلال رحلاته هذه يقظاً متنبهاً ، فسجل الكثير مما شاهد وسمع . ولذلك جاءت كتبه العديدة دائرة معارف عظمى ، لا سيما وانه كان كثير القراءة والاطلاع . ومن المؤسف انه لم يكن يعنى عناية كبيرة بغربلة معلوماته ،ولذلك اشتملت مؤلفاته على الكثير من المعلومات السطحية ذات الطابع الخرافي ، كما ضمت كثيراً من الحشو والحكايات الساذجة . ولهذا اختلف البحاثة الغربيون في تقديره ، فمنهم من اعتبره أكثر الجغرافيين اصالة في القرن العاشر الميلادي ، بل ولقبه بيهرودتس العرب ، ومنهم من اعتبره يمثل بمعلوماته وأسلوبه نموذجاً للمراسلين الصحفيين المعاصرين . أما كراتشكوفسكي فقد قال عنه أنه يقف رغم كل شيء على قمة المعارف الجغرافية لعصره . والواقع ان مؤلفات المسعودي لا تتميز بمعلوماتها الوافية عن بلدان عديدة من أقطار العالم القديم وعن شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم واقتصادهم فحسب، بل تضم بين دفتيها أيضاً معلومات جمة نقلت عن المراجع السابقة العربية والاجنبية . هذا فضلا عن ان المسعودي تميز بموضوعية عالية في الحكم على الامور التي تتعلق بالشعوب والاديان من دون ان يكون لعاطفته الدينية أو القومية ردود فعل متحيزة .

كذلك تميز المسعودي بغزارة عظيمة في التأليف ؛ ومن أشهر مؤلفاته (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذي يربو على عشرين جزءاً ضخماً والذي فرغ من تأليفه في عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م. وقد ضم معلومات متنوعة بدءاً بتاريخ الارض والخليقة حتى العصور الاسلامية المعاصرة له . واشتمل هذا المؤلف في جزئه الاول على معلومات جغرافية قيمة ولا سيما عن البحار والمحيطات وما تحتويه من اسماك وحيوانات وجزر . ويعتبر كتابه الثاني (التنبيه والاشراف) الذي ألفه في حوالى عام ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م ، وجيزاً وتهذيباً لعمله العلمي ، وقد تناول فيه دراسة الافلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والرياح ومهباتها والارض وشكلها وحجمها وعامرها وغامرها . أما كتابه الثالث المعنون بـ (أخبار الزمان) فلم يصل الينا ويقال انه يشتمل على ثلاثين جزءاً . وقد توفي المسعودي في مصر عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م .

المقدسي

هو شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن أبي بكر المعروف بالبناء وبالشامي وبالمقدسي أو المقدّسي . ولد في بيت المقدس في حوالى عام ٣٣٥ هـ / ٩٤٦ م. ويعتبر

المقدسي أحد الرواد العظام في الجغرافية العربية ، وقد كتبها على النهج الصحيح في الاعتماد على الخبرة والمشاهدة الشخصية والسماع ، وفي الاهتمام بالخارطة ضمن المتن ، وفي الاعتماد على المراجع الموثوقة . وقد أمضى سنوات طويلة من عمره يتجول في انحاء العالم الاسلامي ويجمع المعلومات لكتابه عن طريق المشاهدة والاستقصاء ، حيث زار العراق ومصر وجزيرة العرب وبلاد فارس وأقطار المغرب العربي ، الا انه لم يدخل الاندلس ولا الهند . ولذلك جاء كتابه المعروف (أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) ، والذي كتبه في سن الاربعين في حدود عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، مثالاً يحتذى في الكتابة الجغرافية المتقنة . ففضلاً عن منهجه العلمي الصحيح ، فقد كشف فيه المقدسي عن ملكة قوية في دراسة نصوص الجغرافيين السابقين ونقدها وتحليلها والافادة منها . ولذلك أجمع المستشرقون على الاعجاب بهذا الكتاب ، فاعتبر اشبرنجر SPRENGER مؤلفه أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة ، كما اعتبره كرامرز KRAMERS أكثر الجغرافيين العرب أصالة ، بينما اعتبر آدم متز Adam Metz كتابه ذروة ما وصلته كتب الجغرافية العربية من تقدم في وصف البلدان . وقد اقتصرت دراسات الكتاب على أقطار العالم الاسلامي فقط ، وشملت جميع الحقول الجغرافية من طبيعي وبشري واقتصادي ، غير أنها تضمنت تركيزاً واضحاً على الجوانب الاقتصادية والبشرية . ومن المعتقد أن المقدسي قد توفي في عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م ، وفي مراجع أخرى في حوالى ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م .

الهمداني

هو أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف الهمداني اليماني الملقب بابن الحائك . ولد بصنعاء وعاش في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي والنصف الاول من القرن العاشر الميلادي) . وقد اشتهر بكتابه المعنون (صفة جزيرة العرب) الذي يعتبره اشبرنجر ، الى جانب كتاب المقدسي ، أعظم ما انتجه العرب في الجغرافيا . ويشتمل كتابه هذا على وصف للمظاهر الطبيعية لجزيرة العرب ولاجناسها وقبائلها وحاصلاتها الحيوانية والمعدنية وطرقها ومواطن الاستقرار فيها . وقد اعتمد الهمداني في وصفه لليمن على الملاحظة الشخصية مع الافادة من المعلومات السابقة ، غير انه استمد معلوماته في وصف بقية اجزاء الجزيرة العربية من الرحالة والحجاج ومن مادة الجغرافيين اللغويين المتخصصين في جزيرة العرب . وهو يكشف عن معرفة واسعة بالآثار والنقوش القديمة في الجزيرة .

وقد توفي في سجن صنعاء عام ٣٣٤ هـ / ٩٣٥ م .

المهلبي

هو أبو محمد الحسن بن محمد بن هارون الذي ينتهي نسبه الى المهلب بن ابي صفرة . عاش في مصر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) . اشتهر بكتابه المعنون (المسالك والممالك) ، والذي يعرف أحياناً بـ (الكتاب العزيزي) ، وقد ألفه للخليفة الفاطمي العزيز عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م . الذي تولى الوزارة في عهده . وكان المهلبي قد قام برحلة طويلة في بلاد السودان مما هيّأ له الكلام بتوسع على طرق المواصلات في افريقيا وفي السودان خاصة . وقد امتاز الكتاب بكونه أول كتاب يعنى بوصف اقليم السودان وصفاً دقيقاً في شتى النواحي الطوبوغرافية والاجتماعية والاقتصادية مما جعله من المؤلفات الرائدة في بابه ، وكان مصدراً أساسياً لياقوت الحموي فيما كتبه عن السودان . وقد تحدث عن جزيرة العرب والعراق أيضاً . ولم يصل الكتاب الى أيدينا ، غير انه اشتهر بما نقل عنه ياقوت الحموي وأبو الفدا وحافظ أبرو من معلومات وافية .

اخوان الصفا

وهم جماعة من المفكرين المختصين في الدين والفلسفة كانوا يجتمعون في البصرة (في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي) ، وقد اتخذوا لأنفسهم اسم (اخوان الصفا وخلان الوفاء) اشارة الى احدى حكايات كلية ودمنة ، وقاموا بوضع احدى وخمسين رسالة في مختلف حقول المعرفة من دون الاشارة الى اسماء المؤلفين ، وكان الغرض منها تقديم أساس عقلي للعقيدة الدينية . وقد تضمنت تلك الرسائل اشارات متعددة الى المفاهيم والآراء الجغرافية السائدة، وتكشف آراؤهم الجغرافية عن تأثر شديد بالمفاهيم اليونانية والرومانية، ولا سيما بآراء أرسطو وبطليموس . وقد عنوا عناية خاصة بالجغرافية الطبيعية وقدموا شروحاً على جانب كبير من الاهمية لبعض الظواهر الطبيعية والمترولوجية كالخسوف والكسوف والرياح والامطار والبحار والزلازل والبراكين والحركات الجيولوجية . غير ان تلك الشروح والآراء لا تنطوي على أية أصالة ، بل هي مجرد نقل مباشر للفكر اليوناني الروماني .

البكري

هو أبو عبيد الله بن ابي مصعب عبد العزيز بن محمد البكري الاندلسي . ولد في

مدينة قرطبة عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م . وترعرع فيها ، وحينما شب أصبح موظفاً كبيراً ودبلوماسياً . وقد اشتهر بكتابه (المسالك والممالك) و (معجم ما استعجم) . وبالرغم من أنه لم يقم بجولات في العالم الاسلامي ، الا أن كتابه الجغرافي الاول قد أكسبه مركزاً مرموقاً في الفكر الجغرافي العربي ، حتى لقد اعتبره دوزي Dozy أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة . ويقع الكتاب في عدة أجزاء لم يصل الينا منها سوى قطع تتناول أخبار شمال افريقيا والاندلس ووصف لمصر واشارات عن العراق وما وراء النهر . ويتصف اسلوبه عموماً بالجفاف ودقة التفاصيل ، ولا سيما ما يتعلق بوصف الطرق والمراحل . وقد توفي في عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م .

البيروني

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، ولد في احدى ضواحي خوارزم (خيوه الحالية) عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م ، وقد اشتهر في أوروبا الوسيطة باسم أليبورون ALIBORON . ويعتقد بعض الباحثين ان البيروني فارسي الأصل ، الا أن الراجح لدى الدارسين انه ينتمي الى تركستان وهو المكان الذي ولد فيه ، هذا فضلا عن أن لغته الاصلية هي اللغة الخوارزمية .

عاش البيروني حياة مضطربة تنقل خلالها بين جهات مختلفة من آسيا الوسطى في تركستان وافغانستان وايران والهند . غير أن تلك التنقلات لم تعقه عن القيام بنشاط علمي واسع النطاق . فقد تجاوزت مؤلفاته العشرات ، وشملت ميادين علمية متنوعة . وبالرغم من ان اسمه يتصدر اسماء الجغرافيين المسلمين ، الا أن مؤلفاته الهامة في الحقيقة كانت في العلوم الرياضية والفيزياء والفلك . وكانت اضافاته الرياضية والفلكية من الأهمية بحيث جعلت العلامة سارتون SARTON يطلق على العصر الذي عاش فيه اسم (عصر البيروني) .

أما كتابه الجغرافي الهام فهو المعنون بـ (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) والذي اشتهر باسم (كتاب الهند) . وقد لقي هذا الكتاب تقديراً عالياً من لدن المختصين ، فقد قال عنه المستشرق روزن ROSEN مثلا انه أثر في بابه لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط سواء في الغرب أم في الشرق . ولقد ألف البيروني كتابه هذا بعد اقامة طويلة في الهند حيث صاحب السلطان محمود الغزنوي ، فتعلم السنسكريتية وقرأ المؤلفات الهندية وتجول في ارجاء الهند وخرج بثروة

عظيمة من المشاهدات والملاحظات الشخصية . وقد أودع فيه نتيجة دراساته في تاريخ واخلاق وعادات وعقائد وآداب وعلوم الهند ، اضافة الى ابحاثه في الجغرافية الطبيعية للهند حيث اشتملت تفصيلاته عنها على دراسة بنيتها الطبيعية وسهولها وجبالها ومناخها ومواصلاتها وتجارتها وزراعاتها وثرواتها الحيوانية الى آخر ما يتصل بها .

وقد عالج البيروني المواضيع الجغرافية والفلكية الاخرى في كتابين هامين آخرين هما « الآثار الباقية من القرون الخالية » و« القانون المسعودي » . واشتهرت على نحو الخصوص آراؤه في توزيع البحار واحاطتها بالارض ، واعتقاده بأن المحيط الهندي يتصل بالمحيط الاطلسي في جنوبي القارة الافريقية . كما اشتهر بمعلوماته الوافية عن أوروبا الشمالية وعن آسيا الشمالية والشرقية . كذلك اشتهرت آراؤه الفلكية ومحاولاته في قياس محيط الارض ورأيه في حركاتها . وقد توفي في غزنة عام ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م .

أبو حامد الغرناطي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي الاندلسي . ولد في غرناطة سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م. وترعرع فيها ، غير انه غادرها في صدر شبابه ، وظل يضرب في ربوع العالم القديم لسنوات طويلة . وهو يكاد يشبه في رغبته بالاسفار واتساع نطاق رحلاته الرحالة ابن بطوطة . وهو من بين القلائل الذين زاروا اقطارا اوروبية متعددة وعاش فيها ردحاً من الزمن (لا سيما في المجر) . فلقد غادر الاندلس عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م. وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وطاف بنواحي المغرب الاقصى ووصل الى سجلماسة . ثم انتقل الى تونس ثم غادرها بطريق البحر الى الاسكندرية ونزل بسردينية . ومن الاسكندرية انتقل الى القاهرة . وفي عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م. زار بغداد ومكث فيها أربعة أعوام . ثم سافر الى ايران ، وعبر بحر قزوين حيث وصل الى مصب نهر الفولجا . وفي هذه الفترة قام بثلاث رحلات الى خوارزم . ثم سافر الى هنغاريا (المجر) عام ٥٤٥ هـ / ١١٦٠ م. وأمضى فيها زمناً . وأقام في الأعوام الأخيرة من حياته في بغداد والموصل ودمشق . وقد دون أخبار رحلاته في كتابين هما (تحفة الألباب ونخبة الأعجاب) و (المعرب عن بعض عجائب المغرب) . ويشتهر الغرناطي في كونه رائد الأدب العجائبي في الجغرافية العربية ، اذ أن مؤلفاته كانت مزيجاً من العلم والخرافة ، فقد تحدث عن العادات الاجتماعية والاحوال الاقتصادية للبلدان التي زارها ، الا انه أكد على العجائب والغرائب بدرجة

تنقل كتاباته في بعض الأحيان من محيط العلم الى دائرة الخرافة . واصبحت كتاباته مدرسة لها مقلدوها وهي المدرسة العجائبية كما انعكست في كتابات القزويني وابن الوردي والدمشقي وغيرهم . وقد توفي في دمشق عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م .

الادريسي

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس بن يحيي المشهور بالادريسي ، وتنتسب اسرته الى الشرفاء الادارسة . ولد في مدينة سبتة في المغرب الاقصى في عام ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م . وأمضى طفولته في المغرب ، ثم انتقل في صباه الى قرطبة وتلقى العلم في جامعتها ودرس هناك العلوم والرياضيات واهتم بدراسة التاريخ والجغرافية . وبدأ الادريسي اسفاره في سن مبكرة فقد طاف في الاندلس ، وسواحل اوروبا الغربية بما فيها سواحل بريطانيا وفرنسا وشبه جزيرة ايبريا ، كما تجول ببلدان شمالي افريقيا . وكان قد زار مصر وآسيا الصغرى من قبل أيضاً . ويعتبر الادريسي أول جغرافي عربي تنقل على نطاق واسع في القارة الاوروبية . وقد استدعاه الملك النورماندي روجر الثاني (الملك رجار) ملك صقلية ، فاستجاب لدعوته وأقام في صقلية ، وانصرف الى تأليف كتاب جغرافي بناء على طلب روجر يصف فيه مملكته وسائر اصقاع العالم ويضع خارطة لاقطار الارض . وقد انجز فيما بعد كتابه المعروف (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أو ما سمي بـ (كتاب رجار) أو (الكتاب الرجاري) . كذلك انجز أيضاً صنع كرة من الفضة رسم عليها خارطة ، وقد بلغ وزن الكرة ٤٠ رطلاً من الفضة . وألحق كتابه المشار اليه بخرائط للاقطار بلغ عددها سبعين خارطة . وقد ألف فيما بعد أيضاً كتاب (روض الانس ونزهة النفس) الذي عرف أيضاً باسم (كتاب المسالك والممالك) الا انه لم ينل من الشهرة ما ناله الكتاب السابق .

ويعتبر الادريسي أشهر جغرافي عربي عرفته أوروبا ، وظل كتابه وخرائطه معتمدة في الدراسات الجغرافية في الجامعات الاوروبية لفترة غير قصيرة . وقد لقبه بعض المستشرقين بـ (استرابون العرب) ، كما قال البارون دو سلان DE SLANE عن كتابه بانه لا يوازن به أي كتاب جغرافي سابق له . وقد تميز الكتاب عن غيره من الكتب الجغرافية العربية بمنهجه العلمي الدقيق ، حيث اعتمد الادريسي في كتابته على مشاهداته الشخصية وقراءاته في المراجع السابقة العربية منها واليونانية ، كما اعتمد أيضاً على ما أمده به من معلومات الرواد الذين بعث بهم الملك روجر الى انحاء اوروبا

والتجار والحجاج المسافرين في السفن التي كانت ترسو في موانىء صقلية . واتبع في كتابه المذكور المنهج البطليموسي في تقسيم الارض المعمورة الى الاقاليم السبعة . وتحدث عن بلدان كل اقليم على حدة مع رسم خارطة لها . وقد انفرد الكتاب عن غيره من المؤلفات الجغرافية العربية السابقة بمعلوماته عن منابع نهر النيل وعن السودان الغربي وعن نهر النيجر ، كما انفرد ايضا بغزارة معلوماته عن القارة الاوروبية . وقد توفي الادريسي في مدينة سبتة عام ٥٦٠ هـ / ١١٦٦ م .

الزهري

هو أبو عبد الله محمد بن ابي بكر الزهري ، ولد في احدى مدن الاندلس ولعلها مدينة المرية ، وعاش في غرناطة في النصف الاول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ، ويبدو انه قام بجولات واسعة في الاندلس كما تكشف عن ذلك كتاباته ، غير ان اهتماماته انصبت على شرح (الخارطة المأمونية) .

وقد اشتهر بكتابه المعنون (كتاب الجغرافيا) ، ويبدو انه فهم الجغرافيا حسب منهج الجغرافيين الاوائل امثال الخوارزمي وانه مال في معلوماته الى المنهج العجائبي . وقد أوضح الزهري في مؤلفه انه قد اقتبس من الجغرافيين الاوائل المسلمين واليونانيين من أمثال أرسطو والفزاري والمسعودي والرازي والعذري وغيرهم . ومن المعتقد انه توفي في أواسط القرن السادس الهجري (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) .

ياقوت الحموي

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملك الحموي . ولد في بلاد الروم (الاناضول) في عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م. وقد أسر وهو صبي صغير وبيع لتاجر حموي كان يقطن بغداد ، ونسب اليه فصار يلقب بالحموي ، كذلك تسمى بـ (ياقوت) وهي من اسماء الارقاء . وقد تعهده سيده الجديد فادخله مدرسة يتعلم فيها الكتابة ، وأتيح له بذلك ان يدرس الادب . غير انه انتفع في الواقع من سفراته الواسعة التي كان يقوم فيها لحساب سيده . فقد زار في بداية نشاطاته التجارية اطراف الخليج العربي وعمان والشام وقسطنطينية . وفي أثناء احدى تلك الرحلات علم بموت سيده الذي كان قد اعتقه وأوصى له بنصيب من تركته ، فقفل راجعاً الى بغداد واحترف مهنة استنساخ الكتب والاتجار بها مما افاده كثيراً في نشاطه العلمي . ثم لم يلبث ان واصل

مرة اخرى تجواله ابتداء من عام ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م. والذي استغرق مايقرب من ستة عشر عاماً . وقد بدأه ماراً بتبريز والموصل في طريقه الى الشام ومصر أولا ، وبعد ثلاثة اعوام عاد الى دمشق ، ثم غادرها الى حلب فأربل ثم أورمية فتبريز ومنها الى ايران الشرقية . وامضى عامين في نيسابور ، ثم غادرها الى هراة وسرخس الى ان بلغ مرو . وقد أمضى في مرو مدة عامين يغترف من مناهل مكتباتها الشهيرة ،وفيها نبتت في رأسه فكرة تأليف معجمه الجغرافي . ولما سمع بتقدم جحافل المغول هرب عائداً الى الموصل ومر في طريقه بالري وقزوين وتبريز . وقد استدعاه اليه فيما بعد وزير صاحب حلب ابن القفطي ، حيث أتم هناك كتابه المعنون (معجم البلدان) في عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م. ولقد سجل في معجمه بترتيب أبجدي وصفا لكل ما استطاع جمعه من اسماء المدن والمواضع المختلفة ، اضافة الى وصف مفصل للممالك الاسلامية من الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند كما كانت عليه في القرن الثالث عشر الميلادي . وتقوم طريقته على مناقشة اسم الموضع لغوياً ثم يسوق التفاصيل عنه كدرجة عرضه وطوله والمؤثرات التنجيمية التي تهيمن على مقدرات الناس فيه ، كما يذكر عند الكلام عن منطقة واسعة خصائص طبيعتها ومواردها الطبيعية وعمرانها بالناس وأهم الاحداث التي شهدها المكان . وقد وصف ياقوت معجمه في بداية مقدمته بقوله : « كتاب في اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار والغدران والاصنام والابدان والاوثان » . ويقع المعجم في ثلاثة آلاف وثمانمائة واربع وتسعين صفحة .

وقد تميز ياقوت بملكة نقدية عالية اذ لم يكن يورد الاخبار والمعلومات على علاتها من دون تمحيص ، كما تميز معجمه بالاشارة الى مراجع كثيرة وعدد كبير من الجغرافيين الذين لم يتيسر لنا حتى الان العثور على مؤلفاتهم . ولياقوت مؤلفات اخرى ذات صفة ادبية . وقد توفي في حلب عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م .

ابن جبير

هو أبو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني البلنسي . ولد عام ٥٤٠ هـ / ١١٣٥ م. في مدينة بلنسية ، ودرس الحديث والفقه والشعر والادب . واستوطن مدينة غرناطة وعمل كاتباً لحاكمها . وقد نبتت في رأسه فكرة تدوين مشاهداته منذ أن شرع بالتوجه الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج للمرة الاولى كفارة عن كؤوس خمر اضطر الى احتسائها بأمر من حاكم غرناطة . وقد بدأ رحلته في شباط

/ فبراير عام ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م . وسجل اثناءها خط سير رحلته تسجيلا أمينا واضحا . فقد مر بسبتة وسار بمحاذاة سواحل سردينيا وصقلية حتى دخل ميناء الاسكندرية ، ومنها ركب النيل الى القاهرة ، ثم غادرها الى صعيد مصر فوصل الى مرفأ عيذاب ، ومنه نزل الى جدة ، ثم صحب قافلة الى مكة حيث أقام فيها حوالى عام ونصف ، ثم مر بالمدينة في طريق عودته الى الكوفة ، وزار الحلة وبغداد وسامراء فالموصل فحلب ومنها الى دمشق التي أمضى فيها بضعة أشهر . ثم استقل سفينة مسيحية من عكا فنزل بصقلية . وفي نيسان / ابريل من عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م . وصل الى غرناطة بعد غيبة دامت أكثر من عامين . وقد سجل اثناء رحلته هذه يوما بيوم مشاهداته وانطباعاته عن المدن والبلدان والشعوب التي تعرف عليها ، مما جعل رحلته سجلا أميناً للاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لاقطار البحر المتوسط الاسلامية، فضلا عما تميزت به من وصف حي للمدن وعن اشارات تاريخية وطبوغرافية ومناخية . وقد ذاعت شهرة هذه « الرحلة » بين المتأدبين ، واقتبس منها العديد من الرحالة والمؤرخين . كذلك اعتبرت من قبل المستشرقين أفضل نموذج لادب الرحلات في الجغرافية العربية ، بل ان ابن جبير اعتبر الاب الشرعي لهذا النمط من الكتابة الادبية الجغرافية العربية . وبالرغم من ان عنوان « الرحلة » الاصلي هو « تذكرة الاخبار عن اتفاقات الاسفار » فقد اشتهرت باسم « رحلة ابن جبير » . وقد توفي ابن جبير في الاسكندرية في عام ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م .

عبد اللطيف البغدادي

هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، وهو موصلي الاصل بغدادي المولد . ولد في بغداد في عام ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م. ودرس على يد علمائها الادب والكيمياء والطب ، ثم أكمل دراسته على أيدي علماء الموصل ، ولم يلبث ان توجه الى دمشق ثم الى القدس ، ثم رحل الى مصر واقام فيها ردحاً طويلا . وقد وصفه كراتشكوفسكي بانه كان جم المعرفة ضاربا في جميع فروع العلم بهمة ، كما كان عالماً دقيق الملاحظة ، فهو بهذا يمثل طراز العالم المحقق الذي يتوق الى المعرفة الايجابية مع ميل واضح الى التجربة العلمية . وقد زاول مهنة الطب ، كما اشتغل بحاثه في العلوم الطبيعية أيضاً . وظل يتنقل بين مصر ودمشق والقدس مشتغلا بالطب اضافة الى ابحاثه . واشتهر في ميدان البحث الجغرافي بكتابه المعنون (الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر) . وينقسم الكتاب الى قسمين :

يتناول القسم الاول دراسة جغرافية مصر النباتية والحيوانية والاقليمية ، مع الاهتمام بآثار مصر القديمة . وتظهر روح المقارنة والبحث العلمي واضحة في هذا الجزء . ويتناول القسم الثاني شرح نهر النيل ومنبعه وأثره على الحياة الاقتصادية . كما عني أيضاً بالتحدث عن الوباء والقحط اللذين اجتاحا مصر عام ٥٩٧ هـ / ٥٩٨ هـ ـ ١٢٠٠ م / ١٢٠٢ م . وما رافقهما من نكبات ومآس . وقد توفي عبد اللطيف في بغداد عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م .

ابن سعيد

هو أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي . ولد في غرناطة عام ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م. وتلقى العلم في اشبيلية ، ثم تهيأ له ان يتنقل في ارجاء العالم الاسلامي على نطاق واسع . فزار شمال افريقيا ومصر والشام ، وأقام في الموصل وبغداد والبصرة . كما رحل الى حلب ودمشق ومكة . ويعتبر ابن سعيد من أخصب الكتاب انتاجاً في مختلف حقول الادب والتاريخ والجغرافيا . ومن جملة مؤلفاته (المشرق في حلى المشرق) و (المغرب في حلى المغرب) و (النفحة المكية في الرحلة المكية) و (كتاب جغرافيا الاقاليم السبعة) الذي نال به شهرته في ميدان الجغرافيا . ويعتقد بعض الباحثين ان ابن سعيد قد اعتمد على الادريسي اعتماداً كبيراً في مادته الأساسية وفي تبويبه . ومع ذلك فقد حفل كتابه بمعلومات طيبة عن اوروبا الغربية ، ولا سيما فرنسا وهنغاريا . كما اشتمل كتابه أيضاً على معلومات عن الصقالبة الغربيين سكان سواحل بحر البلطيق ، وعن الروس سكان سواحل بحر آزاق ونهر الدون ، وعن الشعوب القاطنة الى الشمال والشرق من جبال القوقاز كالبرطاس والقز والقومان والقبجاق . وقد توفي ابن سعيد في دمشق سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٧٤ م .

الهروي

هو أبو الحسن علي بن أبي بكر ، وقيل أبي طالب ، بن علي الهروي الموصلي . ولد في الموصل وعاش في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) . وقد اشتهر بكثرة اسفاره حتى لقب بـ (السائح) . وكان هدف الهروي الاساسي دينياً ، وكان همه الاول زيارة أضرحة الاولياء والمقامات . وقد طاف في بلاد الشام والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وغيرها من جهات البحر المتوسط ، كما زار القسطنطينية أيضاً . وقد سجل مشاهداته وملاحظاته في (رحلته) التي اشتهرت بعنوان (الاشارات

الى معرفة الزيارات) ، والتي لم تكن معلوماتها الجغرافية ذات أهمية تذكر . وقد توفي في حلب عام ٦١١ هـ / ١٢١٥ م.

زكريا القزويني

هو جمال الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود الملقب بالقزويني نسبة الى البلدة التي ولد فيها (قزوين) في عام ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م. وهو ينحدر من أسرة عربية استوطنت ايران منذ عهد طويل . وقد رحل الى دمشق في صدر شبابه ودرس الفقه على أحد أئمة الصوفية ، ثم هاجر الى العراق وتولى منصب القضاء في واسط والحلة في عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين .

وقد اشتهر القزويني بكتابيه الجغرافيين (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) و (أخبار البلاد وآثار العباد) . ويمثل القزويني في هذين المؤلفين الاتجاه الجديد الذي ساد الجغرافية العربية في أواخر عهدها وهو الذي سمي بالاتجاه العجائبي والذي كان أبو حامد الغرناطي رائده الحقيقي والقزويني خليفته الشرعي . ويمثل هذا الاتجاه بداية انحدار الجغرافيا العربية وتغلب الاسطورة فيها على العلم ، والتركيز على الظواهر الغريبة طبيعية أو حيوانية أو نباتية أو بشرية والتي تخرج عن حدود العلم والمنطق .

ويشتمل كتابه (عجائب المخلوقات) على قسمين : الاول ويكاد يكون فلكياً بحتاً يتعرض فيه لدراسة الكواكب السيارة والقمر والشمس والنجوم وسكان السماء والملائكة والنيازك والشهب . والثاني ويتناول فيه وصف الارض عامة وما يوجد على سطحها كالجو والماء (بحار وبحيرات وانهار وينابيع) واشكال سطحها كالجبال والمعادن والنبات والحيوان والانسان .

أما كتابه الثاني (أخبار البلاد) فقد تحدث فيه عن أقطار المعمورة بعد أن قسمها الى سبعة أقاليم حسب التقسيم البطليموسي . وقد تناول الحديث عن جميع الجوانب الطبيعية والاقتصادية والبشرية لتلك الاقاليم مركزاً على الجوانب البشرية ولا سيما الاخبار التاريخية . ويتميز الكتاب بأخباره عن الاقطار الاوروبية اضافة الى الاقطار الاسلامية . وقد اعتمد فيه على مراجع عديدة للجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين السابقين .

أبو الفدا

هو أبو الفدا الملك المؤيد (أو الصالح) عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود

ابن ايوب، ويرتبط نسبه بالمظفر بن شاهنشاه ابن اخي صلاح الدين الايوبي . ولد في دمشق عام ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، وساهم في حروب عديدة ضد الصليبيين في صباه وشبابه . وكان آخر حياته نائباً لملك مصر الناصر محمد بن قلاوون على مدينة حماه . ولم تصرف أبا الفداء مهامه الادارية والسياسية عن الاشتغال بالبحث التاريخي والجغرافي الذي تمثل بكتابيه المعروفين (المختصر في اخبار البشر) وهو كتاب في التاريخ ، و (تقويم البلدان) وهو كتاب في الجغرافيا . وقد نال كتابه الجغرافي شهرة واسعة في أوروبا . وقد قال عنه المستشرق الفرنسي رينو Reinaud أن العصور الوسطى الاوروبية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به .

ولقد أتم تأليف مسودة الكتاب في عام ١٣٢١ م ، واعتمد فيه على العديد من المراجع السابقة . ومع أنه نقل مادته من عدد كبير من المؤلفات القديمة ، الا ان ذلك لا يغض من قيمة كتابه اذ أنه أضاف الى المادة المنقولة الكثير من المعلومات الجديدة . هذا فضلا عن تميّزه بحس نقدي جيد في عرضه لمعلومات الآخرين . وقد توفي في سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م .

الدمشقي

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي المعروف باسم (شيخ الربوة) . وقد ولد في دمشق سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م. وأمضى معظم حياته في مسقط رأسه دمشق اماماً بمسجد الربوة ، ولقب بالصوفي لميوله الصوفية . ولقد ألف عدة كتب اشتهر من بينها كتابه الجغرافي (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) . ويقف هذا الكتاب على قدم المساواة في أهميته بين المصنفات الكوزموغرافية الاخرى التي تتمثل بكتابات الغرناطي والقزويني ، اذ انه حذا حذوهما في الاهتمام بغرائب الكون وفي الميل الى الخرافات . غير انه الى جانب ذلك عالج مواضيع علمية بدقة كبيرة . ويفضله كراتشكوفسكي في أهميته على كتاب ابي الفدا ويقول انه ذو أهمية كبيرة من وجهة نظر التاريخ الطبيعي لانه يحفل بمعطيات وافرة في النبات والحيوان والمعادن وطبقات الارض . أما الكاتب الهندي نفيس أحمد فيقول عنه بانه يحفل باسماء كثيرة لمواضع جديدة لم تذكر في كتب من تقدموه ، وانه يعتبر مصدراً هاماً في مجال معرفة العرب بالهند الجنوبية حيث يقدم أكبر قائمة من اسماء الاماكن بهذا الخصوص . ويعتبر الكتاب أيضاً مصدراً أساسياً بالنسبة لجغرافية وتاريخ الشام وفلسطين بما اشتمل عليه من معلومات وافية في هذا الميدان .

وقد توفي الدمشقي في مدينة صفد من أرض فلسطين في سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م .

ابن بطوطة

هو شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي . ولد في مدينة طنجة عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م. وشب في مسقط رأسه في محيط ديني حتى بلغ الثانية والعشرين من عمره وتعلم شيئاً من علوم الدين والفقه . ولسنا نعرف شيئا عن أسرته وعن حياته في تلك الفترة الا لمحات خاطفة . وما ان بلغ الثانية والعشرين من عمره حتى شد الرحال وظل يجوب أقطار الارض ، ولم يعد الى موطنه حتى أشرف على الخمسين . وقد زار خلال رحلاته معظم أجزاء العالم القديم المعروف ـ عدا القسم الأوروبي ـ مما حقق له تفوقاً على جميع رحالة القرون الوسطى ، ولا يكاد يدانيه في اتساع رحلاته سوى ماركو بولو MARCO POLO البندقي . وقد قدر ما قطعه في رحلاته بحوالى مائة وخمسة وسبعين الف ميل . ولقد ساح في جزيرة العرب شمالا وجنوبا وشرقاً وغرباً . فزار نجد والحجاز والبحرين وعمان وحضرموت واليمن . وطاف في أرجاء العراق ومصر وبلاد الشام وأقطار المغرب العربي وساحل أفريقيا الشرقي ، وتجول في بلاد فارس والاناضول واواسط آسيا وتركستان والحوض الادنى لنهر الفولغا . وكاد يشد الرحال الى شمالي سيبيريا لولا اعتقاده بقلة الجدوى في ذلك . ثم اتجه الى أقطار الشرق الأقصى فأقام في بلاد الهند زمناً ، ثم تجول بين جزر الساحل الجنوبي الغربي للهند ، ومكث ما ينيف على عام ونصف في جزر الملديف . ثم تنقل بين جزر الهند الشرقية وزار سرنديب والملايو . ثم رحل الى جنوبي الصين ، وربما تقدم في جولته حتى شماليها . ولما عاد الى موطنه بعد غيبة قاربت الثلاثين عاماً حنّ الى السفر ثانية فقام برحلة قصيرة الى الاندلس . ولم يكد يستقر في فاس بعض الوقت حتى عبر الصحراء الكبرى متجهاً الى السودان الغربي في مهمة رسمية ، ولبث يتجول في تلك الانحاء لمدة عامين . واستقر به المقام أخيراً في عاصمة الدولة المرينية في كنف السلطان ابي عنان المريني . وقد أقام ابن بطوطة في بلاط السلطان أبي عنان ما يقرب من عشرين عاما بعد عودته من رحلته الافريقية ، وتولى قضاء مدينة تامسنا . وفي اثناء ذلك كان السلطان المريني قد أمر كاتبه ابن جزي بتدوين مشاهداته في كتاب ، وهو الذي حمل عنوان (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار) والذي عرف باسم (رحلة ابن بطوطة) .

وقد لاقت رحلة ابن بطوطة الاهمال من قبل الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين الذين اتوا من بعده لما اعتور بعض اجزائها من الشكوك . كما انها لاقت نفس الاهمال من المستشرقين الاوروبيين في بداية الامر ، الا ان الاهتمام بها أخذ يتزايد منذ أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي ، حتى لقدحققت وترجمت وكتبت عنها الدراسات في معظم اللغات الاوروبية والشرقية . وقد توفي ابن بطوطة في عام ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م ، وقيل في عام ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م .

ابن خلدون

هو أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن المعروف بابن خلدون الاشبيلي الحضرمي . ولد في تونس عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . وقد درس على أيدي علمائها ، ثم بدأ حياته القلقة في سن مبكرة حيث عمل كاتباً ووزيراً وأميناً وقاضياً لعدد من الامراء في الاندلس والمغرب ، كما عمل قاضياً في مصر والشام . غير أن هذه الحياة السياسية المضطربة لم تمنعه من مزاولة نشاطه العلمي الجم . ولقد اشتهر ابن خلدون بكتابه المعروف بـ (مقدمة ابن خلدون) ، وهي مقدمة كتبها لمؤلفه التاريخي المعنون بـ (ديوان المبتدأ والخبر . . .) . ولقد نالت هذه (المقدمة) من الشهرة في الفكر الاوروبي ما لم ينله أي كتاب عربي آخر ، وترجمت الى معظم اللغات الاوروبية ، وكتبت عنها وعن مؤلفها الدراسات المستفيضة . ولقد بوأته تلك (المقدمة) مركزاً سامياً في الدراسات الاجتماعية والتاريخية والسياسية والجغرافية . أما ما يتعلق بجزئها الجغرافي فقد اشتملت عليه (المقدمة الثانية) التي وردت تحت عنوان (في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من البحار والانهار والاقاليم) . ويلي المقدمة الثانية (تكملة لهذه الثانية) بعنوان (في أن الربع الشمالي من الارض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك) . وتليها (المقدمة الثالثة) بعنوان (في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في الوان البشر والكثير من احوالهم) . وتشتمل المقدمة الخامسة أيضاً على بعض المواضيع الجغرافية ، ولا سيما ما يتعلق منها بجغرافية الاستيطان ، وقد حملت عنوان (في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من آثار في أبدان البشر واخلاقهم) .

ولقد تضمنت تلك المقدمات الاربع مختلف أنماط المعرفة الجغرافية التي وردت في كتب السابقين . واعترف ابن خلدون في ثنايا كتابته بانه استقى معلوماته من الجغرافيين

السابقين ، ولا سيما الادريسي وابن سعيد وياقوت ، كما انه رجع في بعض آرائه الى المؤلفات اليونانية والرومانية ، وخصوصاً مؤلفات بطليموس . ولا يعيب ذلك معلومات ابن خلدون الجغرافية لانه لم يكن فيها مجرد ناقل بل كان متفهماً ومدركاً وواعياً للمفاهيم الجغرافية على اختلاف اشكالها . ومع ذلك فقد اشتملت على الكثير من الآراء التي باتت تعتبر اليوم من الأسس الهامة في الجغرافية البشرية عموماً والجغرافية السياسية وجغرافية المدن على نحو الخصوص . غير اننا لا يمكن على أية حال أن نعتبر ابن خلدون أحد أساطين الجغرافية العربية ، فهو لم يكن جغرافياً أساساً ، بل كان مؤرخاً ومفكراً قبل كل شيء . وقد توفي في القاهرة سنة ٧٠٨ هـ / ١٤٠٦ م .

ابن ماجد

هو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن ابي الركائب النجدي . ولد بجلفار على الساحل الجنوبي من الخليج العربي في امارة رأس الخيمة الحالية ، ويبدو ان تاريخ ولادته كان في مطلع الثلاثينات من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) .

ولم يشتهر ابن ماجد كجغرافي ، بل كبحّار من أعظم البحارة القدماء الذين عرفهم البحر العربي والمحيط الهندي . وقد تلقّن ابن ماجد هذا الفن عن طريق ابيه الذي تلقاه بدوره عن جده . فأسرته اذن قد اشتهرت بقيادة السفن . وقد لقب ابن ماجد في عهده بـ (ليث البحر) لبراعته في ركوب متن البحار .

وقد اشتهر ابن ماجد بكتابه المعنون (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) الذي اشتمل على معظم المعلومات النظرية والعملية التي تهم الملاحين في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي وبحر الصين والذي ربما كتبه في حدود عام ١٤٩٠ م . ويعتقد بعض المؤرخين انه ربما كان نفسه الملاح العربي الذي استعان به فاسكودي غاما DE GAMA عام ١٤٩٨ م . في اكتشاف الطريق البحري المؤدي من شرقي أفريقيا الى الهند .

المراجع

١ ـ المراجع العربية :

ابن بطوطة ، شمس الدين أبو عبد الله
رحلة ابن بطوطة ـ منشورات المكتبة التجارية لمصطفى محمد بالقاهرة .

ابن جبير أبو الحسن محمد
رحلة ابن جبير ـ منشورات دار التراث العربي ببيروت .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد
صورة الارض ـ منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت .

ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله
المسالك والممالك ـ منشورات مكتبة المثنى لقاسم رجب .

ابن رستة ، أبو علي أحمد بن عمر
الاعلاق النفيسة ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن .

ابن خلدون ، عبد الرحمن
مقدمة ابن خلدون ـ منشورات المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة لمصطفى محمد .

ابن خلكان
وفيات الاعيان ـ طبعة القاهرة ١٣١٠ هـ (الجزء الاول) .

ابن فضلان ، أحمد بن عباس
رحلة ابن فضلان ـ تحقيق الدكتور سامي الدهان . منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٩ .

أبو سعد ، الدكتور أحمد

أدب الرحلات ـ منشورات دار الشرق الجديد ببيروت ١٩٦١ (سلسلة الفنون الادبية عند العرب) .

أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل

تقويم البلدان ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة رينو ودي سلان .

الأثري ، محمد بهجت

الجغرافيا عند المسلمين ـ مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد الثاني عام ١٩٥٢ .

أحمد ، نفيس

جهود المسلمين في الجغرافيا ـ (سلسلة الالف كتاب) مطابع دار القلم بالقاهرة (ترجمة فتحي عثمان) .

اخوان الصفا

رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ منشورات المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد ، القاهرة ١٩٢٨ (الجزء الثاني) .

الادريسي ، أبو عبد الله محمد

كتاب وصف افريقيا الشمالية والصحراوية ـ منشورات معهد الدروس العليا الاسلامية في الجزائر ١٩٥٧ .

وصف الهند وما يجاورها من البلاد ـ من كتاب نزهة المشتاق ، منشورات القسم العربي للجامعة الاسلامية، عليكرة ١٩٥٤ .

الاصطخري ، أبو اسحاق ابراهيم

المسالك والممالك ـ منشورات وزارة الثقافة القاهرة ١٩٦١ (حققه الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني) .

كتاب الاقاليم ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة باشراف ميلر .

البتّاني ، ابو عبد الله محمد بن سنان

الزيج الصابي ـ روما ١٨٩٩ .

البكري ! أبو عبيد الله

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة لدي . سلان ١٩٥٧ .

بلاشير ، ر ـ درمون ، هـ .

منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى ، باريس ١٩٥٧ (الطبعة الثانية) .

البيروني ، أبو الريحان محمد

القانون المسعودي ـ نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند ، حيدر آباد ١٩٥٤ .

الجاحظ ، أبو عمرو

كتاب الحيوان ـ الجزء السادس ، بيروت ١٩٦٩ ـ الطبعة الثالثة ـ (تحقيق عبد السلام هارون) .

حسن ، الدكتور زكي محمد

الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٥ .

الحموي ، ياقوت

معجم البلدان ـ طبعة داري صادر ـ بيروت ، ١٩٥٥ (الجزء الاول) .

حميدة ، الدكتور عبد الرحمن

أعلام الجغرافيين العرب ـ دار الفكرة دمشق ١٩٦٩ .

حوراني ، جورج فضلو

العرب والملاحة في المحيط الهندي ـ القاهرة ١٩٥٨ (ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر) .

خصباك ، الدكتور شاكر

ابن بطوطة ورحلته ، النجف ١٩٧١ .

الخوارزمي، محمد بن موسى

صورة الارض ـ نشر مكتبة المثنى عن طبعة لهانس فون مجيك .

الدمشقي ، شمس الدين أبو عبد الله

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة للمستشرق مهرن .

الراوي ، حبيب

المصادر اللغوية الجغرافية عند العرب ـ مجلة الجمعية الجغرافية العراقية ـ المجلد الثامن ـ حزيران ١٩٧٤ .

سهراب

عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة ـ نشر هانس فون مجيك ، فيينا ١٩٢٩ .

سوسة ، الدكتور أحمد

الشريف الادريسي في الجغرافية العربية (الباب الاول) ، منشورات نقابة المهندسين العراقية ، بغداد ١٩٧٤ .

السيرافي ، أبو زيد

أخبار الصين والهند .

شريف ، الدكتور شريف محمد

تطور الفكر الجغرافي ـ (الجزء الاول) منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٩ .

شوكت ، الدكتور ابراهيم

خرائط جغرافيي العرب الاول ـ مجلة «**الاستاذ**». المجلد العاشر ، بغداد ١٩٦٢ .

تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به ـ مجلة « الاستاذ » ، المجلد التاسع ، بغداد ١٩٦١ .

الاصطرلاب ، طرق وأساليب رسمه وصنعته ـ مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٧٠ .

صفي الدين ، الدكتور محمد

قشرة الارض ـ منشورات مكتبة مصر بالقاهرة .

الصياد ، الدكتور محمد محمود

من الوجهة الجغرافية ـ منشورات جامعة بيروت العربية ، بيروت ١٩٧١ .

ضيف ، الدكتور شوقي

الرحلات ـ (فنون الادب العربي) ـ دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٦ .

طوقان ، قدري حافظ

تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ـ القاهرة ١٩٥٤ (الطبعة الثانية) .

عبد الحكيم ، الدكتور محمد صبحي والليثي ، ماهر

علم الخرائط ـ مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

العمري ، ابن فضل الله

مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ منشورات دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٤ .

غلاب ، الدكتور محمد السيد

البيئة والمجتمع ـ الاسكندرية ١٩٥٥ (الطبعة الاولى) .

الفاسي ، محمد (المحقق)

رحلة العبدري ـ منشورات جامعة محمد الخامس بمراكش الفندي ، الدكتور محمد جمال الدين .

الغلاف الهوائي ـ القاهرة ١٩٦٤ .

فوزي ، الدكتور حسين

حديث السندباد القديم ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٣ .

القزويني ، زكريا محمد

آثار البلاد واخبار العباد ـ منشورات دار صادر ببيروت ، ١٩٦٠ .

القلقشندي ، أبو العباس احمد

صبح الأعشى ـ منشورات دار الكتب الخديوية ، القاهرة ١٩١٤ (الجزء الثالث) .

كراتشكوفسكي ، أغناطيوس

تأريخ الادب الجغرافي العربي (الجزء الاول) منشورات الجامعة العربية ، القاهرة ١٩٦١ (ترجمة صلاح الدين هاشم) .

المسعودي ، أبو لحسن علي

أخبار الزمان ـ منشورات دار الاندلس ، بيروت ١٩٦٦ (الطبعة الثانية) .

مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ منشورات المكتبة العصرية لصاحبها محمود حلمي ، بغداد ١٩٢٨ (الجزء الاول) .

التنبيه والاشراف ـ منشورات خياط ، بيروت ١٩٦٥ .

المقدسي ، أنيس

دائرة المعارف ، بيروت ١٩٥٨ .

المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٩٠٦ .

مؤنس ، الدكتور حسين
تأريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ـ مدريد ١٩٦٧ .

ميلي ، ألدو
العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ـ دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) .

نصّار ، الدكتور حسين (المحقق)
رحلة ابن جبير ـ مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٥ .

النويري ، شهاب الدين
نهاية الأرب ـ منشورات دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٩ (السفر الاول) .

الهروي ، أبو الحسن علي
الاشارات الى معرفة الزيارات ـ عنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل طومسين ، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٣ .

الهمذاني ، ابن الفقيه
مختصر كتاب البلدان ـ منشورات مكتبة المثنى عن طبعة ليدن لعام ١٨٨٥ .

الهمذاني ، الحسن بن أحمد
صفة جزيرة العرب ـ طبع في مدينة ليدن عام ١٩٣٨ .

وود ، الدكتور هـ .
الارتياد والكشف الجغرافي ـ منشورات دار المكتبة العصرية ببيروت ١٩٦٧ (ترجمة شاكر خصباك) .

اليعقوبي ،أحمد بن أبي يعقوب
كتاب البلدان ـ منشورات مكتبة المثنى لقاسم الرجب .

ب ـ المراجع الاجنبية

ALI , S. M.,
ARAB GEOGRAPHY , INSTITUTE OF ISLAMIC STUDIES , ALIGRAH 1959 .

AL — BIRUNI ,
INDIA , EDITED IN THE ARABIC ORIGINAL BY E. SACHAU, LEIPZIG 1925 .

KIMBLE , GEORGE H. T.,
GEOGRAPHY IN THE MIDDLE AGES , LONDON , 1938 .

GIBB , H. A. R.,
IBN BATTVTA TRAVELS IN ASIA AND AFRICA , ROUTLEDGE AND KEGAN , LONDON 1953 (3 RD IMPRESSION) .

SARTON , G.,
INTRODUCTION TO THE HISTORY OF SCIENCE , BALTIMORE 1946 .

RAIZ , ERWIN ,
GENERAL CARTOGRAPHY , NEW YORK 1948 .

الفهرس

هذا الكتاب

لا ريب ان الجغرافيين العرب مقصرون في دراسة التراث الضخم الذي خلفه لنا الأجداد في ميدان **الجغرافيا** . ولا يقع هذا التقصير على عاتق الجغرافيين فحسب ، بل على عاتق بقية المختصين في الدراسات الانسانية الأخرى . غير اننا نحن الجغرافيين نتحمل العبء الأكبر. فالموضوع من اختصاصنا وقد آن الأوان لأن نوليه قدراً أكبر من عنايتنا واهتمامنا .

ولعل مرجع هذا التقصير الى اعتقاد الكثيرين منا بأن الفكر الجغرافي العربي القديم ليس من اختصاصهم ، بل هو من اختصاص مؤرخي التاريخ الاسلامي . فالعديد من الجغرافيين العرب والمسلمين هم مؤرخون قبل أن يكونوا جغرافيين . ومع ان هذا القول صحيح الى حد ما ، الا أنه لا يعفي الجغرافيين من مسؤوليتهم ، فهم أولى من غيرهم في تقدير قيمة العلم الجغرافي العربي القديم ومدى اضافاته الى الفكر الجغرافي العالمي .

وقد تعزى لا مبالاة البعض منا الى اعتقاده بأن الجغرافيين العرب والمسلمين لم يساهموا مساهمة حقيقية في تطوير الفكر الجغرافي ، وكانوا وصافين أكثر منهم مبتكرين ، مما لا يتطلب بذل عناء خاص لدراسة آثارهم . ولسنا نريد بالطبع أن نخدع أنفسنا فنزعم بأن الجغرافيا العربية قد أتت بالعجب العجاب ، وأن الطابع العلمي المتقن هو صفتها المميزة ، فالحقيقة أنها قد اشتملت على الكثير من الأخطاء ونقاط الضعف والأساطير ، الا أن الدور الذي اضطلعت به في زمنها ، والانجازات التي استطاعت أن تحققها ، والآثار التي تركتها في الفكر الجغرافي الأوروبي الوسيط ، كل ذلك يكسبها قيمة كبيرة في تأريخ الفكر العالمي جديرة بالتمحيص والدراسة .

دار الحداثة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
ص.ب: ١٤٥٦٣٦ - تلفون: ٨٣٣٩٨٩ بيروت - لبنان